بنو رسول وبنو طاهر

وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما

٦٢٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٣١ - ١٥١٧ م

دكتور
محمد عبد العال أحمد
جامعة القاهرة



١٩٨٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣



بنو رسول وبنو طاهر

وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما

٦٢٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٣١ - ١٥١٧ م

دكتور محمد عبد العال أحمد
جامعة القاهرة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تتضمن هذه الدراسة، تاريخ اليمن وعلاقاتها الخارجية في عصر دولتي بني رسول وبني طاهر، وهي امتداد طبيعي لدراستي في الماجستير عن « دولة بني أيوب في اليمن » : وإن اختلفت أوضاع اليمن خلال تلك الحقبة عما كانت عليه زمن الأيوبيين، فقد استقلت بلاد اليمن في العصر موضوع الدراسة، وانقطعت تبعيتها المباشرة لمصر، وطرأ تطور واضح المعالم نتيجة لذلك على الأوضاع الداخلية، كان له أعمق الأثر في الدور المستقل لسلاطين هاتين الدولتين، وخاصة في مجال السياسة الخارجية.

وتتمثل أهمية الموضوع في جدته، فهو يمثل حلقة من سلسلة قليلة الحلقات في تاريخ منطقة هامة لم تحظ بنصيبها من الدراسة. وإذا كان البحث قد تناول بالدراسة الأحوال السياسية الداخلية، وعلاقات بلاد اليمن الخارجية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى، فليس من الشك في أن القصد من امتداد الفترة موضوع البحث إنما يهدف إلى تغطية فترة طويلة من تاريخ اليمن السياسي، أعقبت استقلالها عن مصر الأيوبية، وانتهت بتبعيتها المباشرة للعثمانيين. فهي فترة استقلت بحكم اليمن خلالها دولتان على التوالي: لعبت كل منهما دورا كبيرا في مجال العلاقات الخارجية، تعدى حدود المنطقة.

وكان طبيعيا أن يتركز الاهتمام أولا على دراسة الجانب التاريخي باعتباره الركيزة الأساسية التي يتحتم استيفاؤها، بسبب الفراغ الهائل الذي سببه إهمال البحث فيه، وعدم سابقة توفر دراسات حديثة يمكن أن يعول عليها. ويمكن القول بأن دراسة قطاع طويل من الجانب السياسي لتاريخ اليمن، من شأنه أن يوجه أنظار الباحثين إلى أهمية هذا الجانب، ويساعد

على فتح مجال هذه الدراسات على مصراعيه ، ويتيح الفرص ـ من ناحيـــة أخرى ـ لدراسة الجوانب المختلفة من تاريخ تلك البلاد ، وبوضح التفسيرات المناسبة والصحيحة لمتغيرات الجوانب الأخرى .

وقد اتسمت الفترة موضوع البحـث بكثرة الاضطرابات ، وتنـــوع الصراعات ، وانتشار الفوضى ، وافتقاد الاستقرار ، وتفتت الوحدة السياسية لليمن ، الأمر الذى أدى ـ بطبيعة الحال ـ إلى اشتغال سلاطين هاتين الدولتين فى حروب تكاد توصف بالاستمرار والتواصل . ولهذا فلم يكن فى الإمكان تجاهل تلك الأحداث ، أو تفادى الخوض فى متاهات الحـــروب الداخلية الكثيرة ، أو دراسة الحركات التى لا تكاد تخمد فترة حتى تشتعل من جديد . وكان من الضرورى تسجيل تلك الحوادث المعقـدة ، لأهميتها فى إيضاح الأحوال الداخلية لليمن، كمقدمة لبيـــان الآثار المترتبة عليها فى جميع مناحى الحيـاة المختلفة . ومع ذلك فقد روعى عدم الخوض فى التفصيلات الدقيقة ، بهدف التركيز ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، والاقتصار على الضـرورى بالقدر الذى يسمح بتصور الأوضاع الداخلية خلال تلك الفترة .

وفيما يتعلق بالمجال الخارجى ، فقد حاولت الدراسـة توضيـح الدور الخطير الذى لعبته بلاد اليمن سواء كان إيجابيا أو سلبيا ، وخاصة فى البحـر الأحمر، بحكم موقعها الهام على الطريق التجارى الرئيسى بين الشرق والغرب، وتحكمها فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، ويمكن القول بأن دراسة هذا الجانب قد ساعد على توضيح كثير من الأسس الرئيسية للسياسة التى انتهجتها كل من مصر واليمن فى البحر الأحمر خلال عصر دولتى المماليك فى مصر ، وكشف عن جانب هام من تاريخ اليمن كان مطـويا فى زوايا الاهمال والنسيان، واستكمل من غير شك دراسة الفترة المقابلة لتاريخ مصر والعالم العربى أواخر العصور الوسطى فيما بين نهاية الحكم الأيوبى والفتح العثمانى .

ويعتبر تاريخ اليمن الاسلامى ، أكثر تواريخ الإسلام صعوبة وتعقيدا، ويحتاج البحث فيه إلى تكثيل الجهود وتضافرها لابرازه . فلقد تعرض الكثير من مصادره للتلف والضياع نتيجة للحروب المتصلة والقلاقل الداخلية السائدة ، وكان هذا التراث يشكل هدفا للقوى المذهبية المتصارعة فى اليمن ، سنية كانت أم زيدية أو إسماعيلية ، كل يعمل على إتلاف مادونه الآخرون . كما كان لعدم العناية بهذا التراث وإهمال المحافظة عليه ، أو انتقال ملكية بعضه بالوراثة إلى من ليس أهلا بمعرفة قيمته ، أثره فى ضياع الكثير منه . أما ما تبقى فمتناثر ، يصعب التعرف عليه بأكمله ، أو تجميع شتاته، ذلك أن بعضه موجود فى البيوتات العلمية فى اليمن، ويحرص أصحابه على كتمان أمره، ولا يسمحون ـ بالاطلاع على بعضه ـ إلا نادرا، خوفا من الضياع أو المصادرة . أما مقتنيات المكتبات العامة فى اليمن، فمن الصعب الحصول على نسخ مصورة منها، لافتقار تلك المكتبات لمعدات التصوير الحديثة ؛ الأمر الذى استلزم الاطلاع عليها فى أماكنها ، وتصوير مايلزم تصويره منها ، والعمل فى نفس الوقت للحصول على ما يهم البحث من مخطوطات مصورة من المكتبات العالمية ، بالإضافة إلى الاطلاع على مقتنيات كل من دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية ومكتبات جامعتى القاهرة والاسكندرية ، ومكتبة بلدية الاسكندرية من هذه المخطوطات . وهى ما أرشدتنا إليها كتب فهارس هذه المكتبات والمؤلفات البيليوجرافية ، مثل كتاب كارل بروكلمان عن (تاريخ الأدب العربى) ، وغيره ، مما سهل عملية الافادة من هذه المصادر القليلة والمتناثرة .

ولم أكتف بالاطلاع على المصادر المحفوظة بدور الكتب بمصر أو الحصول على مصورات من دور الكتب العالمية، وإنما قمت برحلات ثلاث الى بلاد اليمن،

لم تكن قاصرة على مجرد الاستفادة الخاصة بالدراسة ، وإنما تعدت ذلك إلى الإسهام في تسهيل وتيسير الدراسات اليمنية على الباحثين .

فكانت أولى هذه الرحلات سنة ١٩٦٤ ، حيث أتيح لي خلالها الاشتراك في أعمال بعثة وزارة الثقافة والإرشاد المصرية - التي وصلت إلى صنعاء لتصوير المخطوطات اليمنية ، والقيام بترتيب وتنظيم وفهرسة وتصنيف مقتنيات الجامع الكبير بصنعاء والكتب المصادرة من مكتبات الأئمة والأفراد ، وإعدادها للاطلاع ، وانتقاء النادر منها لتصويره وإيداع تلك المصورات في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

أما ثاني تلك الزيارات ، فكانت في سنة ١٩٧٠ ، وفي اطار بعثة الجامعات المصرية التي توجهت إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لوضع أسس تجميع التراث اليمني ، والتخطيط لإقامة مكتبة قومية تضم هذا التراث في عدن. وقد زارت البعثة حسب برنامجها - بالاضافة إلى عـــدن عددا من مدن وقرى حضرموت حيث تنتشر المكتبات العامة والخاصة أو الموقوفة . وقد أنهت البعثة زيارتها بتقرير عن دراستها وتوصياتها لانجاز هذا المشروع .

أما ثالث الزيارات وأطولها ، فكانت أيضا لجمهورية اليمن الديمقراطية ، فبمناسبة إعارتي من جامعة الاسكندريه للعمل محاضرا للتاريخ الإسلامي بكلية التربية العليا في عدن خلال العام الجامعي ٧٢/ ١٩٧٣ ، دعيت أثناء ذلك لاستكمال دراسة مشروع تجميـــع التراث الذى سبق لبعثة الجامعات مجتمعة دراسته . وقد تمكنت قبل نهاية ذلك العام الدراسي من الانتهاء من إعادة دراسة المشروع على ضوء المتاعب التي واجهت التنفيذ ، والتقدم بتقرير متكامل لوزير الثقافة والسياحة اليمني عن (المراحل التنفيذية لمشروع تجميع التراث اليمني) ؛ استعرضت فيه أهم توصيات البعثة وما تم تنفيذه منها ، وما اعترض

الانجاز الكامل من عقبات متعددة ، والمقترحات التفصيلية التى تساعد على انجاز هذا العمل الكبير ، وقد نشر هذا التقرير بالمجلد العشرين من مجلة معهد المخطوطات بالجامعة العربية (مايو ١٩٧٤) . واسترشدت به بعثة المخطوطات التى أوفدتها الجامعة العربية سنة ١٩٧٦ إلى اليمن الديمقراطية ، كما كان أساسا فى المحادثات الثقافية بين اليمن الجنوبى وبين الدول والهيئات العلمية المهتمة بهذا المجال .

وقد أفادنى هذا الاحتكاك كثيرا فى التعرف على التراث اليمنى فى موطنه الأصلى ، أو فى المكتبات العالمية ، وتمكنت من الحصول على نسخ بالميكروفيلم لبعض مايتصل منها بهذه الدراسة . ولم تقتصر معالجة كافة نقاط البحث على مصدر واحد ، وإنما روعى مقارنة الأصل بغيره من المصادر المعاصرة أو المتأخرة تحقيقا للنصوص وبيان مدى اتفاقها ، ومناقشة ما اختلف المؤرخون فيه ، ومحاولة التوفيق بينها أو ترجيح أحداها أو التوصل إلى رأى خاص بشأنها مع تدعيم ذلك بالأسانيد .

وإذا كان البحث قد اعتمد على العديد من المصادر اليمنية ، فقد أسهمت غيرها من المصدر والمراجع العربية والأجنبية الأخرى فى استكمال وتدعيم كثير من نقاطه ، سيما ما يتعلق بدراسة العلاقات الخارجية ، ويتضح ذلك من مراجعة هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع المتنوعة الملحقة به .

وبعد ، فقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وبابين وخاتمة ، وقد تضمنت المقدمة بيان أهمية الموضوع ، والجهود التى بذلت فيه . وخصصت الباب

الأول لدراسة التاريخ السياسي لدولتي بني رسول وبني طاهر ، وقسمته إلى تمهيد وثلاثة فصول. أما الباب الثاني ، فقد خصصته لدراسة العلاقات الخارجية في عصر هاتين الدولتين ، وقسمته إلى فصلين . أما الخاتمة ، فقد تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها .

والكتاب في أساسه ، كان رسالة بعنوان « اليمن فيما بين نهاية الدولة الأيوبية والفتح العثماني ، دراسة في العلاقات السياسية الخارجية » حصلت بموجبها على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وكانت تحت إشراف عالمين جليلين هما :

الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية والكويت .

والأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية ومدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد .

وقد حظيت برعايته وعطف كل منهما ، واستفدت من علمهما ومنهجهما الكثير ، وإليهما يرجع الفضل في إرشادي وتوجيهي ، ولم يبخل أي منهما بعلمه ووقته وجهده ونصائحه .

ولما تمت إعارة الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد لجامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٣ ، ظل الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم خير ناصح ومعين ، وتولى سيادته الاشراف الفعلي ، وقام بمراجعة الرسالة في جميع مراحلها ، وظهرت بصماته واضحة فيها ، ولقي في سبيل ذلك كثيرا من المتاعب التي أثمرت هذا البحث ، الذي أرجو أن أكون قد تمكنت به من معالجة

تاريخ اليمن وعلاقاتها الخارجية ، العربية والدولية، خلال فترة تاريخية هامة.
وأن تكون هذه الدراسة جديرة باحتلال مكانتها فى المكتبة العربية .

والله التوفيق ،،

الاسكندرية فى ١٢ ربيع الأول ١٤٠٠
٣٠ ينـاير ١٩٨٠

دكتور محمد عبد العال أحمد
معهد البحوث والدراسات الافريقية

الباب الأول

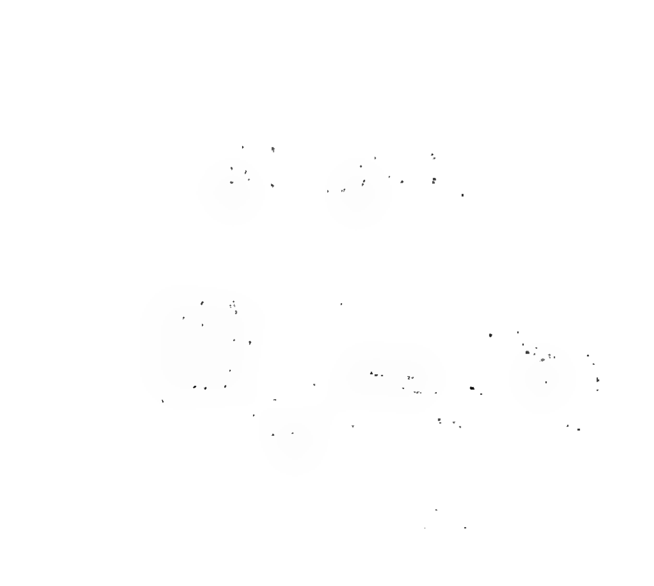
التاريخ السياسي

تمهيـــد : أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبي.

الفصل الأول : قيام دولة بني رسول على عهد مؤسسها نور الدين عمر بن رسول.

الفصل الثاني : دولة بني رسول بعد نور الدين.

الفصل الثالث : دولة بني طـــاهر.



تمهيد

أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبي

أصبحت بلاد اليمن منذ أسلم أهلها ، تشكل جزءا من الكيان السياسي للدولة الاسلامية . وارتبط تاريخها - منذئذ - بتاريخ تلك الدولة ، وظلت بلاد اليمن الموحدة تابعة للحكومة المركزية ، وتتابع عليها الولاة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية .

وذكر مؤرخو اليمن، أن اليمنيين أسلموا جميعا في حياة الرسول[1] صلى الله عليه الصلاة والسلام، وتلاحقت وفودهم على النبي [2] صلى الله عليه وسلم،

---

(١) الجندي ، يوسف بن يعقوب : السلوك في طبقات العلماء والملوك - مخطوط بمكتبة كوبريلي رقم ١٤٠٧، مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم (٧٧٦) - ص ٤٧ ، الخزرجي، علي بن الحسن: العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم(١٢٦٥ ب) ص ٦ ، العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اليمن ، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم (72 Kings College) ، مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية (بدون رقم) لوحة ٣٠ (أ)، الأهدل ، الحسين بن عبد الرحمن : تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن - مخطوط بمكتبة خدابخش بتنة مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم (٣٠٨٨) - لوحة ٢٧ ب .

(٢) ابن سمرة ، عمر بن علي : طبقات فقهاء اليمن - تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ - ص ٨ وما بعدها ، دكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي - بيروت ١٩٧٠ - ص ٥٤٨ .

وكانوا من الكثرة بحيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم: « أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان والحكمة يمانية »[1] .

وكان اليمنيون سريعي الاستجابة لداعي الجهاد، ففي عهد الخليفة أبي بكر توجه الكثيرون منهم - بكامل معداتهم - إلى المدينة للاشتراك في جيش المسلمين، وقيل انه بلغ عدد الواصلين منهم إليها ٢١ ألفا في يوم واحد، فأرسل الخليفة نصفهم إلى الشام، ووجه الباقين إلى العراق[2] . فكان أبناء اليمن في طليعة الجيوش الإسلامية في موقعتي اليرموك والقادسية وغيرهما، وأسهموا بنصيب كبير في الفتوحات الإسلامية، وقاموا بدور فعال في كثير من مراحلها، شرقا وغربا . وان الأسماء اليمنية التي أطلقت - على سبيل المثال - على كثير من قلاع الأندلس، ستظل شاهدة على الدور البارز الذي قاموا به، مثل قلعة همدان الواقعة بالقرب من غرناطة، وحصن مراد المعروف بين أشبيلية وقرطبة، وقلعة بني سعيد المشهورة في مملكة غرناطة[3] ، وقلعة خولان بين

---

(١) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، (الأهدل، محمد بن علي : نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون - القاهرة ١٩٢١ - ص ٢٥ ، الرازي ، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد : تاريخ صنعاء - مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٩٠٣، مصور بالفوتستات بمكتبة جامعة القاهرة (برقم ٢٦٠٥٧ لوحة ٢ « أ ») .

(٢) الجرافي ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، القاهرة سنة ١٩٥١ ، ص ٤٤ .

(٣) المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٩ جـ ١ ص ٢٧٦ .

الجزيرة الخضراء واشبيلية(١) وقلعة يحصب(٢) وغيرها من القلاع والحصون، كما أطلق على اليمنيين في الأندلس (البلديين أو أهل البلد)(٣)، لأنهم استقروا في تلك البلاد واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها(٤) . أضف إلى ذلك أن الجماعات اليمنية كانت تفوق غيرها من العدنانية عددا وقوة ، وقد ذكر المقرى أنهم « الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ »(٥) .

ومن الجدير بالذكر أن اليمنيين لم يقفوا موقفا سلبيا من الحركات الداخلية في العالم الإسلامى، بل قاموا بدور بارز فيها. ففى فتنة الأمصار التى حدثت فى خلافة عثمان، انقسم اليمنيون ــ وفقا لمنازلهم ــ إلى فريقين ، فريق يؤيد على بن أبى طالب، والآخر يؤيد معاوية(٦) . ومن المعروف أنه على الرغم من انبثاق الحركة من مصر ، فإن الرأس المدبر لها هو عبد الله بن سبأ الصنعانى، الذى استغل العناصر اليمنية الكثيرة التى كانت قد استقرت فى مصر منذ أن فتحها عمرو بن العاص، والتى بلغت عدتها فى الاسكندرية وحدها ٢٧، ألفا

---

(١) المقرى : نفس المصدر والجزء ص ٢٧٧ .

(٢) المقرى : نفس المصدر والجزء ص ٢٧٨ .

(٣) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول ــ مدريد سنة ١٨٦٧ ــ ص ٤٤ ، ٤٦ .

(٤) دكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ــ لبنان ١٩٦٢ ــ ص ١٢٠ .

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص٢٧٤ ، السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ص ١٢١ .

(٦) كان معظم المنضمين لمعاوية ينتمون إلى الأزد الغساسنة .

فى عهد معاوية (١) .

وإذا كان اليمنيون قد ناصروا على بن أبى طالب فى موقعتى الجمل وصفين، وكان لهم رأيهم المتحفظ من التحكيم ، فقد كان اختيار أبا موسى الأشعرى (اليمنى) سببا فى تعقد الأمور. وإذا كان على بن أبى طـالب قد اعتمد على بعض القبائل اليمنية، فإن قبائل يمنية أخرى قد ساندت معاوية بن أبى سفيان، حتى قيل أن قيام الدولة الأموية تم على أكتاف اليمنيين . كذلك آزرت اليمنية المروانية فى الشام ضد الزبيرية، وكان لذلك أثره العميق فى انبعاث الصراع بين العصبيتين اليمنية والقيسية، وهو صراع شمل العالم الإسلامى شرقا وغربا ، وكان من العوامل الرئيسية فى انهيار الدولة الأمـوية . كما كان فى الأندلس من الأسباب التى أدت إلى عبور عبد الرحمن الداخل وقيامة بتأسيس الدولة المروانية (٢) .

ومهما يكن من شىء فقد قصد الباحث من وراء تلك اللمحـة السريعة ، بيان أن اليمنيين لم يقتصر دورهم على المجال المحلى داخل بلادهم فقط ، وإنما كان لهم دور بارز فى حركة الفتوح ، كما أثروا وتأثروا بشكل فعال بالأحداث والصراعات الدائرة فى قلب الدولة الاسلامية . ولست بصدد تتبع حركة القبائل اليمنية وتفصيل دورها ، فذلك موضوع ضخم يحتاج لعـــدة دراسات لابرازه .

---

(١) المقريزى ، احمد بن على : البيان والاعراب عما بأرض مصر مـن الأعراب ، تحقيق فستنفيلد ، جوتنجن سنة ١٨٧٤ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص١٨١ ومابعدها .

وظلت بلاد اليمن تابعة للأمويين ثم للعباسيين من بعدهم . وتتابع عليها ولاتهم . وفى نفس الوقت استغلها الخارجون على الخلافه العباسية لتكون ملجأ لهم ، لبعدها عن مركز الخلافة ، وماتتميز به من طبيعة جبلية وعرة ، وحصون عالية منيعة ، يصعب الوصول إليها أو الانتقال فيما بينها ، الأمر الذى يجعل مهمة إرسال الامدادات من دار الخلافة غير ميسور . وإذا وضعنا فى الاعتبار انشغال ولاة العباسيين فى اليمن وتكريس جهودهم لتحصيل الأموال ، لتبين لنا إلى أى مدى كانت بلاد اليمن هدفا للخارجين على العباسيين لاسيما الشيعة منهم .

وهكذا يمكن القول بأن تاريخ اليمن بدأ يصطبغ منذ تلك اللحظة بلون الصراعات المذهبية ، مما كان له أكبر الأثر على الجانب السياسي فى البلاد. ولهذا لم تحظ بلاد اليمن بالاستقرار الذى نعمت به غيرها من الولايات الاسلامية الأخرى ، والذى كان من أهم عوامل تطور حياتها الحضارية، فحرمت بلاد اليمن من تلك الميزة الهامة فى كثير من مراحلها التاريخية التالية . وقد أتاح ذلك المجال للشيعة للقيام بنشر دعوتهم ، وبلغ من نشاطهم أن قيل بأن جبال اليمن تحولت إلى مذهب الشيعة ، أما سائر المناطق فقد ظلت على مذهب أهل السنة(١) وتمسكت به . ولقد كانت بلاد اليمن سنية ـ كبقية الأمصار ـ وكان الغالب عليها مذهب مالك وأبى حنيفة (٢) ، أما مذهب الشافعي ، فقد

---

(١) Hogerth (D.G.): A History of Arabia, Oxford, 1922, p. 90,
حسن ابراهيم حسن ، وطه شرف : عبيد الله المهدى إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ ـ ص٣٠٧.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤.

انتشر فى اليمن ـ من عدن إلى صنعاء ـ ابتداء من المائة الرابعة للهجرة (١).

وفى أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، بدأت القلاقل فى بلاد اليمن، فخرج الأشاعر (٢) فى وادى زبيد عن طاعة العباسيين (٣). كما ثار العلويون سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م بزعامة ابراهيم بن موسى العلوى المشهور بالجزار (٤)، فجهز إليهم الخليفة العباسي المأمون جيشا بقيادة محمد بن زياد (٥)

---

(١) ابن سمرة : نفس المصدر ص ٨٨، الجندى : السلوك فى طبقات العلماء والملوك ص ٦٨، الأهدل : تحفه الزمن فى تاريخ سادات اليمن لوحة ٥٤ «أ».

(٢) الأشاعر عرب من القحطانيين يقيمون بوادى زبيد. ومن أشهر رجالاتهم أبو الحسن على الأشعرى صاحب المذهب الذى يعرف أتباعه بالأشاعرة. Kay (H. C.) : Yaman, Its Early Mediaeval History).

London. 1892, p. 123);

(٣) عمارة، أبو الحسن نجم الدين الحكمى : تاريخ اليمن، تحقيق ونشر هنرى كاى، لندن سنة ١٨٩٢، ص ٢.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق سنة ١٢٨٤ هـ، جـ ٤ ص ٢١٢. حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، بغداد سنة ١٩٦٩، ص ١١٨.

(٥) يتصل نسب محمد بن زياد بعبيد الله بن زياد المعروف بزياد ابن أبيه الذى قام بدور رئيسى فى مقتل الحسين بن على. (ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٤ ص ٢١٣، القلقشندى، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى فى صناعه الانشاء، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ جـ ٥ ص ٢٧، Kay : op., cit., p. 219

استولى به على تهامة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م بعد حروب جرت بينه وبين العرب[١] واختط بها مدينة زبيد[٢]، واتخذها حاضرة لدولته[٣]. واتسعت دولة ابن زياد حتى شملت حضرموت وديار كندة[٤] والشحر[٥] ومرباط[٦] وأبين[٧] ولحج وعدن والتهايم إلى حلي ابن يعقوب[٨]، ومن جبال اليمن

(١) ابن عبد المجيد، تاج الدين عبد الباقي: بهجة الزمن في تاريخ اليمن ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم (٥٩٧٧ عربي) لوحة ١١ «أ».

(٢) عمارة: تاريخ اليمن ص٣.

(٣) بامخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب: تاريخ ثغر عدن، نشر أوسكار لوفجرين، ليدن سنة ١٩٣٦، جـ٢ ص ٢١٦.

(٤) ديار كندة من جبال اليمن مما يلي حضرموت وجبال الرمل، وقاعدتها دمون (ابن خلدون: العبر جـ٢ ص ٣٦٧، جـ٤ ص ٢٢٥.

(٥) تقع الشحر على ساحل بحر الهند بين عدن وعمان (ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي: معجم البلدان ـ القاهرة سنة ١٩٠٦ - جـ٣ ص ٢٦٣، ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن: مراصد الاطلاع، طبع القاهرة سنة ١٩٥٤، جـ٢ ص ٧٨٥) وتسمى ببلاد المهرة (ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٢٢٦).

(٦) مرباط، مدينة من مدن الشحر، تقع على الساحل بين عمان وحضرموت (ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ص ١٢٥٣) وهي على مسافة يوم ونصف يوم من ظفار (Kay op. cit. p. 223)

(٧) أبين، مخلاف ووادي مشهور في جنوب اليمن على البحر الهندي، وإليه تضاف عدن (ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٣٠٦).

(٨) حلي، مدينة مشهورة في اليمن، تقع على ساحل البحر الأحمر شمال تهامة، وتعرف بحلي ابن يعقوب، وبينها وبين مكة ثمانية أيام (عمارة: تاريخ اليمن ص ٤، القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ١٣).

أعمال المعافر (١) . والجند(٢) وأعمالها ، ومخلاف جعفر (٣)وصنعاء وصعدة ونجران(٤) وبيحان (٥) وواصل ابن زياد الخطبة لبني العباس (٦) .

ولما تعرضت الدولة العباسية للاضطرابات الداخلية بعد سيطرة الأتراك على الخلفاء العباسيين ، منذ عهد المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ /٨٣٣– ٨٤٢م)،

(١) المعافر ، من مخاليف اليمن بين ذبحان وجبا (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٧ «أ») واليه تنسب الثياب المعافرية (ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٩٢) وهو بلد واسع ذو مزارع وقرى (المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – ليدن سنة ١٩٠٦ – ص ٨٧) وهو من أشهر مخاليف الجبال والسهول الشرقية (الجرافي :المقتطف من تاريخ اليمن — القاهرة سنة ١٩٥١ ص ٧) ويعرف الآن بالحجرية .

(٢) الجند ، مخلاف معروف باليمن يقع إلى الشمال الشرقي من تعز (القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص١٤) وعلى بعد عشرين كيلو مترا منها (الويسي : اليمن الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٩) ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت مسكنا للجند (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ليدن ١٩٥١ — ١٩٥٤ ، ج ، ص ١٦٣) .

(٣) مخلاف جعفر ، وينسب إلى جعفر مولى ابن زياد مؤسس دولة بنى زياد باليمن سنة ٢٠٤هـ .

(٤) نجران ، مدينة عظيمة وولاية واسعة باليمن ، وهى من مخاليف اليمن شمال نجد (ابن المجاور :صفة بلاد اليمن جـ٢ص٢١١) من ناحية مكة (ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٢٥٨) .

(٥) بيحان ، مخلاف معروف باليمن (ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٧٨٢ وتقع إلى الجنوب الغربي من مأرب وإلى الشمال الشرقي من ذمار (الهمداني : صفة جزيرة العرب – ليدن ١٨٩١ – ص ٢٧، ٨٠، ٨٧، ١٣٤).

(٦) عمارة : تاريخ اليمن ص ٤ .

وكنتيجة لمقتل الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١ م) ، وموت المنتصر مسموما (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ - ٨٦٢م) ، وخلع المستعين(١) (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) ، استغل ابن زياد تلك الاضطرابات ، واستبد بملك اليمن وعظم شأنه ، وتوراث بنوه الملك من بعده ، واقتصرت التبعية للخلافة العباسية على الجانب الاسمي المتمثل في الدعاء للخليفة على المنابر .

لم يدم استقرار دولة بنى زياد طويلا ، فقد نشطت الدعوة الاسماعيلية ، وأصبحت بلاد اليمن منذ سنة ٢٦٨ هـ/٨١٩م مركزا لنشر تلك الدعوة . واستطاع الداعيان على بن الفضل الجدنى والحسن بن فرج بن حوشب - المعروف بمنصور اليمن - السيطرة على كثير من المناطق (٢) . كما نشطت الدعوة الزيدية

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ - القاهرة ١٣٠٣ هـ - حـ ٧ ص ٥٠ ، ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٠ ، د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي - الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٠ - جـ ٣ ص ٢ - ٩ ، د. احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسي والأندلسي - بيروت سنة ١٩٧٢ ، ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر ، الحمادى ، محمد بن مالك : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة - القاهرة سنة ١٩٣٩ - ص ٢١ وما بعدها ، الجندى : أخبار القرامطة - ملحق بكتاب تاريخ اليمن لعمارة - ص ١٣٩ وما بعدها ، ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٥ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٥ وما بعدها ، الخزرجى : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ لوحة ٤٨ ب ، حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن - القاهرة سنة ١٩٥٥ - ص ٣١ وما بعدها .

وقامت دولتهم فى اليمن على يد الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين (١) سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، وأصبح الصراع على أشده فى اليمن بين أتباع المذاهب الثلاثة ـ الاسماعيلى والزيدى والسنى (٢) ـ كل يعمـــل على توطيد دعائمه وتقويض الآخرين (٣) . وهكذا كان لذلك الصراع المذهبى ذى الطـابع السياسي ، أثره الكبير في انتشار الفوضي ، وانعدام الاستقرار ، وفقـدان الوحدة السياسية فى البلاد ، إلى انقسمت إلى أجزاء متنـاحرة (٤) . وقد ساهمت طبيعة البلاد الجبلية وضعف الخلافة العباسية وولاتها فى اليمـن ، فى

---

(١) انظر ، العلوى ، على بن محمد بن عبد الله العباسى : سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ـ بيروت سنة ١٩٧٢ ـ ص ١٧٢ وما بعدها ، عمـارة : تاريخ اليمن ص ١٠٥ ، نشوان بن سعيد الحميرى : الحور العين ـ القاهرة سنة ١٩٤٨ ـ ص ١٩٦ ، الصعدى ، بدر الدين محمد بن يوسف : مآثر الأبرار فى تفصيل مجملات جواهر الأخبار ـ مخطوط ملك الباحث ـ ورقة ٥٨ وما بعدهـا ، زبارة : محمد بن محمد بن يحيى الحسنى : أئمة اليمن ـ تعز سنه ١٩٥٢ ـ ص ٨ وما بعدها ، الجرافى : المقتطف ص ١٠٤ وما بعدها ، محمد عبد الله ماضي : دولة اليمن الزيدية ـ بحث فى المجلة التاريخية المصرية ، العدد الأول من المجلد الثالث ، مايو سنة ١٩٥٠ ـ ص ٢٥ وما بعدها

Kay : Yaman, p. 226.

(٢) الصعدى : مآثر الأبرار ورقة ٦١ «أ» .

(٣) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢٦ .

(٤) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ـ رسالة ماجستير ، آداب اسكندرية ١٩٦٨ ـ ص ٢٤ .

التوصل إلى ذلك الموقف الخطير . ويمكن إجمال الصراع المذهبى فى اليمن إلى نهاية الدولة الأيوبية ، وتحديده فى أربع مراحل رئيسية .

فالمرحلة الأولى ، وتبدأ فى أعقاب انتشار المذهب الاسماعيلى ، وقيام الامامة الزيدية فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكانت هاتان القوتان ـ الاسماعيليه والزيدية ـ تستهدفان إقامة دولة موالية لأهل البيت ، وتتطلع كل منهمـا الي أن تكون هى المؤسسة لتلك الدولة ، باعتبارها أحق من الأخري بذلك . فلما تحقق لكل من القوتين قيام دولته ، تطورت المنافسة بينهما إلى صراع من أجل الانفراد بالامامه والحكم ، وأدى ذلك إلى عجز تلك القوى الشيعية عن التعـاون للصمود أمام القـوى السنية المتداعية ، وأعنى بها دولة بنى زياد . وقد ساعد هذا الصراع المتشابك بين تلك القوى إلى إضعافها جميعا ، فسقطت الدولة الاسماعيلية بعد وفاة منصور اليمن سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، وعلى بن الفضل بعده بعام . أما الزيدية ، فقد فتر نشاطهم وقنع إمامهم بالبقاء فى هدوء فى قاعدة دولته صعدة (١) .

أما المرحله الثانية من مراحل الصراع المذهبى ، فتبدأ بسقوط دولة بنى زياد فى زبيد سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م، وقيام دولة بنى نجاح السنية على أنقاضها . وتتميز تلك المرحلة بعودة النشاط الشيعى من جديد ، حيث استطاع الداعى الاسماعيلى على بن محمد الصليحى إقامة الدولة الصليحية سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م، وأن يتخذ من صنعاء حاضرة لدولته (٢) . وكان طبيعياً أن يدخل فى صراع

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ١٢ وما بعدها .

(٢) انظر الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٢ وما بعدها ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٢٢ وما بعدها ، ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن لوحة ٢٤ وما بعدها ،ـ

مع دولة بنى نجاح السنية ، وأن يؤدى الصراع المستمر بينهما إلى اضعافهما معا . فسقطت الدولة الصليحية سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٢م وتوارث ملكها دولة بنى زريع في عدن (١) وبنى حاتم في صنعاء (٢) . أما دولة بنى نجاح فقد انهكتها

= الخزرجي : المسجد ص ١٣٠ ومابعدها ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ١٣٧ ومابعدها ، العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولي ملك اليمن من ملك وإمام — القاهرة سنة ١٩٣٩ — ص ١٥ ومابعدها ، الواسعي: تاريخ اليمن — القاهرة سنة ١٩٤٧ ص ١٥٣ ومابعدها ، حسن سليمان محمود : الصليحيون وعلاقاتهم بالفاطميين — رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، الملكة أروى سيدة ملوك اليمن — القاهرة بدون تاريخ — علاقات الفاطميين بالدول الاسلامية — رسالة ماجستير بجامعة القاهرة — ص ٧٨ ومابعدها ، حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن .

Lane-Poole (st.), The Mohammadan Dynasties, Paris, 1925, P.92, The History of Egypt in the Middle Ages, London 1936. pp. 202 -203

(١) انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٤٩ ، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ١ ص١٢٣ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن — لوحة ٢٦ ب ، الخزرجي: المسجد ص ١٠٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٤١ ، محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى في جزيرة العرب — القاهرة سنة ١٩٦٤ — ص ١٠٢ .

Lane-Poole: The Mohammadan Dynasties, p. 97, Kay: Yaman, p.268

(٢) انظر ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٢٩ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٣٧ ، المسجد ص ٩٧ ، ابن رسول ، الملك الأشرف اسماعيل : فاكهة الزمن — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩ تيمور ص ١٨٠ ، يحيى بن الحسين : ابناء الزمن من تاريخ اليمن — مخطوط =

الحروب ضد الصليحيين والمنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم توالى على حكمها ملوك ضعاف ، لايملكون من رسوم الملك سوى ذكر أسمائهم فى الخطبة بعد الخليفة العباسي، ونقش السكة ، والركوب بالمظلة فى المناسبات. أما الأمر والنهي والتدبيرفقد استأثر به عبيدهم الذين قاموا بأمرالوزارة لهم[1] إلى أن سقطت دولتهم سنة ٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م .

أما المرحلة الثالثة ، فتبدأ بظهور على بن مهدى وتأسيس دولته[2] على

= بدار الكتب المصرية رقم ١٢٤٧ تاريخ ص٥٢، الشرفى، احمد بن محمد بن صلاح : اللآلى المضية فى أخبار أئمة الزيدية — مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم ١٠٨ — جـ٢ ورقة رقم ١٣١ العرشي : بلوغ المرام ص ٢٩ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص١٦٦ ، حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون ص ٢٣٩ .

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٦ ومابعدها .

(٢) انظر، عمارة : تاريخ اليمن ص ٩٢، ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٧ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ورقة ٤٢ب ، ابن الوردى ، عمر بن المظفر : تاريخ ابن الوردى — القاهرة ١٢٨٥ هـ — جـ ٢ ص٦١ ، ابن رسول : الملك الأفضل عباس : نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ، الخزرجى : العسجدص١٥٦، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٥٥ب ، القلقشندى : صبح الأعشي جـ٥ ص٢٩، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار وروضة الأخبار فى ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز باليمن ص ٦ ، ابن الديبع، أبو عبد الله عبد الرحمن بن على : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد مخطوط مصور رقم ١١م تاريخ بدار الكتب المصرية ، =

أنقاض دولة بني نجاح سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م وكان ابن مهدى يشكل خطراً كبيراً على أهل السنة والشيعة على حد سواء بحيث فشلت دولتى بني زريع وبني حاتم الشيعيتين ، كذلك الامام الزيدى احمد بن سليمان في الوقوف أمام مطامعه . وأدى ذلك الصراع المستمر إلى انتشار الفوضي وعدم الاستقرار ، وانقسمت البلاد إلى أجزاء متناحرة مرة أخرى ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت وحدتها السياسية تماما(١) . فكانت منطقة تهامة المطلة على البحر الأحمر تشغلها دولتان، واحدة في المخلاف السليماني في الشمال وهي تحت حكم الأشراف من بني سليمان، والثانية دولة بني مهدى في زبيد وتمتد إلى حدود مدينة حرض شمالا. أما منطقة تهامة المطلة على المحيط الهندى فكانت تحت حكم بني زريع . أما منطقة جبال اليمن، فقام بها عدد من الدويلات ، فبلاد الجريب وما إليها من بلاد الشرف — وهي منطقة مطلة على تهامة — فكانت تابعة لأولاد عمر بن شرحبيل. أما ذمار وما إليها — جنوبي صنعاء — فلقبائل جنب، في حين كان بنو حاتم يحكمون صنعاء وأعمالها، وكانت شهارة — فيما بين صنعاء وصعدة — لبني القاسم بن علي العياني. وفي أقصى جبال اليمن شمالا كانت صعدة وأعمالها وهي للأشراف الزيدية أولاد

= ورقة ٩ « أ »، باخرمة : أبو محمد الطيب بن عبد الله : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ، جـ ٢ ص ٧٥٥، العبدلى ، أحمد فضل بن على : هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن — القاهرة سنة ١٣٥١ هـ ، ص ٦٣ ، العقيلى ، محمد بن أحمد عيسى ، المخلاف السليماني — الرياض سنة ١٣٧٨ هـ — جـ ١ ص ٦١ ،

Derenbourg (H.), Omara du Yémen, Sa vie et son Oeuvre, Paris 1897-1902, vol. 2, p. 566;

(١) محمد عبد العال احمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ٣٥ وما بعدها.

الإمام أحمد بن سليمان . أما بلاد الجوف ، والهضبة الشرقية فكانت للسلاطين آل الدعام [١] .

ثم تبدأ المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل الصراع المذهبي والسياسي من الفتح الأيوبي لليمن على يد تورانشاه بن أيوب ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، حيث تم القضاء على الدويلات المتصارعة في اليمن ، وتوحدت البلاد تحت الحكم الأيوبي [٢] بعد طول انقسام وشقاق .

ومع الفتح الأيوبي لليمن ، كانت الدعوة الاسماعيلية قد ضعفت ، وقل نشاط القائمين عليها نتيجة لصراع ابن مهدى مع أتباعها . فلما استولى الأيوبيون على اليمن وقضوا على دولتى بنى ذريع [٢] وبنى حاتم الإسماعيليتين ، تحول أتباع الدعوة إلى السرية حفاظا عليها .

أما الزيدية ، فكانوا قد أخلدوا إلى السكينة بعد وفاة إمامهم أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦ هـ / سنة ١١٧١ م واستمر أتباع المذهب الزيدى بغير إمام ،

---

(١) يحيي بن الحسين: أنباء الزمن ص٥٣، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ص١٠٨ .

(٢) انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن ص٤٩ وما بعدها ،

Scott : In the High Yemen p. 226. Kay : Yaman, Introduction, p. VII, Derenbourge : Oumara Du Yemen, vol. 2, p. 548, Arnold (T.W.) ; The Caliphate, Oxford, 1924, p. 85. Marin(M.): Histoire De Saladin, Sulthan D,Egypte et Syrie, Tome, I, p. 221. Lane-Poole (St.): A History of Egypt. London, 1936. p. 197, The Mohammadan Dynastics, p. 74, Saladin and Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898, p. 124.

(٣) Lane-Poole ; The Mohammadan Dynasties, p. 97.

ودون أن يصطدموا بالقوى الأيوبية إلى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م عندما قام بإمامتهم الإمام عبد الله بن حمزة (١) .

ومن الجدير بالذكر ، أنه على الرغم من القضاء على الدويلات السنية فى اليمن قبيل الفتح الأيوبى ، فقد ظل السواد الأعظم من شعب اليمن متمسكا بالمذاهب السنية ، التى ظلت سائدة معظم أرجاء اليمن طيلة حكم الأيوبيين ومابعده ، باعتبارها مذهب الدولة الرسمى . وهذا ما كان صلاح الدين يعمل على تأكيده فى جميع أنحاء دولته ، كما كان القضاء على المذاهب الشيعية من أهم أسباب استيلائه على اليمن ، إلى جانب ماحققه ذلك من تخليص اليمنيين من حكامهم الطغاة امثال ابن مهدى ، وتوحيد البلاد ، ووضع حد للصراعات الداخلية ، بالاضافة إلى عامل آخر فى غايه الأهمية ، وأعنى به تأمين الحدود الجنوبية لدولة صلاح الدين ، ولإحكام السيطرة على البحر الأحمر .

ولما استكمل تورانشاه فتح بلاد اليمن ، وأقر الأمور فيها ، أناب فيها نوابا له ، ثم غادرها - بعد أن أصبحت عملا له (٢) - متوجها إلى الشام لمعاونة أخيه صلاح الدين، وظل نوابه يرسلون له مايحصلونه من أموال . فلما توفى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م أستأثر نوابه بالسلطة ، وطمع كل منهـــم فى الاستحواذ على ملك البلاد (١) . وأمام الموقف المتأزم فى اليمن واضطراب

(١) محمد عبد العال احمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٥ .

(٢) العرشى : بلوغ المرام ص ٤١ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص ١٨١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ١١ ص ٢١٢ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار =

الأمور فيها ، واستمرار الفتن بين نواب تورانشاه ، خشى صلاح الدين أن تخرج البلاد عن السيطرة الأيوبية [١] . فعقد العزم على إعادة الأمور إلى نصابها ، ووضع حد للاضطرابات والفوضى ، ولهذا جهز حملة تأديبية لليمن بقيادة مملوكه صارم الدين خطلبا والي القاهرة [٢] مستهدفا استعادة السيطرة الأيوبية على البلاد ، وإصلاح ما اختل من الأمور فيها [٣] .

البشر ـ الآستانة سنة ١٢٨٦ هـ ـ جـ ٣ ص ٦٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ تاريخ ـ جـ ١٣ ص ١٥ ، الخزرجي المسجد ص ١٨٦ ، طراز الزمن فى طبقات أعيان اليمن ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٩٥٧ تاريخ ـ جـ ٢ ـ ص ٤٥٥ ، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ـ القاهرة سنة ١٩١١ ـ جـ ١ ص ٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩ ، العامرى : غربال الزمان فى وفيات الاعيان ـ مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ـ ص ١٧١ ب ، الشرفى : اللآلي المضية جـ ٢ ص ١٣٢ ب يحيى بن الحسين : انباء الزمن ص ٥٠ .

( ) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء ص ٢١٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، نشر الشيال ١٩٥٣ ، ـ ١٩٦٠ ـ جـ ٢ ص ١٠٤ .

(٢) ابن أيبك الدوادارى ، أبو بكر بن عبد الله : درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ـ مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٨٢٨ جـ ـ حوادث سنة ٥٧٧ ـ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ـ نشر الدكتور زيادة، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ ـ جـ ١ ص ٦٤ ، ص ٧٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ـ القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ جـ ٢ ص ٢٥ ، ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ تاريخ جـ ٧ ص ٥١ .

والحقيقة أنه على الرغم من بعد بلاد اليمن عن مسرح الصراع الأيوبى ، إلا أن أهميتها ظهرت بجلاء عندما تعرض البحر الأحمر لحملة أرناط (١) ، تلك الحملة التى لو قدر لها النجاح لكان قد ترتب عليها نتائج خطيرة . وكان من المأمول أن تتصدى القوة الأيوبية المرابطة فى اليمن لتلك الحملة ، غير أن الخلافات بين نواب تورانشاه لم تلبث أن نشبت من جديد بعد وفاة خطلبا . ولم تجد تلك القوات القيادة الرشيدة القيام بأعباء المواجهة لحملة أرناط ، ولهذا أسرع الملك العادل أبو بكر — أخو صلاح الدين — وأرسل حملة

---

(١) عن حملة أرناط ، انظر ، ابن جبير : رحلة ابن جبير — تحقيق حسين نصار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ص ١٢٦ ، ابن الأثير : الكامل حـ ١١ ص ٣٢٦ ، أبو شامة : الروضتين حـ ٢ ص ٣٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب حـ ٢ ص ١٢٧ ، ابن خلدون : العبر حـ ٥ ص ٢٩٩ ؛ المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٧٨ ، الخطط حـ ٤ ص ١٢٩ ، نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين — القاهرة سنة ١٩٥٧ — ص ١٤٠ ، السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين — القاهرة سنة ١٩٦٠ — ص ٦٩ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية . القاهرة ١٩٦٧ — حـ ٢ ص ٥٨.

Lane-Poole: Saladin, p. 125, Wiet (G.) : Histoire de la Nation Egyptienne (L'Egypte Arabe), Paris 1926, vol IV. p. 322, Kammerer : La Mer Rouge, La Caire 1929, Tome I, p. 60, Lamb (H.): The Crusades, The Flame of Islam, London, 1931, p. 59 Fuller (J.F.C.) : Decisive Battles. Their influence upon history & civilization, London, 1950, part I, p. 234, De Gaury (G.): Rulers of Mecca, London, 1951, p. 69, Reinaud ; Extraits des Historiens Arabes Ralatifs aux Guerres de Croisades, p. 178.

بحرية ، تمكنت من تحطيم قوة أرناط فى شـــوال سنة ٥٧٨ هـ / فـــبراير سنة ١١٨٣ م [١] .

وهكذا كانت حملة أرناط درساً استفاد منه صلاح الدين ، إذ تأكد له أهمية الدور الذى كان من الممكن أن تلعبه القوات الأيوبية المرابطة فى اليمن فى مثل تلك الظروف، لو أنها كانت تحت قيادة وسيطرة شخصية قوية . ولهذا جهز حمـــلة جديدة بقيادة أخيه الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ليتولى أمر السلطنة ببلاد اليمن ، ويحمى الحدود الجنوبية للبحر الأحمر . واستطاع طغتكين السيطرة على البلاد ، والقضاء على نفوذ نواب أخيه تورانشاه . ولم تقف جهوده على مجـــرد استرجاع السيادة الأيوبية على المناطق التى كانت تابعة للأيوبيين ، بل تعدت ذلك إلى فتح مناطق أخرى لم يكن قد فتحها الأيوبيون بعد [٢]. فأصبح طغتكين سيد البلاد بلا منازع ، وأطاعه جميع أهل اليمن ، وساد الأمن والاستقرار ربوع البلاد فى عهده ، فكانت فترة حكمه من أزهى فترات الحكم الأيوبى لليمن.

ومما يذكر أن الاتصالات كانت مستمرة بين صلاح الدين وسلاطين الأيوبيين فى اليمن أثناء حياته ، ولكن الوضع اختلف بعد وفاته سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م حيث انقطعت الامدادات إليهم ، وتحمل الأيوبيون فى

(١) أبو شامة . الروضتين جـ ٢ ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ص ١٢٩، سعيد عبدالفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٤٨ ب

اليمن عبء الاعتماد على أنفسهم بعد ذلك (١). وقد ظهر ذلك واضحا عندما اختلت الأمور بعد وفاة طغتكين سنه ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ، وانحراف خلفه المعز اسماعيل بن طغتكين ، وخروجه على المذهب السنى ، واساءته إلى الخلافة العباسية ، وانتسابه إلى بنى أمية وادعاؤه الخلافة . ولم يتحرك الملك العادل ، بل اكتفى بمجرد رسالة توبيخ أرسلها إليه (٢) ، ولم يعمل على إجباره على التخلى عن أفكاره ، ولم يقم بتدعيم الجيش الأيوبى بها بأية إمدادات عندما تعرض الانقسام نتيجة تصرفات المعز وإساءته إلى كبار قادة الأجناد ، مما أدى إلى تعرض الوجود الأيوبى فى اليمن لخطر محقق ، وخاصة بعد انضمام المنشقين منهم إلى الامام الزيدى عبد الله بن حمزة والتعاون معه ضد المعز إسماعيل (٣) . واستمر توقف الاتصالات بعد مقتل المعز سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م ، رغم أن الأمور كانت تسير من سىء إلى أسوأ فى عهـــد خلفه النـــاصر أيوب بن طغتـــكين الذى مات مسموما ســنة

---

(١) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٠٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ ، جـ ١٣ ص ١٥ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ ، مصور عن نسخة فينا ، جـ ٨ ص ٩٢ - ٩٣ ، العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ عن نسخة الآستانة ، مجلد ٥٢ ص ٢١٦ .

(٣) المحلى ، حميد بن أحمـــد : الحدائق الوردية فى مناقب الائمة الزيدية ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٨٧٥ تاريـخ ، جـ ٢ ص ٣٥١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١١٣ .

٦١١هـ/ ١٢١٤م بتدبير من وزيره بدر الدين غازى بن جبريل [١]، وبوفاته خلت اليمن من العناصر الصالحة للسلطنة من أسرة بنى أيوب، فقامت أم الملك الناصر أيوب بأمر الملك إلى أن تم التعرف على سليمان بن شاهنشاه بن تقى الدين عمر الأيوبى، الذى لم تكد أم الناصر تتأكد من صحة نسبته إلى الأسرة الأيوبية حتى نصبته سلطانا سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م، ولكنه أساء السيرة، فزادت الأحوال فى عهده سوءا، وقامت حركات العصيان ضده، وانتشرت الفوضى، وعمت جميع أرجاء البلاد [٢]. وأمام الانهيار الكبير الذى هدد بخروج اليمن عن السيطرة الأيوبية، واستجابة لطلب الخليفة العباسى الناصر أحمد بن المستضيء، جهز الملك الكامل محمد بن العادل ابنه المسعود يوسف فى حملة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م إلى بلاد اليمن لاقرار الأمور فيها [٣] واستمر حكم

---

(١) الخزرجى: العسجد ص ٢١١، طراز الزمن حـ١ ص ٤١٥، العقد الفاخر الحسن جـ٢ لوحة ٧٦ «أ»، بامخرمة: قلادة النحر حـ٣ ص ٧٢٠، تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٤، الشرفى: اللآلى المضية جـ٢ ص ١٣٤ «أ».

(٢) محمد عبد العال احمد: دولة بنى أيوب فى اليمن ص ١٩٨ وما بعدها.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٩، أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص ١٠٨، ابن الوردى: تاريخه جـ٢ ص ١٢٠، الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٧٣١١ إضافات، مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٣، لوحة ١١٢، ابن مظفر، محمد بن أحمد بن حمزة: الترجمان المفتح لثمرات كمائم البستان، مخطوط ملك القاضى حسين السياغى من علماء صنعاء، الجندارى، صفى الدين أحمد بن عبد الله: الجامع الوجيز فى وفيات العلماء أولى التبريز، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، لوحة ٧٤.

المسعود لبلاد اليمن حتى وفاته سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، فكان آخر ملوك بني أيوب في اليمن [١] .

وصفوة القول أن الحكم الأيوبي المباشر لليمن استمر قرابة الستة والخمسين عاما (٥٦٩ - ٦٢٦هـ / ١١٧٤ - ١٢٢٩ م) شغل الأيوبيون خلالها بحروب تكاد تكون مستمرة ، فمنها ما كان يستهدف الفتح أو استكماله ، أو القضاء على الفتن والحركات الداخلية المعادية ، ومنها ما كان ناتجا عن سوء سياسة بعض السلاطين ، وما تبع ذلك من انقسام في صفوف القوى الأيوبية ، مما أدى إلى انضمام الكثير من قادة الأيوبيين بجندهم للعمل في صفوف الامام الزيدي ، وما ترتب على ذلك من تهديد بزوال الوجود الأيوبي في اليمن ، كما حدث منذ بداية عهد المعز اسماعيل بن طغتكين [٢] . أضف إلى ذلك تلك الحملات التفقدية والتقليدية التي كثيرا ما كانت تأخذ الصفة الدورية أو المستمرة .

ولقد بعث الملك المسعود الأمل من جديد في حياة مستقرة باليمن ، إذ قام بعدة حملات أسفرت عن استقرار الأوضاع في البلاد . ولم يكتف بمجرد السيطرة على بلاد اليمن فحسب بل ضم مكة إلى سيطرته . وبلغ من درجة اطمئنانه أن كان يتردد على مصر لزيارة أبيه الملك الكامل ، كلما سمحت الظروف بذلك ، وهو أمر لم يسبق لغيره من سلاطين الأيوبيين في اليمن القيام به .

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، بغداد سنة ١٩٤٧ ص ٣٨ ، محمد عبد العال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن ص ٢٣٣ .

(٢) انظر ، دولة بني أيوب في اليمن ، ص ١٢٠ وما بعدها .

وكان الملك المسعود يعتمد على أبناء رسول كلما توجه إلى مصر ، فكانوا يتولون حكم البلاد نيابة عنه ، فبزغ نجمهم فى عهده ، وقاموا بأعمال بطـولية أثناء غيابه ، مما أوغر صـدور حسـادهم حقدا عليهم ، فوشوا بهـم الى الملك المسعود ، واتهموهم بالعمل على الاستقلال بالبلاد . فقام الملك المسعود بالقبض على أبناء على بن رسول وأرسلهم جميعا إلى مصر خوفا على الملك منهـم ، فيما عدا نور الدين عمر الذى شفعت له مكانته عند الملك المسعود فتركه وقـربه ، وأنابه عنه عندما توجه إلى مصر فى المرة الأخيرة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م بحيث توفى الملك المسعود فى مكة . واستمر نور الدين عمر بن على بن رسول نائبا عن الأيوبيين فى اليمن ، وأخذ منذ تلك اللحظة يمهد الطريق للاستيلاء عـلى البـلاد ، حتى نجحت جهوده وأعلن استقلاله بملك اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

الفصل الأول

قيام دولة بني رسول
على عهد مؤسسها نور الدين عمر بن رسول

ورث بنو رسول ملك اليمن عن الأيوبيين ، فكانوا نوابهم عليها فى عهد الملك المسعود يوسف بن الكامل آخر سلاطين الأيوبيين فى اليمن . وكان الملك المسعود قد استناب عنه نور الدين عمر بن على بن رسول فى حكم اليمن ، عندما عزم على التوجه لزيارة أبيه فى مصر سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ولكنه توفى أثناء توقفه فى مكة ودفن بها . فلما علم نور الدين ، خشى أن ينتدب الملك الكامل نائبا آخر بدله ، فسعى جاهدا لإثبات ولائه للملك الكامل ، حتى استطاع أن يحظى في النهاية بثقته ، وأن يستمر نائبا له فى حكم اليمن . فلما تحقق له ذلك ، عمل منذ تلك اللحظة على التمهيد للسيطرة على البلاد ، واستمر يعمل تدريجيا لتحقيق استقلاله بحكمها ، حتى تكللت جهوده فى النهاية بالنجاح ، فخلع طاعة بنى أيوب فى مصر ، واستقل بحكم اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م أى بعد مضى عامين فقط من وفاة المسعود يوسف .

١ ـ محاولات إسباغ الصفة الشرعية على حكم بنى رسول :

رأى بنو رسول أنه لا بد من العمل على إسباغ الصفة الشرعية على حكمهم

لبلاد اليمن ضمانا لاستمراره . وقد أورد بعض مؤرخي اليمن عـــددا من الروايات ، نقلها عنهم غيرهم ، منها مايتعلق بنسب بني رسول وإرجاعهم إلى أصل يمني ، ومنها ماهو منسوب إلى بعض الصالحين وتتضمن التبشير بقيام دولتهم في اليمن ، وثالث تلك الروايات ما نسب إلى الملك المســـعود نفسه ، مما يعتبر تنازلا منه عن حكم اليمن لنور الدين عمر بن علي بن رسول وأخيراً مايتعلق بالحصول على اعتراف الخليفة العباسي بقيام نور الدين بملك اليمن .

وبهذا يكون بنو رسول قد استندوا في قيـــام دولتهم على أصلهم اليمني باعتبارهم من أهل البلاد وليسوا أجانب عنها كالأيوبيين . كما استندوا على تنبوءات بعض الصالحين من أهل اليمن بقيام دولتهم ، وعلى أنهم لم يغتصبوا الحكم من الأيوبيين لأن ذلك آل إليهم بعد أن تنازل الملك المسعود عنه لأولهم قبل وفاته . وأخيراً يستند بنو رسول على اعتراف الخلافة العباسية استكمالا للصفة الشرعية، باعتباره ضرورة من ضرورات العصر، يستند إلى حق ثابت لهم.

أولا :ــ مشكلة انتحال بني رسول للنسب اليمني :

ينتسب نور الدين عمر بن علي – مؤسس دولة بني رســـول – إلى جده رسول ، وهو محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحى بن رستم الغساني الجفني المنجكي التركماني ، من نسل جبلة بن الأيهم [1] .

---

(١) هو جبلة بن الأيهم الغساني الذي يرتفع نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . (عن نسب بني رسول انظر ، الجنـــدي : السلوك ص ٤٥٢ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥١ (أ) ، الذهبي: سير =

وإذا كان من الثابت فى المصـادر اليمنية أن على بن رسول وأولاده قد توجهوا إلى اليمن صحبة الأيوبيين ، فقد كان لزاما على تلك المصـــادر أن توضح كيفية هجرة أجدادهم الأول من اليمن ، إذا كانوا يرجعون فعلا إلى أصل يمنى، مع إيجاد التفسير المقنع لعدم نسبتهم إلى التركمان ، ومع أن المصادر السابقة على الخزرجى قد اكتفت بنسبة بنى رسول إلى جبلة بن الأيهم -

---

= أعلام النبلاء جـ ١٢ ص ٢٦٣ ، الأفضل الرسولى : العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ - ص ٣٠ ب ، نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ ص ٢٧١ ب ، الأشرف الرسولى: طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب - تحقيق سترستين ، دمشق سنة ١٩٤٩ - ص ١٨ - ٢٨ ، ٣٩ - ٤٢ ، ٨١ - ٩٢ ، الخزرجى : العقـــود اللؤلؤية جـ ١ ص ١ - ٢٨ ، طراز الزمن جـ ٢ ص ٣٧١ ، الفـاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ، ص ٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون - مخطوط رقم ١٣٥٥ تاريخ بدار الكتب المصرية - ص ٢٦٥). أما عن سلسلة نسب جبلة بن الأيهم ، انظر (ابن واضح اليعقوبى : تاريخ ابن واضح - نشر هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ - جـ ١ ص ٤ ، الهمدانى : الاكليل ، الكتاب العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٦٨ هـ ، ص ٥ ، النويرى : نهاية الأرب - طبعة دار الكتب - جـ ٢ ص ٣١١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ٢٥٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣١٩ ، قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان - نشر الابيارى ١٩٦٣ - ص ٩٤ ، ٩٥ ، سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العـــرب قبل الاسلام - بيروت ١٩٧٥ - ص ٧٠ ومابعدها .

آخر ملوك الغساسنة بالشام (١) ـ واتصال هذا النسب إلى سبأ (٢) أو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان (٣) ، إلا أن الخزرجي

---

(١) كان الغساسنة عمالا للقياصرة على عرب الشام ، ويرجع سبب انتقالهم للشام إلى خوفهم من انهيار سد مأرب فتركوا موطنهم قبل انهيار السد أو بعده ، واستقر بهم المقام ببلاد الشام التى كان على ملكها سليح بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فاستولت غسان على البلاد ، وأخرجت سليحا منها ، وكان جفنة بن عمرو أول ملوك الغساسنة بالشام . (حمزة بن الحسن الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ـ برلين ١٣٤٠ هـ ـ ص ٧٧ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠ ـ ٢١ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ٩٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ص ١٩٥ ـ ١٩٨ ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ العرب ص ٢٠١ ـ ٢٢٠ .

(٢) قيل أنه سمى سبأ لأنه أول من سبى السبايا ؛ وكان له من الأولاد حمير وكهلان ، فلما أحس بدنو أجله ، قلد الأول الملك ، وخص الثانى بأمور الحرب ، وأعقب كل منهما بنوه فيما قرر له . ومما يذكر أن عامر بن حارثة الأزدى الكهلانى ـ المسمى ماء السماء ـ كان معاصرا للحارث الرائش الحميرى الذى نسب إليه الخزرجى قصيدة تنبأ فيها بأشياء كثيرة ، منها تولى بنى رسول ملك اليمن . (الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١ ـ ١٦) .

(٣) الخزرجى : طراز الزمن جـ ٢ ص ٣٧١ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ « أ » (يلتقى قحطان وعدنان فى جدهما عابر بن شالخ ، وكان لعابر ولدان ، هما هود وفالغ ، فهود أبو قحطان ، وفالغ أبو عدنان ومن ذريته ابراهيم عليه السلام ، ومن ابراهيم بنى اسرائيل وبنى عدنان من ذرية اسماعيل) الأشرف الرسولى : طرفة الأصحاب ص ١٠٨ (وبنو =

كان أول من اهتم بذكر كيفية خروج الغساسنة، باعتبارهم أجداد بنى رسول — من اليمن، ونزولهم بأرض الشام الجنوبية ، ثم تتبع هجرتهم من بلاد الشام حتى عودة محمد بن هارون (رسول) ، وانضمام ابنه على إلى الأيوبيين ودخوله اليمن صحبتهم ، وذلك دون أن يمدنا الخزرجى بأسماء المصادر التى اعتمد عليها فى ذلك .

وذكر الخزرجي [1] أن الغساسنة وغيرهم من قبائل الأزد تركوا بلاد اليمن عند خراب سد مأرب بسيل العرم، وتشتتوا وتبعثرت قبائلهم فى مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية وتخوم الشام والعراق ، فكانت المنطقة الممتدة من الجولان إلى البلقاء منزلا للغساسنة بعد تغلبهم على بنى سليح بن حلوان المعروفين بالضجاعم ، فحلوا محل الضجاعم فى خدمة الدولة البيزنطية ، وكان جفنة بن عمرو مزيقياء أول أمراء الغساسنة بالشام ، وتتابع خلفاؤه على حكمها إلى عهد جبلة بن الأيهم — آخر أمرائهم — الذى أدرك الاسلام ودخل فيه . بعد انتصار المسلمين على الروم ومنتصرة العرب فى وقعة اليرموك [2]، ثم حدث ماجعله يرتد عن الاسلام إلى دين النصرانية ، وتوجه

= رسول باعتبارهم من بنى جفنة ، أشهر قبائل الأزد — يمتون بصلة القربى لقبائل همدان ، ويتصلون بهم عند مالك بن زيد بن كهلان) الأشرف الرسولى : طرفة الأصحاب ص ٧ و ١٩ و ٢٥ و ٢٩ .

(١) العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠ — ٢١ ، القلقشندى: قلائد الجمان ص ٩٤ — ٩٦ .

(٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٧٦ ، =

فيمن وافقه من قومه إلى بلاد الروم . وظل فى بلاط هرقل فى القسطنطينية فى رغد من العيش حتى مات على دين النصرانية فى قول ، وقيل بل ندم على ماأقدم عليه ومات على الاسلام (١) .

أما بنو جبلة وقومه، فقد انتقلوا بعد وفاته إلى بلاد التركمان ، واستقروا مع قبيلة من أشرف قبائلها ، هى قبيلة منجك واختلطوا بها وتعلموا لغتها ، واستمروا معها (٢) إلى أن انقطعت أخبارهم عن كثير من الناس ، فنسبهم من لا يعرفهم إلى منجك من التركمان (٣) ثم كان دخولهم إلى العراق، واتصال

= المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ جـ ٢ ص ١٠٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ص ١٩٥ ، ١٩٧ و ٢٠٩ ، محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ـ ص ٣٢ و ٣٦ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ـ جـ ١ ص ٨٩ ـ ٩٠

EL-KHAZREJIYY (A.H.), The Pearl - Strings; A History of The Resuliyy Dynasty of Yemen : vol. III, The Annotations, by Sir J. W. Redhouse, p. 2, Note. 5

(١) الخـزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٧ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ٩٦ .

(٢) EL - Khazrejiyy : op. cit., p. 30, Note 165,

(٣) الخزرجى : العقـود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٧ ، العسجد ص ٢٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب .

رئيسهم محمد بن هارون بخدمة الخليفة العباسي . ويستطرد الخزرجي فيذكر، أن محمد بن هارون - جد مؤسس دولة بني رسول - كان رجلا جليل القدر عظيم الشأن من بيت شجاعة ورئاسة [١]، وله وجاهة عند الملوك، أنس اليه الخليفة العباسى ووثق به، فقربه إليه وأدناه منه، وسمح له بارتياد مجلسه بغير حجاب. وارتفع شأنه عند الخليفة حتى اختصه برسائله إلى الشام ومصر [٢] وإلى من يريد من الملوك، فى الأمور السرية التى يخشى تسربها ويحرص على كتمان تفاصيلها، لا سيما الشفوية منها، ذلك أن الرسائل المكتوبة قد يطلع عليها - ولو بعد حين - فيعرف القوم مالا يريد الخليفه نشره. ولهذا كان محمد ابن هارون يتحدث بلسان الخليفة وبغير رسالة مكتوبة منه، ويعود بالجواب شفاهة، اطمئنانا له وثقة بأمانته [٣].

وهكذا كانت هذه المنزلة الرفيعة التى توصل إليها محمد بن هارون عند الخليفة، سببا فى إطلاق لقب «رسول الخليفة» عليه. فشاع ذلك حتى شهر به وطغى على اسمه، فجهله الكثيرون ولم يعد يعرفه باسمه إلا القليل من الناس [٤].

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٢٧، ابن الديبع: قرة العيون ٦٥ ب.

(٢) الخزرجي: نفس المصدر والصفحة. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧١.

(٣) الخزرجي: المسجد ص ٢٢٣

(٤) الخزرجي: المسجد ص ٢٢٣ - ٢٢٤، العقود جـ ١ ص ٢٧، الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور - جـ ٣ ص ٣٩٣.

ويتضح لنا مما سبق أن المؤرخين اليمنيين قد عملوا على ارجاع نسب بنى رسول إلى أصل يمنى، واجتهدوا لاثبات أنهم من نسل جبلة بن الأيهم، الذى يرتفع نسبه إلى قحطان، الذى ينتسب إليه عرب اليمن جميعا (١) . وهؤلاء « الرسوليون » وإن كانوا غرباء قد وفدوا إلى اليمن فى صحبة الأيوبيين إلا أنهم ينتسبون إلى إحدى القبائل اليمنية العريقة ، مما يكسبهم الصفة الشرعية فى حكم بلاد اليمن، باعتبارهم من أبنائها .

مناقشة نسب بنى رسول :

واذا ماتطرق الباحث إلى مناقشة ماذكرته المصادر عن نسب بنى رسول، يتضح أن سلسلة النسب لم ترد كاملة . بمعنى أنها توقفت عند أبى الفتح بن يوحى بن رستم ، ثم قفزت طفرة واحدة ، قاطعة تسلسل النسب بعده مايقرب من خمسمائة عام، دون استكمال إلى جبلة بن الأيهم ، ثم إلى آخر سلسلة النسب المعروفة فى كتب الأنساب إلى آدم عليه السلام . ومما لاشك فيه أن وجود تلك الفجوة فى سلسلة النسب ، يجعل من الصعب تتبعه إلى جبلة بن الأيهم ، وفى نفس الوقت يستثير الشك فى صحة انتساب بنى رسول إلى الغساسنة ومن ثم إلى القحطانيين . ولو أن المصادر قد استكملت تلك الفجوة، لكان من السهل متابعة هذا النسب والتأكد من مدى صحته .

واذا كانت الرواية قد ذكرت أن ابن هارون (رسول) قد شهر بلقب « رسول الخليفه » إلى حد اغفال اسمه الحقيقى، بحيث لم يعد يعرف اسمه

---

(١) Kay : Yaman, pp. 215 – 216

ونسبه إلا القليل من الناس (١) ، فمعنى ذلك أنه كان فى الامكان استكمال سلسلة النسب عن طريق هؤلاء الذين كانوا على اتصال وثيق به ، ومن المحتم أنهم كانوا يعرفون اسمه الصحيح ، لتأكدهم من نسب محمد بن هارون ، وأنه من نسل جبلة بن الأيهم الذى مضى على اتصاله بهرقل قيصر الروم — وهجرة أبنائه من بعده إلى بلاد التركمان — مايقرب من خمسمائة وخمسين عاما إلى بداية العصر الأيوبى ، أو ستمائة عام إلى قيام دولة بنى رسول .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن ذكر النسب قد ورد فى مصادر متأخرة ، وأن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن نسبهم فى ثنايا الأحداث السابقة على قيام الدولة أو بعدها ، لتأكد لنا أن هذا النسب قد تم الاعداد له بعد قيام الدولة ، إذ أن أول مايقابلنا فيما يتعلق بذلك ما كتبه أحد سلاطين بنى رسول أنفسهم — وهو السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن على بن رسول ثالث ملوك بنى رسول (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٧ م) ، حيث ركز فى معرض ذكره لانساب العرب فى كتابه ، طرفة الأصحاب فى معرفه الأنساب ، على نسب أسرته باعتبارهم من نسل جبلة بن الأيهم . وقد نقل عنه غيره من مؤرخى اليمن كالجندى (ت ٧٣٢) وابن عبد المجيد (ت ٧٤٣) والسلطان الملك الأفضل (ت ٧٧٨) والخزرجى (ت ٨١٢) ، وقد ورد النسب فى كتبهم — فيما عدا الخزرجى — مجملا ، أما الخزرجى فقد زاد على سلسلة النسب بيان خروج أجدادهم — بعد سيل العرم — إلى الشام ثم القسطنطينية وبلاد التركمان وعودتهم إلى العراق ثم مصر ومنها إلى اليمن ، متتبعا بذلك هجرتهم وعودتهم ، لازالة عوامل الشك فى انتسابهم إلى الغساسنة ، وإثبات أصلهم اليمنى ، ولهذا يعتبر

(١) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٧ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٢٩٣ .

الخزرجي أول من أعطى هذه التفصيلات بل بلغ من اهتمامه ـ بالاضافة إلى ما أورده في كتاب « العقود اللؤلؤية » وفي غيره مثل « العسجد المسبوك » ـ أن أفرد مؤلفا خاصا سماه « المحصول في انتساب بني الرسول » (١) وهو كتاب مفقود .

وعلى ضوء ما سبق ، فإنه من المعتقد أن رواية النسب هذه ملفقة من أساسها ـ الأمثلة المماثلة في التاريخ كثيرة ـ أو على الأقل مشكوك في صحتها ، وأنها محاطة بظلال من الشك ، وتحتاج إلى الدليل القاطع على صحتها . ويؤكد ما توصلنا إليه ، أن المؤرخ اليمني بدر الدين محمد بن حاتم صاحب كتاب « السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن » والذي كان معاصرا للسلطان الرسولي المظفر يوسف بن نور الدين عمر ثاني سلاطين بني رسول ، ودخل في خدمته ، ذكر في مقدمة كتابه ، أن الدافع له على تأليفه يرجع إلى أنه لما لم « يكن أحد قد صرف همته إلى أخبار الغز باليمن وتخليدها في كتاب يتداول إلى آخر الزمن ، أحببت أن أكون السابق إلى ذلك » (٢) . وقد

---

(١) ألف الخزرجي كتابه « المحصول في انتساب بني الرسول » شرح فيه قصيدة نسبها للحارث الرائش الحميري الذي عاش في فترة ماقبل خراب سد مأرب ، وتنبأ فيها بما سيكون من الحوادث ، ومنها قيام دولة بني رسول ، وذكر الخزرجي أنه ألف هذا الكتاب لما شهد به من انتسابهم « وقل أن يوجد دليل على صحة نسب أحد من الناس كصحة هذا النسب » . الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢ ـ ٦

(٢) ابن حاتم ، بدر الدين محمد : السمط الغالي الثمن في اخبار الملوك من الغز باليمن ـ مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٤١ د ٢٧ إضافات ـ ورقه ١ (ب) محمد عبد العال أحمد : الفتح الأيوبي لليمن ص ١٤٦ .

تناول ابن حاتم فى كتابه، تاريخ الأيوبيين فى اليمن ومن جاء بعدهم من ملوك بني رسول إلى بداية سلطنة الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن على بن رسول ثالث سلاطين بنى رسول .

ويعتبر كتاب السمط المصدر الأول والأساسى لتاريخ بنى رسول فى فترة قيام دولتهم واستقرارها ، ولم يتعرض ابن حاتم لانتساب بنى رسول للغساسنة، بل على العكس فإنه يكون قد أكد نسبتهم إلى الغز ، وهم جنس من الترك ، منهم السلاجقة[1] . والغز أو الأغز أطلقها دوزى Dozy على الأكراد أيضا[2] . كما ذكر ابن خلدون أنه باستيلاء الأيوبيين على اليمن ، انقرض ملك العرب من اليمن ، وصار للغز (الأيوبيين) ومواليهم بنى رسول من بعدهم[3] . وهذا يعنى أن بنى رسول لا يمتون إلى أصل عربى ، وهكذا فإن انتسابهم إلى أصل يمنى يقصد به إثبات أنهم من أبناء اليمن مما يكسبهم الصفة الشرعية فى الحكم .

أما فيما يتعلق بمحمد بن هارون (رسول) ومغادرته بلاد التركمان دونه

---

(١) القلقشندى : قلائد الجمان ص ٢٨ ، سعد زغلول عبد الحميد : الترك والمجتمعات التركية عند الكتاب العرب وغيرهم . بحث بمجلة كلية آداب الاسكندرية ، المجلد العاشر ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، ص ١٦ .

(٢) انظر مادة (غز) فى ، Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes.

(٣) ابن خلدون : تاريخ اليمن ، ملحق بكتاب تاريخ اليمن لعمارة ؛ نشر Kay ، ص ١٢٠ .

سبب معروف إلى العراق، واتصاله فى بغداد بخدمة الخليفة العباسي ، فإننا إذا سلمنا جدلا بصحة هـذه الرواية نجـد أنها قد أغفلت ذكر تاريخ رحيله إلى العراق ، كما لم تصرح بإسم الخليفة العباسي المقصود والمدة التى عمل فيها رسولا له، وأسباب وتاريخ تركه خدمة الخليفة ـ بعدما بلغ هذه المنزلة الكبيرة عنده ـ وتوجهه إلى الشام ثم إلى مصر .

غير أنه اعتمادا على ماذكره الخزرجى نقلا عن صاحب السيرة المظفرية[١]، يتبين لنـــا أن بنى رسول كانوا فى مصر فى بداية عصر الدولة الأيوبية ، وباستخدام هذه الرواية بشيء من الحـذر ، يمكن القول بأن توجه محمد بن هارون من بلاد التركمان إلى العراق تم على وجه التقريب ولأسباب غير معروفة فى طليعة النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميـلادى) . وعلى هذا يكون الخليفة العباسى المقصود هو المستنجد بالله[٢] ، وأن مغادرته العراق حدث بعد وفاة الخليفة مباشرة أو قبـــله لأسباب تتعلق باحتمال عدم احتفاظه بمكانته المرموقة ، أو عـلى أكثر تقدير فى عهـد خلفه المستضيء ابن المستنجد[٣] ، وأنه لم يستمر فى خدمة هـذا الخليفة طويلا ولحق بالشام

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) هو الخليفة أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى (٥٥٥-٥٦٦ هـ) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحـاكمة فى التاريخ الاسلامى ـ ترجمة د . زكي محمد حسن وآخرون ـ القاهرة ١٩٥١ ، جـ ١ ص ٤) :

(٣) هو الخليفـة المستضيء بأمر الله بن المستنجد (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ، زامباور: المرجع السابق جـ ١ ص ٤ .

ومنها إلى مصر . وربمـا كان قد قصد خدمة نور الدين محمود بن زنكى فأرسله إلى صلاح الدين فى مصر (١) .

ولايزعم الباحث أنه بهذا التعليل قد توصل إلى إثبات صحة هذه الرواية، إذ يبقى من الضرورى تفسير نقطتين هامتين : ـ

أولاهما ، إيجـاد تعليل مناسب لأسباب عدم ذكر محمد بن هارون ـ اسما ولقبا ـ فى المصادر التاريخية أو كتب التراجم المعاصرة له ، رغم ما كان يتمتع به من شهرة كبيرة ، ومكانة مرموقة لدى الخليفة، فالمصادرقد تعودت الإشارة إلى أخبار من هم فى مثل مكانته ، وذكرهم بأسمائهم وألقابهم .

أما النقطة الثانية ، فتختص بما ذكر عن توجهه رسولا للخليفة إلى مصر ، وهـذا يعنى أنه كان قد ترسل إلى الفاطميين ، وهو أمر مستبعد ، لمـا هو معروف عن العداء المذهبي التقليدى بين الخلافتين .

وعلى هذا نرى أن هـــذه الرواية يشوبها الشك أيضا ، وتحتاج إلى مايدعمهـا لورودها فى المصادر اليمنية المتأخرة دون غيرهـا ، وبغير سند إلى مصادر معاصرة .

وصفوة القول أن ماذكرحول نسب بنى رسول للغساسنة هو محض ادعاء ليس له ما يدعمه، وأن ذلك قد بدأ نسجه متأخراً بعد قيام الدولة، وبتوجيه من ملوك بنى رسول أنفسهم . والمرجح أن ذلك تم فى عهـد السلطان الملك

---

(١) EL-Khazrejiyy : The Pearl - Strings, vol. 111, 3, P. 29, N. 162.

المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول - ثاني سلاطين بني رسول (٦٤٧ - ٦٩٤هـ) الذي ألفت برسمه السيرة المظفرية — وهي من المخطوطات المفقودة — والتي نقل عنها الخزرجي .

واستنادا إلى كل ما تقدم أرى أن بني رسول لا يمتون إلى أصل عربي ، وأن محاولة المصادر اليمنية المتأخرة نسبتهم إلى الغساسنة يقصد بها اكساب حكمهم الصفة الوطنية . وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى أصل تركماني ، وهو العنصر الذي كان يتكون منه ومن الأكراد معظم جيش صلاح الدين، والذين توجهوا إلى مصر صحبة أسد الدين شيركوه في أواخر عصر الدولة الفاطمية، أو ضمن الامدادات التي توالت تباعا على صلاح الدين لتدعيم سيطرته على مصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية .

٢ - التنبوء بقيام دولة بني رسول :

أما عن الروايات التي وردت بشأن التنبوء والتبشير بقيام دولة بني رسول، فهي متعددة ومنسوبة إلى شخصيات متنوعة .

وأول هذه الروايات ما ورد منسوبا إلى الحارث الرائش الحميري [1] .

---

(١) كان ملك الحارث الرائش لليمن قبل ظهور النبي (صلعم) بنحو ستمائة عام، وكان معاصرا لعامر بن حارثة الأزدي - جد جفنة بن عمرو مؤسس دولة الغساسنة بالشام - وقد ذكر الخزرجي أن الحارث الرائش كان محدثا - بفتح الدال المشددة - أي الذي يتحدث بمستقبلات الأيام، ويتنبأ بما سيقع فيها من الأحداث ، فتثبت الأيام صدق تنبوءاته، وقد نسب الخزرجي إليه قصيدة تنبأ فيها بمن سيملك اليمن من حمير بعده ، وما كان من تملك الحبشة لها ، =

فقد نسب إليه التنبوء بظهور بنى رسول الغساسنة وقيام دولتهم فى اليمن .
ويستدل على ذلك من بيت فى القصيدة يقول فيه :

ويظهر راية المنصور فيهم .. على خاء إذا نطقوا ولام[1]

والبيت المذكور فيه تصريح – فى شطره الأول – باسم المنصور (نور الدين عمر بن على بن رسول) ، وقد خصه بالاشارة والبشارة . أما الشطر الثانى ، فهو مبهم وغامض، ولكن يمكن حل رموزه باستخدام حساب الجمل . (فالخاء) طبقا لهذا الحساب تساوى ستمائة ، أما (اللام) فتساوى ثلاثين فيكون التفسير أن قيام دولة بنى رسول على يد المنصور (نور الدين عمر) فى سنة ٦٣٠، وهو تاريخ استكمال مظاهر استقلاله بملك اليمن وضرب السكة باسمه[2] .

وثانى هذه الروايات ، ما ذكره الخزرجى منسوبا إلى نور الدين عمر مؤسس الدولة ، من أن عفريتا من الجن بشره بالملك[3] .

= ومن ملك بعدهم إلى ظهور الدعوة المحمدية، والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، وقيام بنى رسول بملك اليمن . وهذه القصيدة هى التى شرحها الخزرجى فى كتابه « المحصول فى انتساب بنى الرسول » (الخزرجى : العقود ج١ ص ٢ – ٦) .

(١) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣ ، ٥ .

(٢) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٥ – ٦ .

(٣) قال الخزرجى، ومما يروى عن نور الدين عمر بن رسول قوله : وأمسيت ليلة من الليالى مهموما لعارض عرض لى ، فلما أخذت مضجعى ومضى نحو من شطر الليل، سمعت دويا فى الهواء ، فرفعت رأسى، وإذا عفريت يهرب =

وثالث هذه الروايات، ينسبها الخزرجي إلى بعض الصالحين الذين بشروا نور الدين بالسلطنة وأن ملك اليمن سيظل في ذريته إلى آخر الزمان (١) .

ورابع هذه الروايات ، نقلها الخزرجي عن صاحب السيرة المظفرية ، وتتعلق أيضا بالتنبوء بقيام دولة بني رسول واستمرارها إلى آخر الدهر (٢) .

= من الشواظ حتى حط نفسه عندي ـ وهو يلهث وكأنه معصرة من عظمه ـ فقمت من مضجعي وأخذت اداوة الماء فسكبتها في فيه . فلما اطمأن وزال عنه روعه قال، أسفر وأبشر يا أبا الخطاب بالملك من عدن إلى عيذاب ، ثم ذهب عني (الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٤ ـ ٤٥ العسجد ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٦٦ « أ » ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥) .

(١) ذكر الخزرجي أن ثلاثة من الصالحين توجهوا إلى نور الدين عمر عندما كان أتابكا للمسعود، فألقى أحدهم السلام عليه ، فرد عليه نور الدين، ثم سأله الثاني : « أنت الأتابك وغير ذلك ؟ » فقال ، وما غير ذلك ، فعقب الثالث بقوله : « سلطان اليمن ، وملكها من ذريتك إلى آخر الزمان» . (العقود اللؤلؤية جـ١ ص٤٥ ، العسجد ص ٢٢٥ ، العقد الفاخر الحسن جـ٢ لوحة ٦٦ «أ» ، باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥) .

(٢) تتلخص هذه الرواية في أن شيخين من مشايخ الصوفية الصالحين رأيا الملك المسعود عند دخوله اليمن بعد عودته من مصر ، وقبل سفره الأخير إليها . فسأل أحدهما الآخر عما إذا كان يرى ما يراه ، فاستفسر منه عما يراه ، فقال : « أرى شخصا إن سار ، سار العسكر جميعه ، وإن وقف ، وقف =

وخامس هـذه الروايات ، رواها الخزرجي أيضا ، وهي أن رجلا سمع هاتفا من الجن يبشر بزوال ملك الأيوبيين في اليمن (١) .

أما سادس هذه الروايات وآخرها ، فمأخوذة من الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر الحكمي، صاحب عواجة (٢) من بلاد وادي سهـام ، الذي بشر نور الدين عمر بالملك (٣) .

مناقشة الروايات الخاصة بالتنبوء والتبشير بقيام دولة بني رسول : ـ

وبمناقشة هذه الروايات ، نجـد أنه بالنسبة لتنبوء الحارث الرائش في القصيدة التي نسبها الخزرجي إليه، أن هذه القصيدة قد توقفت عند حد التنبوء بملك المنصور (نور الدين عمر) ، وقد ذكر الخزرجي أن القصيدة « ربما

= العسكر جميعه ، فقال له لعل ذلك المسعود ، فقال له : بل هو الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ، والملك في عقبه إلى آخر الدهر . (الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٥ ، العسجد ص ٢٢٥) .

(١) انظـر الرواية في الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٤٥ ـ ٤٦ ، العسجد ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٦٦ «أ» .

(٢) عواجة، بلدة من بلاد وادي سهام ، تقع إلى الشمال من مدينة الكدراء على خط عرض ٥ َر١٥° شمالا وخط طول ٢٠ َو ٤٣° شرقا تقريبا .

(EL — Khazrejiyy : The Pearl-Strings, vol. III, 3, p. 44, Note 255) .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٦ ، العسجد ص ٢٢٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٧٠ ب .

أنها أكثر من هذا »[1] . ويبدو أنه استدرك أن وقوف أحداث التنبوء عند هذا الحد قد يثير الشك حولها . ولو كان للقصيدة بقية لذكرها الخزرجي ، وخاصة إذا ما كانت هذه البقية تتعلق بأحداث تالية لعصر نور الدين والخزرجي ، مما يساعد على التأكد من صدق هذا القول أو زيفه ، إذا ما قورنت تنبوءاتها بما سيقع من أحداث بعد ذلك . ولكن ورود هذه القصيدة على يد الخزرجي متضمنة أحداث سابقة ، ودون إسنادها إلى مصدر سابق لهذا العصر ، لمما يؤكد أنها من وضع الخزرجي لانفراده بها .

أما الروايات الأخرى الباقية، فكلها تتعلق بالتبشير بقيام دولة بني رسول، وهذه الروايات جميعها تدخل فى عداد الأساطير ، ولم يكن الخزرجي منطقيا فيهـا ، أو على الأقل لم يعمل على تدعيمها وإسنادها إلى الأصل الذى استقاها منه . ولو كان الخزرجي معاصرا لقيـام الدولة لالتمسنا له العذر باعتباره من المعاصرين ، ولكنه متأخر عن هذا العصر بأكثر من قرن ونصف قرن . وهذا كله كاف لخلق جو من الشك حول هذه الروايات ، خاصة وأن أحـــدا من المؤرخين السابقين له لم يذكر من ذلك شيئا .

وهكذا تكون هـذه الروايات ـ شأنها فى ذلك شأن موضوع النسب ـ قد وضعت فى عصر متأخر على يد الخزرجي من أجل إسباغ نوع من الشرعية على حكم بنى رسول ، وتأكيد وتدعيم دولتهم فيها .

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣ .

٣ — إدعاء تنازل المسعود لنور الدين عمر : —

واستكمالا لنوعيات الروايات التي قصد منها إيجاد سند شرعي تستند عليه دولة بني رسول التي أولاها الخزرجي عناية خاصة ، فقد ذكر أنه لما استقر رأى المسعود يوسف — آخر سلاطين الأيوبيين في اليمن — على مغادرتها إلى دمشق ليتولى عليها بعدما استولى عليها أبوه عقب وفاة صاحبها المعظم عيسى ابن العادل الأيوبي [١] ، استدعى أتابكه نور الدين عمر ، وأبلغه بعزمه على السفر ، واستخلفه على نيابة اليمن[٢] ، وعهد إليه بالسلطنة بعد وفاته ، وأوصاه ألا يمكن أحدا من بني أيوب من البلاد[٣] ، وقال له : « فإن مت فأنت أولى

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان — حيدر أباد الهند ١٩٥١ — جـ ٨ ص ٦٥٨ ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، مصور عن نسخة كوبريلي بالآستانة ، جـ ٢٧ ص ٤١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ص ٤٠٣ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر الشيال ١٩٥٥ ، ص ٧٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة سنة ١٩٣٥ جـ ٦ ص ٢٧٢ ، الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب مخطوط — لوحة ٩٩ « أ » .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٤٩ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٣٧ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ ، الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤١٦٣ تاريخ ، ورقة ٣٩ ب .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، القاهرة ١٩٥٦ ، جـ ١ ص ٢٣٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٣ .

بملك اليمن من إخوتي ، لأنك خدمتني ، وعرفت منك النصيحة والاجتهاد -
وإن عشت فأنت على حالك ، وإياك أن تترك أحدا يدخل اليمن من أهلي ،
ولو جاءك الملك الكامل - والدي - مطويا في كتاب [1] . فإذا ألح عليك
أعلمني حتى أجتمع أنا وعمي الأشرف عليه ونحاربه ونشغله»[2] .

ولو صحت رواية الخزرجي لكانت وصية شرعية باستخلاف المسعود
لنور الدين عمر في حكم اليمن أثناء حياته؛ ووثيقة بتنازله له عن ملك اليمن ،
وعهداً له بتقلد عرش السلطنة بعد وفاته؛ وعلى هذا الأساس يتبرأ نور الدين
من تهمة اغتصاب ملك اليمن من الأيوبيين .

إلا أن المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم - وهو من أوائل من أرخ لبني
رسول - ذكر في كتابه [3] ، أن الملك المسعود لم يعرض نيابة السلطنة على
نور الدين في بداية الأمر ، وأنه أراد استصحابه معه عندما قرر
التوجه إلي دمشق ، وطلب منه الاستعداد للرحيل معه ، ثم عاد
وعرض عليه البقاء في اليمن نائبا عنه عندما استعفى منها نائب صنعاء
حسام الدين لؤلؤ[4]، وبعد أن استعرض أرباب دولته وأعيانها وسائر خواصه،

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٤٠-٤١ ؛ ابن الديبع: بغية المستفيد ورقة ١١ «أ» .

(٣) السمط الغالي الثمن ورقة ٤٢ «أ» .

(٤) أدريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٢ .

واستقر رأيه على نور الدين ، فاستخلفه على اليمن كله سهله ووعره وبحره وبره ، وقال له : « تقف أنت نائبنا حتى يصلك أمرنا بتسليم البلاد لمن تتعين له ، وتلحقنا بعد ذلك إلى الديار المصرية»[1] .

وهكذا فإن رواية الخزرجي لاتستند إلى مصدر معاصر، بل على العكس فإن ما ذكر ابن حاتم يقطع بأن نيابة نور الدين عن المسعود كانت لفترة مؤقتة إلي أن يصله من يحل محله ، ثم يلحق بالملك المسعود ، وهذا مما يؤكد ضعف رواية الخزرجي كغيرها مما ذكره عن شرعية دولة بني رسول .

والخزرجي – كمؤرخ – له مكانته المرموقة بين مؤرخي اليمن ، غير أنه فيما ذهب إليه من محاولات لإثبات شرعيــة ملك بني رسول ، قد اختلق هذه الروايات تقربا إلى سلاطين تلك الدولة ، ثم توج محاولاته بما زعمه من تنازل نسبه إلى الملك المسعود ، وهذا الاختلاق يضعف رواياته ويضعه موضع الشك والاتهام ، لعدم تحريه الدقة فيما يتعلق بهذا الموضوع .

٤ — اعتراف الخليفة العباسي باستقلال نور الدين بملك اليمن : —

كان نور الدين يتوقع رد فعل مضاد من جانب القوى الأيوبية بمصر بعد خروجــه عن طاعتهم واستقلاله بملك اليمن ، خاصة وأن بلاد الحجاز كانت تابعة للأيوبيين [2] ، وفيها حامية أيوبية كانت تشكل خطرا على دولته

---

(١) ابن حاتم : السمط الغالي الثمن ورقة ٤٢ «أ» .

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ .

الناشئة . ولهذا السبب كان من الطبيعى أن يعمل على الحصول على تقليد بالسلطنة من الخليفة العباسى ، باعتبار أن هذا التقليد ضرورة يلجأ إليها السلاطين التابعين للخلافة لاكتساب الصفة الشرعية فى حكمهم ، كما أنه بهذا التقليد سوف يجعل من دولته أمرا واقعا وحقيقة ملموسة . أضف إلى ذلك أن نور الدين عمر لم يقنع ببلاد اليمن فقط، بل تطلع إلى ضم بلاد الحجاز كذلك [1] ، مما يكسبه احترام العالم الاسلامى ، باعتباره حامى حمى الحرمين الشريفين ، كما أنه يجعل من بلاد الحجاز حصنا أماميا ، تتوقف عنده الحملات الأيوبية وتعوق سيرها إلى اليمن ، ولهذا لم ينتظر نور الدين حتى تداهمه القوات الأيوبية. بل أسرع ـ بعد أن علم بأن الملك الكامل قد جرد حملة سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣٢م إلى مكة تمهيدا لاسترداد اليمن[2]ـ بإرسال بجيش لمحاصرة الحامية ولتطويق القوة الأيوبية بمكة[3]، مما اضطرها إلى التوجه إلى ينبع للاحتماء بها[4] ، واستولت قوات نور الدين على مكة ، وتوالت

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط لوحة ٤٣ «أ» ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعية والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، بغداد سنة ١٣٥١ هـ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ ، ص ٣١١ .

(٣) ابن حاتم : السمط لوحة ٤٣ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٩ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، جـ ٣ ص ٣٩٥ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٤٤ .

الحملات من الجـانبين (١) ، فتـارة يستولي عليها وأخـرى يستردها الأيوبيون منه (٢) .

وفى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م أرسل نور الدين هدية عظيمة(٣) مع رسول من أتباعه يقال له الشمفورى(٤) إلى بغداد لطلب تشريف بالنيابة وتقليد بالسلطنة من الخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر(٥) . وعاد الشمفورى بوعـد بإرسال المطلوب فى موسم الحج صحبة الحـاج العراقى إلى عرفات (٦) . ولهذا توجه نور الدين لأداء فريضة الحج واستقبال التشريف والتقليد (٧) ، ولكنه

---

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مـدى الأيام والشهور ، نشر Popper ، كاليفورنيا ١٩٣٠ – ١٩٣١ ص ٣٧٥.

(٢) الكبسي: اللطائف السنية ص ٣٩ ب ، العرشى: بلوغ المرام ص ٤٤ ، De Gaury (Gerald) : Rulers of Mecca, London, 1951, pp. 81-89.

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٦ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٣ ب .

(٥) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ورقة ٦٦ ب ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغـرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥، يحيي ابن الحسين : انباء الزمن ص ٧١ .

(٦) الخزرجى . العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ١٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٦ ب .

(٧) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٣ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٦ ب .

عاد إلى اليمن بعـد أداء الفريضة لعـدم وصول ركب الحـاج العراقى فى ذلك العام (١).

وفى سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م وصل ركب الحاج العراقى بكسوة الكعبة إلى مكة (٢)، وفى صحبتهم رسول من الحسنيين يسمى مهنا (٣) حاملا لرسالة من الخليفة إلى سلطان اليمن لابلاغه أن التشريف والتقليد فى طريقهما مع رسول آخر إليه عن طريق البحر من البصرة (٤). ووصل الرسولان إلى اليمن فى وقت واحد، (٥) وتقابلا فى مدينة الجند حيث كان نور الدين موجوداً آنذاك وتمت مراسم التقليـد فى مسجدها، حيث ارتقى رسول الخليفة - ويدعى معالى - المنبر، وقال: «يا نور الدين، إن العزيز يقرئك السلام، ويقول: قد تصدقت عليك، ووليتك إياه» وألبسه الخلعة الشريفية على المنبر (٦).

---

(١) كان العربان قـد قطعوا الطريق وكبسوا الآبار فاشتغلوا باصلاحها مما فوت عليهم الحج واضطروا للعودة (ابن حاتم: السمط ورقـة ٤٣ ب، الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٤، العسجد ص ٢٢٩، ابن الديبع: قرة العيون ورقة ٦٦ ب.

(٢) الخزرجى: العسجد ص ٢٢٩، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤.

(٣) ابن حاتم: السمط لوحة ٤٣ ب.

(٤) الخزرجى: العسجد ص ٢٢٩، العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٥، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٦٦ ب، باخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦.

(٥) ابن حاتم: السمط لوحة ٤٣ ب، ٤٤ «أ».

(٦) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٥، الفـاسى: العقـد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٥.

وهكذا استكمل نور الدين مظاهر استقلاله بحكم اليمن تحت السيادة العباسية ، وبتقليد من الخليفة فاكتسب الصفة الشرعية فى ملكه على البلاد ، دون باقى الروايات الأسطورية الأخرى ، السابق تفنيدها ، والتى كانت تستهدف تأكيد حكمه الوطنى ، باعتباره من أصل يمنى ، واكتساب الصفة الشرعية لتنبوء القدماء بملكه ، وتبشير المعاصرين بدولته .

ثانيا — ظهور بنى رسول على مسرح الأحداث اليمنية قبيل قيام دولتهم : —

١ — اولوية بنى رسول فى اليمن :

من الثابت أن بنى رسول قد توجهوا إلى بلاد اليمن فى صحبة الأيوبيين ، بدليل اشتراك والدهم شمس الدين أبو الحسن على بن رسول فى إحدى الحملات الأيوبية المتوجهة إلى تلك البلاد ، وصحب معه أولاده الأربعة ، بدر الدين الحسن — أكبرهم — وشرف الدين موسى ، وفخر الدين أبو بكر ، ونور الدين عمر وهو أصغرهم .

أما عن تاريخ وصولهم إلى اليمن ، فقد اختلف فى تحديده ، فقد ذكر الخزرجى نقلا من صاحب السيرة المظفرية قوله ، أنه لما « استوثق الملك لبنى أيوب فى مصر لم يزل معهم عصبة من بنى رسول لعلمهم بتقدم منصبهم فى الملك ، وعلو همتهم وشدة بسالتهم وثبوت آرائهم ، فاجتمع رأى بنى أيوب على أن يسلموا إليهم اليمن . فقال ذو رأيهم : إذاً يستقوون بها عليكم وينازعونكم فى الشام . فاجمع رأيهم على تسييرهم إلى اليمن صحبة الملك المعظم تورانشاه بن أيوب ، فخرجوا صحبته بعد أن استحلفهم له أخوه الملك الناصر (صلاح الدين) يوسف بن أيوب ، وأوصاهم بحسن صحبته والنصح

فى مسايرته وخدمته »[1] .

وإذا كان بنو رسول قد بلغوا هذا القدر من المكانة والشهرة إلى حد أن صلاح الدين خشي منهم على دولته ، فيعدل عن فكرة إسناد إمرة الفتح إليهم ، ويسيرهم صحبة تورانشاه ، ويوصيهم به خيرا ، مع ما عرف عن تورانشاه من المكانة الكبيرة والخبرة الواسعة والقدرة الحربية الفائقة ، فإن عدم اعتماد تورانشاه عليهم ، وسكوت المصادر المعاصرة عن الإشارة إليهم أو إبراز دورهم خلال تلك الفترة ، لما يؤكد أن وصولهم إلى اليمن لم يكن ضمن حملة تورانشاه ، اللهم إذا كانوا قد اشتركوا فى الحملة كجنود عاديين ، وهذا يتنافى والمكانة التى أسبغتها عليهم المصادر المتأخرة .

وإذا سلمنا بصحة ما ذكره الخزرجى ، فإن ذلك يعنى أن نور الدين عمر — مؤسس الدولة — وهو أصغر إخوته ، قد ظل فى اليمن ٧٨ عاما منذ وصوله إليها حتى وفاته ، بخلاف ما كان قد بلغه من العمر وقت مجيئه ، ومع ذلك فقد كان من الممكن التجاوز عن ذلك لو أن لدينا ما يؤيد الرواية المذكورة ، وللأسف لم يرد فى مصنفات مؤرخى اليمن المعاصرين ما يشير إلى ذلك من قريب ولا من بعيد ، كما أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا عنهم شيئا فى سياق ما أوردوه من أحداث الفتح أو بعده ، كما فعلوا بالنسبة لغيرهم من البارزين من قادة الجند وممن أنابهم تورانشاه على البلاد والحصون وقت وجوده فى اليمن أو بعد مغادرته لها .

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨ .

ولهـــذا فإنني أستبعد وصول بني رسول إلى اليمن صحبة توران شاه ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م ، وأرى أنهم وفدوا إليها ضمن حمـــلة طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م. والدليل على ذلك ما ورد صريحا في مؤلفات أخرى[١]، منها ما هو للخزرجي نفسه [٢] . وعلى هذا يكـون ما أورده الخزرجي في كتابه «العقود اللؤلؤية» قد حرفه الناسخ ، ولم يتنبه محقق الكتاب أو مترجمه إلى ذلك [٣] .

ومهما يكن من شيء، فقـــد كانت بداية ظهور بني رسول على مسرح الأحداث اليمنـــية في عصر السلطان الملك العزيز طغتكين بن أيوب ، حيث ذكرت المصادر أن علي بن رسول قد تولى نائبا لطغتكين علي مدينة حيس[٤]

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب.

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٤ ، العقـــد الفاخر الحسن جـ ٢ لوحة ٤٢ ب .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٨ والترجمة الانجليزية والتعليقات التي قام بهـا Sir J. .W Redhouse, بعنـــوان The Pearl-Strings ; A History of the Resuliyy Dynasty of yemen vol. III,1 p. 75.

(٤) حيس ، مدينة بتهامة ، تقع إلى الجنوب من زبيد ، على خط عرض ٥٥ر١٣° شمالا، وخط طول ٢٨ر٤٣° شرقا . El-Khazrejiyy ;) The Pearl - Strings, vol. III, 3, p. 34, Note 192.)

وأعمالها (١) ، وأنه بلغ من المكانة وحسن السيرة وأن نساء سيف الإسلام (طغتكين) لم يكن يحتجبن منه (٢) ، ومع هذه المنزلة ، تقف المصادر عند حد إمدادنا بهذا الخبر طوال فترة حكم طغتكين .

فلما تولى المعز اسماعيل بن طغتكين ملك اليمن بعد أبيه ، انتهج مع أهل اليمن سياسة تقوم على البطش ، وأساء معاملة قادة الجند والنواب . فكان لهذه السياسة أثرها في فرار معظمهم والانضمام إلى القوى المعادية للأيوبيين في اليمن . ويستدل على ذلك مما ذكره صاحب « السمط » في حوادث ٥٩٤ هـ من أن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول كان رهينة عن والده عند المعز (٣) الذي ظل محتفظاً به إلى نهاية عهده سنة ٥٩٨ هـ (٤) /١٢٠٢ م. فلما خلفه أخوه الناصر أيوب ، عاد الفارون إليه وعلى رأسهم الأتابك سيف الدين سنقر ، فولاه الناصر أتابكا له وقام بأمر مملكته . فبذل سنقر جهداً كبيرا لاستعادة الاستقرار في البلاد ، وولى ثقاته على البلاد والحصون ، فكان لبني رسول الحظ الوافر من الثقة لديه ، فولى شمس الدين علي بن رسول على حصن

---

(١) الأفضل الرسولي : العطايا السنية لوحة ٣٠ ب ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ، لوحة ٤٢ ب ، المسجد : ص ٢٢٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٥ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٢ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٩ ب .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ١٦ « أ » .

حب[1] سنة ٥٩٩ /١٢٠٢ م فظل به حتى مات[1]. كما ولى فخر الدين أبا بكر ابن على بن رسول على وصاب[3]، وبدر الدين الحسن بن رسول على ريمة[4].

---

(١) حب قلعة منيعة بالقرب من مدينة إب بنواحى جبل بعدان، وتقع على خط عرض ٥٧َ و١٣° شمالا، وخط طول ١٧َ و٤٤° شرقا تقريبا
(El-Khazrejiyy : op. cit., vol. III,3, p. 44, Note 261.)

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٢٢ب (وكان مولد على بن رسول فى بلاد التركمان، وكانت أمه من قبيلة منجك) الأفضل الرسولى : نزهة العيون لوحة ٢٦٤ «أ» ، (وفى الوقت الذى لم يتعرف الخزرجى على تاريخ وفاته ، مكتفيا بالقول بأنها كانت بناحية الخبالى) العقد الفاخر الحسن، جـ٢ لوحة ٤٢. (نجدة يحدد – فى كتاب له آخر – تاريخ وفاته ، وأنها كانت فى شهر صفر سنة ٦١٤) العقود اللؤلؤية ، جـ١ ص ٣٢ (وأن قبره فى قرية عكار ، حيث بنى عليه ابنه بدر الدين الحسن مسجدا) نفس المصدر والجزء ص ٦٦ (وأوقف عليه وقفا جيدا ، ورتب فيه إماماً ومؤذنا وطلبة ومدرسا . وكان الوقف يقوم بكفاية الجميع منهم ، وإطعام الوافدين . وكان ذلك المسجد لا يزال موجودا فى عصر الخزرجى) العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٤٦ .

(٣) وصاب ، جبل محاذى لزبيد ، وفيه عدة بلاد وقرى وحصون (ياقوت : المعجم جـ٨ ص ٤٢٥، مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٤٣٩) وتقع إلى الشرق من زبيد فيما بين وادى زبيد ، ووادى رمع.
(Kay Yaman p. 247).

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٢٢ ب (ريمة ، بلد معروف باليمن تقع إلى الشرق من مدينة بيت الفقيه، وهى الجبال الواقعة بين وادى برع شمالا ووصاب جنوبا (الويسى : اليمن الكبرى ص ٧٠).

والظاهر أن الأشراف الزيدية تمكنوا من انتزاع وصاب من فخر الدين أبي بكر ، بدليل أن الأتابك سنقر أعد حملة لاستردادها سنة ٦٠٤ هـ[١] / ١٢٠٧ م ، ولكن قبائل المنطقة ساندت الزيدية في التصدي لحملته ، ثم سارعوا للاعتذار له ، ودخلوا في طاعته خوفاً من انتقامه[٢].

ولما توفي سنقر خلفه على الأتابكية بدر الدين غازي بن جبريل والي لحج[٣] ، فانتهج سياسة المعز ، وعمل على الفتك بأمراء الأجناد بالسم[٤]. وأخذ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر . وكان بدر الدين الحسن بن علي ابن رسول من بينهم ، ولكن السم لم يؤثر فيه ، وغلب عليه الأجل »[٥] ، ثم نقله الملك الناصر من زبيد إلى حرض والهلية[٦] ، أما فخر الدين أبو بكر

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٢٩ «أ» .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٢٩ «ب» .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٤٩ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٠ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الكبسي : اللطائف السنية ورقة ٣٦ «أ» .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ (حرض ، من أهم مدن شمال تهامة اليمن ، وتقع على الطريق بين زبيد ومكة ، على خط عرض ٣٠َ و١٦° شمالا ، وخط طول ٤٣° تقريبا)

(El-Khazrejiyy : op. cit. vol. III,3 p. 174, Note. 2-5,)

ابن على بن رسول ، فقد استمر فى ولايته على وصاب [١] .

فلما توفى الناصر أيوب سنه ٦١١ هـ/١٢١٤ م أصبحت اليمن بغير سلطان، وشملت الفوضى أنحاء البلاد [٢] ، طمع الامام الزيدى عبد الله بن حمزة فى الاستيلاء على المناطق التابعة للأيوبيين مما هدد بزوال دولتهم [٣] . ولما كانت اليمن خالية من رجالات البيت الأيوبى ، فقد قامت الخاتون أم الملك الناصر بأمر الملك ، وظلت تترقب وصول أحد أمرائهم لتوليته سلطانا على البلاد [٤] . وفى نفس الوقت أرسلت بعض أتباعها إلى الحجاز فى موسم الحج لتقصي أخبار مصر ، لعلهم ينجحون فى التعرف على أحدهم هناك ، فتصادف وجود سليمان بن شاهنشاه الأيوبى [٥] فى مكة ، فلما تأكدوا من نسبه

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٢ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٠٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ ، جـ ٢٧ ص ٤٥٣ ، الحنبلى : شفاء القلوب لوحة ٧٤ ب.

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ورقة ١١ «أ» ، العقيلى : المخلاف السليمانى جـ ١ ص ١٨١.

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٥٢ ص ٢٧٩ .

(٥) هو سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب (ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣٩ ، أبو الفدا: المختصر جـ ٣ ص ١٠٨ ، ابن كثير: البداية والنهاية

استصحبوه معهم إليها ، فخلعت عليه وتزوجته ونصبته سلطانا على اليمن (١).

وقيل أن بنى رسول لعبوا دورا كبيرا فى تنصيبه، فقد ذكر ابن حاتم رواية نقلها عمن حكاها من الأمير بدر الدين الحسن بن على بن رسول ، قال: « كنت يومئذ أمير حرض والمهلية ومعى صنوى نور الدين ... وكنت لا أسمح بمفارقته ـ ننتظر ما يكون من الأمر ، فجاءنى من أعلمنى أنه قد دخل حرض رجل فى زى الفقراء ينتسب إلى بنى أيوب ، فأمرت بإحضاره، وقلت نسأله ونبحثه عن نسبه ، فإن كان كما قد زعم فهو يكون السلطان. فحضر إلى وسألته فانتسب فعرفته ... وأقمناه ، واقيناه بالملك المعظم، ونشرنا له الدعوة من وقته وسرنا فى خدمته... حتى وصلنا به زبيد وقد صار ملكا » (٢).

أما ما يتعلق بموقف سليمان من بنى رسول، فإنه قد أظهر فى البداية ثقته بهم ، ثم لم يلبث أن انقلب عليهم لأسباب لم توضحها المصادر ، ذلك أنه قلد بدر الدين الحسن بن على بن رسول واليا على صنعاء ، ثم بلغه ـ وهو فى

= جـ ١٣ ص ٦٨، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٨١ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢ ص ٥٢ ص ٣٧٩ ، ابن الشحنة : روض المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب الكامل لابن الأثير ـ القاهرة ١٢٩٠ هـ ، ص ٥٥).

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٤ «ب»

طريقه إليها ـ أن سليمان قد دبر له مكيدة للقبض عليه ، فتحول عن طريقه ، ولجأ إلى حصن الدملوة[1] ، وجاءه أخواه فخر الدين أبو بكر من البلاد الوصابية ، ونور الدين عمر من ريمة . ولكن سليمان عاد فأمنه بعد أن توسط في الأمر بعض ثقات سليمان ، وأعاده إلى ولاية صنعاء . فتوجه إليها بصحبة أخيه نور الدين ، وكان الإمام قد استولى عليها ، فلما وصلها نور الدين خرج منها الإمام[2] . أما فخر الدين فقد عاد إلى ولايته في وصاب .[3]

ولكن سليمان كان لا يزال يضمر الشر لبني رسول، إذ لم يكد بدر الدين يستقر في صنعاء حتى جهز له سليمان عسكرا للقبض عليه ، فأثار ذلك غضب بدر الدين ، وأسرع بعسكره إلى تهامة لاتخاذ إجراء مضاد . فلما وصل إلى مدينة الكدراء[4] ، كان سليمان قد أعد حملة قادها بنفسه للقضاء على

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ، ورقة ٣٥ «أ» ، الكبسي : اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب (الدملوة : قلعة حصينة على جبل الصلو بجنوبي شرقي تعز ويضرب بامتناعه وحصانته المثل (Kay : Yaman p. 305) (القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣).

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب.

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٥ «أ».

(٤) الكدراء ، مدينة أنشأها الحسين بن سلامة مولى بني زياد في وادي سهام (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ٦٠ ، ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ١١ ب ، الخزرجي : العسجد ص ١٢٣ ، بامخرمه تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٩٥) وتقع إلى الشرق من الحديدة.

بدر الدين ، ولكن الأخير انتصر عليه [١] ، ثم جرت بينهما مفاوضات للصلح ، وتم عقد الصلح ، وبمقتضاه احتفظ بدر الدين بأحد كبار أتباع سليمان رهينة عنده ، ضمانا للوفاء بما تعهد به سليمان . وبالرغم من أن هذه الرواية قد أوردها ابن حاتم ، إلا أنه قال : « وعندى فيها توقف »[٢] .

وتستمر العلاقات السيئة بين الجانبين ، ففى رمضان ٦١١ هـ / يناير سنة ١٢١٥م حدث خلاف بين سليمان وكبار أمراء أجناده ، ومنهم بدر الدين الحسن بن على بن رسول ، فخرجوا من طاعته وانتصرت جموعهم على تجريدة كان قد أرسلها سليمان فى اثرهم ، ولجأ الفارون إلى مكاتبة الامام عبد الله ابن حمزة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد شاركهم فخر الدين أبو بكر ابن على بن رسول الرغبة فى الانضمام للامام ، مما شجع الإمام على تجريد عدة حملات توجهت إحداها إلى مدينة المهجم [٣] وأشعلت فيها النيران ، وتوجهت حملة أخرى إلى عدن وأبين فتصدت لها الحامية الأيوبية فى كل منهما . وهكذا قويت شوكة الإمام وطمع فى الاستيلاء على اليمن [٤].

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٥ « أ » ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٨ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٥ ب .

(٣) المهجم ، مدينة من أهم مدن تهامة بعد زبيد ، وتقع فى وادى سردد (صبح الأعشى حـ ٥ ص ١٣) .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٦ «أ» .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٤٨ .

وترتب على ذلك أن ساءت الأوضاع فى اليمن ، وضعف سلطان سليمان ابن شاهنشاه وتفتتت القوى الأيوبية ، وازداد نفوذ الإمام بانضمام الفارين من سليمان إليه، مما أنذر بالقضاء على الوجود الأيوبى فيها. ولهذا أصدر السلطان الملك العادل الأيوبى أمره إلى ابنه الكامل محمد صاحب مصر بتجهيز حملة إلى اليمن لإقرار الأمور فيها ، فأعد حملة بقيادة ابنه الملك المسعود يوسف [١] ، وتوجه معه أتابكه ومقدم عسكره جمال الدين فليت ، وكتب له أبوه إلى شمس الدين على بن رسول ، وإلى باقى أمراء الأيوبيين فى اليمن للعمل تحت إمرته وحسن صحبته [٢]. ووصل المسعود إلى زبيد فى مستهل المحرم ٦١٢ هـ [٣] / مايو ١٢١٥ م ، وقبض على سليمان وأرسله إلى مصر ، فظل مقيما فيها إلى أن قتل شهيداً فى موقعة المنصورة ٦٤٧ هـ [٤] / ١٢٤٩ م.

المهم أنه ما كادت الأخبار تصل إلى اليمن بقرب وصول المسعود ، حتى بادر سليمان

---

(١) الخزرجى : العسجد ص٢١٣ ، العينى: عقد الجمان حـ ٥٢ ص٣٤١ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٤٩ ، محمد حسن : قلب اليمن ص ٣٨.

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٠.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة سنة١٩٤٨ ، حـ ٤ ص ١٧٤ ، ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب ، النويرى : نهاية الأرب حـ ٢٧ ص ١٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٢٣٤ ، الشرفى : اللآلى المضية حـ ٢ ص ١٣٤ «أ» .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب حـ ٣ ص ٢٢٧ ، أبو الفدا : المختصر حـ ٣ ص ١٢٢ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ص ١٨١ .

بالفرار من زبيد [١] وتحصن في تعز [٢]. وفي نفس الوقت بادر أتباعه — وفي مقدمتهم بدر الدين الحسن بن علي بن رسول وإخوته نور الدين عمر [٣] وشرف الدين موسى وفخر الدين أبو بكر [٤] — إلى لقاء المسعود. فلما وصلوا إليه أحسن استقبالهم وأكرمهم وخلع عليهم الخلع السنية ، وأنعم على بدر الدين بفرجية وشربوش وقدم له حصانا بسرج ، بالإضافة إلى ألف دينار ذهب ، وولاه على مدينة القحمة [٥] ، وولي نور الدين عمر على صهبان [٦] ، فكانت هذه أول ولاية منفردة لنور الدين .

---

(١) العيني : عقد الجمان حـ ٢ ٥ ص ٣٤٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ «أ» ، يحيي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٩ .

(٣) ابن حاتم : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، يحيي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٨ .

(٤) الكبسي : اللطائف السنية ورقة ٣٧ ب .

(٥) القحمة ، مدينة هامة على وادي ذؤال ، اختطها الحسين بن سلامة مولى بني زياد ، وكانت تعرف باسم المعقر (بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ٦٠) ، وتقع على بعد خمسة أميال شمال بيت الفقيه على خط عرض ٣٨ْ و١٤° شمالا وخط طول ٢٤ْ و٤٣° شرقا (El-Khazrejiyy : op. cit. vol. III,3, p. 90 Note 541.)

(٦) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب (وصهبان منطقة متسعة بالقرب من ذي جبلة) الشرجي : طبقات الخواص ص ٥١ .

وقيل أن المسعود كان يسعى إلى مفاوضة سليمان على أساس أن يقتسما البلاد فيما بينهما ، فيحتفظ سليمان بمنطقة الجبال ، وتكون منطقة تهامة للمسعود[١] . وهنا يبرز دور بني رسول حيث قام بدر الدين الحسن باقناع المسعود بالعدول عن هذا الاتجاه ، ونصحه بالتوجه إلى تعز ، وإصدار الأمر إلى أمراء الأجناد فيها للقبض على سليمان . فلما كتب المسعود إليهم بذلك ، وهددهم إذا ما خالفوا أمره ، استجابوا له واعتقلوه وقيدوه وسلموه له [٢] . وعلى هذا النحو ركز المسعود جهوده لاستعادة السيطرة الأيوبية على البلاد، ولم يمض عام حتى تمكن من تحقيق هدفه وتنفيذ خطته[٣]، وجاءته وفود القبائل من كل جهة مقرة له بالطاعة ومعلنة له الولاء [٤] ، وقدموا إليه الرهائن دليلا على ذلك ، فأكرمهم المسعود وبذل لهم الخلع والأموال [٥] .

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٣٦ ب . الخزرجي : العسجد ص ٢١٣ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣١ ، الشرفي : اللآلى المضية ورقة ١٣٤ «أ» ، يحي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٩ ، الكبسي : اللطائف ص ٣٧ ب .

(٢) ابن حاتم: نفس المصدر والصفحة، الشرفي: نفس المصدر والصفحة، يحي بن الحسين : نفس المصدر والصفحة ، الكبسي : اللطائف ص ٣٨ «أ» .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر : ورقة ٣٧ «أ» .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ص ١٤١ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٦ ب ، يحي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٦٩ .

وفي جمادى الآخر سنة ٦١٤ هـ/سبتمبر ١٢١٧ م أقام المسعود الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول استاذ داره (١)، ثم ولاه على صنعاء في ربيع الأول ٦١٨ هـ (٢) / ابريل ١٢٢١ م. أما نورالدين فقد ولاه المسعود الحصون الوصابية (٣)، ثم ولاه مكة سنة ٦١٩ هـ/١٢٢٢ م بعد أن انتزعها المسعود من الشريف حسن بن قتادة (٤)، فلما عاد إلى اليمن قام حسن بن قتادة بتنظيم صفوف أتباعه تمهيدا لاسترجاع مكة، ولكن نور الدين لم يمهله، وباغته بالهجوم على معسكره، ومزق حشوده وأوقع به وبأتباعه الهزيمة. وتصادف وقتئذ أن كان المسعود قد أخذ يتجهز للسفر إلى مصر لزيارة أبيه وتجديد العهد له، فأرسل إلى نور الدين يستدعيه إلى اليمن(٥). وكان المسعود قد أناب على اليمن حسام الدين لؤلؤ، وجعل بدر الدين الحسن بن علي بن رسول

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٧ ب.

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٨ «أ»، أدريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ورقة ٣٨ «أ»، الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥٥١، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢١٣، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٢٩، حوادث الدهور ص ٣٧٤، العصامي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ م تاريخ، ص ٤٧٨، الكبسي : اللطائف ص ٣٩ «أ»، زيني دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

(٥) ابن حاتم : السمط ٣٨ «أ».

على صنعاء [١] . وقيل بل استخلف نور الدين عمر بن على بن رسول على اليمن [٢] . ولكن الأحداث التالية تؤكد القول الأول حسب ما أوردته المصادر.

ومما هو جدير بالذكر أن حالة الاستقرار فى البلاد كانت كاملة ، بحيث يمكن القول بأن البلاد لم تشهد عهدا من الهدوء والاستقرار مثلما شهدته فى تلك الآونة ، والظاهر أن الفضل الأعظم فى استقرار الأوضاع إنما يرجع أساسا إلى وفاة الامام عبد الله بن حمزة فى أول سنة ٦١٤ هـ[٣] /١٢١٧ م : وقد قام ابنه عز الدين محمد محتسبا [٤] ، لأنه لم يكن قد بلغ بعد درجة الامامة

---

(١) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ ، المسجد ص ٢١٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٩ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٣) المحلى : الحدائق الوردية جـ ٢ ص ٤١٦ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٣ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ورقة ١٣٤ ب ، الجندارى : الجامع الوجيز لوحة ٧٣ .

(٤) الصعدى : مآثر الأبرار ص ٩٩ ب : ابن حاتم : السمط ٣٧ وأ ، (يمثل الاحتساب عند الزيدية ما اصطلح على تسميته ـ عند الشيعة ـ بالداعى ، وهى الدرجة السابقة على الامامة عندهم . وقد يصبح الرجل محتسبا ، ولكنه لا يرقى إلى مرتبة الامامة ، ولا يصل إليها ، إلا باستيفاء شروطها المعتبرة) =

المعتبرة [١] عند أهل مذهبه [٢]، فتحمل عبء النضال ضد القوى الأيوبية بعد وفاة أبيه، ولكن لم تلبث أن انقسمت القوى الزيدية، عندما أعلن يحيي ابن المحسن دعوته بالإمامة [٣]، ودخوله فى صراع ضد القوى الزيدية المعارضة التى تزعمها عز الدين محمد ابن الامام الراحل [٤].

ولم تستمر الأوضاع المستقرة طويلا فى اليمن، فقد حدث ما عكر صفو هذا الهدوء أثناء غياب المسعود فى مصر، إذ قام أحد الصوفية، ويدعى مرغم

= انظر الهامش التالى (وإجماع علماء وقتة على إمامته ومبايعته). انظر، دولة بنى أيوب فى اليمن ص ١١٦.

(١) يشترط فى الامام الزيدى أن يكون فاطميا (من ذرية علي من فاطمة) ذكرا حرا سليم الحواس والأطراف بالغا عاقلا لم يمارس الرذيلة، ورعا تقيا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، عالما مجتهدا حسن الدراية بتصريف الأمور، عادلا سخيا، شجاعا مجاهدا، وأن يخرج داعيا لنفسه. وهذا الشرط الأخير يخالف ما درجت عليه بقية فرق الشيعة الأخرى من سرية الدعوة، وستر الامام (دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٢٠).

(٢) الكبسي : اللطائف ٣٨ «أ».

(٣) هو الداعى المعتضد يحيى بن المحسن بن المحفوظ بن محمد بن يحيي بن يحيي من نسل الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين أول إمام زيدى باليمن. وكان عالما مبرزا، قال عنه الامام عبد الله بن حمزة أن معه علم أربعة أئمة، ولكن علماء الزيدية لم يجمعوا على إمامته وعارضوه (الكبسي : اللطائف ٣٨ ب، الجندارى : الجامع الوجيز لوحة ٧٤).

(٤) Kay : Yaman, p. 319.

الصوفى بنشر دعوته ، باعتباره داع لامام حق (١) وأخذ يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٢) حتى ذاع صيته واستجاب لدعوته الكثيرون، وقام بتنظيم صفوف أتباعه استعدادا للاستيلاء على بعض المناطق اليمنية ، وسير أولى حملاته على حصن ذروان (٣) ـ من أعمال ذمار ـ فى جمادى الآخرة سنة ٦٢٣ هـ (٤) / يونية ١٢٢٦ م . فلما توجه للاستيلاء عليها خرج نور الدين عمر بن على بن رسول اليه ـ وكان موجودا بداخله ، ولكن نور الدين لم يستطع الصمود أمام حشوده ، وتراجع الى الحصن واحتمى به . وتلاحقت جموع القبائل الموالية للصوفى إلى الحصن وحاصرته ، تمهيدا للاستيلاء عليه، واتخاذه قاعدة للتوسع منه على حساب القوى الأيوبية . وهكذا كان لهذه الحركة الصوفية أسوأ الأثر على الأيوبيين فى اليمن .

وأمام هذا الخطر ، بادر نور الدين بمراسلة حسام الدين لؤلؤ نائب

---

(١) الشرفى : اللآلى المضية جـ ١ ص ١٣٤ ب (كان مرغم الصوفى ناسكا ، وكان فى بداية أمره حائكا فى بلاد عنس . وأول ظهور دعوته فى جبل سحمر ، واستجابت لدعوته قبايل عنس وجنب وبنى سيف من بلاد يريم) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ ب، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٢٤ أ.

(٢) الخزرجى، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٢٤ « أ » ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ ب .

(٣) ذروان ، حصن من حصون الحقل من أعمال ذمار ، إلى الجنـــوب من صنعاء .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ «أ» .

المسعـــود على اليمن يطالب نجدته ، ولكن الأحوال كانت قـد تطورت عنده أيضا ، مما حال دون إنجاده ، واكتفى بتشجيعه على الصمـــود والاعتماد على نفسه ، وقال له : « ليس الك منا إلا الدعاء » [١] ، فاستنجد نور الدين بأخيه بدر الدين في صنعاء ، وعندئذ وجد الأشراف الزيدية أن الفرصة قد أصبحت مواتية لاستعادة مكانتهم ، فحشد عز الدين محمد ابن الامام الراحل جموعه وزحف بها إلى صنعاء [٢] .

وعلى الرغم من أن أخبار هذه الحشـود قد وصلت إلى علم بدر الدين إلا أنه بادر إلى معاونة أخيه والعمل على تخليصه من الحصار . فرتب الأمور في صنعاء ، وترك فيها حامية لمناوشة جموع الزيدية عند وصولهـــا انتظاراً لعودته ، وفي طريقه إلى ذروان اعترضته بعض القبائل ، فقتلهم عن آخرهم [٣] فكان لهذا الموقف أثره في إشاعة الرعب في قلوب القبائل المحاصرة لنور الدين ، وكان ذلك كافيا لتفريق جمعهم ، ذلك أنه ما أن وصـل إلى ذروان ، حتى كانت القبـائل الموالية للصوفي قد تركت حصـار الحصن وولت الأدبار ، ووهنت عزيمة الصوفي وانفض أتباعه من حوله ، وظهر للناس كذب دعواه وفساد مذهبه ، ففـر بنفسه وأخذ يتنقل شريدا في البلدان حتى وافته منيته في وصـاب [٤] .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٣٨ ب

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٠ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٣٩ « أ » .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٤ « أ » .

أما الزيدية فقد زحفوا بحشودهم الكثيفة إلى صنعاء يتقدمهم عـز الدين محمد بن الإمام ، وحطت جموعهم عند جبل عصر (١) . ومن الجدير بالذكر أن بنى حاتم الذين كانوا يرتبطون بروابط ودية مع الأيوبيين توجهوا فى جموع من قبائل همدان إلى صنعاء ــ على اثر خروج بدر الدين منها مددا لأخيـه ــ دعما للحامية الأيوبية والوقوف معها أمام القوى الزيدية الطامعة فى الاستيلاء على المدينة (٢) . وتعاونت حامية صنعـاء مع بنى حاتم واشتبكت مع القوات الزيدية (٣) لشغلها وتعويق تقدمها إلى المدينة ، حتى يعود بدر الدين حسـن ابن رسول إليها . ونجحت هذه الخطة وعاد بدر الدين فور الانتهاء من مهمته . فوصل إلى صنعاء فى اليوم الأول من القتال ، فكان لذلك أثره فى رفع معنويات أهلها . ولم يمكث فى المدينة طويلا إذ بادر بالخروج على رأس قواته إلى ميدان المعركة . وكانت الخطة تقضى بأن يتقدم بدر الدين للقتال وأن يرابـط نور الدين قريبا من مسرح القتال ، لمتابعة تطوراته ، وليعيد الصفوف إذا ماحدث وتراجعت بعض القوات لأى سبب من الأسبـاب (٤) . وكان بدر الدين قد

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، العقـود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٤ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ (عصر ، جبل يقع إلى الغرب من صنعاء) الواسعى : البدر المزيل الحزن ص ٢٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٣٩ ، أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٤ ، الشرفى : اللالى المضية جـ ٢ لوحة ١٣٥ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

رتب أصحابه ميمنة وميسرة وقلب ، ودار القتـال وحمى وطيسه ، وأبلى الأشراف الزيدية بلاء عظيما [١] . فأخذ بدر الدين يحث أصحـابه على الاستبسال في القتال ، والتفت فيهم يمينا شمالا ، وقال : « هي هي » ، وكان هذا شعاره في عسكره» [٢] . فحمل الجند الأيوبي معه حملة رجل واحـد [٣] ، وصمموا على الانتصار «فمنحهم الله النصر والظفر ، وانهزم جيش الأشراف [٤] ولم يقم منهم أحد ، وولوا مدبرين وقتل فيهم قتيلا ذريعا [٥] ... ولم يزل القتل والأسر فيهم إلى أن دخل الليل وغشيهم الظلام » [٦] ، وأصيب الأمير عز الدين محمد بن الإمام بفردة نشـاب في عينه فعورت [٧] ، ثم مرض بعد ذلك ومات متأثرا بجراحه [٨] . واستولى بدر الدين على جميع ماتركه الأشراف

---

(١) الشرفي : اللالى المضية حـ ٢ ص ١٣٥ « أ » .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٣) زبارة : أئمـة اليمن حـ ١ ص ١٤٧ .

(٤) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٦) الخزرجي : العسجد ص ٢١٧ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٥ ، يحيى ابن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٣٩ ب ، الخزرجي : العقد الفاخـر الحسن حـ ٢ لوحة ١٤٩ « أ » ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٨) الصعدي : مآثر الأبرار ، ورقة ٩٩ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٤٨ .

من أموال ودواب وغير ذلك فى ساحة المعركة[١] .

٢ ـ نكبة اولاد رسول فى أواخر عهد المسعود :

كان الانتصار الذى أحرزه بدر الدين حسن بن رسول فى موقعه عصر حاسما ، لم يسمع بمثله فيما مضى»[٢] . وانهزم الأشراف الزيدية هزيمة نكراء سحقت قوتهم وعصفت بكيانهم ودمرت معنوياتهم ، فذلوا بعد عز ، وعمدوا إلى الانزواء إلى حين . وهكذا أبلى بنو رسول فى القتال بلاء حسنا وأدوا واجبهم فى هذه المعركة على أكمل وجه ، فارتفع بهذا النصر قدرهم ، وأثبتوا لليمنيين مقدرتهم فى القضاء على القوى المناوئة ، وقمع كافة الحركات الداخلية المعارضة للوجود الأيوبى فى اليمن .

وشاعت أخبار هذه الموقعة فى أنحاء اليمن ، فقوى بها أمر بنى رسول[٣] ، وأقيمت الأفراح احتفالا بهذه المناسبة ، وتبارى الشعراء فى الإشادة بها[٤] ومما يجدر بالذكر أن بدر الدين حسن الرسولى أرسل إلى الملك المسعود فى مصر برسالة يبلغه فيها بهذه الأحداث ، وأرفق بالرسالة أبياتا نظمها له الأمير مدرك بن بشر بن حاتم[٥] ، فى ذكر المعركة ووصفها والفخر بما أحرزه

---

(١) ابن حاتم السمط ٤٠ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٣٩ ب .

(٣) الكبسى : اللطائف ص ٣٩ « أ » .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٦ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ لوحة ١٤٩ « أ » .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٥ ب .

من انتصار باهر ، وجاء في نهاية القصيدة قوله :

ونحن متى شئنا دسرنا عـدونا ولا نحقد حقدا دفينا ولا ضغنا
فلا زالت الأخبار منكم تسرنا كما سركم في مصر مخبركم عنا[1]

فلما قرئت الرسالة والأبيات في حضور الملك الكامل بن العادل الأيوبي ، سأل ابنه الملك المسعود عمن يخاطبه بنون العظمة؛ فأخبره بأنه أحد أمرائه ، فقال له : « هيهـات ، والله ماهذه مخاطبة أمير بل مخاطبة ضد . فإن لم تثب عليه وثب عليك»[2]. فاشتد خوف المسعود على اليمن من بني رسول ، وعقد العزم على العودة إليها سريعاً فكان وصوله إلى تعز في السابع من صفر ٦٢٤ هـ/[3] يناير سنة ١٢٢٧ م .وقد تصادف أن كان حسام الدين لؤلؤ قد حسـد بني رسول لانتصاراتهم ضد الصوفي والأشراف الزيدية ، وفي نفس الوقت خشى أن يكون محل سخط المسعود وانتقامه لتقاعسه عن تقديم العون لنور الدين عندما حاصره الصوفي ، وعدم قيامه ــ بعد ذلك ــ بدور ما عنـدما تعرضت صنعاء لهجوم الزيدية . ولذلك فما أن عاد المسعود إلى اليمن حتى أسرع لمقابلته، ووجه إلى بدر الدين حسن الرسولي إتهامات باطلة ، أشهد على صحتها بعض أتباعه من الناقمين على بدر الدين . وادعى بأن بدر الدين طلب تزويده بالمال

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٠ ب ، الخزرجي : العسجـد ص ٢٢٠ ؛ العقود حـ ١ ص ٣٨ ــ ٣٩ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ .

(٣) ابن حاتم : المصدر السابق ص ٤١ ب .

فلما اعتذر « عاد بجوابه يقول : إذا لم ترسلوا لى الأموال نزلت وأخذت الحريم بمقصمهم [١] » . وهكذا كان لهذه الدسيسة أثرها في تثبيت مخاوف المسعود من أبناء رسول وصمم على تنفيذ ماأوصاه به والده الملك الكامل.

أما بنو رسول فإنهم ماأن بلغهم وصول الملك المسعود حتى أسرعوا لملاقاته والترحيب بعودته [٢] . ولكن المسعود لم يظهر ماعزم على اتخاذه معهم، وتريث حتى تحين الفرصة المناسبة للتنفيذ ، وجاءت هذه الفرصة عندما أقام وليمة في مدينة الجند حضرها أبناء رسول مع غيرهم ، فاعتقلهم على السماط في الخامس والعشرين من رجب سنة ٦٢٤هـ[٣] / ١٢٢٧ م ،وقيل في الخامس عشر منه[٤]. وقيل بأنه لم يعتقلهم جميعا وإنما اكتفى ببدر الدين حسن ، وفخر الدين أبى بكر وشرف الدين موسى [٥] ، أما نور الدين عمر فلم يكن بينهم [٦] ، لأن المسعود كان قد كلفه بمهمة إلى عدن [٧] . وقيل إنما اعتقلهم جميعا ثم أطلق

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥١ ، الكبسى : اللطائف ٣٩ أ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ٥٢ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢١ ؛ العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٩ .

(٥) الخزرجى : العسجد نفس الصفحة، العقود: نفس الجزء والصفحة ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ١٤٩ ب، الشرفى اللآلىء المضية حـ ٢ ورقة ١٣٥ أ .

(٦) بامخرمه تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٥ ، الكبسى: اللطائف ورقة ٣٩ أ .

(٧) ابن حاتم: السمط ورقة ٤١ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ورقة ٦٥ ب .

نور الدين عمر فيما بعد [١] ، لما كان يربطه به من روابط المودة ، إذ كان يأنس به ، ويميل إليه ، ويثق فيه دون باقي إخوته[٢]. ولهذا حظى نور الدين بمكانة كبيرة عنده ، وقيل أن المسعود اعتذر إليه وطمأنه إلى أن هذا الإجراء مؤقت ، وأنه سيعيدهم مرة أخرى [٣] . وفي قول آخر أن اعتقال أبناء رسول الثلاثة تم بإيعاز من نور الدين نفسه [٤] ، ومرجع ذلك أن المسعود كان يفكر في التوجه إلى مصر ، وبحث ذلك مع نور الدين ، وأعرب عن رغبته في استنابته على اليمن ، ولكن نور الدين اعتذر عن عدم استعداده لقبول ذلك خوفا من إخوته ، فهم يكبرونه سنا ويفضلونه خبرة بأمور الحكم ، وأبدى استحالة قيامه بإدارة شئون البلاد في وجودهم ، لأنه بالضرورة سيكون خاضعا لهم ، منفذا لرغباتهم بل وتحت إمرتهم . ولهذا قبض المسعود عليهم [٥] ،

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٤٠ ، الفاسي : العقد الثمين حـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٢) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٦٦ « أ » ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٧٣ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ١١ « أ » ، باغرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عماد الدين : نزهه الأفكار ٥٢ .

(٤) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٦٦ « أ » ، ابن الديبع : بغية المستفيد ١١ « أ » ، باغرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٥ ، وتعليقات Sir . J . W . Redhouse على كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي في ، The Pearl – Strings ; A History of the Resuliyy Dynasty of Yemen, Vol. III, 3, P. 39 – 40 , Note 224, P. 41, Note 235 .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٤٠ ، باغرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٥ .

وأودعهم السجن ثم أرسلهم - تحت الاعتقال - إلى مصر (١) . أما نور الدين فقد قربه ورفع مكانته وجعله أستاذ داره (٢) وأتابك عسكره (٣) .

ويتضح من كل ماسبق ، أن وصول بنى رسول إلى اليمن ، وإن كان قد تم فى نطاق حملة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وأن طغتكين قد ولى أباهم على بن رسول على مدينة حيس وأعمالها، إلا أن بروزهم على مسرح الأحداث اليمنية تم تدريجيا . فكان دورهم ثانويا فى عهد كل من المعز اسماعيل بن طغتكين وأخيه الناصر أيوب ، ثم احتلوا مكانة متوسطة منذ بداية عصر سليمان شاهنشاه ، أما فى عهد المسعود فقد ازدادت مكانتهم وعظم قدرهم ، وخاصة بعد الانتصارات التى أحرزوها ضد القوى الخارجة على الحكم الأيوبى فى اليمن . وكانت مكافأتهم أن نكبهم المسعود نتيجة الدسائس والسعايات التى وجهت ضدهم، وأثارت مخاوف المسعود من مطامعهم .

---

(١) الخزرجى: نفس المصدر والصفحة ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ١٤٩ ب، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٤١ ب ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٢ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٠ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ .

٣ – دور نور الدين عمر بن علي بن رسول في التمهيد لقيام دولة بني رسول :

على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها بنو رسول في خدمة الدولة الأيوبية في اليمن ، وقيامهم بقمع الحركات الداخلية المناهضة لها ، والحفاظ على الكيان الأيوبي في اليمن ، فقد جزاهم المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي جزاء سنمار . أما أخوهم الأصغر نور الدين عمر ، فقد شفع له ما كان بينه وبين المسعود من مودة ومحبة ، فاصطفاه دون باقي إخوته ، وحباه بملازمته وأبقاه في خدمته . واستمر نور الدين يؤدي ما أسند إليه من أعمال بكفاءة بحكم كونه استادارا للمسعود وأتابكا لعسكره إلى أن اضطرت الظروف الملك المسعود إلى مغادرة البلاد . ففي ذي القعدة ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١٢٢٧ م توفي عمه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، وخلفه ابنه الناصر داود ، فاستولى الملك الكامل على مملكته ومن جملتها بيت المقدس ونابلس ودمشق (١). فلما علم المسعود بذلك ، طمع في الاستيلاء عليها لنفسه (٢) . وقيل أن أباه استدعاه لنفس الغرض (٣) ، فتجهز لمغادرة البلاد واستدعى حسام الدين لؤلؤ

---

(١) المقريزي : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٣ ، السيد الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص ١١٩ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٥٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ص ٤٠٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٠٠ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، الحنبلي : شفاء القلوب لوحة ٩٩ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٢ « أ » ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٠ .

واليه على صنعاء ، وعرض عليه نيابة السلطنة ، فأبدى اعتذاره عن تحمله لمسئوليتها ، وأعرب عن رغبته فى مغادرة اليمن بصحبته ، فلما استعرض المسعود أرباب دولته وسائر البارزين ، استقر رأيه على استخلاف نور الدين وأنابه عنه على اليمن ، وولى نجم الدين أحمد بن أبى ذكرى على صنعاء [١] .

غادر المسعود اليمن فى ربيع الأول سنة ٦٢٦ هـ / [٢] فبراير سنة ١٢٢٩م ولكن ماأن وصل إلى مكة حتى اشتد به المرض ، ولم يلبث أن توفى فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٦٢٦ هـ / [٣] ابريل سنة ١٢٢٩ م ، فكان آخر ملوك بنى أيوب فى اليمن [٤] .

فلما علم نور الدين عمر بن على بن رسول بوفاة الملك المسعود يوسف ، طمع فى الاستيلاء على ملك اليمن والاستقلال بحكمها ، ولكنه اجتهد فى بداية الأمر لاظهار الولاء والاخلاص للأيوبيين ، وأرسل إلى الملك الكامل يعزيه

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العسجد ص ٢٣٦ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٢ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٣٦ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ص ١٧٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٧٥ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤٢ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٤ ص ٣٥٤ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٨ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٧ ، محمد حسن : قلب اليمن ص ٣٨ .

فى وفاة المسعود ، ويجدد ولاءه للأيوبيين ويؤكد أنه لايزال نائبا له [١] ، وبعث إليه بالهدايا والتحف والأموال تعبيرا عن خضوعه له ، فاعتبر الملك الكامل ذلك دليلا على الطاعة والتبعية وحسن الولاء [٢] ، واطمأن إليه ، ولم يقدم على عزله أو استبداله ، وأقره نائبا عنه فى حكم اليمن [٣] .

والحقيقة أنه لم يكن فى استطاعة الملك الكامل الاستغناء عن جزء من جيشه ليرسله مع نائب يختاره لحكم اليمن ، إذ أن الظروف السياسية فى مصر والشام لم تكن تسمح بذلك . فقد كان الصراع على أشده بين أفراد البيت الأيوبى فى مصر والشام ، إذ استقل كل منهم — عقب وفاة الملك العادل أبى بكر — بما تحت يده من الولايات التى يحكمها . ودخل الاخوة فى صراعات عنيفة ، وانقسموا فريقين ، أحدهما بزعامة الملك الكامل ، والثانى بزعامة أخيه المعظم فتفككت بذلك دولة الأيوبيين وتمزقت وحدتها التى بذل صلاح الدين الكثير . وهدد ذلك بتقويض أركانها ، وأطمع الخوارزمية فى التوسع على حسابها ، وجدد آمال الصليبيين فى الاستيلاء على المنطقة بعدما فقدوا كل أمل فيها .

وبدلا من بذل الجهود لتوحيد دولة الأيوبيين واستعادة مجدها ، لجأ كل من الملك الكامل والملك المعظم إلى التحالف ضد الآخر ، الكامل مع فريدريك

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٢ .

(٣) المقريزى : جـ ١ ص ٢٣٧ .

الثاني والمعظم مع الخوارزمية . وكاد الأمر أن ينتهي بموت المعظم، واستيلاء أخيه الكامل على ولايته ، ولكن الكامل كان قد اتفق مع فريدريك على التنازل له عن بيت المقدس ، ولم يعترض على تسليمه المدينة ، تنفيذا لذلك الاتفاق ، رغم زوال الأسباب التي أدت إلى هذا التحالف ، وأنه لم يعد في حاجة إلى أية معونة أو مساندة من فريدريك [١] . وهكذا تورط الكامل بهذا التصرف الذى كان مثار سخط المسلمين لتفريطه فى الأرض الاسلامية [٢] . فكان ذلك من الأسباب التى ثبطت من عزيمة الكامل فى ارسال خلف للمسعود فى اليمن ، اكتفاء بنور الدين الذى اطمأن إليه ، وثبته نائبا له على اليمن ضمانا لاستقرار جزء من دولته .

استغل نور الدين عمر بن علي بن رسول ظروف الضعف التى كان يمر بها الأيوبيون ، وما حظى به من ثقة الملك الكامل وضمانه لجانبه ، فشرع فى تحقيق مطامعه فى الاستقلال بملك اليمن . وكان حكيما فلم يتعجل التنفيذ ، بل أخذ يعمل على تحقيق هدفه مرحليا ، وبدأ بإعادة تنظيم البلاد مستهدفا عزل من كان يخشاهم من ولاة المدن والحصون [٣] ، وتولية من يثق فى ولائهم من خاصته وأتباعه [٤] ، وقد طبق هذه السياسة بادىء ذى بدء فى تهامة ، فلما

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٢١ - ٢٢٣، سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٠٦ وما بعدها .

Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350 - 356.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ ، جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ج ٢ ص ١١٦.

(٣) الخزرجى: العسجد ص ٢٢٦ ، الفاسى: العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٤ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٢٣٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

سيطر عليها وأقر قواعد الأمور فيها (١) ، عزم على تأكيد سيطرته على بقية البلاد ،فتوجه إلى حصن تعز في شوال سنة ٦٢٩ ﻫ(٢)/ سبتمبر سنة ١٢٢٩م، وأحكم عليه الحصار ، وشدد الخناق على حاميته حتى أنهك قواهم ، ثم أسند مهمة حصاره إلى فرقة من جيشه ، ومضى هو إلى عدن واستولى عليها ، وترك فيها نائبا من ثقاته (٣).

وواصل نور الدين حملاته من أجل استكمال السيطرة على البلدان اليمنية ، فزحف سنة ٦٢٧ ﻫ / ١٢٣٠ م إلى منطقة الجبال(٤) وتمكن من الاستيلاء على حصني التعكر (٥) وخدد(٦) ، ثم تقدم إلى صنعاء ، فلما بلغ ذلك نجم الدين

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ ، يحيى بن الحسين ، أنباء الزمن ص ٧١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٢ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ ، أ ، .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٢ ب ، ادريس عماد الدين نزهة الأفكار ص٥٣.

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٦ ، العقود جـ ١ ص ٤٦ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص١٧٦ .

(٥) التعكر ، قلعة حصينة فى مخلاف جعفر مطلة على مدينة ذى جبلة (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ٢ ص ١١٦) وكانت مقر ذخائر بنى الصليحى . (الخزرجى : العسجد ص ٨٦) قال عنها ياقوت بأنه لا يوجد فى فى اليمن أحصن منها (معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٩٤) وتقع تقريبا على خط عرض ٥٣َ ر١٣° شمالا وخط طول ١٠َ ٤٤° شرقا (EL-Khazreijyy! The Pearl - Strings, vol. III, 3, p. 44, Note, 258).

(٦) خدد ، حصن فى مخلاف جعفر باليمن (ياقوت: معجم جـ ٣ ص ٤٠٤) بالقرب من قلعة التعكر. (El-Khazrejiyy' op. cit; p. 44, Note, 259).

أحمد بن أبي ذكرى نائب الأيوبيين فيها ، لجأ إلى حصن براش [١] وتحصن فيه [٢] ، فساعد ذلك نور الدين على دخول صنعاء والاستيلاء عليها بدون مقاومة في ذى القعدة سنة ٦٢٧ هـ [٣]/ سبتمبر سنة ١٢٣٠ ، وولى عليها ابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين حسن الرسولى وعاد نور الدين إلى حصن تعز لإحكام الحصار عليه حتى استولى عليه صلحاً سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م [٤].

ولم تهدأ نفس نور الدين ، إذ كان يسعى إلى استنزال ابن أبي ذكرى الذى تحصن في براش ، وكان يمثل أعظم الأخطار التى يمكن أن تهـدده ، ففيه يتمثل الولاء لبني أيوب وتتشكل القوة الباقية لهم في اليمن ، وإليه قد يلجأ حكام المدن والحصون الذين تحاهم نور الدين — وهؤلاء كانوا نواب

---

(١) براش ، حصن على جبل نقم إلى الشرق من صنعاء (نشوان بن سعيد الحميرى: منتخبات من أخبار اليمن جـ١ ص ١٤٩) وعلى مسافة خمسة أميال منها
(EL-Khazrejiyy : op. cit. p. 44. Note, 260.)

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٧١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ د أ ، .

(٤) ابن حاتم السمط ص ٤٢ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ ، المسجد ٢٢٧ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ .

الأيوبيين ومواليهم — عندما يساورهم الشك فى صدق ولاء نور الدين، ويتأكد لهم حقيقة مطامعه فى الإستقلال لنفسه. ولهذا لم يكد ينتهى من الاستيلاء على حصنى حب وبيت عز [1] ويولى عليهما من يمثله من أتباعه حتى سارع سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١ م إلى صنعاء، فوصلها فى رمضان، وضرب الحصار على حصن براش، ولم يجد ابن أبى ذكرى مفراً من طلب الأمان، فأمنه نور الدين وتسلم الحصن منه صلحاً [2] وأكرمه نور الدين ولم يتعرض له بسوء، بل زاد فى تقديره وزوجه من ابنته، وولاه على مدينة المهجم [3]. أما صنعاء فقد جعلها إقطاعاً لابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين حسن بن على بن رسول مدى حياته.

٤ — تحالف الزيدية مع نور الدين ودخولهم فى طاعته :—

استطاع نور الدين أن يستحوذ على معظم بلاد اليمن وحصونها، وسيطر على مقاليد الأمور فيها، وولى فيها نوابا ممن يثق فيهم من الموالين له. وكان عليه بعد ذلك أن يتفرغ للقوى الزيدية فى شمال اليمن، والعمل على السيطرة

---

(١) ابن حاتم : السمط ٤٣ « أ »، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ « أ »، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٧، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٦، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ (بيت عز، حصن فى إقليم المناخى) .Kay : Yaman, p. 216 (بالقرب من كوكبان) يحيى بن الحسين . غاية الأمانى جـ١ ص ٧٠٥، ٧٣٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ « أ » .

عليها، حتى إذا ما خلع طاعة الأيوبيين واستولى على ملك البلاد ضمن وحدة اليمن تحت لوائه . وكان نور الدين رجلا ذا دهاء لا يمل الحرب [١] ، فلما عزم على التوجه شمالا لتحقيق هدفه ، تدخل بنو حاتم[٢] ، واستغلوا وجود نور الدين في صنعاء سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م ، وسعوا في الصلح بينه وبين الأشراف بني حمزة الزيدية [٣] . وتكللت جهودهم بعقد لقاء بين نور الدين والأشراف الزيدية تم في زمرمر[٤] . وكان على رأس الوفد الزيدي الشريف عماد الدين يحيى بن حمزة ، والأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة [٥]؛

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٢٢٦ .

(٢) كان بنو حاتم في بداية أمرهم نوابا للصليحيين على صنعاء، ثم استقلوا بها سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م في عهد الملكة الصليحية أروى بنت أحمد ، وتوالوا على حكمها إلى أن استولى عليها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ ، ثم استردوها بعد عودة تورانشاه إلى مصر سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م . ثم عادت صنعاء إلى السيطرة الأيوبية سنة ٥٨٥ هـ / ١١٩٠م في عهد طغتكين بن أيوب، وعوضهم عنها بصرف جامكية شهرية (انظر ، دولة بني أيوب في اليمن ص ٣٩ – ٤١ ٦٦ – ٧٠ ، ٩٩ – ١٠٢ – ١٠٧ ، – ١١٥ ، ١٤٥ – ١٤٧ .

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٣ (زمرمر ، من الحصون المامة في منطقة صنعاء (مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٥٨٧) ويقع على مسافة نصف يوم إلى الشمال منها على خط عرض ٢٧ ر ١٥° شمالا وخط طول ٤٤ ر٣٥° شرقا تقريبا (EL-Khazrejiyy : op. cit. p. 38, Note, 215).

(٥) الخزرجي: العسجد ص ٢٢٧، ابن الديبع : قرة العيون ص٦٦ب .

ومما يذكر أنه لما بدأت المحادثات بين الطرفين ركز بنو حمزة على تشجيع نور الدين على الاستقلال بحكم اليمن ، ونصحوه بخلع طاعة بنى أيوب، وإعلان قيام دولته . وهكذا تكللت مساعى بنى حاتم بالنجاح ، وتم الصلح بين الطرفين[1] ، وتحالفا على المعاضدة[2] . وتعهد بنو حمزة بمعاونته إذا ما قام الأيوبيون بمحاولات حربية لاسترداد السيطرة على اليمن[3] . وضمانا لسريان الاتفاق ، واحترام نصوصه اتفق الطرفان على تبادل الرهائن بشرط أن تختار من بين الشخصيات الهامة . فرهن بنو حمزة الشريف صارم الدين داود بن عبد الله بن حمزة، وقدم نور الدين لهم ولده المظفر يوسف. وارتضى الطرفان أن يتولى بنو حاتم مهمة الاحتفاظ بالرهينتين فى حصن ذمرمر[4] وما أن تم التوصل إلى هذا الاتفاق حتى خلع نور الدين علي بنى حمزة الخلع العظيمة ، ووصلهم بمال كثير ، وأقطعهم ما كان بأيديهم من البلاد والحصون[5] ، باعتبارهم نوابا له عليها . أما بنو حاتم ــ الذين كان لهم الفضل فى التوصل إلى

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٥ « أ » ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ – ٤٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٣ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ .

(٤) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

(٥) ابن حاتم : السمط ٤٣ « أ » ، الخزرجى :العسجد ص ٢٢٧ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤١ .

هذا الصلح – فقد منحهم نور الدين « فوق ما كان لهم »[1] .

ثالثاً – قيام دولة بنى رسول فى اليمن على يد نور الدين :

١ – إعلان سقوط الدولة الأيوبية فى اليمن :

بتمام الصلح مع بنى حمزة أصبحت سيطرة نور الدين على البلاد كاملة تقريباً ، وأصبح فى إمكانه استكمال تحقيق أهدافه بخلع طاعة بنى أيوب وإعلان سلطنته على البلاد . ومن الجدير بالذكر ، الإشارة إلى أن نور الدين كان على يقين من أن رحيل المسعود إلى دمشق كان نهائياً ، إذ كان قد أفضى إليه بعدم الرغبة فى البقاء باليمن وأنه يؤثر الشام عليها ، وهو نفس ما حدث لتورانشاة عندما غادر اليمن لهدف مماثل ولم يعد . ولهذا كانت نيابة نور الدين من شأنها تهيئة الجو الملائم للعمل فى هدوء – وبعيد عن أى شك – على الاستقلال بالبلاد عندما تسنح له الظروف بذلك . وإذا كان اعتقال إخوته واحتجازهم بعدها فى مصر ، كان يهدف ضمان استمرار ولاء نور الدين للدولة الأيوبية وبقاء اليمن فى طاعة سلاطين بنى أيوب ، باعتبار أن المعتقلين كانوا بمثابة رهائن ، وأن نور الدين لن يقدم على الخروج عن الطاعة خوفاً على إخوته ، إلا أن ذلك الضمان كان فى نفس الوقت من أكبر العوامل التى سهلت على نور الدين مهمته . فبالإضافة إلى أنه أدى إلى اطمئنان الأيوبيين له ، فإنه – من ناحية أخرى – أتاح له التخلص من منافسة إخوته ومطامعهم ، ولهذا فلم يهتم بما قد يصيبهم من سوء نتيجة استقلاله ، إذ أنهم لو ظلوا فى اليمن لنازعوه الملك ، لأنهم يكبرونه سناً ، ولن يتركوه يتملك البلاد دونهم .

---

(١) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

وقد أثبتت الأحداث التالية صحة ما أشرنا إليه ، إذا أنه لما تم الافراج عنهم فى عهد خلفه المظفر يوسف بن نور الدين عمـــر ، لم يمهلهم ابن أخيهم وعجل باعتقالهم حتى لا ينازعونه الملك .

وصفوة القول أن خطة نور الدين من أجل الاستقـلال بملك اليمن ، كانت تقضى بالعمل تدريجيا ، وعلى مراحل من أجل تحقيق أهدافه ، بدأها بالتخلص من نواب الأيوبيين وإحـلال أتباعه مكانهم ، وأتبعهـا باستكمال سيطرته على البلاد بالقضاء على المعارضة الداخلية المتمثلة وقتئـذ فى القوى الزيدية ، والعمل على تأمين حكمه وضمان استقرار الأمـور له . وكان من الممكن أن يتأخر إعلان استقلاله بالحكم ، إذا ماقاومته القوى الزيدية وصمدت له ، ولكن التوصل إلى اتفاق بغير حرب مع بنى حمزة ، وفر عليه الكثير من المصاعب التى كان من الممكن أن تقابله لو أنهم حاربوه ولم يدخلوا باختيارهم فى طاعته .

وهكذا تمهدت الأمور لنـور الدين باستقرار الأحـــوال فى اليمن ، وسيطرته على ناصية الأمور فيها . ومن ناحية أخرى ، أسهمت الظروف التى كانت تمر بها الدولة الأيوبية فى تحقيق أهدافه ، ولا نغفل بعد اليمن وصعوبة مو الاتها بالحملات من مصر فى ظل تلك الظروف ، أضف إلى ذلك طبيعة البلاد الجبلية الصعبة . كل هذا كان كافيا لإقدام نور الدين على تنفيذ مطامعه ، ففى أواخر سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م خلـع طاعة بنى أيوب وأعلن استقـلاله بملك اليمن (١). بعد عامين من العمل المخطط المتواصل ، واتخذ من مدينة تعز عاصمة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٢ ـ ابن تغـرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٣ .

لدولته . وبقيام دولة بنى رسول سقطت دولة الأيوبيين فى اليمن ، بعد حكم دام مايقرب من ستين عاما (٥٦٩ ـ ٦٢٨ هـ / ١١٧٤ ـ ١٢٣١ م ، حكم منها نور الدين سنتين منفردا باعتباره نائبا لهم من ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م إلى أن أعلن استقلاله عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

٢ ـ استكمال مظاهر الاستقلال وتأمين الدولة الناشئة :

تمكن نور الدين من الاستقلال بملك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور [١] ، ثم بدأ فى العمل على استكمال مظاهر هذا الاستقلال ، ففى سنة ٦٣٠ هـ امر بضرب السكة باسمه ؛ كما أمر بأن يدعى له على المنابر فى سائر أنحاء اليمن [٢] . وفى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م أرسل هدية للخليفة المستنصر بن الظاهر العباسى ببغداد [٣] ، وطلب منه تقليدا وتشريفا بالسلطنة والنيابة عنه [٤] ، طبقا لما جرت به العادة بالنسبة للملوك والسلاطين التابعين لدار الخلافة [٥] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤١ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٣٩ ب ، العرشى : بلوغ المرام ص ٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ١١ ، أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ ، العقيلى : المخلاف السليمانى جـ ١ ص ٢١٤ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٥ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٥) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ ؛ EL Kkazrejiyy : op cit.: p. 30, N. 166.

وبوصول التقليد والتشريف سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م استتم نور الدين كافة مظاهر الشرعية لملكه واستقلاله بحكم اليمن .

والواقع أن الأمور لم تنته عند هذا الحد . فقد كانت هناك مخاطر خارجية وداخلية متنوعة ماتزال ماثلة أمام نور الدين .

فبالنسبة للمخاطر الخارجية ، فإن استقلال نور الدين بملك اليمن ، وفصلها عن الدولة الأيوبية ، من شأنه أن يعرضه لانتقام السلطان الملك الكامل محمد الأيوبى . وهذا ماحدث فعلا ، فقد أصبح نور الدين - من وجهة النظر الأيوبية - مغتصبا لجزء من هذه الدولة ، الأمر الذى اضطر معه السلطان الملك الكامل إلى تجهيز حملة فى عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م لاستعادة السيطرة على بلاد اليمن . وكان نور الدين يتوقع ذلك ، ولهذا لم ينتظر حتى تداهمه قوات الأيوبيين ، وسارع فى تجهيز حملة للحجاز - التى كانت ماتزال تابعة للأيوبيين، ولهم فيها حامية عسكرية ، كما أنها تمثل المعبر البرى الوحيد للحملات الأيوبية المتجهة إلى اليمن - واستطاعت قوات نور الدين دخول مكة والسيطرة عليها ، وانسحبت الحامية والقوة الأيوبية منها إلى ينبع للاحتماء بها [١] .

وباستيلاء نور الدين على مكة ، أصبح مشاركا للأيوبيين فى بلاد الحجاز [٢] . وتحولت الحجاز على هذا النحو إلى خط دفاع أمامى لليمن ،

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤١ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ .

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨ .

فانتقل بذلك مسرح المعارك اليمنية الأيوبية إليها . وتوالت الحمـــلات بين الجانبين (١) ، كل يعمل على تثبيت سيطرته على بلاد الحجاز .

أما بالنسبة للمخاطر الداخلية ، فقد كان نور الدين حريصا على عــدم إتاحة الفرصة لظهورها على مسرح الأحداث الداخلية ، مستهدفا من ذلك تدعيم دولته واستقرار الأحوال الداخلية فيها . وكان بعيد النظر ، خبيرا بالتيارات الداخلية في دولته ، وكان يخشى أن تستنفذ الحـــركات الداخلية المضادة كل جهوده ، مما يؤدى إلى نجاح القوات الأيوبية فى الوصول لليمن والقضاء عليه . وهذا يفسر مبادرته لمهاجمة القوات الأيوبيه فى مكـة ، والعمل على السيطرة على الحجاز تأمينا لليمن من المخاطر الخارجية .

ومن ناحية أخرى ، فإن انشغال نور الدين بالصراع ضد الأيوبيين خارج حـدود اليمن ، واستمرار حـملاته على الحجاز ، من شأنه إغـــراء القوى الداخلية المعادية المتمثلة فى القبائل اليمنية الطامعة دائما فى التحـرر من سيطرة الدولة للتمرد ، كما أنه من المحتمل أن يتمرد أيضا الساخطـون من الجند أو رؤسائهم الموالين للأيوبيين ، وغيرهم من الطـامعين من أمراء البيت الرسولى للاستيلاء على مقاليد الحكم ، وهؤلاء جميعا كانوا يجدون فى القوى الزيدية خير ملجأ ومعين .

وكانت تلك القوى المعادية كثيرا ماتنشط كلما وجـدت الظروف مهيـأة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى : حـــوادث الدهور ص ٣٧٥ ، العرشي : بـلوغ المرام ص ٤٤ ، De Gaury, (G.) : Rulers of Mecca, P. 88. (ولمزيد من التفصيلات ، انظر الفصل الرابع) .

لذلك ، سواء عند ضعف القوى الحـــاكمة ، أو انشغالها في صراعات داخلية أو خارجية . وهي سمة تميزت بها بلاد اليمن دون كثير من مناطق العالم الاسلامى عبر تاريخها الطويل . وكانت طبيعة البلاد الجبلية الوعرة من أهم العوامل التى ساعدت على تفتت البلاد إلى أشلاء متناحرة فى كثير من العصور . ولهذا رأى نور الدين ألا تشغله حروبه ضد الأيوبيين فى الحجاز عن تلك القوى المتربصة الانقضاض على حكمه . ولـكى لايتيح الفرصة لتكتلهم ضده ، لجأ إلى القيام بحملات دورية ، حتى لاتتعرض سلامة دولته للخطر ، فبعد حملة الحجاز سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢ م توجه إلى صنعاء واستولى على حصن بكر[١] وكوكبان[٢] وبراش[٣] . وفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م تسلم بلاد عـلوان الجحدرى فى شرق اليمن[٤] .

---

(١) بكر ، حصن من بلاد كوكبان إلى الشمال الغربي من صنعاء . (أئمة اليمن جـ ١ ص ١٤٢) .

(٢) كوكبان ، جبل على مسافة يوم إلى الشمال الغربى من صنعاء (الواسعى : البدر المزيل للحزن ص ٢٥) يقع فى أعلاه حصن كوكبان ، وهو حصن منيع .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٩ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٦ أ .

(٤) الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٦ ب ، المسجد ص ٢٢٨ – ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٦ ب (أما علوان فهو ابن عبدالله بن سعيد الجحدرى المذحجى ، كان قد تغلب على حصون حجر ونواحيها فى شرق اليمن وحصون ، العروسين وعل ونعمان وغيرها إلى الشرق من مدينة الجنـد (الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٨ ، وانظر أيضا تعليقـات : Redhouse فى (The Pearl — Strings, Vol. III, 3, pp. 98—99, Notes, 599 — 608 =

٣ ـ الزيدية ونقض الصلح مع نور الدين :

سادت العلاقات الطيبة بين الزيدية ونور الدين بعد توصلهما إلى الصلح سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م ، وكان واضحا أن تأييدهم له وتحريضهم على الاستقلال، كان يهدف أن تسوء العلاقات بينه وبين الأيوبيين ، فيستغل بنو حمزة الزيديين فرصة الصراع المنتظر للانقضاض على دولة نور الدين. ففي سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٧ م استولوا على المناطق التي كان نور الدين قد أقرهم عليها ، وعملوا على التوسع ، معرضين بذلك وحدة الدولة واستقرارها للخطر . وقد بدأ الزيدية نقض الصلح عندما أرسل الشريف الزيدي يحيى بن حمزة بعض أتباعه للاستيلاء على كوكبان (١) ، ولكن حاميتها تصدت لهم وردتهم على أعقابهم ، وقضت على محاولاتهم (٢) . فلما علم نور الدين بذلك غضب ، وجهز حملة تأديبية إلى منطقة البون (٣) ـ شمال صنعاء ـ لمطاردة بني حمزة ، تمكنت من استرداد جميع

= يرجع سبب محاربة نور الدين له ، أنه نمى إلى علمه أن علوان قد أرسل إلى الملك الكامل يطلب مساعدته في قتال نور الدين وإعادة اليمن للسيطرة الأيوبية (الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٩) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٨ ، المسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ « أ » .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٤ « أ » ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٨ ، المسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٧ « أ » .

(٣) البون ، أرض لهمدان باليمن (نشوان بن سعيد الحميري : منتخبات في أخبار اليمن ص ٦) على مسيرة يوم إلى الشمال من صنعاء (الواسعي : البدر المزيل للحزن ص ٥) على خط عرض ٤٠َ ر١٥° شمالا ، وخط طول ١٣َ ر٤٤° شرقا (EL — khazretijyy : op.cit., P. 50' Note, 293).

البلاد التى كان نور الدين قد أقرهم عليها فى شمال اليمن(١)، عقابا لهم على نقض الصلح (٢) .

ولم تقف مطامع الأشراف الزيدية عند هذا الحد ، بل امتدت إلى مناطق أخرى ؛ إذ استولوا على جبل منابر – وكان من المواقع الهامه المطلة والمتحكمة فى مدينتى المهجم والمحالب – وقاموا بتحصينه (٣) ، وإعداده ليكون منطلقا للاستيلاء على غيره من المدن والحصون وبما زاد من خطورة الموقف أن الحامية الموجودة مع نجم الدين بن أبى ذكرى – نائب نور الدين فى مدينة المهجم – لم تكن كافية للتصدى لأى هجوم قد يشنه الأشراف بنو حمزة . ولذلك أرسل ابن أبى ذكرى لنور الدين يخبره بحقيقة الموقف ، وحاول نور الدين التوصل إلى حل سلمى معهم ، وأرسل إلى الشريف يحيى بن حمزة يطلب منه تسليم حصن منابر مقابل تعويضه بحصن آخر وعشرة آلاف دينار (٤) ، ولكنه رفض واعتبر أنه بسيطرته على هذا الحصن قد أصبح شريكا لنور الدين فى منطقة تهامة . وهكذا لم يجد نور الدين بدا من الحرب، فزحف من زبيد إلى المهجم(٥)

---

(١) ابن حاتم : السمط ٤٤ « أ » .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٦٠ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٨ ، قرة العيون ٦٧ « أ » .

(٤) ابن حاتم : السمط ٤٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٩، العسجد ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ «أ» .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٥ «أ» .

في ستين ألف مقاتل (١) ، ومما يدل على حصانة هذا الحصن ومناعته أنه لم يكتف بتلك القوة الكبيرة ، بل لجأ إلى سلاح المال لشراء ولاء القبائل، وخاصة تلك التي اعتمد يحيى بن حمزة عليها ، وأنفق في ذلك أموالا كثيرة (٢)، لهذا لم يكد يعمل حتى استقبلته القبائل وانضوت تحت لوائه ، كما تخلت جموع الموالين ليحيى بن حمزة عنه ، مما يسر لنور الدين مهمة استرداد جبل مناير من غير قتال (٣) . وتسلم عدداً آخر من المدن والحصون مثل حجة والخلافة وما إليها (٤) . فلما عاد نور الدين إلى زبيد جاءه مندوبو الأشراف معتذرين عما حدث ، مقرين له بالطاعة (٥) ، مسلمين له بما استرده منهم من البلاد ، وتم الصلح على ذلك (٦) .

وهكذا يتضح أن محاولة الزيدية الاستيلاء على كوكبان ، ثم تحصينهم

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ «أ» .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٩ — ٦٠ ، المسجد ص ٢٣١ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٨ و ٦٠ ؛ المسجد ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، العقد الفاخر جـ٢ ص ٦٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٧ «أ» ، بامخرمة تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٦١ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ «أ» .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ «أ» .

لجبل منابر ، كان بهدف السيطرة والتوسع ، وأنهم لم يكونوا جادين عندما دخلوا فى طاعـــة نور الدين . وكان اختيارهم لهذين الموقعين تجسيدا لتلك المطامع ، فحصن كوكبان يسيطر على جزء كبير من منطقة الجبال الشمالية بل ويهدد صنعاء نفسها ، وجبل منابر يتحكم فى قسم كبير وهـام من منطقة وسط تهامة ، مما يهدد بضياع المنطقة الساحلية الواقعة شمالها .

٤ ـ تثبيت سيطرة نور الدين على اليمن :

وفى اطار العمل على تدعيم واستقرار الأحوال الداخلية فى اليمن ، قام نور الدين بانفاذ الحملات إلى العديد من المناطق ، ففى سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩ م سير حملة إلى بلاد الشحر بساحل حضرموت فاستولت عليها[١] . وفى العام التالى أرسل حملة أخرى إلى حضرموت ، ولكنها عادت دون تحقق أن هدفها ، وبعد أن أوقعت القبائل بها الهزيمة وقتلت قائدها وعددا من أفرادهـا[٢] . وفى نفس العام استولى نور الدين على حصن الكميم[٣] . واســترد فى سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٣١ م حصن حلب ـ بالقرب من ثلا إلى الشمال من كوكبان[٤] ـ

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٦٤ ، المسجد ص ٢٣٣ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ورقة ٦٦ ب ، ابن الديبع : قـــرة العيون ورقة ٦٨ ب (الكميم ، حصن من بلاد الحدا) زبارة أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦١ (إلى الجنوب من صنعاء وعلى الطريق الموصل بينها وبين مدينة ذمار) EL - Khazrejiyy: The Pearl - Strings, Vol. III, p. 53, Note,. 315.

(٤) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦٢ .

من الشريف محمد بن يحيى بن حمزة [١] .

وواصل نور الدين تسيير حملاته السنوية ، فأغار على حصن السوا [٢] ويمين [٣] ومنيف [٤] . وكان قد غضب على عمار بن السبائي واليه عليها ، فقتله سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م واستولى على حصونه [٥] وفي العام التالي استولى على حصن عتمة [٦] ، ثم تابع حملاته فتسلم في سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م حصن حفاش [٧] . وفي سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م استولى على حصن

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٦ « أ » .

(٢) السوا ، حصن على جبل صبر من أعمال تعز (Kay ; yaman, p. 245) .

(٣) يمين ، حصن من حصون المعافر (الحجرية) إلى الشمال الغربي من عدن (بهجة الزمن ص ٤٥ « أ » ، الخزرجي : العسجد ١٧٤) .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٦٧ (منيف حصن من حصون مخلاف المعافر على جبل صبر)

EL – Khazrejiyy : op. cit. p. 78, Note 459 .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٤ ، العقد الفاخر الحسن جـ٢ ص ٦٦ ب.

(٦) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٦ ب . (عتمة ، حصن من الحصون المعدودة في اليمن ، ويضم أعمالا كثيرة ، ويعرف ببلد السلاطين ، وهم قوم من خولان ، قال عنهم الخزرجي ، بأنهم أهل رئاسة متأثلة ومكارم مشهورة (العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٢٩ « أ ») .

(٧) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٦ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧١ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ ب . (وحفاش من المعاقل المشهورة على جبل باسمه قريب من ناحية الخلافة (الجندي : السلوك ص ٣٧١) .

سماوة[١] وبلاد خولان[٢]، كما زحف إلى بلاد علوان الجحدرى الواقعة فى شرق اليمن - فى نفس العام - وطرده منها ، وكان الشريف الزيدى تاج الدين محمد بن يحيى بن حمزة قد جاءه فى كثير من أتباعه لامداده ومعاونته ضد علوان ، فأعاد نور الدين إليهم حصون جحجة وزادهم عليها مناطق أخرى مكافأة لهم على معاونتهم له[٣].

وفى سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٨ م استولى نور الدين على جبل العوادر[٤]، ثم توجه إلى تهامة للقضاء على حركة التمرد التى قام بها المعازبة[٥]. وهكذا سيطر نور الدين على جميع مناطق اليمن باستثناء عدد قليل من البلدان والحصون[٦].

---

(١) سماوة ، قلعة حصينة على جبل وصاب بالقرب من زبيد
EL - Khazrejiyy : op. cit., p. 59, Note, 344 .

(٢) ابن حاتم : السمط ٤٦ ب ، الخزرجى : العسجد ٢٣٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٨ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى جـ ١ ص ٤٢٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٥ « أ » .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٧ « أ » ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٧٤ ، العسجد ٢٣٧ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ « أ » ، (العوادر ، قبيلة تقيم على جبل سورق إلى الشرق من الجند)
EL- Khazrejiyy ; op. cit, p. 61, Note 352 .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة (والمازية ، قوم يسكنون المنطقة الواقعة بين مدينة القرشية وزبيد (الخزرجى : العسجد ٤٤٩) .

(٦) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٧٣ ، العسجد ٢٣٧ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٧ « أ » .

٥ - استغلال الشريف الزيدى أحمد بن الحسين الخلاف القائم بين بنى رسول للدعوة للإمامة :

كان السلطان الرسولي نور الدين قد ولى ابن أخيه الأمير أسد الدين محمد ابن بدر الدين الحسن بن على بن رسول على صنعاء ، وذلك بعد أن استولى عليها فى أواخر سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م من الأمير نجم الدين أحمد بن أبى ذكرى نائب المسعود (١) ، وظل أسد الدين ينوب عن عمه فى ولاية صنعاء منذ أعلن استقلاله باليمن عن الأيوبيين (٢) إلى أن تخلص من أكثر الأخطار الخارجية ، وأقر قواعد ملكه داخليا ، وعندئذ عزم على عزل ابن أخيه عن صنعاء (٣) ، وذكر ابن حاتم أن ذلك كان بإيعاز من زوجته -أم قطب الدين- التى أرادت أن يكون ابنها الفائز قطب الدين نائبا لأبيه على صنعاء بدلا من أسد الدين محمد بن الحسن (٤) ، وقيل إنما يرجع السبب فى رغبة نور الدين فى عزله إلى ما بلغه من أمور خوفته منه (٥) ، وأنه لهذا قرر عزله ، وتولية ابنه المظفر يوسف بدله (٦).

---

(١) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٩ ص ١٧٨ .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٥٤ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٧ «أ» .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ١٥ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية

(٥) ابن حاتم السمط ٤٧ أ.

حـ ١ ص ٧٤ ، المسجد ص ٢٣٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ « أ » .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر لوحة ٤٢ « أ » ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٨ .

والقول بأن نور الدين كان يعمل على تولية ابنه المظفر، يحتاج إلى أسانيد تدعمه، ذلك أن أم قطب الدين ـ واسمها بنت جوزة إبنة الأمير سيف الدين سنقـــر الأتابك، وزوجة المسعود يوسف بن الكامل ـ كان نور الدين قد تزوجها [١] بعد استيلائه على اليمن ٦٢٨ هـ / [٢] ١٢٣١ م، وشغف بهـــا وأنجب منها ولداه قطب الدين الفائز والمفضل، وكانت تبذل قصـــارى جهدها لاستمالة نور الدين لولديها، دون ابنه المظفـر الذى كانت تعمل على على إبعاده مع أنه أكبر أبنائه، فكانت النتيجة أن تولى المظفر يوسف نائبا لأبيه على مدينة المهجم. وغضب المظفر لهذه المؤامرة التى دبرتها زوجة أبيه، وعزم على التوجه إلى بغداد ليشكو إلى الخليفة المستعصم العباسى من أبيه الذى أقصاه وحابى العسكر للمفضل الذى يصغره فى السن [٣].

ومهما يكن من شيء فإن نور الدين استدعى ابن أخيه أسد الدين عندما عزم على عزله، وطلبه فى أواخر ٦٤٥ هـ/١٢٤٨ م بحجـة أنه يريد أن يزوجه من ابنته. فلما وصله عرض عليه أن يعوضه عن صنعاء بلحج وأبين وحضرموت والشحر، ولكنه رفض، فعرض عليه راتبا سنويا قدره خمسين ألف دينار، فرفض أيضا وقفل عائدا إلى صنعاء [٤]. وقيل أنه لم يقابل عمه،

---

(١) الخزرجى: العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٦ «أ».

(٢) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧، العسجد ٢٢٧، ابن الديبع قرة العيون ٦٥.

(٣) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ـ ٨٩، العسجد ص ٢٤٦، ابن الديبع: قرة العيون ٧١ ب.

(٤) ابن حاتم: السمط ٤٧ «أ».

لأنه ما أن وصل حتى علم بما اعتزم عمه القيام به من عزله عن صنعاء ، فتخوف وفر هاربا فى طريقه إلى صنعاء (١) بغير مقابلة عمه أو استئذانه . فأرسل نور الدين من يسبقه ويعترض عليه طريقه إلى صنعاء ، ولكنه عدل عن الطريق المعتاد وسار فى طريق قفر(٢) ، ودخل صنعاء فى أول عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م(٣) وهو غاضب من عمه ناقم عليه .

وفى سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ قام الشريف الزيدى أحمد بن الحسين القاسمى إماما للزيدية باليمن (٤) ، ولما كان أسد الدين مغاضبا لعمه ويخشى انتقامه ، لهذا فقد أرسل إلى الامام يعرض الانضمام إليه والتحالف معه ضد عمه (٥) .

---

(١) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ لوحة ٩٥ « أ » .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥١ ب ــ ٥٢ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٧ ، العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٧٤ ــ ٧٥ ، ابن الديبع: قرة العيون ٦٩ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ لوحة ٩٥ « أ » .

(٤) هو الامام أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن عبد الله بن القاسم ابن أحمد بن أبى البركات بن أسماعيل بن أحمد بن القاسم بن محمد بن القاسم ابن ترجمان الدين طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب ، (الخزرجى : طراز الزمن جـ ٢ ص ٩٠ - ٩١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٥٢) وتمت إمامته بحصن ثلا فى منتصف صفر سنة ٦٤٦ (ابن حاتم : السمط ٤٧ « أ » ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٧ « أ » ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٥ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥٢ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ لوحة ٦٧ «أ» ، العقود جـ ١ ص ٧٩ .

وهكذا أسهم أسد الدين بعمله هذا في فتح باب الصراع مع الزيدية من جديد، بعد هدوء استغرق ثماني عشرة عاما منذ استقلال نور الدين بحكم اليمن - باستثناء ماقام به بنو حمزة سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م - فلما علم نور الدين بهذه التطورات الخطيرة ، من قيام إمام وانضمام أسد الدين إليه ، تجهز في عسكر كثيف وتوجه لمحاربتها [١] . فلما وصل إلى ذمار - الواقعة إلى الجنوب من صنعاء - في ربيع الأول ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م ؛ أمر باستدعاء أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول من صنعاء ، وأرسل له ذمة وأمانا مع أخيه فخر الدين أبي بكر بن الحسن الذي استطاع إقناعه بالتوجه معه إلى عمه وتجديد العهد له ، والاعتذار له عما بدر منه ، وفعلا عفا نور الدين عنه وأكرمه وأقره علي صنعاء [٢] ، وتوجه الجميع إليها فوصلوها في الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م [٣] .

أما الإمام أحمد بن الحسين فقد كان يتابع - في حصن ثلا [٤] - تجهيز

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٦ .

(٢) ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار لوحة ٥٤ .

(٣) ابن حاتم : السمط ٤٧ ب (وذكر الخزرجي أن دخول نور الدين إلى صنعاء كان في الحادي والعشرين من الشهر ، انظر العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٦ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٦٧ «أ») .

(٤) ثلا ، حصن منيع إلى الشمال من كوكبان (الواسعي : البدر المزيل للحزن ص ٢٤) وهو على بعد ثلاث فراسخ من صنعاء (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ٢ ص ١٩٣) .

الحملات للاغارة على المنـاطق الموالية للسلطان نور الدين (١) . ولهذا لم يكد نور الدين يستقر في صنعاء حتى عقد العزم على السير بقواته لمحـــاربة الامام والقضاء على دعوته قبلما ستفحالها (٢) ، فخرج من صنعاء في الثـــاني من جمادى الأولى سنة ٩٤٦ هـ/ ١٥٣٩م (٣)، وحط بقواته قرب سفح ثلاء ، ودار قتال عنيف بين الجـانبين ، شمل المنطقة ، وقتل من أتبـــاع الإمام سبعون رجلا (٤) .

وتابع نور الدين حملاته على المنـــاطق الموالية للامام ، وانتقم منهم ، وأخرب وأتلف كثيرا من حصونهم ومزارعهم (٥) . وظل مقيما في صنعاء مايقرب من عام كامل يجهز الحملات للاغارة على الإمام وأعوانه من الزيدية والقبائل الموالية له ، فتارة يقود الحملات بنفسه ، وأخرى ينيب ابن أخيه أسد الدين أو غيره من كبار أمراء الأجنـاد (٦) . وعلى الرغم من العنف والقسوة التي اصطنعتها قوات نور الدين مع الزيدية ، إلا أن القبائل الموالية

---

(١) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن لوحة ٥٢ «أ» .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٨ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص٦٧ «أ» (أما ما أورده الخزرجي في العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٧٦ من أن عدد القتلى كان تسعون رجلا ، فيبدو أن ذلك تصحيف من الناسخ في الأصل المخطوط الذي اعتمده الناشر لطبع الكتاب) .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٧٧ ، ٨٠ ؛ العسجد ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ٦٩ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٤٨ «أ» .

للامام لم تذعن بالطاعة للسلطان ، واستمرت مقاومتها العنيدة فى مساندة الامام ودعوته [1] . وأمام هذا الصمود الذى استغرق وقتا طويلا ، رأى نور الدين أن يعود إلى تعز لترتيب أمور دولته على أمل فى جولة أخرى وغادر صنعاء فى الثالث من ربيع الأول ٦٤٧ ﻫ / ١٢٥٠ م [2] . وتوجه معه ابن أخيه أسد الدين فى وداعه إلى ذمار [3] .

ومما يذكر أن الزيدية استغلت خروج أسد الدين من صنعاء وتغيبه فى وداع السلطان ، وحاولت قواتهم الاستيلاء على صنعاء ، ولكن حاميتها صدتهم وردتهم عنها [4] . كما قامت القبائل الموالية للامام بقطع طريق العودة على أسد الدين ، ولكنه استطاع الوصول إلى صنعاء قهرا [5] . واستمر ضغط الإمام وقواته على أسد الدين ، ولكن انقسام الزيدية بعد ذلك ووقوع الحرب بين الإمام وبنى حمزة خفف كثيرا من الخطر الذى تعرضت له صنعاء [6] .

---

(١) زيارة : أئمة اليمن جـ١ ص ١٥٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ٨٤ب ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ٢ ص ٩٧ «أ» .

(٣) الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ٢ ص ٩٥ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط الغالى الثمن ورقة ٤٨ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨١ ، العسجد ص ٢٤٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ «أ» .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ «أ» .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٨١ ، العسجد ص ٢٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ «أ» .

أما نور الدين فإنه ما كاد يواصل تقدمه جنوبي صنعاء حتى إعترضته قبائل تلك المنطقة مع عدد كبير من قوات الامام تقـدر بعشرة آلاف رجل (١) ومائة وخمسين فارساً (٢) . فتصـدى لهم نور الدين بعسكره وهزمهم في ربيع الآخر سنة ٦٤٧ هـ / يوليو - أغسطس ١٢٤٩ م، وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل (٣) ، ثم واصل طريقه إلى تعز . (٤)

٦ - مقتل السلطان نور الدين :

ظل نور الدين مقيما في تعز إلى حلول عيد الفطر (٥) ، ثم تقدم بعده إلى مدينـة المهجم ، وفي هذه الأثنـاء بلغه عودة علوان الجحدري للعصيان مرة أخرى ، فعزم على السير لمحاربته والقضاء على حركته ، فغادر مدينة المهجم في شهر ذي القعدة ٦٤٧ هـ(٦) / فبراير سنة ١٢٥٠م ، فلما وصل إلى مدينة الجند وثب عليه مماليكه ،وقتلوه في قصر الجند(٧) في ليلة السبت التاسع من ذي القعدة سنة٦٤٧ هـ/١٥ فبراير سنة ١٢٥٠م (٨).

---

(١) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٨ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨١ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن حاتم : السمط ٤٨ ب .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر ٤٩ ، أ ، .

(٧) زبارة : أئمة اليمن ص ١٥٨ .

(٨) ابن حاتم : السمط ورقة ٤٩ ، أ ، ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية =

وقيل أن مقتله تم بمؤامرة دبرها له أسد الدين ابن أخيه (١) الذى كان مهدداً بالعزل عن صنعاء ، وكان يتوقع أن يقصيه عمه عنها فى يوم من الأيام، ولهذا اتفق مع أخيه فخر الدين أبى بكر بن الحسن بن على بن رسول ، ودبر الخطة معه ، واتفقا مع مماليك نور الدين على قتل ولى نعمتهم . وبذلالهم الوعود البراقة والأموال الجزيلة (٢) ، حتى قيل أنهم كانوا قد عزموا على تنفيذ مؤامراتهم فى صنعاء ، ولكنهم أرجأوا التنفيذ (٣) حتى تم لهم ذلك فى مدينة الجند .

وهكذا مات نور الدين مقتولا بيد مماليكه بعد ملك دام أكثر من ثمانية عشر سنة ـ خلاف فترة نيابته عن المسعود ـ قضاها فى كفاح متواصل من من أجل تدعيم استقلاله وترسيخ قواعد دولته وإقرار الأمن فى ربوعها ، وتأمينها باستيلائه على الحجاز .

= ج ١ ص ٨٢ ، المسجد ص ٢٤١ ، العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ٦٧ « أ »، الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٠ « أ » .

(١) الخزرجى: المسجد ص ٢٤١ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٠ « أ » .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ٥٢ « أ » باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٧٨.

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ٥٢ ب .

الفصل الثانى

دولة بنى رسول بعد نور الدين

اولا ــ عصر المظفر يوسف :

١ ــ الوضع المتفجر بعد وفاة نور الدين وموقف المظفر يوسف من الطامعين فى السلطنة من بنى رسول : ــ

أحدث مصرع نورالدين عمر بن على بن رسول هزّة عنيفة فى بلاد اليمن ، وعرّض دولة بنى رسول الناشئة للانهيار ، فلم تكن الظروف مهيأة لإقامة خلف له ، لعدم وجود أحد من أبنائه معه فى مدينة الجند عند مقتله حتى يمكن مبايعته بالسلطنة ، فإبنه الأكبر المظفر يوسف كان نائباً له فى مدينة المهجم وكان موجوداً فيها [1] آنذاك . أما ابنه المفضل قطب الدين ، فكان أبوه قد ولاه على مدينة المحالب [2] ، ولكنه آثر أن ينيب عنه فيها أحد أتباعه ، وظل مقيما فى تعز مع والدته وإخوته [3] .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « أ » ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الخزرجى : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ١٤٦ (ب) .

(٢) المحالب ، مدينة فى تهامة بالقرب من المهجم ، وتقع على خط عرض ٢٠َ ر١٥° شمالا ، وخط طول ر٤٣° شرقا تقريبا . (El-Khazrejiyy : The Pearl-Strings, Vol. III, 3, p. 50, Note, 294).

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « أ » .

وكان الموقف بعد مقتل نور الدين في الحق خطيراً ويهدد بالإنقسام والتفتت ، فالمظفر يوسف كان يعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في السلطنة بعد أبيه باعتباره أكبر أبنائه. أما فخر الدين أبو بكر بن الحسن بن علي بن رسول ابن شقيق نور الدين، فكان واليا على رمع[١] ، وطمع في الاستيلاء على السلطنة ، في حين استغل أخوه أسد الدين محمد القرصة واستقل بولاية صنعاء وأخذ يعمل على مساندة أخيه[٢] . أما المفضل قطب الدين بن نور الدين ، فقد كان يستند في حقه في السلطنة على ما قام به أبوه من تحليف العسكر له في حياته[٣] . وبالإضافة إلى هذه المطامع كان الزيدية يتطلعون إلى تمكين نفوذهم في البلاد ، فقد تمكن الإمام الزيدي أحمد بن الحسين من السيطرة على المناطق الواقعة شمالي صنعاء مستهدفا التوسع على حساب بني رسول المتنافسين على السلطنة[٤] . مما كان يهدد بزوال دولة بني رسول .

وكان الموقف يحتم على المظفر يوسف ـ صاحب الحق الشرعي في السلطنة ـ أن يتصدى لكل هذه المخاطر والعمل على التخلص من منافسيه وتثبيت أركان عرشه . وتدل الأحداث على أن خطته كانت تهدف إلى تحقيق السيطرة على

---

(١) رمع ، وادى يقع إلى الشمال من وادى زبيد EL - Khazrejiyy : op. cit. p. 23, Note, 117).

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « أ ».

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٣ « أ » ، الخزرجي : العقد الفاخر الحسن جـ ٢ ص ١٤٦ (ب).

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٩ ، العسجد المسبوك ص ٢٤٦ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٤٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ « أ » .

أكبر مساحة ممكنة من البلاد ، مع عدم الدخول ـ بقدر الإمكان ـ في حرب مع أكثر من قوة في وقت واحد ، سعيا إلى التخلص من منافسيه كل على حدة . وهكذا شرع في تنفيذ هذا المخطط وغادر المهجم بعد أيام من مقتل أبيه متوجها إلى زبيد [١] ، لمواجهة خصومه الواحد تلو الآخر .

أ ـ صراع المظفر ضد أبناء عمه :

كان قتلة نور الدين قد انحازوا ـ مع بقية مماليكه ـ إلى فخر الدين أبي بكر بن الحسن بن علي بن رسول [٢] ، وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المعظم [٣] ، وعندئذ أسرع في جوعه للاستيلاء على زبيد ، ولكنه ما أن بدأ الحصار حتى قوبل بمقاومة شديدة من أهلها ، الذين ـ رغم اختلاف نواياهم ـ أجمعوا على عدم تمكينه من مدينتهم . إذ كان بعضهم يقاومون الحصار وفاء بالقسم الذي ارتبطوا به مع نور الدين لابنه المفضل [٤] ، في حين صمد الآخرون ومنهم الدار الشمسي ـ شقيقة المظفر التي كانت موجودة وقتئذ بزبيد ـ [٥] من أجل حماية المدينة حتى يصلهم المظفر يوسف . ومن الجدير

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥١ (ب) ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٠٦ (ب)، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧١ (ب).

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » . الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ .

(٤) ابن حاتم: السمط ص ٥٢ « أ ».

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ « ب » .

بالذكر أن الدار الشمسي قد لعبت دوراً كبيراً فى تنظيم المقاومة والدفاع عن المدينة ، كما بذلت الأموال الكثيرة [١] كسبا لولاء سكان المدينة لأخيها المظفر يوسف[٢] ، وأرسلت إليه تستحثه على الإسراع لتسلم المدينة قبل سقوطها [٣].

أما المظفر ، فقد بلغته تلك الرسالة بعد خروجه من مدينة المهجم . وكان قد كتب إلى رؤساء القبائل ومشايخ البلاد ولكل من استشعر منه ميلا إليه ، وطلب منهم الاستعداد لملاقاته والسير معه ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، ونجح فى إغراء أعداد كبيرة من الجند ورجال القبائل بالانضمام إليه [٤] .

وأعلن والي حرض – فى شمال تهامة – الطاعة له ، وتبعه عدد آخر من ولاة منطقته ، وتوجه المظفر فى هذه الجموع إلى زبيد [٥] ، التى كانت قد تمكنت من الصمود رغم كثرة المحاصرين لها . وهكذا باءت محاولات فخر الدين فى الاستيلاء عليها بالفشل [٦] ، ولم يلبث أن فك الحصار عنها عندما

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٣ « أ » ، الجندى : السلوك ص ٢٣٣ ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٦٨ « أ » ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٥ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٢ « أ » .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٨٨ ، العسجد ص ٢٤٥ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٤٦ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧١ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجه الزمن ص ٥٣ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٤٦ – ٢٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥١ ب .

(٦) الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٦ ب .

اقتربت قوات المظفر منها [١]، وغادرها بعسكره فى طريقه إلى صنعاء للانضمام إلى أخيه أسد الدين محمد والعمل سويا للسيطرة على البلاد .

وبانسحاب فخر الدين أمكن للمظفر يوسف أن يدخل زبيد فى موكب عظيم من غير حرب [٢] ، وذلك فى غرة ذى القعدة ٦٤٧ هـ/ [٣]فبراير ١٢٥٠م، وقيل فى العاشر منه [٤] ، فاستقبل استقبالا حافلا ومدحه الشعراء ، وأقسم أهل المدينة وعسكرها بالولاء والطاعة له [٥] . ثم أنعم المظفر على رؤساء القبائل الذين ساندوه ، وأجزل العطاء لهم ولمن معهم ، وسمح لهم بالعودة بعد أن استقرت له الأمور فى المدينة [٦] وبعد أن تخلص من مخاطر فخر الدين باعتقاله، فقد كان المظفر قد أعد العدة لاعتراض طريقه إلى صنعاء ، وفى نفس الوقت قام بعض من معه من المماليك بمراسلة المظفر للدخول فى طاعته ، فأمنهم المظفر واشترط عليهم القبض على فخر الدين أولا [٧] ، فاعتقلوه وقيدوه وسلموه إليه

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٩٠ ، العسجد ص ٢٤٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٢ « أ » .

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٣ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب ، الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٦ ب ، ابن الديبع: قرة العيون ص ٧٢ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٩٢ ، العسجد ص ٢٤٨ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٥٣ ب .

(٧) ابن حاتم :السمط ص ٥٣ « أ » ، الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٦ ب .

فى مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ / مارس ١٢٥٠ م فتحفظ عليه [١] .

وباستيلاء المظفر على زبيد أصبح مسيطرا على تهامة بأسرها [٢] ، ولم يشأ فى هذه المرحلة الاصطدام بأى من القوى الأخرى المنافسة ، وفضل العمل على السيطرة على أكبر قدر ممكن من المناطق التى لم يصل إليها نفوذ منافسيه ، حتى إذا ما تحقق له ذلك ، سهل عليه بسط سلطانه على بقية المناطق المحدودة الأخرى . وقد ساعده على ذلك وصول كثير من المكاتبات من مختلف المناطق بطلب الدخول سلميا فى طاعته ، ومن هذه المكاتبات رسالة من والى عدن يطلب اليه فيها سرعة الوصول لتسلم المدينة قبل أن يسبقه إليها أيجوه المفضل [٣] . ولهذا توجه المظفر إلى عدن فاستقبله واليها وأهلها استقبالا حافلا ، ودخلها فى موكب عظيم فى صفر ٦٤٨ هـ / مايو سنة ١٢٥٠ م [٤] . وتابع المظفر تقدمه فاستولى فى نفس الشهر على المناطق والحصون المحيطة بعدن مثل لحج وأبين [٥] وحصون عين ومنيف والسوا بالإضافة إلى حصون المعافر جميعها بغير قتال [٦] .

ب ـ صراع المظفر ضد أخيه المفضل قطب الدين :

كان السلطان نور الدين عمر قد قام فى أواخر عهده ـــ وبتأثير زوجته

---

(١) ابن حاتم : السمط ٥٢ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٣ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٤ ، العسجد ص ٢٥٠ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٥ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ « أ » .

(٥) ابن حاتم السمط ص ٥٦ « أ » ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٤ أ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٩٤ ، العسجد ص ٢٥٠ .

بنت جوزة — بتحليف العسكر لابنها المفضل قطب الدين [١]، واقصاء المظفر عن ولاية العهد بتوليته على مدينة المهجم. وهكذا يصبح عرش السلطنة حقا للمفضل بعد أبيه، وخاصة وأن أباه لم يعهد بولاية العهد لغيره، فكان لذلك أسوأ الأثر فى نفس المظفر الذى كان يرى أن السلطنة حق طبيعى له بعد أبيه باعتباره أكبر أبنائه. ولهذا فكر فى التوجه إلى بغداد لعرض مظلمته على الخليفة العباسى كى يتدخل لانصافه، ولكنه عدل عن عزمه لوفاة أبيه المفاجئة [٢]، وفضل البقاء للنضال حتى لا يتيح الفرصة بسفره لأخيه أو غيره من الطامعين للاستيلاء على السلطنة دونه.

أما المفضل، فكان موجودا فى تعز عندما بلغه نبأ مقتل أبيه، فبادر بالتحصن فى قلعة المدينة بأهله وأتباعه [٣]. وكانت مجموعة من المماليك قد وافته بتعز عقب مقتل أبيه، والتمسوا منه أن يؤمنهم على أنفسهم وأن

---

(١) كان نور الدين قد تزوج بعد استقلاله بملك اليمن بأرملة المسعود يوسف آخر الأيوبيين فى اليمن والمعروفة ببنت جوزة ابنة سيف الدين سنقر الاتابك المعروف، فأنجبت له ولديها المفضل قطب الدين والفائز أحمد. وكانت تعمل على تقريبهما دون غيرهما، وتمكنت من التأثير عليه وأقنعته بتحليف العسكر لابنها المفضل حتى تضمن استمرار ملك اليمن فى نسلها. (ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٣ «أ»، الجندى: السلوك ص ٢٤٣، الخزرجى: العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٦ ب، الأهدل: تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ».

(٢) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٣ «أ»، الخزرجى: العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٨٨ — ٨٩، العسجد ص ٢٤٦، ابن الديبع: قرة العيون ص ٧١ ب.

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٥٠ «أ».

يدخلوا في طاعته . والظاهر أن المفضل لم يطمئن إليهم ، ولهذا رفض مطلبهم ، فتوجهوا إلى زبيد وانضموا إلى فخر الدين الذى كان يحاصرها [(١)] . فلما استولى المظفر على زبيد واعتقل فخر الدين ، انزعج المفضل وأتباعه فترك حامية فى تعز لحمايتها [(٢)] ولجأ إلى حصن الدملوة لمناعته [(٣)] ، وأقام فيه يرقب الموقف إلى أن تواتيه الفرصة للسيطرة على البلاد . إلا أن المظفر كان يسلك معه ما يعرف اليوم (بالحرب النفسية) ، فكان يتعمد إبلاغه أولا بأول بكل ما يستولى عليه من مدن وحصون (٤) مستهدفا تحطيم معنوياته وتدمير آماله فى اعتلاء عرش السلطنة .

ولم يكد يتحقق للمظفر السيطرة على تلك المناطق ، وترجح كفته حتى تحول للقضاء على منافسة أخيه المفضل ، وتقدم إلى مخلاف المعافر شمالا ، وبدأ بالاستيلاء على مدينة جبا [(٥)] ، فكانت أول بلدة يخطب له فيها من جبال اليمن [(٦)] . ومن هناك واصل زحفه إلى تعز [(٧)] . وكان المفضل قد أعد حملة

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٥ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥١ «أ» .

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ ب .

(٥) جبا ، مدينة من مخلاف المعافر — بين لحج والدملوة — وتقع على خط عرض ١٣ ˝ ٣ ١٣° شمالا ، وخط طول ٤٠ ˝ ٤٤ ٤٤° شرقا تقريبا
El-Khazrejiyy op. cit., p. 78, Note 261

(٦) الجندى : السلوك ص ١٩١ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ح ١ ص ٩٤ ؛ العسجد ص ٢٥٠ .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ ب ، الجندى : السلوك ص ٣٠٢ ، الخزرجى : العقد الفاخر ح ٢ ص ٣١ «أ» ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٩٠ «أ» .

لاعتراض طريقه اليها ، ولكن المظفر تمكن من إغراء أتباع أخيه ، ونجح فى ضم مجموعة كبيرة منهم اليه ، وتفرق الباقون . وهكذا تمكن المظفر من الوصول إلى تعز وقام بمحاصرتها فى ربيع الأول ٦٤٨ هـ/[1] يونيه ١٢٥٠م. وانتهى الأمر بالاستيلاء عليها بخديعة فى جمادى الأولى (أغسطس) من نفس العام ، بعد أن أمن واليها علم الدين سنجر الشعبي ومن معه[2] . واتخذ المظفر من تعز مقرا بدلا من زبيد [3] ، ليتمكن منها من استكمال السيطرة على مايجاورها من المدن والحصون ، واستطاع فى شهر رجب سنة ٦٤٨ / أكتوبر ١٢٥٠ م الاستيلاء على حصنى حب [4] وخدد بغير قتال [5] .

وعلى الرغم من مناعة وقوة تحصينات حصن الدملوة الذى تحصن فيه المفضل بآله وأتباعه ، فقد حاصره المظفر فى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م . ولما كان من الصعب الاستيلاء عليه عنوة فقد بعث رسالة إلى أهل الحصن رغبهم

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٩٤ ، العسجد ص ٢٥٠ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ «أ» ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ص ٩٥ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص٩٥ ، العسجد ص٢٥١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٧٣«أ» .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب .

فيها بالدخول في طاعته ، وتوعدهم إذا ما استمروا في ولائهم للمفضل [١] وأثبت هذا الأسلوب القائم على الترغيب والترهيب فعاليته ، إذ استجاب له البعض وبعثوا اليه برسائلهم يؤكدون فيها ولاءهم وطاعتهم له [٢] . واضطر المفضل بسبب ماعاناه من شدة الحصار ، وميل الكثيرين ممن معه إلى المظفر ، أن أخذ بمشورة والدته في فتح باب المفاوضة مع أخيه ، وتولت عنه والدته مهمة المفاوضة مع المظفر . وضمانا لعدم المساس بها ، أرسل المظفر بعض الرهائن للاحتفاظ بهم في الحصن لحين عودتها . وكان من الطبيعي أن يوافق المظفر على الصلح [٣] ، ويستجيب لطلب زوج أبيه بجعـــل أبين إقطاعا للمفضل ، وموزع [٤] وحيس إقطاعين لأخيه الفائز أحمد [٥] . ويمكننا اعتبار هذا الاتفاق بمثابة هدنة بين الطرفين . وأيا ماكان الأمر ، فقد أقسم المظفر على عدم التعرض لأخويه بسوء ، وكدليل على حسن نيته أرسل ابنه وابنته وبرفقتها الطواشي ياقوت رهائن بحصن الدملوة [٦] ، وعنـدئذ نزل المفضل

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٠ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦١ «أ» .

(٣) الخزرجي : العقـود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠٠ ، العسجد ص ٢٥٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ ب .

(٤) موزع ، مدينة في تهامة على بعد ١٤ أو ١٥ ميلا من البحر إلى الشرق من ميناء المخا ، وتقع على خط عرض ٢٠ ر ١٣° شمالا وخط طول ٣٢ ر ٤٣° شرقا
El-Khazrejiyy : op. cit. p. 174. Note 952.

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠١ ، العسجد ٢٥٦ .

والفائز من الحصن فاستقبلها المظفر وأكرمها وأقطعها ماتم الاتفاق عليه (١) ، وتوجه المفضل إلى أبين ولكنه لم يستطع البقاء فيها وقرر العودة إلى حصنه (٢) .

وكان المظفر يستهدف من إرسال الرهائن، أن يتمكنوا من تنفيذ ماخططه لهم بالاستيلاء على الحصن سلما عن طريق استمالة المرتبين فيه (٣) . فلما تم لهم ذلك ، استغلوا فرصة نزول أم المفضل وولديها من الحصن (٤) ، وأوقدوا النار في قمته ، وهي إشارة اتفق معهم على القيام بها عند نجاح مهمتهم في السيطرة عليه (٥) . أما المفضل فإنه عندما أيقن بضياع الحصن ، توجه إلي المظفر وطلب منه السماح له بالعودة إليه (٦) ، ولكنه لم يستجب لرجائه ، واستولى عليه في ذي القعدة سنة ٦٥٠ هـ / (٧) يناير سنة ١٢٥٣ م . وفرض

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦١ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ٦١ ب .

(٣) الجندي : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦١ ب .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٤ ب ، الخزرجي: العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠١ ، المسجد ص ٢٥٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ «أ» .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ «أ» ، الجندي : السلوك ص ٢٤٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ «أ» .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠٢ ، المسجد ص ٢٥٧ .

على المفضل وأخيه ووالدتها الاقامة فى ذى هـريم [١]، ثم أسكنهم مدينة حيس [٢] .

٢ — موقف المظفر من الزيدية :—

أ - تدخل الزيدية فى الصراع القائم بين بنى رسول :—

أثبت المظفر مقدرة فائقة فى الاستيلاء على عرش السلطنة ، فعلى الرغم من تعدد التيارات المعارضة له ، فإنه أتقن التخطيط وأحسن التنفيذ وأحكمه ، ووفق فى التخلص من جبهتين من جبهات المعارضة الأربعة ، وبقيت أمامه جبهتان يمثل إحداها ابن عمه أسد الدين محمد بن الحسن بن على بن رسول ، ويمثل الأخرى القوى الزيدية بزعامة الامام أحمد بن الحسين .

أما أسد الدين محمد فكان دائم الخروج عن طاعة عمه السلطان نور الدين [٣]، وقد اتهم بتدبير قتله بالاشتراك مع أخيه فخر الدين طمعا فى الاستيلاء على البلاد [٤]، كما استقل بولاية صنعاء ، بينما استهدف أخوه فخر الدين الاستيلاء على زبيد واتخاذها قاعدة لاستكمال السيطرة على بقية البلاد . إلا أن إخفاقه فى ذلك وما أعقبه من اعتقاله أضعف مركز أسد الدين فى صنعاء ، لاسيما بعد أن تمكن المظفر من إحكام سيطرته على كثير من المناطق . وهكذا أصبح

---

(١) ذو هريم ، أحد أحياء تعز (ابن حاتم : السمط ص ٦٢ د١٠).

(٢) الجندى : السلوك ص ٢٤٣ ، الاهدل : تحفة الزمن ص ١٥٣ د أ .

(٣) انظر ماسبق ص ١٠٩ وما بعدها .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٨٢ ، العسجد ص ٢٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ د١ .

أسد الدين في موقف لا يحسد عليه، إذ كان المظفر يتهدده من الجنوب والقوى الزيدية من الشمال .

ومن الجدير بالملاحظة أن القوى الزيدية كانت قد أبدت تأييدها للدولة الرسولية بادىء ذى بدء ، وكان لتعاونهم مع مؤسسها أعظم الأثر فى إقدامه على الاستقلال بملك اليمن وسلخها عن الدولة الأيوبية . وظلوا على ولائهم لنور الدين متمسكين بعهدهم له . ولم تلبث الأوضاع أن تغيرت فى أواخر عهده ، بعد أن أجمع الزيدية على امامة أحمد بن الحسين وانضمت إليه القبائل وقوى أمره وأصبح يشكل خطرا على دولة بنى رسول . وقد اغتنم الامام فرصة الخلاف القائم بين السلطان نور الدين وابن أخيه أسد الدين واليه على صنعاء ، فشن عددا من الهجمات وهدد صنعاء نفسها عدة مرات، واستولى على عدد من المواقع التابعة لنور الدين شمالها ، وأخفقت محاولات نور الدين فى القضاء عليه أو التخلص من اخطاره [1] .

وعلى الرغم من الأخطار الكبيرة التى كانت تتهدد دولة بنى رسول فى عهد المظفر يوسف من جانب الزيدية فى الشمال ، إلا أنه لم يكن فى استطاعته تجاهل خطر ابن عمه أسد الدين ، ولهذا رأى المظفر ان يواجه الخطرين معا ، سيما وأن الامام الزيدى كان يهدد أسد الدين فى نفس الوقت . وكان الامام احمد بن الحسين قد ازداد أمله فى الاستيلاء على اليمن بعد مقتل نور الدين ، وأعد للأمر عدته ، فلما تجمع لديه الكثير من القبائل زحف بهم إلى صنعاء ، وأرغم

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٧٥ وما بعدها ؛ المسجد ص ٢٣٧ وما بعدها ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٩ ، أ ، وما بعدها .

واليها أسد الدين على مغادرتها فى جمادى الأول ٦٤٨هـ/ [١] أغسطس ١٢٥٠م، والالتجاء إلى حصن براش القريب منها للاحتماء به [٢] ، فاستولى الامام عليها بغير حرب [٣]. وتابع حملاته جنوبا واستولى على مدينة ذمار وما جاورها [٤]، ثم عاد لمحاصرة أسد الدين فى حصن براش ، واستمر محاصرا له مايقرب من عام [٥].

وقـــد هيأ الصراع بين أسد الدين والامام للمظفر المجال لتوسيع رقعة نفوذه، كما أتاح له الفرصة لاقرار الأمور فى المناطق الخاضعة له . ومن الواضح أنـه على الرغم من ضخامة حشود الامام العسكرية ، إلا أنه لم يغامر بالتقدم جنوب ذمار حتى لايترك لأسد الدين الفرصة لاستعادة صنعاء أو قطع طريق العودة عليه إليها .

وكنتيجة لاستمرار الحصار على أسد الدين فى حصن براش ، فقـد استقر رأيه على الدخول في مفاوضات للصلح مع الامام ، ليتخلص من هذا الحصار ويتفرغ لمواجهة السلطان المظفر، ولهذا قام بمراسلة شمس الدين احمد ابن الامام عبدالله بن حمزة ليقوم بدور الوسيط فى الصلح بينه وبين الامام [٦]،

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جا ص ٩٥ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ب، الخزرجى: العقود اللؤلؤية جا ص ٩٥.

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٥١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جا ص ٩٦ ، العسجد ص ٢٥١ .

(٦) الخزرجى : العسجد ص ٢٥٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ «أ» .

ولكن شمس الدين كان يحقد على الامام أحمد بن الحسين ، لأنه كان يطمع فى أن تؤول الامامة إليه أو إلى أحد إخوته ، ولكنه اضطر وآله من بنى حمزة إلى إعلان الولاء للامام لاجماع الزيدية على مبايعته ، وإن كان يعمل – فى حقيقة الأمر – على إضعافه والتخلص منه . وقد وجد شمس الدين أن التوصل إلى الصلح بين أسد الدين والامام من شأنه أن يقوى الامام ضد المظفر ، ولذلك قام الشريف الزيدى شمس الدين باقناع أسد الدين بالعودة الى طاعة ابن عمه السلطان المظفر (١) ، وذلك بعد أن يتخلص من الحصار بخديعة الامام بصلح وقتى . ونجحت خطة الشريف وتم عقد الصلح. ومبالغة فى كسب ثقة الامام ودرءا لما قد يتسرب إلى نفسه من عوامل الريبة والشك ، طلب أسد الدين من الامام – تنفيذا لمشورة الشريف شمس الدين – أن يزوده بجيش لمحاربة المظفر (٢)، وإحكاما للخطة أغار فى طريقه على بعض الحصون الموالية للسلطان (٣).

ولم يكد المظفر يعلم بأمر حملة أسد الدين حتى خرج إليه فى جموع لمقاتلة، ولكن بنى حمزة وبنى حاتم بادروا بالوساطة بينهما ، ونجحت مساعيهم فى التوفيق بينهما واقناع السلطان المظفر بالعفو عنه (٤) بهدف التضامن ضد الامام . فلما

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٧ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ «أ».

(٢) ابن حاتم : السمط ص٥٧ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص٧٣ «أ».

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص٩٦ ، العسجد ص ٢٥٢ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص٩٦ ، العسجد ص ٢٥ .

ثم الصلح استقبل السلطان ابن عمه استقبالاحسنا واحتفى به وأكرمه ، وخرج له من الإنعام العظيم ما هاله واستغرق أمله ، وكثر تعجبه منه حتى قال : ليت شعرى ، هل أبقى مولانا السلطان فى خزائنه شيئا ؟ » (١).

وكان المظفر سياسيا بارعا ، فعلى الرغم من تشككه فى نوايا أسد الدين فإنه حرص على استخدامه لمصلحته ، وشغله فى دوامه الصراع ضد الامام ليتفرغ لأحكام سيطرته على البلاد من جهة ، ويقصيه عن دائرة التنازع معه من جهة ثانية . ولهذا جهزه فى حملة لاسترداد صنعاء ، وفشلت قوات الامام فى اعتراض تقدمه إليها واضطر الامام إلى الإنسحاب منها فدخلها أسد الدين واستعاد سيطرته عليها (٢). وتعضيداً له توجه المظفر فى اثره إلى صنعاء فوصلها فى ذى الحجة سنة ٦٤٨هـ/(٣) فبراير ـ مارس سنة ١٢٥١م ، ثم غادرها فى المحرم سنة ٦٤٩هـ/ مارس ١٢٥١م فى طريق عودته إلى تعز ، حيث تمكن أثناءها من الاستيلاء على حصن التعكر (٤). فى حين واصل أسد الدين حملاته ضد الامام .

وكان فى الامكان أن يستمر ولاء أسد الدين للمظفر لولا ما استجد من أحداث أدت الى عودته إلى العصيان ولما يمض شهر واحد منذ دخل فى طاعته .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٨ «أ» .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٨ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ .

وتفصيل القضية أن إخوة نور الدين الثلاثة الذين كان المقيد يوسف - آخر الأيوبيين في اليمن - قد اعتقلهم وأرسلهم إلى مصر، بقى منهم اثنان على قيد الحياة وهما بدر الدين الحسن بن على بن رسول - والد أسد الدين - وأخوه فخر الدين أبو بكر، ويبدو أنه قد تم الافراج عنهما، أو أنهما تمكنا من الافلات من معتقلهما بعد سقوط الدولة الأيوبية في مصر، وتوجها صحبة ركب الحاج المصرى إلى مكة، ومنها رحلا إلى اليمن فوصلاها في آخر المحرم سنة ٦٤٩هـ/(١) ابريل ١٢٥١م.

واتفق وصولهما في فترة حرجة بالنسبة للمظفر الذى كان لا يزال يعمل على تثبيت أركان دولته، وكان مجرد وجودهما في هذه الفترة الحاسمة يعنى فتح باب جديد للصراعات التى كان المظفر في غنى عنها. فلم يكن من السهل أن يسلما بزعامته، إذ يحدوهما الأمل في أن تؤول السلطنة إلى أحدهما، وهكذا كان المظفر على يقين من أنهما لن يمكناه من تصريف الأمور منفرداً إن لم ينازعه كل منهما السلطنة، فقد كان لكل منهما دوره الهام في تاريخ اليمن قبل أن تنمو بعد شخصية أخيهما الأصغر نور الدين - والد المظفر - الذى قد يعزى إليه التحريض على اعتقالهما، حتى لا ينازعاه السلطة. كل ذلك كان يشكل تهديداً خطيراً لعرش المظفر الذى صرف قسماً كبيراً من طاقته في سبيل اقراره.

ويذكر العينى، أن أبناء رسول أطلقوا من معتقلهم في مصر، وأرسلوا

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥ «أ»، الخزرجى: العقود جـ ١ ص ٩٧، العسجد ص ٢٥٣.

إلى اليمن لعزل سلطانها الرسولى ، والقيام بحكم البلاد نوابا لسلطان مصر[١].
وليس هناك ما يؤيد ذلك لأن وصول عمى المظفر كان من غير قوات لمساندتهما
فى القيام بهذا العمل . كما أن وصولهما اقترن بفترة حاسمة فى تاريخ مصر
تقع ما بين سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، وليس من شك فى أن
اليمن لم تكن واردة فى حساب المماليك الذين شغلتهم الأخطار الخارجية
وقتئذ عن مجرد التفكير فى شئون اليمن . ثم أن العينى صاحب هذه الرواية
قد انفرد بذكرها ، ولم يشر إلى المصدر الذى استقاها منه ، مما يجعل روايته
موضع شك .

وأيا ما كان الأمر ، فقد كتم المظفر ما بنفسه من مشاعر الضيق والحنق
على عميه ، وأمر نوابه بحسن تلقيهما عند مشارف اليمن[٢] ، والسير فى
خدمتهما . أما هو فتوجه إلى مدينة حيس لاستقبالهما[٣]. وما أن وصل ركبهما
حتى عجل بالقبض عليهما وأرسلهما معتقلين إلى تعز[٤] حيث كان فخر الدين
أبو بكر بن الحسن بن على بن رسول حبيسا هناك[٥].

أثار هذا الإجراء الوقائى ثائرة أسد الدين على المظفر ، ولهذا عـزم على

---

(١) عقد الجمان مجلد ٥٣ لوحة ٣٢٩ .

(٢) الخزرجى : العقـود جـ ١ ص ٩٧ ، العسجد ص ٢٥٣ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ٧٣ ب .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٤ ا ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٦٢ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٩٨ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٢٥٤ .

تجهيز حملة لتخليص أبيه وعمه فخر الدين ، ولكن المظفر كان قد اتخذ من وسائل الحيطة ما أرغم أسد الدين على العودة إلى صنعاء [١]. وعندئذ لم يبق أمامه بعد خروجه عن طاعة المظفر سوى العمل على مصالحة الإمام أحمد بن الحسين ، ونجح في التوصل إلى ذلك فى سنة ٦٥٠هـ [٢] / ١٢٥٢م ، وكان من شروط هذا الصلح استيلاء الإمام على حصن براش مقابل مائة ألف دينار [٣]، وعلى هـذا النحو نشطت قوات الامام وأسد الدين فى الإغارة على المدن والمعاقل التابعة للمظفر [٤]، ولكن هذا النشاط لم يجد نفعا أمام استبسال قوات المظفر فى القتال وصمودها الرائع [٥].

ورأى المظفر أن يهادن الامام الزيدى مؤقتا حتى يتهيأ له المجال للتخلص من أسد الدين ، واستجاب الإمام للصلح على أن تكون له البلاد العليا [٦]

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ «أ» ، الخزرجى : العقود ج ١ ص ١٠٠ ، العسجد ص ٢٠٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ « أ » . (وذكر ابن عبد المجيد ومن نقل عنه أنه اشتراه بمائتى ألف درهم) بهجة الزمن ص ٥٤ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٠٠ ، العسجد ص ٢٥٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ « أ » .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ « أ » .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ب .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٥٩ ب . Kay : Yaman, p. 230.

ـ إلى الشمال من صنعاء ـ فكان لذلك أثره في التضييق على أسد الدين . وفي نفس الوقت كانت العلاقات قد تدهورت بين أسد الدين والإمام ، لعدم وفاء الإمام بمعظم القيمة التي اشترى بها حصن براش [١] . وهكذا لم يعد أسد الدين يأمن على نفسه من المظفر ومن الإمام معا ، ولذلك انسحب إلى منطقة شرق اليمن [٢] ، وبدأ أتباعه يتخلون عنه نتيجة اجتذاب المظفر لهـم وإغرائهم بالأموال . فلما تفرقت جموعه وألفى نفسه وحيدا لاقوة له ، لجأ إلى علـوان الجحدري . ولـما كان علوان هذا يرتبط مع المظفر بروابط ودية ، فقد سعى إلى التوسط بين أسد الدين والمظفر ؛ ونجح في مسعاه وعفا المظفر عنه وأمنه [٣] ، ثم جهزه مرة أخرى إلى صنعاء ـ وكان الإمام قد انتزعها منـه ـ فدخلها أسد الدين بدون مقاومة . وفي نفس الوقت خرج المظفر إلى صنعاء في شهر رجب سنة ٦٥١ هـ / [٤] سبتمبر ١٢٥٣ م . ومن هناك شن عدة حملات ضد الإمـام وأتباعه ، ثم عاد بعدها إلى تعز [٥] حيث استولى في طريقه على حصـن

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٢ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٤ ، المسجد ص ٢٥٧ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٥ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٢٥٨ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٣١ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٦٣ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٠ أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٤ ، المسجد ص ٢٥٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٤ ب .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٠٦ ، المسجد ص ٢٥٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٤ ب .

ذروان [١] من حصون منطقة ذمار [٢] .

ب ـ مصرع الامام الزيدى وأثره فى تطور الأحداث :

لم يلبث الخلاف أن دب بين الإمام الزيدى أحمد بن الحسين والأشراف من بنى حمزة ، واشتد النزاع بينهما إلى حد أن بنى حمزة لجأوا إلى السلطان المظفر واستنصروه على الإمام . وعلى هذا النحو رجحت كفة المظفر بانضمام أشراف بنى حمزة إليه واستنصارهم به . ولم يتردد المظفر فى اغتنام هذه الفرصة لمد يد المعاونة لهم والعمل على سحق قوى الإمام ، فأمدهم بأسد الدين من صنعاء [٣] فى شهر ذى الحجة سنة ٦٥١ هـ [٤]/ يناير سنة ١٢٥٤ م ، وزحفوا جميعا إلى صعدة لمحاربة الإمام ، وأحكموا الحصار عليها حتى سقطت فى أيديهم بعد شهر [٥] . ورتب أسد الدين فيها حامية وعاد إلى صنعاء [٦] فى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٠٦ ، ١٦٣ . المسجد ص ٢٥٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٦٣

(٢) الخزرجى : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٩ « أ » .

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٥٤ ب ، زبارة أئمة اليمن حـ١ ص١٦٤
Kay : op. cit. p. 231.

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ « أ » ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ١ ص ١٠٦ ، المسجد ص ٢٦٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١١١ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١١٢ ؛ المسجد ص ٢٦٠ .

الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٢ هـ[1] / ٢ مايو سنة ١٢٥٤م . وهكذا تمكن المظفر بمساعدة القوى المناهضة للامام من بسط نفوذه على قسم كبير من المناطق الشمالية التى كانت تابعة له ، وشجعه ذلك على متابعة الحملات لتقويض أركان الإمامة .

وفى نطاق هذا الهدف أرسل المظفر إلى أسد الدين خزانة مالية فى شعبان سنة ٦٥٢ هـ / سبتمبر ١٢٥٤ م للانفاق منها على حملة ثانية كان قد أمره بالقيام بها بالاشتراك مع بنى حمزة ضد الإمام ، وتخريب عدد من المواقع الموالية له[2] وعلى الرغم من استعداد الإمام للتصدى لهذه الحملة إلا أن قواته لم تستطع الصمود ، ومنيت بهزيمة نكراء فى رمضان سنة ٦٥٢ هـ / اكتوبر سنة ١٢٥٤ م [3] . وقتل عدد كبير من أتباعه على رأسهم الفقيه الزيدى الشهير حميد بن أحمد[4] . أما الإمام فقد نجا بصعوبة بالغـــة ولجأ إلى أحد

---

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية حـ١ ص ١١٤، العسجد ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ « أ » .

(٣) الجندى : السلوك ص ٣٦٣ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣٠ ب .

(٤) كان حميد بن أحمد المحلى من كبار علماء الزيدية وفضلائها ، وله تصانيفه الجامعة والرسائل المفردة إلى الملوك والعلماء ما ليس لغيره (بهجة الزمن ص٥٥ « أ » ، العقود اللؤلؤية حـ١ ص ١١٥ ، العسجد ص ٢٦٣، قرة العيون ص ٧٥ ب ، أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦٦) ومن كتبه الشهيرة كتاب « الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية » فى جزئين ، ضمنه أخبار ومناقب الإمام على ابن أبى طالب وذريته وتراجم أئمة الزيدية منذ قيام إمامتهم إلى الإمام عبد الله ابن حمزة المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧م . وقد لقب حميد « بالشهيد » بعد مقتله فى تلك الموقعة .

الحصون (١) .

تقدم بنو حمزة - بعد مؤازرتهم لأسد الدين - إلى زبيد، فاستقبلهم المظفر وأكرم وفادتهم (٢) وأنعم عليهم بالهدايا والكسوات والخلع والخيول ، وبلغ مقدار ما أنفقه فيهم مائتى ألف دينار (٣) ، فكان ذلك دافعاً على الاستمرار في موالاته ، ومشجعاً لهم على التعاون معه ضد الإمام (٤) . كما كان لسياسة المظفر القائمة على الترغيب والترهيب أثرها في اجتذاب مزيد من العناصر الزيدية وحملها على الخروج عن طاعة الإمام ، فقد اجتمع كثير من علماء الزيدية وطعنوا في أحقيته في الإمامة ، وعابوا عليه وأنكروا كثيرا من تصرفاته (٥) ، وأفتوا ببطلان إمامته (٦) .

---

(١) ابن حاتم : السمط ٦٤ «أ» ، الخزرجي : العسجد ص ٢٦٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٥ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ، ص ١١٥ - ١١٦ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٦٧ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٥ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٦٤ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١١٨ ، العسجد ص ٢٦٦ .

(٥) الجندي : السلوك ص ٣٦٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣١ «أ» ، Kay : Yaman, p. 321 .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٢٢ . ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ ، أئمة اليمن حـ ١ ص ١٧٢ .

قام الإمام بمحاولة لحسم النزاع القائم بينه وبين علمـــاء الزيدية ، وأرسل إليهم أحد كبار أتباعه - هو الشريف الزيدى ، الحسن بن وهاس - للاستماع لهم ومحاججتهم والعمل على إقناعهم بالعودة إلى طاعة الإمام ، إلا أنهم تمكنوا من استمالته إليهم [1] . وأرسلوا يتحدون الإمام ليناظرهم ويدافع عن نفسه ولكنه رفض ، فأفتوا بخلعه لعـــدم صلاحيته للامامه لأمور تحققوها عنه ، وكتبوا بذلك إلى جموع الزيدية فى كافة أنحاء اليمن [2] . وبايعوا الحسن بن وهاس إماما للزيدية من بعده فى رمضان سنة ٦٥٥ هـ / [3] سبتمبر ١٢٥٧م فكان لهذه التطورات أعظم الأثر فى الإطاحة بمركز الإمام وزعزعة ثقة من تبقى من أتبـاعه . وهكذا أصبح فى اليمن إمامين فى وقت واحد [4] - وهو مايعرف بتعارض الأئمة - واقتضى الأمر انفراد أحدهما بالإمامة سلما أو حـــربا .

انتهز بنو حمـزة فرصة الانشقاق الثانى فى صفوف الزيدية ، وعملوا على

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٥ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٦ «أ» ، زبارة أئمة اليمـن حـ ١ ص ١٧٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب (وقيل أن امامته كانت فى صفر ٦٥٦ هـ/ فبراير سنة ١٢٥٨ م بعد مقتل الإمام أحمد بن الحسين بثلاثة أيام) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٧٦ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٦ ب .

(٤) ابن حاتم السمط ص ٦٦ ب .

تنسيق الجهود معهم لمحاربة الإمام [١] وأمدهم السلطان المظفر بمائة ألف درهم [٢]، وتم اللقاء بينهم وبين الإمام في وادي شوابة [٣] فتمكنت جموعهم من هزيمة الإمام والاحاطة به وقتله [٤] في صفر ٦٥٦ هـ / ([٥]) فبراير ١٢٥٨م، والتمثيل به والطواف برأسه ([٦]) . فلما وصل خبر مصرعه إلى المظفر سعد به كثيرا ([٧]) ، إذ تخلص من منافس خطير كان بإمكانه الإطاحة بدولته .

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٥٥ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٧٢ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : نفس المصدر والصفحة .

(٣) شوابة ، من بلاد الجوف شرق اليمن (الجرافي : المقتطف ص ١٢٢). وقد وردت في العقود اللؤلؤية باسم « سواد » (جـ١ ص ١٢٤) أما الترجمة الانجليزية للعقود، فقد أوردها Sir James Redhouse باسم «سوانه» (انظر، The pearl - Strings, vol. III, 1, p 149, vol. III, 3, p. 91, Note , 550) وصحتها « شـوابة » (الخزرجي . العسجد ص ٢٦٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٤٤٤ ، Kay : Yaman, p. 321 .

(٤) الجندي : السلوك ص ٢٦٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٣١ ب ، الجرافي : المقتطف ص ١٢٢ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص٦٦ ب ، ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن ص٥٥ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٢٥ ، العسجد ص ٢٦٨ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٦٧ «أ» ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ١٧٣ ، Kay : op - cit. p. 231 .

(٧) ابن حاتم : السمط ص ٦٧ ب ، ٦٨ «أ» ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٢٥ ، العسجد ص ٢٦٩ .

أدرك أسد الدين محمد أن تخلص المظفر من الإمام أحمد بن الحسين ، ومصالحته للقوى الزيدية من شأنه أن يضعه فى مأزق حرج وخطير ، فإنه كثيرا ما كان يستنصر بالزيدية فى الأوقات التى تسوء فيها علاقاته مع السلطان ثم أن المظفر كان قد خصص له قدرا سنويا من المال يصل إلى ستين ألف دينار للانفاق منها على حملاته ضد الزيدية . فلما تخلص المظفر من الإمام واصطنع الزيدية ، أقدم على تخفيض المخصصات المذكورة إلي عشرين ألف دينار ، فكان ذلك من عوامل سخطه على المظفر ، ولهذا لم يتردد فى شق عصا الطاعة من جديد . وبدأ فى تثبيت سلطانه على منطقة صنعاء وأعمالها وتولية المخلصين له من أتباعه على المناطق الخاضعة لسيطرته ، كما بادر بالإغارة على الحصون المجاورة له والتابعة للسلطان (١) .

أما المظفر فقد عمد إلى سياسة المناصحة ، وأرسل إلى أسد الدين يعاتبه على هذا المسلك ويرغبه فى مواصلة بذل الطاعة له . فلما أخفقت هذه الجهود خرج المظفر على رأس حملة كبيرة سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م مستهدفا القضاء على حركة أسد الدين (٢) . ومما يذكر أنه قام قبل الشروع فى تنفيذ خطته بالكتابة إلى زعماء الزيدية لتأكيد الصلح معهم وضمان عدم تدخلهم فى الصراع المقبل بينه وبين أسد الدين ، مما فوت على الأخير فرصة الاستعانة بهم ، ونجحت حملة المظفر على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، ودخلت قواته صنعاء فى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٨ ب .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٦٩ «أ» .

أول المحرم سنة ٦٥٨ هـ [١] / ١٨ ديسمبر سنة ١٢٥٩ م .

والظاهر أن المظفر قد تمكن من تسوية الأمور بينه وبين أسد الدين في أعقاب ذلك ، فقد ذكر المؤرخ المعاصر بدر الدين محمد بن حاتم أن أسد الدين لم يلبث أن طلب من المظفر تجهيزه في حملة للاستيلاء على حضرموت [٢] . ومن المعتقد أن أسد الدين إنما لجأ إلى ذلك خديعة للسلطان حتى يتهيأ له المجال للاعداد لجولة أخرى ضده ، ويستدل على ذلك من أنه عندما استجاب السلطان لطلبه بادر بالزحف إلى منطقة الجوف – إلى الشمال الشرقي من اليمن – بحجة دخول حضرموت من شمالها . ولكنه ما كاد يصل إلى الجوف حتى بدأ في تحريك بعض القبائل وتحريضها على الإنضمام إليه ونبذ الطاعة المظفر ، ولكن هذه القبائل لم تستجب له وتآمرت على قتله [٣] ، فلم يجد مفراً سوى الإنضمام إلى بنى حمزة الزيدية مستغلا في ذلك خلافهم أنذاك مع الحسن بن وهاس الإمام الجديد الذى كان قد أعد العدة لمحاربتهم ، وأسفرت الموقعة عن هزيمة الإمام ووقوعه أسيراً في يد أسد الدين [٤] .

---

(١) ابن حاتم: نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العقـــود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٤) ظل الامام الحسن بن وهاس عند بنى حمزة أسيراً مدة عشر سنوات (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ « أ » ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٠ ، العسجد ص ٢٧٢ ، الجرافى : المقتطف ص ١٢٢) وخلع نفسه من الإمامه سنة ٦٦٨ هـ (زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٦).

أما السلطان المظفر فقد اعتبر قبول بني حمزة لأسد الدين تحديا له ونقضا للصلح معه ، ولهذا قرر قتالهم ، فخرج على رأس حملة لمحاربتهم ، ولكن الشريف داود بن عبد الله – كبير آل حمزة – أسرع لتلقاء السلطان والاعتذار له ، وتعهد بعدم السماح لأسد الدين بالمقام بينهم ، فقبل السلطان اعتذاره وتعهده [١] ، وتوجه إلى صنعاء لإقرار الأمور فيها ، فوصلها في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ/ فبراير سنة ١٢٦٠ م ، وولى عليها شمس الدين على بن يحيى [٢] ورتب معه حامية [٣] ، وقفل عائداً إلى تعز [٤] .

وعلى الرغم من تحرج موقف أسد الدين – بعد تخلى بني حمزة عنه ، وأصبح مطارداً من السلطان لتكرار خروجه عن طاعته ، ومن بني وهاس لاقدامه على أسر الإمام الحسن بن وهاس – إلا أنه استغل فرصة رحيل المظفر من صنعاء وقام بمهاجمتها محاولا الاستيلاء عليها [٥] ، ولكن حاميتها تصدت له وطاردته [٦] . وفي نفس الوقت أعد السلطان حملة بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشعبي

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣١ ، العسجد ص ٢٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٩ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣١ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٧٠ « أ » .

لمطاردته (١) ، فالتجأ أسد الدين إلى بنى حاتم فى حصن ذمرمر ، ولكنهم لم يسمحوا له - رغم محاولاته المتكررة - بدخول الحصن ، تأكيدا لطاعتهم للسلطان (٢) ، فانفض أتباعه من حوله وتدهورت أحواله (٣) ، « حتى باع ثيابه » (٤) .

ولما ساءت حالة أسد الدين إلى هذا الحد ، طلب من بنى حاتم التوسط بينه وبين السلطان ، كما أنه لم يتردد من جانبه فى الكتابة للسلطان والتماس العفو والأمان (٥) ، فتظاهر السلطان المظفر فى بادىء الأمر بعدم الاستجابة (٦) ، فى الوقت الذى كان يتحرق فيه للتخلص منه ، ولذلك لم يلبث أن وافق على عودته . فلما وصله بصحبة شمس الدين على بن يحيى وإلى صنعاء قبض عليهما فى شوال ٦٥٨ هـ (٧) / سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، وأمر باعتقالهما فى سجن تعز ،

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٢٧٢ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) ابن حاتم السمط ص ٧٠ « أ » .

(٣) الجندى : السلوك ص ١٧٧ ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٥٧ « أ » .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٧٩ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ١٣١ العسجد ص ٢٧٢ .

(٦) ابن حاتم : السمط ص ٧٥ « أ » .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب . (كان شمس الدين على

وبهذا أصبح أسد الدين سجيناً مع أخيه وأبيه وعمه (١) . وهكذا تخلص السلطان المظفر نهائيا من أعظم المشاكل التي واجهته ، وتتمثل في منافسة أفراد أسرته له ، وهي منافسة استمرت قرابة ثلاثة عشر عاما حمل أسد الدين لواءها منذ أواخر ٦٤٥ هـ / ١٢٤٨م إلى أن تم القبض عليه وسجنه في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م .

ج ـ استمرار الخلافات بين الزيدية :

استقرت الأحوال الداخلية في اليمن بعد استشهاد الإمام أحمد بن الحسين سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، ووقوع خلفه الحسن بن وهاس سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م في قبضة بني حمزة ، ودخول الزيدية في طاعة المظفر بزعامة بني حمزة ، كما كان للقضاء على المنافسات الأسرية في بيت بني رسول أثره في تدعيم الاستقرار الداخلي في البلاد . وكان المظفر قد ولى الطواشي نظام الدين مختص على صنعاء (٢) خلفاً لواليها المعتقل شمس الدين علي بن يحيى ، ثم أسند ولايتها لعلم الدين سنجر الشعبي في رمضان سنة ٦٥٩هـ (٣) / أغسطس ١٢٦١م . واطمأن

= ابن يحيى ميالا لأسد الدين ، وكان من أكبر مشجعيه على العصيان) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٠ ، العسجد ص ٢٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ٧٧ « أ » ، (وكان المظفر يتظاهر بعدم معرفة شيء عن تصرفاته) الجندي : السلوك ص ١٧٧ ، الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٥٧ ب .

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٦ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٢ ، العسجد ص ٢٧٥ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٣٣ زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٨٠ .

المظفر لذلك الهدوء الظاهري ، فعزم على أداء فريضة الحج[(١)] ، واستصحب معه بعض كبار بني حمزة[(٢)] .

إلا أن هذا الهدوء النسبي كان قصير الأمد ، ففي أثناء تواجد المظفر في الحجاز سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م كانت دعـــوة الشريف الزيدي يحيي بن محمد السراجي ـ في ناحية حضور[(٣)] ـ للامامة[(٤)] ، فبايعـه أهلها ، وكتب بدعوته إلى سائر مناطـق الزيدية ، فاستجاب البعض لدعوته وأنكرها الآخرون[(٥)] ، لارتباطهم ببيعة الإمام الأسير الحسن بن وهاس . فكان الاختلاف على إمامة يحيي السراجي أثره في تسهيل مهمة علم الدين سنجر الشعبي ــ والي صنعاء ـ لحشد قواته لمحاربته والعمل على القضاء على دعوته ، وقد تمكن من إحراز بعض الانتصارات عليه في عدة مواقع[(٦)] ، وأرغمه على

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧٠ ب ، المقريزى : الذهب المسبوك ص٨٤.

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٢٧٥ .

(٣) حضور ، ناحية من نواحي كوكبان ، إلى الشمال من صنعاء (أئمة اليمن ص ١٥٥) .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٦ ، العسجد ص ٢٧ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٣ ب . (أما الإمام فهو يحيي بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن الحسن سراج الدين بن محمد بن عبد الله ابن الحسين بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، المعروف بالسراجي نسبة لجده سراج الدين) . زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٨٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٦) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٤٣ ب .

الفرار[١] ، ولكنه وقع في يد والي صنعاء فأمر بكحله وسجنه[٢] في أواخر سنة ٦٦٠ هـ[٣] / ١٢٦٢ م . ففقد بكحله شرطا هاما من شروط الإمامة . ومن الجدير بالذكر أن المظفر استاء كثيرا لقيام علم الدين بكحل الإمام ، وكان يفضل الاكتفاء بسجنه[٤] .

ولم يكن بنو حمزة مجمعين على بذل الطاعة والولاء للسلطان ، فبينما واصل الشريف عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة إعلان ولائه للمظفر ، كان أخوه صارم الدين داود يحمل لواء المعارضة له ، ويكتل الجهود ضده ، ويشجع الخارجين عليه ويقدم لهم العون ليتمكنوا من الصمود ، وقد بلغ به العداء للسلطان إلى حد أنه أقام الشريف الزيدي حسن بن محمد القطابري إماما ، ولكنه لم يوفق فيما ذهب إليه ، لمعارضة الزيدية لذلك[٥] .

وفي نفس الوقت كان السلطان المظفر يسعى من جهته لاستقطاب المعادين لصارم الدين داود ، وجهز سنجر الشعبي واليه على صنعاء في عدة حملات ضده .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٢) الجندي : السلوك ص ٣٦١ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ٢٢٩ ، أ ، الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ١٠٣ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٨١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٧ ، أ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٣٧ ، العسجد ص ٢٧١ ، الجرافي : المقتطف ص ١٢٣ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧١ ب .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٤٥ ، العسجد ص ٢٧٧ .

سنتيا بين عامى ٦٦١ و ٦٦٤ هـ ،[1] وتمكن سنجر بفضل هـذه الحملات من السيطرة على كثير من المناطق الخاضعة للزيدية فى شمال جبال اليمن وشرقها[2]، ومع ذلك فقد واصل صارم الدين داود تشجيع القلاقل ضد السلطان ، مثيرا بذلك الفتن والاضطرابات ، وتمكن من إشعال نار الفتنة فى منطقتى حجة والخلافة ، واستطاع الثائرون - بفضل مساعدات الزيدية - الصمود فى وجه قوات السلطان التى لم تتمكن من استعادة السيطرة على حجة إلا بصعوبة كبيرة فى رمضان سنة ٦٦٥هـ/مايو - يونية سنة ١٢٦٧م أما الخلافة وحصونها، فقد قضى السلطان على حركة العصيان فيها فى ذى الحجة من نفس العام[3].

وتابع المظفر حملاته ضد الزيدية بلا هوادة لتمكين سيطرته التامة على البلاد . وحتى لا يترك لهم مجـالا ينظمون فيه صفوفهم ، فاستولت قواته سنة ٦٦٦ هـ على صعدة وأخربتها وأتلفت ماحولها من المزارع[4] . وواصل شن هجماته فى العام التالى على بلاد وحصون الزيدية حتى أرهقهم ، فطلبت جموع الزيدية من الشريف الحمزى صارم الدين داود أن يفرج عن الإمام الحسن بن وهاس لتتوحد القوى الزيدية تحت لوائه ، فاستطاعت بذلك إحراز

(١) ابن حاتم : السمط ص ٧٢ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٧٣ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٤١ ، المسجد ص ٢٧٧ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٧٤ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٧٦ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٦٨ - ١٦٩ ، المسجد ص ٢٧٩-٢٨٠ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٨٨ .

انتصار حاسم على قوات المظفر وردهم على أعقابهم [١]. ولكن الانقسام لم يلبث أن دب في صفوف الزيدية من جديد بسبب إصرار الامام على السير الى صنعاء للاستيلاء عليها، ومعارضة بني حمزة له وعدم تصويبهم لرأيه في تلك الفترة. وقد أدى إصرار كل جانب على موقفه إلى تفرق الجموع [٢]. وانتهز السلطان فرصة هذا الانقسام وسير حملة بقيادة سنجر الشعبي والي صنعاء إلى صعدة فتمكن من استعادتها في صفر سنة ٦٦٨[٣] / اكتوبر سنة ١٢٦٩م واضطر بنو حمزة إلى معاودة بذل الطاعة للسلطان وتم عقد الصلح معهم في شعبان من تلك السنة [٤].

استغل بنو حمزة فرصة الصلح لتنظيم صفوفهم وتقوية أنفسهم [٥] خاصة وأن الامام الحسن بن وهاس كان قد خلع نفسه من الامامة سنة ٦٦٨ هـ [٦] / ١٢٦٩م. وإذا كان عام ٦٦٩ هـ قد مر في هدوء، فإن المظفر لم يلبث أن عاود توجيه حملاته سنة ٦٧٠ هـ إلى مناطق نفوذ الزيدية شمال جبال

---

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٧٠ - ١٧١، العسجد ص ٢٨٠ - ٢٨٢.

(٢) ابن حاتم: السمط ص ٧٩ «أ».

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٧٩ب، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٧٥.

(٤) ابن حاتم: السمط ص ٨٠ «أ»، الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٧٤، العسجد ص ٢٨١.

(٥) ابن حاتم: السمط ص ٨٠ ب.

(٦) زبارة: أئمة اليمن جـ ١ ص ١٧٦.

اليمن (١) ، في وقت حرج كان هؤلاء فيه بغير إمام يجتمعون حوله ، ولمناقشات محاولاتهم لاقناع الحسن بن وهاس بالعودة إلى الامامة ، اتفق رأى بعضهم على إقامة الشريف الزيدى ابراهيم بن تاج الدين (٢) إماما لهم ، ولكنه لم يقبل إلا على أساس إجماع الزيدية على مبايعته ، فتم له ذلك في ذى الحجة سنة ٦٧٠هـ(٣)/ يوليه سنة ١٢٧٢ م . وعلى الرغم من تحفظ البعض وإرجائهم المبايعة إلى ما بعد مناظرة العلماء له والتأكد من مدى صلاحيته للامامة ، إلا أنهم أكرهوا على مبايعته (٤) . وعندئذ نشطت حركة الزيدية بقيادة الإمام إبراهيم بن تاج الدين ولم يكتف بالصمود في وجه قوات المظفر بل طاردتهم جموعه وأجلتهم عن كثير من المواقع وهددت صنعاء نفسها ، مما اضطر السلطان المظفر للتوجه على رأس حملة كبيرة لاستعادة المناطق المحيطة بصنعاء (٥) ، وإعادة الأمن والهدوء للمنطقة . وقد نجح المظفر بالفعل فيما ذهب إليه ، فما كادت تصل طلائعه إلى

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، العسجد ص ٢٨١ .

(٢) هو ، ابراهيم بن تاج الدين احمد بن بدر الدين محمد بن احمد بن يحيى ابن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن احمد الناصر بن الامام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين (زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٠) .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٨٢ «أ» ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٧ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٨٠ ، العسجد ص ٢٨٢ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٨١ ب - ٨٢ «أ» .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٨٣ (أ - ب) .

هذه المواقع حتى انسحبت القوات الزيدية شمالا . فلما وصل المظفر إلى ذمار جنوبي صنعاء في شهـر شعبان سنه ٦٧١ هـ (١) / فبراير ١٢٧٣ م ، قام بتجهيز علم الدين سنجر - والى صنعاء - فتولى قيادة عدة حملات متوالية على مناطق نفوذ الزيدية أسفرت عن قتل وأسر عدد كبير منهم ، واستولي علم الدين على كثير من الغنائم (٢) . وهكذا « تقـوى علم الدين وتضعضـع الأشراف تضعضعا كليا » (٣) . وتبودلت الحمـلات سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٢٧٤ م حتى انعقد الصلح بين الجانبين (٤) .

وعاد الهدوء يرفرف من جديد على البـلاد ، ولكن القوى الزيدية كانت تنتهز الفرص المواتية للعودة إلى العصيان ، فقد حدث أن خرجت حامية ذمار عن الطـاعة لخلاف نشب بينها وبين والى صنعاء ، وتمكن بعض أفرادها من الاستيلاء على صنعاء في ربيع الآخـر سنة ٦٧٤ هـ / (٥) سبتمبر ١٢٧٥ م ، واستعانوا بالامام ، فجاءهم في عدد كبير من أتباعه في شهر جمادى الأولى (٦) .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص٨٣ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٤٥٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ «أ» الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ ، العسجد ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٨٢ «أ» .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٩٠ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٨٥ - ١٨٧ ، العسجد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩١ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٥ «أ» .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٠ ، العسجد ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وهكذا تهيأت الفرصة الامام من جديد وطمع فى السيطرة الكاملة على اليمن، والقضاء على بنى رسول [١] . ولكن لم يلبث أن جاءته الأنباء بتحرك المظفر - فى جموع جيشه - وأنه فى طريقه للاستيلاء على ذمار [٢] ، فكان لذلك أثره فى اضطراب المنضمين من أتباع المظفر إلى الامام ، وأسرعوا بالعودة إلى صنعاء لمراقبة تطورات الأحداث [٣] . فى حين تعرضت القوات الزيدية لنقمة المظفر وأصبحت لقمة سائغة لقواته التى حطت عليها كالبواشق وفتكت بها فتكا ذريعا فى جمادى الأولى سنة ٦٧٤ هـ / نوفمبر ١٢٧٥ م ووقع الامام فى أسر المظفر [٤] . وعندئذ تفرق الزيدية ومن والاهم فى الأودية ، واستولى السلطان على كثير من الغنائم [٥] ، وعاد المظفر إلى تعز ومعه الإمام أسيراً [٦] ولم يزل معززا مكرما فى سجنه حتى توفى فى صفر سنة ٦٨٣ هـ / [٧] ابريل ١٢٨٤ م .

وحاول الزيدية بعد هزيمتهم النكراء إقناع الحسن بن وهاس بالعودة

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٩٦ «أ» .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٨ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٩٧ «أ» .

(٤) : ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ «أ» ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٣ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٩٧ «أ» - ٩٨ «أ» .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ «أ» .

(٧) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٣ ، ٢٠١ .

للامامة فلم يوافقهم[1] ، فلجأوا إلى الشريف الزيدي المطهر بن يحيى فقبلها تحت ضغط الشريف الحمزى صارم الدين داود [2] ، وبايعته جموع الزيدية [3] . وكان المظفر حكيما ، فعرف كيف يزيد من حدة الخلاف فى صفوف الزيدية ، بتقريب جانب أو معاونة آخر على الاستمرار فى معارضة الامام ، كما عرف كيف يستغل تلك الانقسامات لمصلحته ، وعمل على تقريب الشريف صارم الدين داود ـ الذى سبق أن ضغط على المطهر بن يحيى ليقبل الامامة ـ وعقد معه صلحا سنة ٦٧٤ هـ / [4] ١٢٧٥م بعد وقت قصير من مبايعة الامام الجديد .

وكانت قوات السلطان قد قامت بمحاصرة بعض حصون الزيدية ، ودار القتال بينهم وبين قوات الامام ، ولكنه لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، وتبع ذلك انفضاض أتباع الامام من حوله [5] مما اضطره الى ترك مساعدة المحصورين.

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٧ ، العسجد ص ٢٨٩ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٨ ب (الامام المطهر هو ابن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن على بن أحمد الناصر ابن الامام الهادى الى الحق يحيى بن الحسين) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٨ ، العسجد ص ٢٨٩ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٩٨ ، العسجد ص ٢٨٩ .
(وكانت مده الصلح ثلاث سنوات) ابن حاتم : السمط ص ٩٨ ب .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ «أ» ، الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠٠ ، العسجد ص ٢٩٠ .

والانسحاب بمن بقي معـــه من أتباعه (١) ، فتمكن بذلك قوات السلطان من السيطرة على هذه الحصون فى رمضان سنة ٦٧٠ هـ / (٢) ديسمبر ١٢٧٢ م .

إستقرت الأحوال بعد ذلك مايقرب من عامين ، تخللها بعض المنازعات بين القوى الزيدية نفسها ، وكان كلما استقوى جانب لجأ الآخر إلى طلب معونة السلطان المظفر ، فكان أحيانا يسعى للتوفيق بين الطرفين ، أو يكتفى بتقديم المساعدات المادية لمن لجأ إليه (٣) . وهكذا أضعفت القـــوى الزيدية نفسها بهذه المنـازعات ، ولم تعد تشكل خطرا على بنى رسول ، الأمر الذى ساعد المظفر على توجيه حملاته إلى ظفـــار ـ فى عمــان ـ والاستيلاء عليها سنة ٦٧٨هـ / (٤) ١٢٧٩ م ، فارتفع بذلك شأن السلطان وتمكن من السيطرة على عدد من حصون الزيدية (٥) .

---

(١) لما عجز الامام عن مساعدة المحصورين سعى فى المفاوضة وطلب مبلغ مائة ألف دينـــار ثمنا للانسحاب وترك مساعدة الموجودين فى الحصون ، وانتهى الأمر بتسليمه ألفى دينار (ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب) .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٩٩ ب .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى الفصل الرابع من الباب الثانى الخاص بالعلاقات الخارجية .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١٠٥ د أ ـ ١٠٦ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢١٨ ومابعدها ، المسجد ص ٢٩٨ ومابعدها ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

استغل الشريف صارم الدين داود حادثة مقتل علم الدين سنجر الشعبي والي صنعاء سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م [(١)] وأسرع بجموعه إلى صنعاء متوهما بسهولة الاستيلاء عليها مادامت بغير وال ، ولكن المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم تولى مهمة الذب عن المدينة والدفاع عنها وأعد هجوما مضادا مفاجئا على قوات صارم الدين قرب مدينة حوث شمال صنعاء وأوقع الهزيمة بقواته وشتت جموعه [(٢)] .

ونتيجة المخاطر التي تعرضت لها صنعاء بعد مقتل واليها ، أناب المظفر واليا آخر هو فخر الدين بن فيروز وأمده بعز الدين بلبان الدويدار لمعاونته في قيادة الحملات والعمل على إصلاح الأحوال هناك . ثم أقطع صنعاء لابنه الملك الواثق [(٣)] نور الدين إبراهيم فوصلها في ربيع الأول سنة ٦٨٣ هـ/ [(٤)] مايو

---

(١) كان علم الدين سنجر قد عقد اجتماعا بقصر الإمارة في صنعاء ، ضم المؤرخ بدر الدين بن حاتم ، وأخاه علي وعمر بن سعيد قاضي صنعاء وغيرهم فتهدم القصر عليهم ومات الجميع ماعدا بدر الدين والقاضي (ابن حاتم : السمط ص ١٠٦ ب - ١٠٧ « أ » ، الجندي : السلوك ص ٦ ٢ ، ٤٦٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٢٨ ، العسجد ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ ب ، النويري : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني ص ٤٥٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ١٨١ ، محمد عبد العال أحمد : الفتح الأيوبي لليمن ص ١٣٩) .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ « أ » ، الجندي : السلوك ص ٤٧٢ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ ب ، الجندي : السلوك ص ٤٧٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦١ « أ » ، الخزرجي اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٣٥ ، العسجد ص ٣٠٠ .

١٢٨٤م « فكانت أيامه أياما حسنة خصبة رغدة ، وعـــدل فيها وأحسن وأجمل ولم يقصر »(١).

وعلى الرغم من أن بنى حمزة كانوا أصحاب الفضل فى إمامة المطهر بن يحيى ، وأنه قبلها تحت ضغط الشريف صارم الدين داود إلا أنهم اختلفوا معه منذ توليه الإمامة ، ولهذا قام الشريف صارم الدين بعقـد صلح منفرد مع السلطان ، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحمل الامام عبء الكفاح ضد السلطان. فلما زادت ضغوط قوات السلطان على الزيدية سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وفقد صارم الدين كل أمـــل فى قيام أى تعاون بينه وبين الامام المطهر ، وفشلت جهوده لإعادة الحسن بن وهاس للامامة ، لجـأ إلى إقامة ابن أخيه يوسف بن ابراهيم إماما للزيدية « وكان قد قرأ شيئا من العلم ولم يكن يكمل للامامة ولا لغيرها »(٢) ، واتخذ من حصن ثلا ـ الواقع شمالى صنعاء بالقرب من كوكبان ـ مقرا له ، فجهز جيشا ليتمكن مـن فك الحصار عـن المناطق التى تحاصرها قوات السلطان . واشتبكت قواته مع مجموعة مـن جند المظفر كان يقودها المؤرخ بدر الدين محمد بن حاتم ، وتمكنت تلك القوات من تصميد بشر ابن حاتم ـ شقيق بدر الدين ـ وقتله فى كمين نصبوه له(٣) . وطمع الامام يوسف بن ابراهيم فى تحقيق النصر على قـــوات السلطان المرابطة شمالى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦١ « أ » ، الخزرجى : العسجد ص ٢٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ « أ » .

صنعاء (١) ، فلما أخفقت جهوده وخشي أن يتسرب اليأس إلى أتباعه ، عمد إلى الاغارة عـلى بعض المناطق المتطرفة ـ لضعف حاميتها ـ واستولى على بعضها وقتل من وجده فيها (٢)

وتجدر الاشارة إلى أن تنصيب بنى حمزة ليوسف بن ابراهيم إماما أدى زيادة التوتر بين الزيدية وانقسامهم إلى معسكرين متعاديين ، أحدهما بزعامة الإمام يوسف وعمـه الشريف صارم الدين ، والثانى بزعامة الامام مطهر بن يحيى . وأدى الصراع القائم بين الجانبين إلى استنصار الشريف جمال على بن عبد الله ـ نيابة عن الامام مطهر ـ بالملك الواثق بن المظفر في صنعاء (٣) ، وتمكن بفضل مساعدة الواثق من التغلب على قوات الامام يوسف بن إبراهيم مما أتاح الفرصة من جديد للسلطان لمواصلة شن هجماته على بنى حمزة إلى أن استنفذ طاقاتهم (٤) . ولجـأ زعيمهم صارم الدين داود إلي مكاتبة السلطان فى ٦٨٤هـ / ١٢٨٥ م لطلب الصلح ، وقد انتهى الأمر بعقد صلح بينهما (٥) . غير أنه لم يلبث أن ارتبط بعلاقات طيبة مع الامام المطهر بن يحيى (٦) ، واتفق معه

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٧ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٨ «أ» .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٨ «أ» .

(٤) زبارة : أئمة اليمن ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١٠٩ «أ» ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٢٩ ، العسجد ص ٣٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٠ «أ» .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٤٦ ، العسجد ص ٣٠٣ .

على مواجهة قوات السلطان ناكثا بعهوده له ، الأمر الذى دعا المظفر إلى تسيير قوة عسكرية هدفها تعزيز قوة واثنه الواثق فى صنعاء الذى أخفق فى التصدى للقوات الزيدية . فلما وصلت الامدادات التى أرسلها السلطان إلى صنعاء ، انضم الملك الواثق إليها . ومع ذلك فلم تستطع تلك القوات إيقاف التيار الزيدى الجارف الذى استعاد قوته سيما بعد استرداد مدينة صعدة [١] ، فكان ذلك نذيرا باضطراب أحوال المناطق الواقعة شمال صنعاء [٢] .

اضطر المظفر أمام قوة الزيدية إلى إستدعاء لابنه الواثق لفشله فى مقاومة هذا الخطر ، وأقطع ابنه الملك الأشرف صنعاء مكانه [٣] . على أن الأشرف ما كاد يصل صنعاء فى جمادى الآخرة سنة ٦٨٦ هـ / يوليه ١٢٨٧ م حتى تقاطرت عليه جموع القبائل معلنة عن رغبتها فى الدخول فى طاعته ، فضمهم الأشرف إلى قوته ، وقاد حملة ضخمة لمحاربة الأشراف الزيدية ، فكان لموقف القبائل أثره فى انضمام عدد من زعماء الزيدية إلى الملك الأشرف الذى واصل تقدمه ، ووطىء البلاد وطأة شديدة ، [٤] فهال ذلك الشريف صارم الدين

---

(١) زبارة : أئمة اليمن ص ٢٠١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص١٠٩ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠٦ ، العسجد ص ٣٠٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٢ أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٧ ، ابن الديبع ص ٨٠ أ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٧ ، العسجد ص ٣٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٠ ب .

داود وأضطر إلى الانسحاب بعسكره ، في حين سارعت القبائل المؤيدة له إلى الدخول في طاعة الملك الأشرف رغبة أو رهبة . وواصلت جيوش الأشرف تقدمها ، ولم تتردد في تخريب ما كانت تقابله من عمران في المناطق التي ظل أهلها على ولائهم للزيدية ، وتوالت انتصارات الأشرف على الزيدية وحاصرهم في عدد من المواقع ، ومرة أخرى يعود الشريف صارم الدين إلى طلب الصلح ، ولم يتردد الملك الأشرف في اجابته إليه ، بعد أن حققت حملاته أهدافها . ولم يمض وقت طويل على توقيع هذا الصلح في جمادى الأولى ٦٨٧ هـ (١) / يونية ١٢٨٨ م ، حتى أردف بصلح ثان عقد بعد شهر بين الإمام المطهر بن يحيى والملك الأشرف بن المظفر (٢) .

وما أن استقرت الأوضاع حتى استبدل السلطان المظفر ابنه الملك الأشرف بابنه الملك المؤيد الذي وصل إلى صنعاء في ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ (٣) / ديسمبر ١٢٨٨ م . والظاهر أن الزيدية لم يقبلوا بالأمر الواقع ، فقام فريق منهم ببعض الحوادث ، وتبادل كل من الجانبين توجيه تهمة نقض الصلح إلى الآخر (٤) ، وتبع ذلك قيام الجيوش السلطانية بمعاودة الحملات التخريبية على المناطق الموالية للزيدية (٥) . وازدادت أحوال البلاد سوءا ، واشرأب أهل

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٨ ، العسجد ص ٣٠٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١١ « أ » .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١١١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٨ ، العسجد ص ٣٠٤ .

(٤) ابن حاتم السمط ١١١ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٤٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٢ ب .

النفاق والفساد ، « ووقع الاختلال في البلاد من نقيل صيد (١) إلى صعدة ، ورفع كل مفسد رأسه » (٢) . ولهذا بادر المظفر بتجهيز ولده الملك الأشرف في حملة لاقرار الأوضاع من جديد ، وكالمعتاد لم يكد يصل إلى صنعاء في ذى القعدة سنة ٦٩٣ هـ (٣) / سبتمبر ١٢٩٤ م ، حتى أطاعه كل عصى ودان له كل أبى ، « ولم يبق مؤالف ولا مخالف إلا وتاق إلى خدمته (٤) » ، « ولم يتمالك عرب البلاد أن مثلت إلى خدمته من شامخات الأطوار ومطمسات الوهاد (٥) » . فكان لذلك أثره في تهيئة المناخ المناسب للاستقرار والتمهيد لصلح جديد بين الأشراف الزيدية كافة وبين الملك الأشرف نيابة عن أبيه(٦) وتم ذلك في أول المحرم ٦٩٤ هـ / (٧) ٢١ نوفمبر ١٢٩٤ . وهكذا خيم الهدوء

---

(١) النقيل ، هو الممر الجبلى ، ويقع نقيل صيد جنوبى ذمار (الويسى اليمن الكبرى ص ١٧٩) ويعرف حاليا بنقيل سمارة وهو على خط عرض ٠٧ َ ر ١٤° شمالا ، وخط طول ٢٣ َ ر ٤٤° .

(EL - Khazrejiyy : op - cit. vol. III, 3, p. 142, Note, 978)

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١٢ ب .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٢٧١ ، العسجد ص ٣٠٨ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ١١٣ ب .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١١٣ « أ » .

(٦) ابن حاتم : السمط ١١٣ ب ، الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٢٧٣ ، العسجد ص ٣١٠ - ٣١١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٠٥ .

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ « أ » .

من جديد وشمل أرجاء البلاد إلى وفاة السلطان المظفر يوسف فى رمضان سنة ٦٩٤ هـ [١] / يولية ١٢٩٥ م بعد أن ملك أكثر من ست وأربعين عاما [٢].

ثانيا — الصراع على السلطنة بين أبناء المظفر وأحفاده :

أ — عهد الأشرف عمر بن المظفر :

كان السلطان المظفر قد أناب عنه فى قيادة الحملات كل من أبنائه الأشرف عمر والواثق ابراهيم والمؤيد داود ، فأثبت الأشرف كفاءة نادرة وقدرة فائقة . فلما طعن المظفر فى السن وبلغ الخامسة والسبعين من عمره ، خشي حدوث الخلاف بين أبنائه على عرش السلطنة من بعده فاستقر رأيه على اختيار خلف له . وكان معجبا بشخصية ولده الأشرف ، لما أبداه من براعة فى القيادة وحنكة فى إدارة المعارك ، ولهذا خصه بخلافته على السلطنة ، وقلده أمورها [٣] قبل وفاته بمدة أشهر ، وحلف له العسكر [٤] ، وأصدر له تقليدا بالسلطنة . قال ابن حاتم : «فعقد له على الملك ونظم له مفترقه فى السلك ، وقال : هذا ولى عهدى وصاحب أمرى فى جندى ، ووارثه بعدى . وجمع اسمه معه فى الخطبة والسكة ، ولم ينص على المساهمة والشركة . وكان التقليد الكريم...

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، ابن الفرات : تاريخه حـ١٦ ص ٤٧ «أ» . (وذكر ابن تغرى بردى والعينى وفاته فى شهر رجب سنة ٦٩٤ (النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٧١ ، عقد الجمان مجلد ٥٦ لوحة ١١٣) .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهره جـ ٨ ص ٧٣ حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ «أ» .

(٤) الجندى : السلوك ص ٤٥٥ .

في أول جمادى الأولى سنة ٦٩٤ﻫ[1] (١٩ مارس سنة ١٢٩٥ م) ، ويستطرد ابن حاتم قائلا : « ثم انضافت الأوامر والنواهي ، والحل والعقد والبسط والقبض في البر والبحر والأقاليم والسواحل والأمصار والحصون والثغر ، وتدبير الحروب وتجهيز العساكر إلى مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف ... ولم يكن إلى مولانا السلطان للملك المظفر ... غير جلائل الأمور ومهامها ... واستمر الأمر لمولانا السلطان الملك الأشرف... وبعث والأمر إلى سائر البلاد وشاع ملكه في حاضر وباد ، واشرأبت قلوب الأولياء بولايته حبا ، وملئت قلوب الأعداء تخوفا ورعبا ، وفرض العدل وسنه ، ودانت له القبائل ، وانقادت لأوامره واستكانت »[2] .

وفي نفس الوقت الذى أصدر فيه المظفر تقليده للأشرف ، أسند ولاية حضرموت والشحر إلي ولده الثاني المؤيد داود [3] ، وكان قد استولى عليها في سنة ٦٧٨ ﻫ/١٢٧٩م . وكان المظفر يعتقد أنه قد ضمن بهذا التصرف نوعا من الوفاق بين أبنائه بعد وفاته . غير أن ذلك لم يتحقق ، فبعد وفاته أعد المؤيد عدته وجمع حشوده لانتزاع السلطنة من أخيه الأشرف عمر [4]. وانضم إلى

(١) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ أ – ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١١٤ ب .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٤ ب ، الخزرجى : العقود ﺣ ١ ص ٢٧٥ ، المسجد ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب .

(٤) ابن الفرات : تاريخه ﺣ ١٦ لوحة ٥٣ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية ﺣ ١ ص ٢٨٤ ، المسجد ص ٣١٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٠ أ ، بامخرمه : تاريخ ثغر عدن ﺣ ٢ ص ٧٣ .

المؤيد أخوه الملك المنصور أيوب والقاضي موفق الدين علي بن محمد اليحيوي. ومع ذلك فقد أرسل الأول إليه يحذره من التقدم[1] ، وأبلغه الثاني بأن الأشرف قد دس له من يتولى مهمة اغتياله[2] ولكن المؤيد لم يلتفت لهذه التحذيرات والنصائح ، وواصل تقدمه إلى أبين واستولى عليها . كما استولى على حصن السمدان[3] لتنازل أخوه الناصر أيوب له عنه.[4]ثم سار إلى عدن واستولى عليها[5]، وتقدم إلى لحج[6].

أما الأشرف فقد ساءه خروج أخيه عليه ، وقر عزمه على محاربته ، فسير

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٦٤ ب ، الخزرجي: المسجد ص٧-٣٠٨.

(٣) السمدان ، من الحصون التي يضرب بحصانتها المثل (الخزرجي : المسجد ص ٣٢٩) وليس بعد حصني التعكر وحب سواه (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٥ أ) ويقع بمخلاف جعفر (الويسي : اليمن الكبرى ص٣٦٠) بين لحج والدملوة .
(EL - Khazrejiyy : op. cit. vol. III, 3, p. 140, Note, 117.).

(٤) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٢٨٤ – ٥ ٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٣ أ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٥ أ ، ابن الفرات: تاريخه جـ ٦ ص ٥٣ ب ، الخزرجي : المسجد ص ٣١٧ – ١٨ .

(٦) الجندي : السلوك ص٢٢٢ ، الخزرجي: العقد الفاخر جـ٢ ص٦٨ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٤٥ ب .

ـحفـة بقيادة ابنه الملك الناصر [١] أتبعها بحشود أخرى يتلو بعضها بعضا [٢] إلى أن اشتبكت قواتـــه مع قوات أخيه فى معركة عنيفة جرت بقرية الدعيس [٣] فى المحرم سنة ٦٩٥هـ/[٤] نوفمبر ١٢٩٥م ، انتهت بهزيمــة المؤيد ، [٥] ممـا اضطره إلى طلب الأمان فأمنه ابن أخيـه الملك الناصر بن الأشرف ، ولكنه اعتقله مع ولديه المظفر والظافر وعاد بهم مقيدين إلى أبيه الملك الأشرف ، الذى كان قد توجه إلى مدينة الجوة [٦] لمتابعة أخبار المعركة ومواصلة الامدادات لها . وعلى الرغم من المتاعب التى أثارها المؤيد ، إلى أن الأشرف تأثر لاعتقال أخيه وولديه «وبكى بكاء شديدا وأمر باكرامهم» [٧] .

وعلى الرغم من انفراد الأشرف بالسلطنة بعد اعتقال أخيه المؤيد ، فإن

---

(١) ابن عبد المجيد . بهجة الزمن ص ٦٦ أ.

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٨٦ ، العسجد ص ٣١٨ ، بامخرمـة : تاريخ ثغر عدن جـ ٣ ص٧٠٢.

(٣) الدعيس ، موضع بناحية عدن وأبين (بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٧٣) .

(٤) الجندى : السلوك ص ٢٥٤ ، ٤٥٥ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٦ أ ، الأهدل : تحفـــة الزمن ص ١٥٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٧ .

(٦) الجوة ، مدينة بسفح حصن الدملوة ، وهى على مرحلة من مدينـة الجند (الجندى : السلوك : ص ٨٠ ، ٤١٩).

(٧) ابن عبد المجيد : بهجـة الزمن ص ٦٦ أ ، الخزرجى : العقود جـ١ ص ٢٨٩ .

العمر لم يمتد به طويلا ولم يلبث أن توفي بعد عام واحد فقط من هزيمة أخيه وخلاصه من خطره ، وكانت وفاته في المحرم سنة ٦٩٦هـ[1] / نوفمبر ١٢٩٦م. ولم تدم مدة حكمه أكثر من سنتين شغل في أولاهما بمحاربة أخيه المؤيد داود.

٢ - سلطنة المؤيد داود ، وتطور الأحداث الداخلية في عهده :

كانت وفاة الأشرف عمر مفاجئة ، ولم يكن معه وقت وفاته أحد من أبنائه ، فابنه الملك الناصر جلال الدين محمد كان نائبا له في مدينة القحمة ، في حين كان ولده العادل صلاح الدين في صنعاء [2]. ولعب القدر دوره في اعتلاء المؤيد داود عرش السلطنه بعد أخيه الأشرف [3] ، فلقد أجمع من كان حاضرا من كبار رجال الأشرف وخاصته على إقامة المؤيد سلطانا على اليمن ، مستهدفين بذلك إزالة مابينه وبينهم من عداء يرجع إلى تأييدهم للأشرف في حربه ضده ، وظنا منهم أنهم بمبايعتهم له سوف يحظون بثقته ويحتفظون بمكانتهم عنده . ولهذا توجهوا إلى المؤيد وأخرجوه من معتقله [4] ، وأبلغوه

---

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٥ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٩٧ ، العسجد ص ٣٢٠ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٦٦ أ ، الخزرجى : العسجد ص ٣٢٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٤ أ.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٨ ص ١٠٩ ، جـ ٩ ص ٢٥٣ ، المنهل جـ ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٤) ابن الفرات : تاريخه جـ ١ ص ٨٢ .

بوفاة أخيه فأبدى حزنه عليه [١]، ثم بايعوه بالسلطنة . وكان أول من بايعه الصاحب حسام الدين حسان بن أسعد بن محمد موسى العمرانى وزير أخيه الأشرف، « فاجتمع به وحلف له الأيمان المغلظة واستحلف له الجند [٢] والأمراء وأعيان الدولة [٣] ، ورغب الناس إلى ملكه رغبة ماعليها من مزيد » [٤].

ولما اعتلى المؤيد العرش واستقامت الأمور له ، أرسل كتبه إلى جميع أنحاء اليمن [٥]. وجاء ولدى أخيه ـ الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف وأخوه العادل ـ طائعين ، وبايعاه بالسلطنة فأمنهما وأكرمهما [٦] ، وعمل على إزالة الخلافات التى كانت بينه وبينهما ، وصاهرهما فزوج ابنيه الظافر عيسى والمظفر ضرغام الدين حسن بنتى أخيه الأشرف [٧] . ولكنه عمل على التخلص من رجال دولة أخيه ، وقرب أتباعه وثقاته وأسند إليهم المناصب الكبيرة ، ولهذا أقال حسان العمرانى وزير أخيه رغم أنه كان صاحب الفضل فى اعتلائه عرش السلطنة ، وجعل فى الوزارة مكانه القاضى الصاحب موفق الدين على بن محمد

---

(١) ابن عبد المجيد : نفسه ص ٦٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن جا ص ٢٠٨.

(٢) الجندى : السلوك ص ٣٦٤ .

(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢٩٩ ، المسجد ص ٣٢٢ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جا ص ٢٩٩ ، المسجد ص ٣٢٢.

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧١ ب ، الخزرجى : العقود جا ص ٣٠١ ، المسجد ص ٣٢٤.

(٧) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٨ أ.

ابن عمر اليحيوى [١] فى جمادى الأول سنة ٦٩٦هـ/ فبراير ١٢٩٧م، وفوض إليه قضاء الأفضية كما قرب أخاه رضى الدين أبا بكر بن محمد بن عمر [٢].
ولم يترك المؤيد أمر المفسدين من المماليك فقبض عليهم وأودعهم سجن حصن الدملوة [٣]. ثم أقطع صنعاء لابنه المظفر ضرغام الدين، أما الظافر عيسى فأقطعه القحرية والحازتين [٤].

وكان الزيدية أثناء ذلك يترقبون ـ منذ وفاة المظفر ـ الصراع الدائر بين السلطان الأشرف وأخيه المؤيد، وتمكنوا خلال ذلك من الاستيلاء على بعض الحصون. فلما مات الأشرف عمر وخلفه المؤيد وتمكن من السيطرة على مقاليد الأمور وانصاعت القبائل له، رغب زعماء الزيدية فى مصالحته، اكتسابا لوقت يتمكنون فيه من إعادة تنظيم صفوفهم إلى أن تحين لهم فرصة مواتية ينقضون فيها على بنى رسول، ولذلك فما أن جاءتهم كتبه حتى سارعوا بإرسال التهنئة بالسلطنة وإعلان ولائهم له وعقد الصلح معه [٥].

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٩ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٠٣ ، العسجد ص ٣٢٥ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ١ ص ٣٠٤ ، العسجد ص ٣٢٦ .

(٤) القحرية والحازتين من وادى زبيد (بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٧٤ :

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٧ أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٠٤ ، العسجد ص ٣٢٦ ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ب .

١ - صراعه مع أخيه المسعود :-

كان المسعود بن المظفر يتولى الأعمال السرددية - بوادى سردد شمالى زبيد - منذ عهد أخيه السلطان الأشرف عمر (١) ، فلما تولى المؤيد العرش حقد عليه المسعود وطمع فى انتزاع ملكه ، ولكنه عمل فى نفس الوقت على خديعة المؤيد وإيهامه بولائه وإخلاصه له ، وأرسل إليه ابنه أسد الدين محمد فأكرمه المؤيد وثبت أباه على إقطاعه (٢). وانتهز المسعود هذه الفرصة وبادر بإعلان العصيان فى أواخر سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م مدفوعا بمطامعه الشخصية فى عرش البلاد من جهة ، وبتشجيع من التف حوله من خصوم المؤيد ممن أضيروا بسلطنته من جهة أخرى (٣). وزحف المسعود بحشوده إلى حرض الواقعة فى شمال تهامة ، فانضم واليها إليه ، وأصبح من كبار أعوانه ومشيريه ، ونشط فى حشد الرجال وانضم إليه عدد آخر (٤).

عمل السلطان المؤيد على حسم مادة الخلاف سلميا إبقاءً على صلة الإخاء ، وأرسل إلى أخيه المسعود يدعوه إلى طاعته ، وأصدر له أمانا ، وثبته على إقطاعه ووعده خيرا ، ولكن المسعود لم يستجب لندائه . وعندئذ أعد جيشا عهد بقيادته إلى أخيه المنصور أيوب وسير برفقته ولده الملك الظافر عيسى

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٠ أ.

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٠٥ ، العسجد ص ٣٢٧ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٢ أ.

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٢ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٣٢٧ .

ابن المؤيد ، وزود الحملة بثلاثة من الفيلة[١] كان لاشتراكها فى الحملة أكبر الأثر فى إضعاف عزيمة المسعود الذى أدرك أن أنصاره إنما «يجمعهم صوت وتفرقهم عصا» [٢]. وأيقن أنه لا يمكنه التصدى للحملة ، ولهذا أعلن الدخول فى طاعة أخيه ، ولم يدخل فى حرب معه ، ولكن المؤيد أمر باعتقاله هو وولده أسد الاسلام فى حصن تعز وذلك فى المحرم سنة ٦٩٧هـ/ سبتمبر ١٢٩٧م. ظلا فى الحبس قرابة عام ، أفرج عنهما بعده وأسكنهما فى مدينة حيس[٣] وقرر لهما جامكية وكذلك لحاشيتهما [٤].

وبتخلص المؤيد من منافسة أخيه المسعود ، تفرغ لإقرار الأوضاع فى البلاد . وكانت الحملات الدورية التقليدية هى السياسة التى لجأ إليها ، كضرورة تحتمها طبيعة بلاد اليمن من أجل استمرار السيطرة المركزية . وبدأ بتجهيز ابنه المظفر ضرغام الدين إلى صنعاء ، فاستولى على حصن براش - إلى الشرق من صنعاء - وبعض حصون يريم [٥] جنوبى ذمار ، كما أرسل حملة ثانية فى

---

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٢٠٥ ، العسجد المسبوك ص ٣٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٢ ب .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٣٢٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٣ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٣ ب .

شعبان سنة ٦٩٧ هـ / مايو ١٢٩٨ م إلى مأرب لتمكين سلطانه عليها والقيام ببعض الإصلاحات فيها ، (١) وثالثة إلى منطقة حجة حققت هي الأخرى أهدافها (٢) . وهكذا أثبت المؤيد كفاءة فى مواجهة المواقف الحرجة ، وقدرة على الضرب على أيدى العصاة والمتمردين .

ب – مواجهته لحركات الزيدية وقبائل الجحافل والعجالم :

كان الزيديون قد تظاهروا بالطاعة المؤيد ، وأكدوا ذلك بعقد صلح معه . وعلى الرغم من وفاة الإمام مطهر بن يحيى عقيب ذلك فى رمضان ٦٩٧ هـ (٣) / يونيه ١٢٩٨م ، إلا أن ذلك لم يمنع تكتل القوى الزيدية لإظهار الخلاف على السلطان . ولكن المؤيد لم يتردد فى مهاجمتهم ، وأسرع إلى صنعاء فوصلها فى ذى القعدة(٤) ثم غادرها فى ذى الحجة إلى منطقة الظاهر شمالها (٥) وتفاديا للمخاطر توجه وفد من زعماء الزيدية لتجديد الطاعة له ، وأبدوا استعدادهم للتعاون معه ضد من استمر على الخلاف من الزيدية ، فزودهم ببعض جنده واستولوا على مدينة صعدة (٦) . وفى نفس الوقت كان المؤيد يواصل

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العسجد ص ٣٢٨ .

(٣) الخزرجى: العقود جـ١ ص ٣١٠ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٣ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٣٢٨ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة .

(٦) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١١ ، العسجد ص ٣٢٨ .

أعماله الحربية شمالى صنعاء ، فأغار فى المحرم سنة ٦٩٨ هـ / أكتوبر ١٢٩٨ م على بعض المدن والحصون وخرب بعضها بالمجانيق وأقام الحصار على البعض الآخر ، واستمر ذلك إلى أن تم التوصل إلى هدنة مدتها سبعة أشهر [١]

ويمدنا ابن أيبك منفرداً بسبب هام لخروج الزيدية عن طاعة السلطان الرسولى ، وإن كان لم يوضح المصدر الذي استقاه منه ، فيذكر أن السلطان كان يرسل إلى الزيدية عشرين ألف دينار سنويا ، نظير التزامهم له بالطاعة وإقرار الأمن فى مناطقهم وحماية المسافرين والتجار العابرين فى حدودهم ، وعدم التعرض لأحد بسوء . ولكن الزيدية خالفوه لعدم كفاية هذا المبلغ . وطالبوه بزيادة المقرر السنوى إلى مائة ألف دينار ، وقالوا : « فإنا نحن عمارة البلد، وبنا الصلاح والفساد » فلما لم يستجب لهم خرجوا عن طاعته ، واضطر إلى زيادة المبلغ إلى ثلاثين ألف دينار بعد تمام الصلح معهم [٢] .

أما المصادر اليمنية فتؤكد أن المؤيد غمر الزيدية بعد عودتهم إلى الطاعة بالأموال الطائلة والخلع والكسوات . وأنه لما عاد إلى صنعاء فى ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ / ديسمبر ١٢٩٨ م توافد عليه جموع الأشراف الزيدية ومشائخ القبائل مجددين الطاعة له ، فاستصحبهم معه إلى تعز[٣] ومنها إلى زبيد فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٦٩٨ هـ[٤] /مارس ١٢٩٩ م . وكان الشريف الزيدى

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٤ ب ، الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣١٥ ، العسجد ص ٣٢٩ .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر حـ ٩ ص ٦٧ – ٦٩ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣١٥ ، العسجد ص ٣٣١ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٥ ب – ٧٦ ، أ .

على بن عبد الله الحمزى ـ والد المؤرخ اليمنى عماد الدين إدريس ـ ممن دخل في طاعة المؤيد ، وحظى بمكانة كبيرة عنده ، وأغدق عليه بسخاء حتى قيل أن جملة ما حصل عليه من أموال ـ منذ وصوله مع السلطان إلى زبيد حتى عودته منها في شوال سنة ٦٩٨ هـ / يوليه ١٢٩٩ ـ تجاوز السبعين ألف دينار[١] حاشا الكساوى والخيول وغيرها ،[٢] ولكنه لم يلبث أن توفى بعد عودته[٣]، وكان من كبار الأشراف وأعيان رؤسائهم . فلما توفى أجمع أهل بيته على تقديم ابنه عماد الدين إدريس مكانه[٤] ، فاستمر على سياسة أبيه في موالاة السلطان المؤيد . وتأكيداً لذلك بادر بتلبية طلب السلطان عندما استدعاه إليه فكان وصوله في ذى القعدة سنة ٦٩٩ هـ / يوليه ١٣١١ م ، وتلقاه المؤيد بالإجلال والإكرام ، وأصدر أوامره إلى أتابك عسكره بألا « يستفتح الميدان إلا الأمير المذكور (عماد الدين إدريس) مقدما على أعيان الأمراء ووجوه الدولة ، فكان كما رسم »[٥] . وترتب على بقاء عماد الدين إدريس في في خدمة السلطان المؤيد ، تسليم ما كان لديه من الحصون[٦]، وارتفاع مكانته

---

(١) كل دينار أربعة دراهم ، وكل درهم عشرة قراريط . (ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٦ « أ » .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣١٨ ، العسجد ص ٣٣٢ .

(٣) الجندى : السلوك ص ٢٥٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب . (وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ٦٩٩) العقود جـ ١ ص ٣٢٤ ، العسجد ص ٣٣٩ .

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٧ ب .

(٦) زبارة . أئمة اليمن ص ٢١٠ .

عند السلطان ، فمنحه سبعة آلاف دينار ، وأغدق عليه الهدايا والتحف والملابس والمماليك والخيول وغيرها ، وأقطعه مدينة القحمة [١] في المحرم سنة ٧٠٠ هـ [٢] / سبتمبر ١٣٠٠ م .

وباستقرار الأحوال في البلاد ، أقطع السلطان صنعاء لابنه المظفر ضرغام الدين فلما وصلها في شعبان سنة ٦٩٩ هـ [٣] / ابريل ١٣٠٠ م احتفل أهلها بمقدمه ، وزينوا المدينة ابتهاجا به ، ومن جهة أخرى — وفي إطار هذا الهدوء — أخذت المواكب السلطانية تجوب أنحاء البلاد ، وفي سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م تحرك الركب السلطاني إلى زبيد فدخلها في صفر ، ثم غادرها في الشهر التالي إلى المهجم — من أعمال وادي سردد — [٤] فدخلها في احتفال بهيج [٥] ، وأقام فيها إلى جمادى الأولى ، ثم عاد إلى زبيد [٦] حيث واصل زياراته للمناطق المجاورة ، ثم توجه بعدها إلى تعز فوصلها في رمضان . وفي هذه الأثناء أقطع ولده الملك الظافر عيسى صنعاء بدلا من أخيه المظفر ضرغام الدين [٧] ، فأغار

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ « أ » ، الجندي : السلوك ص ٢٥٤ ، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٨ ب .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٢٦ ، العسجد ص ٣٣٥ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ « أ » ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٠ .

(٤) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٢٧ ، العسجد ص ٣٣٦ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٨ ب .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ أ .

(٧) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٢٨ .

فى طريقه إليها على بعض القبائل لأمور بدرت منهم ، واستولى على كثير من خيلهم (١) . كما قام السلطان المؤيد بإرسال حملة إلى بلاد المعازبة لخروجهم عن الطاعة وإخلالهم بالأمن ، واصطنع معهم العنف حتى أذعنوا للطاعة وقدموا الرهائن تأكيداً لولائهم (٢).

وكان المؤيد دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يدع مشكلة دون أن يتولى فى الحال حلها ، منعا من تعقد الأمور . فقد كان المؤيد فى مدينة الجند عندما بلغه حدوث تغير من الزيدية ، فلجأ فى البداية إلى مكاتبتهم لتهدئة النفوس والعمل على إزالة أسباب الخلاف ، فلما أخفقت هذه المحاولة السلمية أمر عماد الدين إدريس بالتجهيز لمحاربتهم ، وعندئذ أسرعوا لإرضائه وقدموا رهائنهم إليه (٣) . ولكن ما أن خمدت هذه الحركة حتى وردت الأنباء بمخالفة الأشراف السليمانيين – بمنطقة المخلاف السليمانى شمالى تهامة – وإقدامهم على قتل نائب مدينة الراحة قرب حرض ، فوجه السلطان إليهم حملة بقيادة عماد الدين إدريس انضم إليه فيها نائب حرض ، ونجحت هذه الحملة فى استرداد مدينة الراحة قهرا فى شعبان سنة ٧٠١ هـ (٤)/ابريل ١٣٠٢ م ، وقتل

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ أ ، الخزرجى : العسجد ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٢٨ ، العسجد ص ٣٣٧ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٩ ب .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٣٠ .

في هذه المعركة عدد كبير من السلطانيين ومن عاونهم [1] ، وطاردت القوات السلطانية من فر منهم حتى أجبرتهم على الطاعة ورد ما استولوا عليه [2] .

ومع بداية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بايعت جموع الزيدية الشريف محمد بن الامام السابق المطهر بن يحيي إماما للزيدية ولقبوه بالمهدى [3] . فكان ذلك نذيرا بعصيان زيدى جديد ، ولذلك بادر المؤيد بالخروج فورا على رأس حملة إلى صنعاء ، ومنها واصل تقدمه شمالا الى بلاد الظاهر [4] ، وطاف بمنطقة الجبال الشمالية ، وحاصر عددا من الحصون وضربها بالمجانيق . فلما استولى عليها [5] ، أمر باصلاح ماتخرب منها ، وولى عليها الولاة وترك معهم فيها الحاميات المناسبة ، وعاد إلى صنعاء في أوائل سنة ٧٠٢ هـ [6] / ١٣٠٢ م . وكنتيجة لتحرك الزيدية من جديد واستبدادهم بما تحت أيديهم [7] ، لم يتردد المؤيد في حسم الفتنة ، وجرد عدة

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٠ أ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢١٢ .

( ) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٠ ب ، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٣٣١ ، العسجد ص ٣٣٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨١ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٦ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٣ أ ـ ب .

(٧) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٣٣٧-٣٣٩ ، العسجد ص ٣٤٢-٣٤٣ (ويذكر ابن عبد المجيد أن ماحدث تم بتشجيع بعض أتباع السلطان ومنهم بدر الدين محمد بن حاتم) بهجة الزمن ص ٨٣ ب .

حملات [١] تمكن بفضلها من استرجاع نفوذه على منطقة الجبال الشمالية إلى صعدة [٢] .

ومن الملاحظ أنه على الرغم من تجدد الخلاف من الزيدية ، ومناوشتهم للمؤيد بين حين وآخر [٣] ، إلا أن حركاتهم لم تكن جماعية منظمة ، مثلما كانت في عهد أبيه وجده ، ويرجع السبب في ذلك إلى تمكن السلطان المؤيد من استمالة عدد من الأشراف الزيدية ، مثل عماد الدين إدريس بن علي وأبيه من قبله . كما كان لإغداقه الأموال عليهم ، وتقربهم واستجابتهم له ، أثر كبير في ترحيب السلطان بهم وبالتالي دخولهم في خدمته ، ولم يتردد السلطان المؤيد في إسناد قيادة بعض الحملات إلى بعضهم . وهكذا انقسمت القوى الزيدية ، فريق منهم مؤيد للسلطان، استخدمهم في القضاء على ماعداهم من المتمردين عليه، أضف إلى ذلك أنهم ظلوا بغير إمام يجمع صفوفهم منذ وفاة الامام المطهر ابن يحيى سنة ٦٩٧ [٤] إلى ٧٠١ ﻫ / ١٢٩٧ – ١٣٠٢ م عندما أقيم الامام

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٤ ب ، زبارة : اتحاف المهتدين ص ٦٣ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٣٩ ، العسجد ص ٣٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢١٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٨٢ – ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٢ب ، ٩٧ ، ١٠٠ أ ، ١٠٣ ب – ١٠٤ أ ، الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٣٥١ – ٣٠٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ . العسجد ص ٣٤٦ – ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ – ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٧٣ أ .

محمد بن المطهر (١) . ومن الجدير بالذكر أن انقسام الزيدية استمر واضحا طوال عهد المؤيد ، ولم ينجح الامام أو غيره من كبار رجالات الزيدية فى التوفيق بينهم أو توحيد كلمتهم ، مما أدى إلى ضعف مقدرتهم على المعارضة ، وساعد بالتالى على نجاح المؤيد فى القضاء على حركاتهم المفككة ، وتبديد أحلامهم فى الاستحواذ على المنطقة الواقعة شمال صنعاء ، والتى كانوا يتخذونها قاعدة لهم للقضاء على دولة بنى رسول ، وفرض السيطرة الزيدية على بلاد اليمن بأكملها .

وفى الوقت الذى خفت فيه حدة حركات الزيدية المعادية للمؤيد قامت قبائل الجحافل والعجالم (٢) بإثارة الشغب فى منطقة لحج ، فقام الأمير سيف الدين طغريل نائب المؤيد فى لحج بالاغارة عليهم فى جمادى الأخرى سنة ٧٠١ هـ (٣) / فبراير ١٣٠٢ م ، وتمكن بعد قتل أكثر من سبعين من رجالهم ، من إعادتهم إلى الطاعة (٤) . ولكن هذه القبائل كانت تتربص للعودة إلى العصيان ، وما أن قام السلطان سنة ٧٠٢ هـ بسحب سيف الدين طغريل من لحج لإسناد ولاية صنعاء إليه (٥) ، وتولية الشريف عماد الدين إدريس مكانه ، حتى وجدت

---

(١) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣٣١ ، العسجد ص ٣٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٦ ب ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢١٢ ، اتحاف المهتدين ص ٦٤ .

(٢) الجحافل والعجالم ، قبائل متجاورة تقطن المنطقة الواقعه إلى الشمال ، والشمال الشرقى من لحج .
(El-Khazrejiyy op. cit. pp. 101, 154, Note, 653, 984)

(٣) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣٣٠ ، العسجد ص ٣٣٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٠ أ .

(٥) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

القبائل المذكورة الفرصة للثورة ، فأغار الوالى الجديد عليهم [١] ، وقام بمطاردتهم ، وانتهى الأمر بمعركة عنيفة بين الجانبين سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م كادت الهزيمة تلحق فى نهايتها بعماد الدين إدريس لإصابته فى المعركة ، ولكنه استطاع رغم جراحه مواصلة القتال وإحراز النصر [٢] وقتل الكثيرين منهم ومتابعة فلولهم.

ومما يذكر فى هذا المجـــال أن هذه القبائل كانت تحصل على جامكية من المؤيد ، ومن المرجح أنه قد قررهـــا لهم منذ توليه السلطنة ، مكافأة على مناصرتهم له أثناء صراعه ضد أخيه الأشرف [٣] . فلما خرجوا عن الطاعة سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م قطـــع الجامكية عنهم [٤] ، ثم أعادهـــا إليهم سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م بعد أن عادوا إلى السكينة وأقروا بالطاعة له [٥] . ولكن على الرغم من إغرائهم بإعادة الجامكيه إليهم ، إلا أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى العصيان مرة ثالثة فى شوال سنة ٧٠٦ هـ / ابريل ١٣٠٧ م ، وعاثوا فسادا فى المنطقة ، فتصدت لهم قوات السلطـان وهزمتهم وقضت على حركتهم وقتلت منهم نحو أربعين من رؤسائهم [٦] .

---

(١) الخزرجى : المسجد ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٩٢ أ .

(٤) الخزرجى : المسجد ص ٣٥٢ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ٩٨ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٧٢ ، المسجد ص ٣٥٥ .

ج ـ تحالف الزيدية والأكراد ضد السلطان ، وموقفه منهم :ـ

الأكراد ، هم البقية الباقية من عسكر الأيوبيين فى اليمن ، وكانوا قد تجمعوا بعائلاتهم فى مدينة ذمار منذ بداية دولة بنى رسول ، وظلوا موالين لهذه الدولة ويشاركون في الحملات التى كان بنو رسول يعدونها ضد أعدائهم فى الداخل . وترجع أسباب ثورتهم إلى مابلغهم من اعتزام سيف الدين طغريل والى صنعاء القبض عليهم ، فتوجهوا إلى صنعاء سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م وقاموا بمحاصرة واليها فى قصر الإمارة ، وطالبوه بالخروج إليهم لمواجهته بما هو منسوب إليه ، فاضطر نتيجة استمرارهم فى حصاره إلى الخروج إليهم فقتلوه [١] في جماعة من أتباعه [٢] فى ربيع الآخر سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م [٣].
فلما علم المؤيد جرد إليهم حملة للقضاء على ثورتهم ، ولكنهم التجأوا إلى حصن هران ـ من حصون منطقة ذمار ـ فتبعتهم قوات المؤيد حتى مزقت صفوفهم [٤] ، واستمرت تطارد فلولهم بهدف استئصال شأفتهم . [٥]

وكان من الطبيعى أن يسعى الأكراد إلى محالفة الزيدية ـ أعداء بنى رسول التقليدين ـ ليكونوا يدا واحدة على السلطان الرسولي ، فقام زعماؤهم بمكاتبة الامام الزيدى محمد بن مطهر الذى لم يتردد فى اغتنام الفرصة ،

---

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٦ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٨٦ ، العسجد ص ٣٦٢ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ١٠٤ أ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٣٦٢ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٤ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٤ ب .

فاستقدمهم ورحب بهم وضمهم إلى قواته ، وقويت بهم شوكته (١) ، وعاد الأمل يراوده في الاستيلاء على صنعاء ، ولكن حامية المدينة استطاعت الصمود حتى وصل السلطان المؤيد إليها بنفسه (٢) ، للقضاء على الأكراد والوقوف أمام مطامع الامام الذى كان قد تمكن من السيطرة على مدينة صعدة ، وأعاد الاضطرابات بذلك إلى منطقة الجبال الشمالية (٣) .

ولم تكن كل القوى الزيدية تقر تصرفات الإمام ، إذ لم يكد المؤيد يصل إلى صنعاء في شهر شوال سنة ٧٠٩هـ/مارس ١٣١٠ م ، حتى جاءه عدد من كبار الزيدية مجددين له الطاعة والولاء . وقام المؤيد بتجهيز حملة بقيادة ولده المظفر ضرغام الدين لمحاربة الامام ومـــن لاذ به من الأكراد ، فتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون وأحرز انتصارا على الامام وأرغمه على الفرار عن معه(٤) والتحصن ببعض جبال المنطقة ، «وصاروا فى أشر حال خوفا من العسكر السلطاني(٥)» ، وتوالت الحملات على الحصون التابعة للامام ولم تترك حتى أذعنت بالطاعة للسلطان وقدمت الرهائن(٦) . أما الأكراد فقد اضطروا

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٤ ب ، الخزرجي : العقود ص ٣٨٧ ، العسجد ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٥ أ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٧ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٥ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٨٨ ، العسجد ص ٣٦٣ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٠٥ ب .

(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٦ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٩٣ ، العسجد ص ٣٦٤ .

بعد أن ساءت أحوالهم إلى مكاتبة السلطان وطلب عفوه عنهم ، فاستجاب لهم ، وعادوا إلى الطاعة (١) في جمادى الآخرة سنة ٧١٠ هـ / أكتوبر ١٣١٠ م ، وقدموا له رهائن منهم (٢) .

أما الامام فقد ظل الأمل يراوده في الاستيلاء على الحصون الواقعة الى الشمال من صنعاء ، ولم يكن من اليسير عليه تحقيق هذا الأمل دون مساعدة الأكراد له ، فظل يغريهم منذ عام ٧١١ هـ بالعودة للانضمام اليه والخروج عن طاعة المؤيد (٣) ، إلا أن السلطان بادر بإرسال حملة بقيادة إدريس عماد الدين لإحباط هذا الحلف ، ولكن الإمام تمكن من هزيمة إدريس وأسره فى شعبان ٧١١ هـ (٤) / ديسمبر ١٣١١ م .

لم يبق ادريس فى الأسر طويلا ، إذ تمكن بعد أيام من الخلاص (٥) ، وأعقب ذلك توصل طرفى النزاع إلى هدنة مدتها عام (٦) ، ولم تكد تنتهى المدة حتى بعث الامام رسله إلى السلطان ، وتم التوصل إلى صلح مدته عشر

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٨ أ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٩ .
(٢) الخزرجى : العسجد ص ٣٦٥ .
(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٦ ب .
(٤) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٩٧ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ .
(٥) الخزرجى : العسجد ص ٣١٦ .
(٦) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٧ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٣٦٧ .

سنوات (١) أخرى تبدأ من جمادى الآخرة ٧١٢ هـ (٢) أكتوبر ١٣١٢ م .
فكان ذلك دافعا للأكراد على ترك خدمة الامام ، وعندئذ اتجهت نية السلطان المؤيد إلى القضاء عليهم ، والتخلص من خطرهم . ولكنه لم يلبث أن صفح عنهم نتيجة توسط بعض المقربين إليه (٣) ، غير أنهم أثاروا فتنة أخرى في ربيع الأول سنة ٧١٣ هـ/يوليه ١٣١٣م عندما أقدموا على قتل عدد من المماليك، ولكنهم ما أن علموا بقيام السلطان بإعداد حملة للقضاء عليهم ، حتى بادروا بإرسال بعض زعمائهم الاعتذار للسلطان عما بدر منهم ، فصفح السلطان عنهم بشرط ألا يعودوا إلى العصيان أو أثارة الشغب مرة أخري (٤) .

د ـ حركة الناصر بن الأشرف :

كان السلطان المؤيد قد عمل ـ منذ خلف أخاه الأشرف في عرش السلطنة ـ على تسوية الخلافات مع أبناء أخيه، وقربهم منه وأدناهم إليه وأكرم وفادتهم، وظل أبناء الأشرف مطيعين لعمهم المؤيد ، غير أنه حدث سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م أن مرض السلطان المؤيد مرضا شديدا أشرف به على الموت ، فخشي الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف أن يستولي أحد أبناء السلطان على السلطنة بعد وفاته ، ولهذا بادر ـ بتحريض من قاضي القضاء جمال الدين محمد بن أبي بكر

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٠٨ أ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٤٠١ .

(٣) ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة، الخزرجي: العسجد ص ٢٦٨

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢١٧ .

اليحيوى ـ بالكتابة إلى عـدد من المناطق يدعوهم إلى الانضمام إليه وتأييده في الاستيلاء على السلطنة، ولجأ إلى جبل سورق[1] قرب مدينة الجند وتحصن فيه. فلما علم السلطان المؤيد بهذه الثورة تجهز ـ رغم مرضه ـ وأسرع بالخروج على رأس حملة للقضاء على حركة الناصر، وظل محاصراً له حتى اضطره إلى طلب الأمان فأمنه السلطان وعفا عنه[2]. أما قاضى القضاة فقد عزله السلطان[3] واعتقله في حصن تعز عقابا له على تحريضه للناصر[4] .

وأيا ما كان شأن تلك الحركات العدائية التى واجهت السلطان المؤيد أثناء فترة حكمه، فإنه استطاع إحكام السيطرة على البـلاد، ولم يتوان فى القضاء على كل بادرة للخروج عن طاعته، وكانت قواته دائمـة الحركة، مما أدى إلى حصر حركات التمرد وسهولة مهمة القضاء عليها.

ويمكن القول بأنه على الرغم من الحركات الداخلية التى حدثت فى عهده،

---

(١) جبل سورق، جبل حصين مطل على مدينة المهجم (ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٤ أ، الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٧٨) وهو إلى الشرق منهـا، ويقع على خط عرض ٣٠ ر١٣° شمالا، وخط طول بين ٣٠ ر٤٠° ، ٤٠ ر٤٣° شرقا . (EL-Khazrejiyy : op. cit., p. 170, Note 1173) .

(٢) الخزرجى : المسجد ص ٣٧٨ .

(٣) الجندى: السلوك ص ٢٧١ ، الأهدل : تحفـــة الزمن ص ١٦٦ أ ، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٦٠ ب، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤١٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٤ أ .

فقد نعمت البلاد خلال فترة حكمه - التي استمرت حوالي ست وعشرين عاما - بالهدوء والاستقرار النسبي الذي لم يتوفر بهـذه الدرجة لأسلافه من قبله . وكانت وفاته يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة سنة ٧٢١ هـ[١] / ٢٢ ديسمبر سنة ١٣٢١ م .

ثالثا - سلطنة المجاهد واضطراب اليمن في عهده :-

لما توفى السلطان المؤيد أجمع أمراء الدولة وأعيانها وعسكرها على سلطنة ولده المجاهد على[٢]، وكان يبلغ من العمر وقتئذ خمسة عشر عاما[٣]. وكانت أحوال بلاد اليمن قد اضطربت بعد وفاة المؤيد[٤]، وتنافس أمراء بني رسول كل يريد الاستيلاء على عرش السلطنة ، فساءت بذلك أحوال المجاهد وتقلص ملكه ، كما تمرد الجند واستشرى عصيان القبائل، وزادت مطامع الزيدية ،فكان

---

(١) الجندي : السلوك ص٤٥٦، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٦ أ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص ٢١٤ ، السبكي : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٠٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٤٠، العسجد ص٣٨٠، المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٣٤ ، العيني : عقد الجمان ، مجلد ٦١ ص ٣٥٢، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٦١ ص ٣٥٣، الجندي : السلوك ص ٤٥٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٨ ب، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص٢١٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٥٤ ، المنهـل الصافي جـ ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

ذلك سبباً لاستمرار الفوضى في البلاد رغم المحاولات التي بذلها المجاهد وخلفاؤه إلى نهاية الدولة (١) .

وترجع أسباب تلك الاضطرابات إلى سوء سياسة السلطان المجاهد ، فقد قام بإقصاء أعوان أبيه وتقريب خاصته ، وبدأ بعزل نائب السلطنة وأتابك العسكر جمال الدين محمد بن يوسف بن يعقوب ، وفوضهما إلى شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور (٢) ، وعامل أمراء الأجناد معاملة سيئة نفرتهم منه وغيرتهم عليه . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، وإنما سجلوا عليه عدة مواقف جعلتهم يخشون على أنفسهم منه ، فقد قام في صفر سنة ٧٢٢ هـ (٣) / فبراير ١٣٢٢ م باعتقال ابن عمه الملك الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف (٤) وكان ذلك بإيعاز من نائب سلطنته شجاع الدين عمر بن يوسف (٥) ، لشائعة تتعلق باعتزامه الخلاف عليه سيما وقد سبق أن عصى المؤيد سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م . كما كان لتصرف المجاهد بمنع وصول جثمان أبيه إليه في حصن تعز (٦) أثره

---

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٦ ب ، الخزرجي العقود جـ ٢ ص ١ ، العسجد ص ٢٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٣) الجندي : السلوك ص ٤٥٧ .

(٤) الخزرجي : العقود جـ٢ ص ١ ، ابن الديبع . قرة العيون ص ٨٩ أ .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٣٨٧ .

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ص ١٢٩ .

في إثارة مشاعر السخط عليه . ومن الأمور التي أغضبت الجند، أن العادة السلطانية جرت على أن يقوم السلطان ـ عند كل زيارة لحصن الدملوة ـ بالانعام على كافة العسكر والمرتبين فيه، ولكن المجاهد أبطل هذه العادة، وأمسك يده ولم ينعم على أحد منهم عند زيارته لهذا الحصن(١). وفيما يلي عرض لأهم أحداث عصره .

١ ـ الصراع على العرش بين المجاهد وبين الظاهر ونائبه :ـ

كان المجاهد تنقصه الحنكة السياسية والقدرة على إدارة شئون البلاد ، وكان يفتقر إلى الخبرة ، مما جعله أسير حاشيته ومنفذا لما يشيرون به عليه ـ فكان لكل ذلك أثره السيء على نفوس العسكر وأمرائهم الذين أيقنوا أنه لن يستقيم لهم أمر معه ، ولهذا قرروا الخلاف عليه والخروج عن طاعته (٢) . وبدأت ثورتهم بقتل نائب السلطنة ومن كان معه كقاضي القضاة وغيرهما من كبار أعوان المجاهد (٣) . واتبعوا ذلك بالقبض على المجاهد نفسه (٤) في الثامن من جمادى الآخرة سنة ٧٢٢هـ(٥) / ٢٤ يونيــــة ١٣٢٢م وعزلوه عن السلطنة وأقاموا عمه المنصور أيوب بن المظفر سلطانا على اليمن(٦)، وسلموا

(١) الخزرجي : العسجد ص ٢٨٧ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٢٨٧ .

(٣) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجي العقود ج٢ ص٣ ـ ٤ ، ابن الديبع: قرة العيون ص٨٩أ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٠ أ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ٢١٥ ، المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٦) الجندي : السلوك ص ٤٤٧ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٢١ ص ٣٥٢ .

إليه المجاهد فسجنه في حصن تعز (١) . وحالفت العساكر للمنصور أيوب ، فأنفق فيهم الأموال الكثيرة وأغدقها عليهم وعلى غيرهم من العامة ، حتى بلغ مقدار ما أنفقه خلال فترة سلطنته القصيرة سبعمائة ألف دينار غير التشاريف والإنعامات الكثيرة (٢) من الملابس والخيول وغيرها ، (٣) فحظي بحب الجميع وتأييدهم . كذلك كاتبه الأشراف الزيدية وهنأوه بالسلطنة وبذلوا له الطاعة (٤) . وكان من أولى أعماله إطلاق سراح ابن أخيه الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف ، وكان المجاهد قد سجنه في عدن (٥) ، فأقطعه المنصور مدينة القحمة (٦) .

وعلى الرغم من أن المنصور أيوب اختص أعوانه بالمناصب والإقطاعات، وكسب قلوب الجند بالهبات والعطايا ، فإنه لم يحترز أتباع المجاهد ، بل أبقاهم

---

(١) الجندي : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجي : العسجد ص ٣٨٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ .

(٢) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٧ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٤ - ٥ العسجد ص ٣٨٨ .

(٤) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٧ أ .

(٥) الخزرجي : العقود ج ٢ ص ٣ ، العسجد ص ٣٨٧ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٢٢ .

(٦) الخزرجي : العقود ص ج٢ص٤ ، العسجد ص٣٨٨، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ أ - ب .

فى خدمته ، فكانت سراياهم تسرى فى الجند[1]، مما أتاح الفرصة لبعض غلمان المجاهد لتنفيذ خطة والدته بتسلق حصن تعز ليلا وذلك بالتآمر مع عبيد الشرابخاناه والطشتخاناه ، الذين أدلوا إليهم الحبال، بحيث تمكن أربعون منهم من تسلق الحصن ليلة السادس من رمضان سنة ٧٢٢هـ[2] /١٨ سبتمبر ١٣٢٢م، وفاجأوا المنصور أيوب على حين غرة واعتقلوه وأطلقوا سراح السلطان المجاهد[3] . وفشلت جميع المحاولات التى بذلت لنصرة المنصور أيوب[4] . وتعهد المجاهد بتأمين مماليك أبيه وكتب لهم العهود والذمم بحضور القاضى والشهود وأعيان الدولة[5] .

وإذا كان المجاهد قد نجح فى استرجاع السلطنة ، إلا أن الأمور لم تصف له ، وواجهته عقبات كثيرة منها ، أن الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب كان قد استقر فى حصن الدملوة[6] وتحصن فيه منذ أيام أبيه المنصور

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٧ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة، الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٤ – ٥ ، العسجد ص ٣٨٨ .

(٣) الجندى : السلوك ص ٤٥٧ العينى : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٢ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٢٢٣ .

Playfair : A Hi tory of Arabia Felix. Bombay 1859, p. 90.

(٤) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٥ – ٦ ، العسجد ص ٣٨٩ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١١٨ أ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٩ ب .

(٦) الخزرجى: العقود ج ٢ ص ٤ ، العسجد ص ٣٨٨ ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة :

أيوب، فلما استرد المجاهد عرشه واعتقل عمه المنصور أيوب، طلب منه مكاتبة ابنه الظاهر عبد الله لتسليم حصن الدملوة، ولكن الظاهر امتنع[١] رغم تهديد المجاهد بقتل أبيه[٢].

وهكذا بدأ دور جديد من أدوار الصراع الرهيب بين السلطان المجاهد وبين ابن عمه الظاهر وشرع المجاهد فى تجهيز حملة بهدف الاستيلاء على حصن الدملوة والقضاء على عصيان الظاهر، ولكن هذه الحملة أرغمت على الانسحاب لمناعة الحصن وصعوبة السيطرة عليه. ومن ناحية أخرى كان للصراع على السلطنة أثره فى اضطراب أحوال كثير من المناطق. ويصف ابن عبد المجيد الأحوال بمخلاف جعفر وما قام به رؤساء القبائل وأتباعهم من أعمال بقوله: «وملكوا أمـــلاك الملوك، ونهبوا (مدينة) جبلة وأخذوا جميع ما بها حتى حصر الجامع، واستفضوا الأبكار عند المنبر». [٣]

واتسعت دائرة الخلاف، وحدثت أمور لم يسبق حدوثها من قبل، ففى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م انضم كثير مـــن الجند إلى الظاهر بن المنصور أيوب، فأغدق عليهم الاموال وأكرمهم، وأعدهم لمقاتلة سلطانهم المجاهد بن المؤيد[٤] وتمكن الظـاهر بمساعدة هذه القوات من الاستيلاء على مدينة الجند فى ربيع

---

(١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٨ أ، الخزرجى: العقود ج ٢ ص ٦، العسجد ص ٣٩٠، ابن الديبع: ص ٩٠.

(٢) العينى: عقد الجمان مجلد ٢٣ ص ٣٩٢.

(٣) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ١١٨ ب.

(٤) ابن عبد المجيد: نفس المصدر والصفحة.

الأول سنة ٧٢٢ هـ [1] / مارس ١٣٢٣ م. ثم وجههم الظاهر إلى تعز عاصمة دولة بنى رسول ومقر حكم السلطان المجاهد ، وفشلت محاولة المجاهد فى التصدى لهذه الحملة . ويذكر المؤرخ اليمنى تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد ، أنه لم يكد الجيشان يشتبكان حتى نكس أتباع المجاهد رماحهم « ونادوا ياظاهرية ، وانتظم العسكر بكماله ظاهريا » [2] . ودخلت هذه القوات إلى مدينة تعـــز دخولا معظما ، وحاصرت السلطان المجاهد فى قلعتها ، وأصبحت نهاية المجاهـد متوقفة على سقوط القلعة . ولكن المجاهد استطاع بوسائله الخاصة أن يضمن ولاء بعض المحاصرين للقلعة ، والاتفاق معهم على تسهيل قيام حامية القلعة بمفاجأة القوات المحاصرة ، ونجحت الخطة واستطاعت الحامية أسر عـدد من أمراء المماليك [3] ، مما أدى إلى اضطراب القـــوات المحاصرة ، وانفكاك الحصار وعـودة القوات إلى الظاهر [4] . فتخلص المجـاهد وعاصمته تعـز من خطر محقـــق .

وعلى الرغم من إخفاق الظاهر فى الاستيلاء على قلعة تعز ، وفشل قـواته

---

(١) الجندى : السلوك ص ٤٥٨ .

(٢) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص١١٩ أ .

(٣) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، الجندى: السلوك ص٢٤٢، الأهدل : تحفة الزمن ص ١٥٢ ب .

(٤) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص١١٩ب ، الجندى: السلوك ص٤٥٨ الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢، العسجد ص ٣٩٢ .

فى الاحتفاظ بالمدينة ، إلا أنه لم يتردد بعد عودة قواته إليه فى إعادة تنظيمها حيث تمكنت من الاستيلاء على مدينة زبيد وذلك فى أول رجب سنة ٧٢٣ هـ[١] / ٦ يوليه ١٣٢٣ م ، واستباحت بيوت أعوان المجاهد ، وسلبت ما فيها من نفائس[٢] وأصبحت الخطبة فى تهامة للظاهر ، وضربت السكة باسمه[٣] .

أما المجاهد ، فقد واصل محاولاته المستميتة للصمود أمام هذا الطوفان الجارف ، فأرسل حملة فى شهر رجب سنة ٧٢٣ هـ[٤] / يولية ١٣٢٣ م لاسترداد مدينة زبيد[٥] ، ولكن قوات الظاهر المسيطرة عليها تصدت لها وتمكنت من هزيمتها ، ووقع قائدها أسيرا ، بين قتل عدد كبير من أفرادها[٦] ونشط الموالون للظاهر ، فتمكن والى لحج من الاستيلاء على مدينة عدن[٧] وأخرجها عن سيطرة المجاهد وذلك فى شعبان ٧٢٣ هـ[٨] / أغسطس ١٣٢٣ م وهكذا فشلت محاولات المجاهد ، وتحرج موقفه « واستقرت المملكة كلها

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٢٠ أ .

(٢) العينى : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٣٩٣ .

(٣) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١٢٠ أ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣ ، العسجد ص ٣٩٦ .

(٥) ابن عبد المجيد : نفس المصدر والصفحة ، العينى : عقد الجمان ، مجلد ٦٢ ص ٣٩٣ . Playfair : A History of Arabia Felix, p. 91 .

(٦) الجندى : السلوك ص ٤٦٠ ، العينى : عقد الجمان ، نفس المصدر والصفحة

(٧) العينى : نفس المصدر ص ٣٩٤ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٠ .

(٨) الجندى : السلوك ص ٤٦٠ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣ ، العسجد ص ٣٩٦ .

ظاهرية ... ولم يبق مع السلطان الملك المجاهد غير حصن تعز » (١) .

وعزم الظاهر على استكمال السيطرة على البلاد ، والاجهاز على المجاهد والاستيلاء على عرش السلطنة والاستحواذ عليها لنفسه ، ولذلك أرسل فى شهر ربيع الأول ٧٢٤ هـ / مارس ١٣٢٤ م حملة إلى تعز لمحاصرة حصن المدينة وقطع المياه عنه ، وتم حصار الحصن وضربه بالمنجنيقات ، حتى بلغت كمية الأحجار التى ألقيت عليه أربعة آلاف حجر » وخربت تعز خرابا لا يتدارك وخلت أكثر بيوتها » (٢) ولم يجد المجاهد سبيلا إلى الخلاص . فالجأ للاستنجاد بكافة القوى ، واستخدام المال لاستمالة القوى الداخلية . فاستجاب له الزيدية وأكراد ذمار وأشراف المخلاف السليمانى ــ شمالى تهامة ــ بالاضافة إلى بعض القبائل ، وتوافدت عليه نجداتهم . وعندما حاول الظاهر عرقلة هذه النجدات اضطر إلى مصادمتها فى معركة عنيفة فى وادى جاحف ــ بالقرب من مدينة الكدراء ــ أسفرت عن هزيمته (٣) وركنت قواته إلى الفرار فى العشرين من ذى الحجة سنة ٧٢٤ هـ (٤) / ٨ ديسمبر ١٣٢٤ م ولاذت بمدينة زبيد . وهكذا كانت هزيمة الظاهر فى وادى جاحف بداية لاستعادة المجاهد لقوته (٥)

---

(١) ابن عبد المجيد : نفس المصدر ص ١٢ ب .

(٢) ابن عبد المجيد : ص ١٢١ ، الجندى : السلوك ص ٢٧٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٢ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢٤ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ أ .

(٥) ابن شاكر : فوات الوفيات حـ ١ ص ٢١٥ .

Playfair : op. - cit. p. 91 .

ورجحان كفته ، خاصة بعد نشوب الخلاف بين قوات الظاهر فى زبيد وتبرم أهل المدينة منهم وإرغامهم على الخروج منها فى ربيع الأول سنة ٧٢٥ هـ [١]/ فبراير ١٣٢٥ م.

وكان من الطبيعى أن تستغل جماعة من المنتفعين الانتهازيين فرصة هذا الصراع المرير ، الدائر بين المجاهد وابن عمه الظاهر عبد الله على السلطنة ، فيخادعون الجانبين ويستولون على جامكية من كل منهما [٢] ولهذا كان من مصلحتهم استمرار هذا النزاع ليتحقق لهم من ورائه مكاسب عديدة ، ولكن ما أن نجح المجاهد فى استعادة نفوذه ، حتى بدأت القوى المؤيدة للظاهر تسعى إلى تحقيق مكاسب شخصية ، مستغلة الصراع القائم لمصلحتها ، ومن أمثلة ذلك أن والى لحج ـ وهو ابن الدويدار ـ قد توجه بما تجمع لديه من قوات الظاهر التى أرغمت على التخلى عن مدينة زبيد ، إلى مدينة عدن ممنيا نفسه بالاستيلاء عليها . فلما وصلها تظاهر له واليها بالطاعة ، وأقنعه بعدم دخول المدينة بكل جيشه حتى لا تتعرض للنهب ، والاكتفاء باستصحاب عدد من خاصته ، ولكنه ما كاد يدخل المدينة حتى غدر به والى عدن وقتله فى ربيع الأول سنة ٧٢٥ هـ/ فبراير ١٣٢٥ م ، مما أدى إلى تشتت القوات التى كانت تنتظره خارج المدينة [٣].

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٦ ـ ٢٧ ، العسجد ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ ب .

(٢) الجندى : السلوك ص ٤٧١ ، الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣ ـ ١٤ ، العسجد ص ٣٩٦ .

(٣) الخزرجى : العقـــود جـ ٢ ص ٢٥ ـ ٢٦ ، العسجد ص ٤٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٢٥ .

وهكذا خضعت كل من عدن وزبيد للمجاهد بغير كبير عناء ، وخطب له فيها ، وأبطلت الخطبة للملك الظاهر من منابر تهامة (١) . وأخذت الجموع في العودة إلى طاعة السلطان المجاهد مما شجعه على زيارة المناطق التي أعلنت خضوعها له ، بقصد تفقد أحوالها والعمل على إصلاح أوضاعها ، واقرار الأمور فيها(٢) وكان مجرد طواف السلطان المجاهد سببا في تفكك القوى المعادية له (٣) ، ولم يبق أمام البقية الباقية من اتباع الظاهر من أمل سوى اللجوء إلى الناصر بن الأشرف والزامه بالقيام بالملك (٤) ، ولكن هذه المحاولة فشلت نتيجة لتمكن المجاهد من اعتقال الناصر وسجنه ، نظل حبيسا إلى أن مات في شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ (٥) / يونية ١٣٢٥ م .

كان السلطان المجاهد قد أرسل إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون — عندما تحرج موقفه وعجزعن مقاومة منافسه الظاهر — لانجاده بقوة عسكرية لنصرته على منافسة ابن عمه له ، وإقرار الأوضاع الداخلية في اليمن ، مقابل الولاء لمصر وذكر اسم السلطان الناصر في الخطبة على منابر اليمن . وتكررت

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ١ ص ٢٨ ، المسجد ص ٤٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩١ ب .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٢٩ — ٣٠ ، المسجد ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٣) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٣٠ ، المسجد ص ٤٠٥ .

(٤) الخزرجي : العقـــود حـ ٢ ص ٢٨ ، المسجد ص ٤٠٤ ابن الديبع : نفس المصدر ص ٩٢ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٢ .

(٥) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٣١ ، المسجد ص ٤٠٥ .

مطالبة المجاهد للنجدة إلى أن استجاب له السلطان المملوكي وأرسل الحملة المطلوبة (١). ولكنها وصلت بعد النجاح النسبي الذى أحرزه المجاهد ضد خصمه الظاهر. وكان لكبر حجم الحملة وعظم ما زودت به من آلات أعظم الأثر فى تخوف السلطان المجاهد من إقدامها على السيطرة على اليمن ، وقد انعكس هذا التخوف على موقف المجاهد من الحملة من حيث إساءته معاملة قادتها وتعمده منع إمداد الحملة باحتياجاتها الغذائية الضرورية ، ووضعه للعراقيل أمامها وعدم الإفادة منها ، فى القضاء على الاضطرابات الداخلية ، مما خلق جوا من التوتر وعدم الثقة دعا قادة الحملة إلى الاستجابة لطلب المجاهد بالعودة إلى مصر بحجة أنه لم يعد فى حاجة إلى مساعدة تلك القوات الكبيرة ، فغادرت الحملة البلاد فى شعبان ٧٢٥ هـ (٢)/ يولية ١٣٢٥ م.

ما أن اطمأن المجاهد إلى خروج القوات المصرية ، حتى بدأ جولة تفقدية لبعض المناطق ، وكأن الأمور قد استقامت له نهائيا ، فزار مدينة الجند ثم توجه إلى لحج ومنها قصد عدن (٣) ، ولكنه لم يستطع دخولها لمقاومة حاميتها

---

(١) عن تفصيلات هذه الحملة ، انظر الفصل الرابع ، وأبو الفدا : المختصر حـ ٤ ص ٩٧ ، النويرى : نهاية الأرب حـ ١٣ ص ٥٨ – ٦٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٥ – ٢٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٩ ص ٨٤ ، العينى : عقد الجمان مجلد ٢١ ص ٤٢٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٢ وما بعدها ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ – ٩٣ أ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٨ – ٤٠٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب – ٩٣ أ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٤ ، العسجد ص ٤٠٩ – ٤١٠ ، العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٣٠٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٣ .

له وخروجها عن طاعته وموالاتها للظاهر ، فاضطر إلى أن يعرج على زبيد[١] ، فوصلها فى رمضان سنة ٧٢٥ هـ / أغسطس ١٣٢٥ م . وفى نفس الوقت توجه الظاهر إلى عدن ودخلها [٢] . ثم شغل المجاهد بتنظيم شئون المناطق الموالية له استعدادا لجولة أخرى ضد الظاهر ، فولى عليها المقربين له من ثقاته [٣] . فلما تم له ذلك خرج على رأس حملة إلى عدن ، واشتبك مع قوات الظاهر فى عدة مواقع ، فى شهر صفر ٧٢٦ هـ / يناير ١٣٢٦ م ، فحالفه النصر فى بعضها ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب عندما بلغه أن الامام الزيدى محمد بن مطهر فى طريقه لمناصرة الملك الظاهر [٤] . وظل السلطان المجاهد يتحين الفرصة للتخلص من خطر الظاهر ، مع تجنب الصراع مع الامام الزيدى ، ثم واتته الفرصة التى كان يترقبها ، عندما غادر الامام عدن فى طريقه إلى بلاده ، فأسرع السلطان المجاهد لمحاربة الظاهر الذى لجأ إلى حصن السمدان [٥] .

وبالتجاء الظاهر إلى حصن السمدان ركز السلطان المجاهد جهوده للاستيلاء

---

(١) زبارة : أئمة اليمن ص ٢٢٦ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤١٠ - ٤١١ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٦ ، العسجد ص ٤١١ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٤٠-٤١ ، العسجد ص ٤١٢ ، ابن الديبع : نفس المصدر ٩٣ أ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٦ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٤١٣ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٤ .

من حصن الدملوة وذلك بهدف قطع خط الرجعة على الظاهر ، وفى نفس الوقت عمل المجاهد على استمالة حامية الحصن ، ونجح فى ذلك ، وتمكن من الاستيلاء عليه فى صفر سنة ٧٢٨ هـ / ديسمبر ١٣٢٧ م مقابل مبلغ ستة آلاف دينار (١) . وكانت والدة الظاهر وأخته في الحصن فنقلها المجاهد إلى دار الامارة فى حصن تعز وتحفظ عليها ، وفت وقوعها ـ فى يد المجاهد ـ فى عضد الظاهر ، وافتقد القدرة على التصرف السليم ، فعندما أبدت بعض القبائل استعدادها للاستيلاء علي حصن الدملوة وإعادته للظاهر ، رفض مدهم بالمال أو الرجال وجنح إلى المسالمة (٢) .

وكان المجاهد قد سير قوة فى رمضان سنة ٧٢٧ هـ / يولية ١٣٢٧ م لمحاصرة عدن ، وتمكنت هذه القوة من الاستيلاء عليها فى صفر سنة ٧٢٨ (٣) / ديسمبر ١٣٢٧ م . وهو نفس الشهر الذى استولى فيه على حصن الدملوة . وصفوة القول أن المجاهد تمكن من التخلص من منافسات أمراء البيت الرسولى بعد أن عقد الصلح مع الظاهر فى المحرم سنة ٧٣٠ هـ (٤) / أكتوبر ١٣٢٩ م .

---

(١) الخزرجى : العقود حـ٢ص٤٧ ، العسجد ص٤١٤-٤١٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٣ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٥٢ ، العسجد ص ٤٢ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٤٤ و ٤٨ ، العسجد ص ٤١٥ - ٤١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٥٥ ، العسجد ص ٤٢٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ أ .

وإذا كان الظاهر قد استمر مقيما فى حصن السمدان كالمحصور (١) ، فإن انفضاض أتباعه من حوله (٢) جعله يستغيث بقاضي القضاة جمال الدين محمد ابن مؤمن ليتوسط له فى طلب الأمان من السلطان المجاهد ، واستجاب المجاهد له وعفى عنه وعن أهله وحاشيته عفوا شاملا ، فنزل الظاهر بناء على ذلك من حصن السمدان فى شهر المحرم سنة ٧٣٤ هـ/سبتمبر ١٣٣٣م برفقة قاضى القضاة ابن مؤمن ، ولكنه ما كاد يمثل أمام المجاهد حتى أمر باعتقاله وسجنه فى حصن تعز حيث توفى فى ربيع الآخر ٧٣٤ هـ (٣)/ ديسمبر ١٣٣٣ م . وقيل أنه مات مخنوقا بتدبير المجاهد (٤) .

٢ - أساليب المجاهد الانتقامية مع خصومه ونتائجها :

والحقيقة أن الظروف السيئة التى مر بها السلطان المجاهد كان لها أعظم الأثر فى غرس بذور الشك فى نفسه ، واستغل المقربون إليه ذلك للإيقاع بالكثيرين ، فكان سريع الاستجابة للوشايات ، يأخذ بالظنة ولا ينتظر حتى يتوصل إلى الحقيقة (٧) . وكان بحكم التجارب المريرة التى تعرض لها دنيفا

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٤٢٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ب ، زبارة: أئمة اليمن جـ ص ٢٤٤ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٩١ ، العسجد ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٣٩ ب ، بامخرمة : حـ ٢ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) المقريزى ، السلوك حـ ٢ ص ٣٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٣٠٢ ، المنهل الصافى حـ ٣ ص ٤٢٠ .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٦ و ٤٢ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٦٢ و ٦٤ ، العسجد ص ٤١١ و ٣ ٤ و ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٩ و ٤٣٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ب و ٩٦ أ .

في انتقامه خاصة مع هؤلاء الذين ناصروا خصومه ، ولهذا كان إذا ظفر بهم تفنن في التنكيل بهم كحلا وقتلا وشنقا وتغريقا ، مع حرق دورهم وتخريب قراهم واقتلاع زروعهم (١) ، ونادرا ما كان يعفو عن بعضهم أو يؤمنهم ولكن إلى حين (٢) . واستخدم تلك الأساليب الانتقامية مع كل من وقع في يده من أتباع الظاهر (٣) ، وكذلك كانت معاملته لقبائل المعازبة الذين انتهزوا فرصة الصراع على السلطنة وخرجوا عن طاعته وتكرر تمردهم ولم يكتف بتخريب مساكنهم وإحراقها وقتل الكثيرين منهم (٤) واستباحة ديارهم ، بل بالغ في إذلالهم بأن ولى عليهم امرأة منهم يقال لها ابنة عاطف (٥) فكان لذلك الأثر في استنزالهم .

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٣٦ و ٤٢ و ٤٨ و ٥٠ و ٥٥ و ٦٩ ، العسجد ص ٤١٠ – ٤١١ و ٤١٣ و ٤٢٠ و ٤٢٤ و٤٢٦ و٤٣٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب و ٩٤ أ و ٩٥ أ و ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص١٤٥ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٥٠ و ٥٩ ، العسجد ص ٤١٩ و٤٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ ، ٩٥ ب .

(٣) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٤٨ ، العسجد ص ٣١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٤ أ .

(٤) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٣٥ ، العسجد ص ٤١٠-٤١١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٣ .

(٥) الخزرجي : العقد الفاخر الحسن حـ ٢ ص ٣٩ أ و ٤٠ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٤٥ .

وكيفما كان الأمر فإن حملات المجاهد لاستكمال استرجاع بقية اليمن لم تتوقف بعد أن تخلص من خصمه الظاهر واستذل العصاه والمتمردين ، ونجح فى السيطرة على كثير من البلاد وأذعنت له القبائل وعاد المخالفون فيها إلى الطاعة طوعا أو كرها [1] تجنبا لانتقامه .

وبعودة الاستقرار النسبي إلى بلاد اليمن عزم السلطان المجاهد على أداء فريضة الحج ، وكانت العلاقات بينه وبين أشراف مكة حسنة[2] ، بدليل أن الشريف ثقبة ابن أمير مكة رميثة بن أبي نمى قدم إليه باليمن ليكون فى معيته إلى مكة [3] . وخرج المجاهد من تعز فى شوال سنة ٧٤٢ هـ / مارس ١٣٤٢ ومعه عدد كبير من قـــواته[4] ومر فى طريقه على كثير من المناطق اليمنية لتفقد أحوالها . واستقبله رميثة وأكابر أهل مكة عند مشارف الحجاز ، فأحسن المجاهد لقاءهم وأكرمهم وأجزل لهم العطاء[5] وكان وصوله إلى مكة فى الثانى

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٦٠ و ٦٥ و ٦٧ و ٨١ ، العسجد ص ٤٢٨ و ٤٣٢ و ٤٤٢ والعقد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ ب ، ٤٠ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٥ ب ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٢) الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ ب ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٤٧ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٤٣٤ .

(٤) الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ ب ، العقود جـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٥) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

من ذى الحجة [١]، وخلع على أميرى الركب المصرى والشامى وأكرمهم [٢].
ثم غادر مكة عائداً إلى اليمن بعد أن أدى فريضة الحج فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٧٤٢ [٣] / ٢٥ مايو سنة ١٣٤٢ م ، فاستقبل فى طريق عودته استقبالا حافلا فى جميع المواضع اليمنية التى مر بها ، وكان وصوله إلى زبيد فى الثالث من صفر سنة ٧٤٣ هـ [٤] / ٨ يولية ١٣٤٢ م ، ومنها توجه إلى تعز ، وأنعم على كافة عسكره بشيء كثير من الذهب والفضة وأعطاهم من الكساوى والخلع على قدر مراتبهم [٥].

أما عن الأمثلة الدالة على أساليبه الانتقامية مع خصومه، ما كان من أمره مع ابنه المؤيد ، فكان المجاهد قد أقطعه مدينة الجثة.[٦] ولكن المؤيد كان يطمع فى عرش السلطنة لنفسه ، فلم يلبث أن شق عصا الطاعة على أبيه احتجاجا عليه لتقديم أخيه الأصغر المظفر بن المجاهد عليه [٧] ولهذا استولى على مدينة المهجم

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٧٠ – ٧١ ، العسجد ص ٤٣٥ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤٣٦ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٧١ – ٧٢ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٤٣٧ – ٤٣٨ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ ب .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٧٣ – ٧٤ العسجد ص ٤٣٩ .

(٦) الجثة ، مدينة معروفة بين الكدراء والمهجم (العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٥٠ أ) وتقع على خط عرض ١٥,٢° شمالا ، وخط طول ٤٣,٢٣° شرقا على وجه التقريب .
(EL-Khazrejiy . op. cit, vol. III, 3, Note 1129).

(٧) الخزرجى العقود جـ ٢ ص ٧٧ ، العسجد ص ٤٤٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب .

فى رمضان سنة ٧٤٤ هـ / يناير ١٣٤٤ م . فلما علم المجاهد أرسل حملة بقيادة موفق الدين عبد الله بن على اليحيوى وزيره وقاضى قضاته ، ثم أردفه بحملة أخرى (١) ، وسعى قائدا الحملتين على أخذ المؤيد بالابن وعدم الاشتراك فى حرب معه ، وراسلاه وأقنعاه بالعودة إلى طاعة أبيه مع ضمان تأمينه (٢) ، وتوجها به فى آخر المحرم سنة ٧٤٥هـ/ يونية ١٣٤٤ م إلى تعز ، ولكن أباه عاتبه وضربه ضربا مبرحا وحبسه ، فلم يلبث إلا قليلا ومات فى سجنه (٣).

وبالرغم من الأساليب الانتقامية التى كان يلجأ إليها السلطان المجاهد ، فإن ذلك لم يمنع بعض العناصر من التماس الأسباب للنزوع - بين حين وآخر - للعصيان وإثارة القلاقل ضده . ففى ربيع الآخر سنة ٧٤٧هـ/ يوليه ١٣٤٦م ثار بعض المماليك بسبب تأخر نفقاتهم ، واتفقوا على القبض على المجاهد (٤) منتهزين فرصة وجوده فى مصيفه على البحر بالقرب من زبيد فى قليل من عسكره . ولضمان نجاح حركتهم عملوا على ضم أحد أفراد أسرة بنى رسول إليهم ، فاتصلوا بابن أخيه ، وهو الفائز أبى بكر بن حسن بن داود ، الذى

---

(١) الخزرجى: العقود حـ٢ ص٧٦ ، العسجد: ص ٤٤٠ ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الخزرجى العسجد ص ٤٤٠ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٧٦ ، العسجد ص ٤٤٠ ، العقد الفاخر جـ٢ ص٤٠أ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٤٧ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٤٦ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ ب .

امتنع عن الاشتراك معهم خوفا من انتقام عمه ، وما زالوا به حتى أقنعوه بإخفاء خبر انضمامه إليهم إلى ما بعد نجاح مهمتهم في القبض على السلطان (١). وكانت خطتهم تقضى بالتوجه إليه في آخر النهار والتظاهر بأنهم إنما قدموا للمطالبة بالجامكية ، وكان من الممكن أن تنجح المؤامرة لولم يتوفر عنصر الخيانة ، فلقد أسرع من أبلغ السلطان بالمؤامرة ، فبادر السلطان المجاهد إلى اتخاذ الحيطة وغادر المصيف ، وفوت عليهم الفرصة ثم لم يلبث أن أمر بالقبض على الفائز، فظل سجينا في حصن تعز إلى أن مات (٢). أما بقية أطراف المؤامرة من المماليك فقد انتقم منهم بطريقته المعتادة بالقتل والشنق والتغريق (٣).

٣ - نهاية المجاهد :-

عزم المجاهد على أداء فريضة الحج للمرة الثانية ٧٥١هـ/ ١٣٥١م فغادر مدينة تعز في شوال ، واستصحب معه والدته وابنه العادل .وكانت الأحوال في مكة قد تغيرت بعد وفاة الشريف رميثة بن أبي نمى إذ تمكن ابنه الشريف عجلان من الاستيلاء على مكة ،وحال و بين أخيه ثقبة بن رميثة - الموالى للسلطان المجاهد - فلما توجه المجاهد للحج صحبة الشريف ثقبة (٤) ، أشيع أن المجاهد سوف يقوم - بعد عودة ركب الحاج المصرى - بالقبض على الشريف عجلان، وسيولى أخاه ثقبة مكانه . وتطورت الأحداث وقام المصريون - بإيعاز من

---

(١) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٧٩ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٦ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٨٠، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص١٤٧.

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٤٩ .

الشريف عجلان – بالقبض على المجاهد وتوجهوا به إلى مصر [١]، وعادت أم المجاهد الى اليمن ، وقامت بتدبير أمر المملكة [٢] وسعت في نفس الوقت في خلاص ولدها . ويذكر المقريزى أن أم المجاهد أقامت إبنه الصالح على البلاد ، ولكنها لم تلبث أن نحته واعتقلته [٣].

وكان من الطبيعى أن يحدث خبر القبض على المجاهد دويا كبيرا فى اليمن ويؤدى إلى نشوب بعض الاضطرابات ، فقد سارع بعض كبار رجال دولته الى تعز للتباحث فى الموقف حتى إذا ما استقر الرأى على إقامة سلطان جديد عمل كل منهم على أن يكون صاحب الفضل فى اختياره ليكون اقرب إليه وصاحب بابه[٤] ، وأدى ذلك إلى قيام تنافس بين كل من الوزير موفق الدين عبد الله بن على اليحيوى والطواشى أمين الدين أهيف والطواشي جمال الدين بارع ، ولكن الطواشى أهيف تمكن من القبض على منافسيه وأمر بشنقهما[٥]، واستطاعت والدة المجاهد السيطرة على البلاد وقضت على عصيان القبائل التى خرجت عن الطاعة[٦] ، واحتفظت بعرش ابنها حتى عاد إلى البلاد

---

(١) أنظر ذلك مفصلا فى الفصل الرابع .

(٢) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٨٥ و٨٨، ١٨٨ ، العسجد ص٤٤٥ و٤٤٧، ابن الديبع : قرة العيون ص٩٧ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص١٤٨ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٨٥٩ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٨٦ ، العسجد ص٤٤٥ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص٨٧، العسجد ص٤٤٦–٤٤٧، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ ب .

(٦) الخزرجى : العقود ص٣ ص٨٩ ، العسجد ص٤٤٨ و ٤٤٩ .

في ذي الحجة سنة ٧٥٢هـ [١]/ يناير ١٢٥٢م. أما المجاهد فإنه ماأن استقر حتى بدأ في شن الهجمات على القبائل التي تجرأت على الخروج عن الطاعة أثناء غيابه في مصر [٢]، على أن شوكة هذه القبائل كانت قد اشتدت في كثير من مناطق اليمن وخاصة تهامة، مما استلزم تركيز الضغط عليها إلا أن معظم هذه الحملات أخفقت في القضاء على عصيانهم [٣]، فتمادوا في فتنتهم وتجرأوا على المناطق المجاورة، حتى «استولي الخراب على التهائم كلها ولم يبق إلا زبيد وحرض» [٤]، «ولم يك فيما بينها قرية مسكونة إلا قرى المفسدين» [٥].

وكانت قبائل المعازبة والقرشيين من أشد القبائل ضراوة وتخريبا، واستمرت ثوراتهم عشر سنوات إلى أن دب الخلاف بين هاتين القبيلتين ووقعت الحرب بينهما. ونتيجة لتفوق المعازبة آثر القرشيون العودة إلى طاعة السلطان المجاهد الذي أمدهم ببعض عسكره، فمكنهم بذلك من إيقاع الهزيمة بالمعازبة والانتقام منهم بإحراق بعض قراهم [٦]. وتبودلت الحملات بين الفريقين

---

(١) الخزرجي: العقود جـ ٢ ص٩٠، العسجد ص٤٥٠، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص١٤٨.

(٢) الخزرجي: العقود جـ ٢ ص ٩٢ و ٩٤ العسجد ص٤٥٠ و ٤٥.

(٣) الخزرجي: العقود جـ ٢ ص٩٢–٩٣ و٩٥ و٩٧ و٩٩–١٠٦، العسجد ص ٤٥١ و٤٥٣ و٤٥٥ و٤٥٥ و٤٥٦، ٤٦٣ – ٤٦٤، ٤٧١، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٨ أ.

(٤) الخزرجي: العقود جـ ٢ ص ١١٤.

(٥) الخزرجي: العسجد ص٦٣.

(٦) الخزرجي: العقود جـ ٢ ص١١٦، العسجد ص ٤٦٤.

فكانت الغلبة للقرشيين[١] ، فاضطر المعازبة إلى الدخول - بدورهم - في طاعة السلطان رغما عنهم [٢].

وتستمر الحركات المعادية ضد المجاهد حتى نهاية عهده، فقد طمع نور الدين محمد بن ميكائيل واليه على حرض في الاستيلاء على المنطقة الشمالية من تهامة[٣] فأعلن العصيان في سنة ٧٦١هـ [٤]/١٣٦٠م ، وخرج عن طاعة السلطان [٥]، واستعان بالقوى الزيدية ، وانضمت إليه كثير من القبائل [٦] ، واستفحل خطره واستبد بالأمر في المنطقة [٧] . وأعلن نفسه سلطانا في صفـــر سنة ٧٦٣هـ / ديسمبر ١٣٦١م وانتسب الى الرســـول وادعى أنه حسيني فاطمي [٨] ، وضرب السكة باسمه [٩] وخطب له في البـــلاد التابعة له ، واستطاع الاحتفاظ بالسلطنة في منطقته سنتين [١٠] .

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص١١٧ و ١٢٠ ، العسجد ص٤٦٥و٤٦٧ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٢٢ ، العسجد ص٤٦٨ .

(٣) الخزرجي : العقود جـ٢ ص ١١٠-١١١ ، العسجد ص٤٦١-٤٦٢ .

(٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص١٤٩ .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١ ص١٤٥ .

(٦) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١١٤ ، العسجد ص٤٦٣ - ٤٦٤ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص٤٠ أ ، بامخرمة جـ ٢ ص١٤٩ .

(٧) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ص ٢٥٠ .

(٨) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص١٢٠ ، العسجد ص٤٦٦ .

(٩) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص١٠٩ .

(١٠) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص١٢٠ ، العسجد ص٤٦٦ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، وإنما ازداد الوضع خطورة بخروج الصالح والعادل عن طاعة والدهما المجاهد (١) ، وأتبعهما ابنه الثالث المظفر سنة ٧٦٤ هـ الذى استغلت بعض القبائل فرصة ثورته على أبيه ، وتجمعت حوله ، فطمع فى الاستيلاء على عدن (٢) ، وفشلت جهود السلطان فى القضاء على حركة المظفر (٣) ، ولم يعمر المجاهد بعد ذلك طويلا إذ توفى فى عدن فى جمادى الأولى سنة ٧٦٤ هـ (٤) / مارس ١٣٦٣ م .

وثالثا - اليمن بعد المجاهد حتى نهاية دولة بنى رسول :-

١ - المشكلات التى واجهت الأفضل عباس بن المجاهد ، وموقفه منها .

كانت الظروف مهيأة لسلطنة الأفضل ، فقد كان ثلاثة من إخوته ، وهم الصالح والعادل والمظفر قد خرجوا عن طاعة أبيهم ، الذى شغل فى أواخر أيامه بمحاربتهم ، وكان الأفضل فى صحبته أثناء مطاردته لهم . فلما توفى استقر رأى كبار دولته على اقامة ابنه الأفضل سلطانا على اليمن (٥) ، فقاموا

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١١٩ ، العسجد ص ٤٦٦ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٩ ، زبارة . أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٩١ و ١٤٥ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢٤ و ١٢٧ ، العسجد ص ٤٦٨ و ٤٧٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٩١ ، المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٠٣ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٩ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٤٩ ، [illegible]

بمبايعته يوم وفاة أبيه (١) .

لم يكن الأفضل أكبر أبناء أبيه ، ولكن ملازمته له فى الوقت الذى خرج فيه إخوته عليه ، وتواجده معه عند وفاته ، كان من أهم العوامل التى ساعدته على أن يخلف أباه على العرش . ويبرر الخزرجى ذلك بقـوله « لم يكن فى أولاد المجاهد ــ حاضرهم وغائبهم ــ من هو أرشد منه ولا أعقل ، ولا أولى ولا أكمل للأمر منه ، وإن كان فيهم من هو أكبر منه سنا :

فما الحداثة من حلم بمانعة .:. قد يوجد الحلم فى الشباب والشيب »(٢)

وكيفما كان الأمر ، فقد تولى الأفضل عبـاس السلطنة فى الوقت الذى لم يكن الاستقرار قد عرف طريقه للبلاد لفترة طويلة من الزمن . وكان على السلطان الأفضل أن يواجه عددا من المشكلات ، فهناك إخوته الثلاثة الذين تمردوا على أبيهم ، وهذا يعنى فتح باب جديد للمنافسة على عرش السلطنة ، بالاضافة إلى مطامع ابن ميكائيل الذى كان قد أعلن نفسه سلطانا على منطقة شمال تهامة فى أواخر عهد المجاهد ، هذا إلى جانب عصيان الكثير من القبائل ، والقوى الزيدية التى أفادت من حالة الفوضى وعدم الاستقرار ، ووسعت نطاق نفوذها حتى شمل جميع منطقة الجبال من صنعاء وما يليها شمالا . وقد وصف الخزرجى الأحوال الداخلية بقوله : « وكانت الأطراف مضطربة ، وقد انفتح فى كل ناحية منها باب فساد » (٣) ، وكانت قبائل المعازبة والقرشيين والأشاعر فى تهامة قد خرجوا عن طاعة الدولة ، وعاثوا فى الأرض فسادا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ ب

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص١٢٧ ، العسجد ص ٤٧١ .

(٣) الخزرجى . العقود حـ ٢ ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ، العسجد ص ٤٧٢ .

وتابعوا الاغارة على مدن تهامة وقراها ونهبوها وخربوهـا وأحرقوا كثيرا منها ، حتى هجرها أهلها ، وأصبحت خرابا بغير سكان (١) ؛ ولم يأت عام ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م حتى كان السلطان قد فقد سيطرته تماما عن وادى رمع (٢) ووادى سهام (٣) ومعظم وادى زبيد (٤) وعم الخراب معظم تهـامة (٥) وفشلت المحاولات التى سبق أن بذلها المجاهد للقضاء على ثورات العربان (٦) . ولم يعد عامرا غير مدينتى زبيد وحرض (٧) ولم يكن فيما بينهما قرية مسكونة غير قرى المفسدين (٨) .

أما ابن ميكائيل ، فقد انتهز فرصة وفاة السلطان المجـاهد ، وبادر بتجهيز الحملات للسيطرة على مدينة زبيد (٩) . وقامت قواته بمحاصرتها فى رجب سنة

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٠٦ ، العسجد ص ٤٥٨ – ٤٥٩ .

(٣) يقع وادى سهام إلى الشمال من وادى زبيد ووادى رمع .

El Khazrejiyy · op. cit p. 43, nate, 253.

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٠٧ ، العسجد ص ٤٥٩ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١١٢ ، العسجد ص ٤٦٢ .

(٦) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١١٠ ، العسجد ص ٤٦٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ د أ .

(٧) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١١٤ .

(٨) الخزرجى : العسجد ص ٤٦٣ .

(٩) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٢٨ ، العسجد ص ٤٧٢ ، بامخـرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٠٥ .

٧٦٤ هـ / ابريل ١٣٦٣ م ، ولكن أهلها استماتوا فى الدفاع عنها ، وصمدوا أمام هجماته ، ففشلت بذلك محاولاته فى تحقيق سيطرته على زبيد ، كذلك يرجع الفضل فى صمود أهل زبيد إلى السياسة الحكيمة التى انتهجها أبو بكر ابن على بن مبارك والى المدينة الملقب بالناصح ، وكان هذا الرجل حقيقا بهذا اللقب ، إذ تمكن من اغراء أتباع ابن ميكائيل بالمال والهبات بهدف تشتيت قواته ، فلم تلبث أعداد كبيرة منهم أن انضمت إليه ، وتوافدت عليه ، فأحسن استقبالهم وكافأهم [1] ، وأزعج ذلك قائدهم فانسحب بمن تبقى معه من قواته خشية أن يتخلى عنه الباقون أو يقع فى كمين نصبه له والى زبيد [2] سيار قدسير السلطان الأفضل الامدادات لتصل تباعا إلى المحصورين [3] .

لم يكتف الأفضل بإحباط محاولات ابن ميكائيل بل عمل على التخلص نهائيا من خطره ، ففى سنة ٧٦٥ هـ سير قوة من أجناده تمكنت من إيقاع الهزيمة بابن ميكائيل [4] وأطاحت بكل قوته [5] ، بحيث لم يقم له بعدها قائمة ، ولم يجد بدا من اللجوء إلى الامام على بن محمد [6] ، وأخفقت جهوده فى استعادة قوته

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢١ ، العسجد ص ٤٧٢ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢٩ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢٨ ، العسجد ص ١٧٢ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٠ ، العسجد ص ٤٧٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ ب .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٠٤ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ ب ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٥٦ .

وسلطانه (١) ، وظل طريدا شريدا حتى توفى فى ٧٧٩ هـ(٢)/١٢٧٧ . وهكذا وفق الأفضل فى التخلص من خطر ابن ميكائيل ، وتمكن من وضع يده على جميع ما كان بحوزته من البلاد (٣) .

واصل الأفضل نشاطه للقضاء على ثورات القبائل فى تهامة، وبدأ بالقرشيين. فاستطاعت قواته إيقاع الهزيمة بهم فى ذى القعدة ٧٦٥ هـ / ابريل ١٣٧٤ م . وأسفرت المعركة عن مقتل عدد كبير من مشاهير فرسان القرشيين ، وانتهاب بلادهم ، مما اضطرهم إلى الإذعان للطاعة وطلب الأمان ، فاستجاب الأفضل لهم ، وقدموا إليه الرهائن ضمانا لعدم عودتهم للعصيان(٤). ثم تحول الأفضل بحملاته إلى قبائل المعازبة ، فسير أولى حملاته إليهم فى شعبان ٧٦٦ هـ / ابريل ١٣٦٥ م ، وتتابعت بعد ذلك قواته ، وتمكن من سحق قوتهم ، وانتقم منهم انتقاما شديدا (٥) وأجبرهم على الطاعة .

أما إخوة الأفضل المنافسين له ، ـ وكان المظفر من أنشطهم ـ فقد عمل الأفضل على شل حركته بحملاته المتتابعة، ولكن محاولاته باءت بالفشل(٦).

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٤٧٦ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٦٦ ، العسجد ص ٥٠١ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣ ، العسجد ص ٤٧٤ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ و ٤٧٨ .

(٥) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠ أ ـ ب .

(٦) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣١ و ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٣ .

وعلى الرغم من اخفاقه فى التخلص من مشكلة إخوته إلا أنه قد نجح ـ خلال سنوات ثلاث ـ فى تحقيق السيطرة على كثير من المناطق التى عجز أبوه من قبله فى بسط سلطانه عليها ، « واستوسقت البلاد كلها فى أسرع مدة ، وعمرت القرى والمدائن ، واتصل الناس بعضهم ببعض » (١) . وتوافدت الوفود على الأفضل معلنة ولاءها له ، واستقرت قواعد ملكه (٢) .

غير أن أعظم المشكلات التى واجهت الأفضل كانت تتمثل فى قادة الزيدية الذين استغلوا فرصة الاضطرابات الداخلية التي واجهت سلاطين بنى رسول فى اليمن منذ أيام المجاهد ، وعملوا على تثبيت سيطرتهم على المنطقة الجبلية الواقعة شمالى صنعاء ، والاستيلاء على صنعاء نفسها فى شهر شعبان سنة ٧٢٣ هـ (٣)/أغسطس ١٣٢٣ م ، وعلى عدد آخر من البلاد والحصون ، وكان لهذا التوسع أعظم الأثر فى تقلص نفوذ دولة بنى رسول . وعلى الرغم من عدم قيام المجاهد بأى عمل حربى ضد القوى الزيدية لانشغاله بالقضاء على منافسيه ، إلا أن الزيدية كانت تعمل على إثارة عوامل الاضطراب الدائم فى دولة بنى رسول ، وكان الامام لايتوقف عن دعم خصوم السلطان (٤) وذلك ضمانا لاستمرار سيطرته ونفوذه على ما بيده من البلاد ، وتمكينا له على زيادة التوسع على حساب تلك الدولة المنهكة . غير أنه لم يكد الامام على بن محمد يتبين

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص١٣٢ ، العسجد ص ٤٧٤ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص١٣٤ ـ ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٧ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص٢٢٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص٤٠ ـ ٤١ ، العسجد ص ٤١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٩٣ «أ» ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص٢٢٦ .

تخلص الأفضل من بعض خصومه حتى سعى إلى شغله بمشكلات جديدة ، فعمل على امداد المظفر بن المجاهد ـ المنافس الأول للسلطان ـ بعدد كبير من أتباعه سنة ٧٦٦ هـ / ١٣ ـ ١٣٦٥ م لمساعدته فى الاستيلاء على مدينة حرض ، ولكن هذه الحملة لم تنجح فى تحقيق أغراضها بسبب صمود حامية المدينة فى وجهها [١] ، فاضطر المظفر إلى إعادة تنظيم قواته وزحف فى جمادى الأولى سنة ٧٦٨ هـ / يناير ١٣٦٧ م إلى الشحر ، ولكنه أخفق للمرة الثانية فى الاستيلاء عليها [٢] .

وعلى الرغم من فشل المظفر ـ حليف القوى الزيدية ـ إلا أن هذه القوى لم تفقد الأمل فى خلق متاعب جديدة للسلطان الأفضل ، فاستغلت الخلاف الناشب سنة ٧٧١ هـ/ ١٣٦٩م . بين واليه على حرض وبين الأشراف السليمانيين فى تلك المنطقة . وبحجة مساندة أشراف حرض أرسل الامام جيشا استولى به على تلك المدينة [٣] ، وتابعت القوات الزيدية زحفها جنوبا فاستولت على مدينة المهجم والكداره والقحمه وغيرها [٤] ، ثم تقدمت إلى زبيد وحاصرتها فى جمادى الأولى ٧٧١ هـ / ديسمبر ١٣٦٩ م . وكان للانتصارات التى أحرزها الامام أثرها فى إشاعة الفوضى والاضطراب فى زبيد ، واستغل بعض المفسدين من أهل زبيد هذه الظروف المضطربة وأعملوا السلب والنهب فى المدينة [٥] .

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٤٧٦ و ٤٧٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٠ ب ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٥٧ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٤٠ و ١٤١ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ .

واتصلوا بالقوات الزيدية المحاصرة لزبيد واتفقوا معها على موعد معين يفتحون لها فيه أبواب مدينتهم (١) ، وحاول هؤلاء المفسدين إقناع أعيان المدينة من فقهاء وتجار وغيرهم ، ولكن هؤلاء الأعيان تمكنوا من إقناعهم بالتمسك بولائهم للدولة ، وقرروا الدفاع عن زبيد ، وعدم تمكين القوى الزيدية منها (٢) . وهكذا صمدت المدينة ولم يتمكن الامام من التغلب عليها (٣) .

وفي نفس الوقت سير السلطان الأفضل قوة بقيادة الطواشي أمين الدين أهيف تمكنت من التخلص من المفسدين الذين حاولوا تسليم مدينة زبيد ، وتتبع فلولهم قتلا وتشريدا (٤) ، كما تصدى الطواشي للقرشيين الذى عاودوا العصيان وأرادوا الاستيلاء على زبيد وقضى على محاولتهم وهزمهم هزيمة نكراء في رمضان سنة ٧٧١هـ (٥) / ابريل ١٣٧٠ م . وواصل أمين الدين أهيف تقدمه ، ونجح في تخليص مدينة المهجم من السيطرة الزيدية (٦) ،

---

(١) الخزرجي : العقود ص١٤٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠١ «أ» .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص١٤٣ ، العسجد ص ٤٨٣ و ٤٨٤ .

(٣) الخزرجي : العقـــود حـ ٢ ص١٤٤ - ١٤٥ ، العسجد ص ٤٨٥ ، ابن الديبع : نفسه ص ١٠١ ب ، زبارة : نفسه ص ٢٥٧.

( ) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص١٤٥ .

(٥) الخزرجي: العقود حـ٢ ص١٤٦ ، العسجد ص٤٨٦ .

(٦) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٤ ، العسجد ص ٤٨٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١٠٢ «أ» .

وتركزت جهوده في شمال تهامة إلى أن تمكن من إقرار الأمور فيها [١] .

وفي سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م توفى الامام الزيدى المهـدى على بن محمد ، فاتفقت الزيدية على إقامة إبنه الناصر صلاح الدين محمد ، وتمت بيعته في صفر سنة ٧٧٣ هـ [٢] / أغسطس ١٣٧١ م ، فواصل انتهاج سياسة أبيه في مناوأة السلطان والاغارة على المناطق الموالية له . ففي سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م سير حملة كان هدفها الاستيلاء على مدينة الجند ، كما أرسل سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م حملة أخرى للاستيلاء على زبيد وغيرها ، ولـكن حملاته فشلت في تحقيق الهدف الذى أرسلت من أجله [٣] .

وكيفـما كان الأمر ، فإن الأفضل لم يتقاعس عن مواجهة هـذه المواقف الحرجة أو يتردد في إعداد الحملات للقضاء على الفتن والثورات . ومن الملاحظ أن السلطان الأفضل كان يكتفى بتجهيز الحملات ويعهد بقيادتها إلى كبار رجال دولته ، وأنه قلما قاد حملة بنفسه ، ولعل ذلك كان من أسباب عدم فاعلية تلك الحمـــلات .

واستمرت الأوضاع على هذا النحو من الاضطراب حتى وفاة السلطان الأفضل بمدينة زبيد في شعبان ٧٧٨ هـ [٤] / ديسمبر ١٣٧٦ م ، ودفنه في تعز [٥] .

(١) الخزرجى : العقـــود ص ١٥ و ١٥٤ و ١٥٦ ، العسجد ص ٤٨٩ و ٤٩٢ و ٤٩٤ ، ابن الديبع : نفسة ص ١٠٢ ب ، ١٠٣ أ .

(٢) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٠ ، اتحاف المهتدين ص ٦٧ .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٥٧ ، العسجد ص ٤٩٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ١٤٥ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٥ .

(٥) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٥ .

٣ ـ جهود الأشرف الثانى اسماعيل بن الأفضل عباس فى اقرار الأوضاع :

بعد وفاة الأفضل عباس بايع رجال الدولة وعلماؤها ابنه الأشرف الثانى سلطانا على البلاد فى شهر شعبان سنة ٧٧٨ هـ [١] / ديسمبر ١٣٧٦ م ، وأقسم الجميع على الولاء له [٢] . وحظيت سلطنته بتأييد كثير من المناصر . ويعبر الخزرجى عن ذلك بقوله : « وكانت الكتب من كل بلد تصل إليه ، والعرب من كل ناحية تفد عليه ، وهو يجيب عن كل كتاب بما يقتضى ، ويقابل كل واصل إليه بما يحب ويرتضى ، حتى استوسقت البلاد دانيها وقاصيها ، وأذعنت البرية طائعها وعاصيها » [٣] .

رأى الأشرف أن قبائل المعازبة يشكلون حركة ثورية واسعة النطاق ، وأن الزيدية مازالوا يقفون بالمرصاد لكل سلطان من بنى رسول . وينتظرون الفرص المواتية للوثوب عليه والتحالف مع خصومه ، ولذلك قرر أن يبدأ بالمعازبة ، واعد الحملات التأديبيه للقضاء على تمردهم . ففى سنة ٧٨٠ هـ / ١٢٧٨ م أرسل حملة كبيرة بقيادة وزيره القاضى تقى الدين عمر بن أبى القاسم ابن معيبد إلى بلاد المعازبة ، وقاتلهم وضيق الخناق عليهم وشتتهم [٤] . وفى

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٥٧ ، العسجد ص ٤٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ ب .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٦٤ ، العسجد ص ٤٩٩ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

العام التالي شنت القوات السلطانية عليهم الحجات وحاصرتهم ، حتى « لم يكن لهم مهرب إلا البحر فدخلوه فغرق منهم طائفة وسلم الباقون ، واستخدم أناس منهم وأسر آخرون (١) » . وعلى الرغم من هذا الأسلوب التأديبي العنيف الذى استخدمه الأشرف مع المعازبة ، إلا أن هؤلاء استطاعوا التجمع مرة أخرى ، وأغاروا على مدينة القحمة ، واستدرجوا والى المدينة الأمير سيف الدين بشتك إلى كمين نصبه بعضهم له ، وقتلوه مع عـــدد من أتباعه فى شوال سنة ٧٨١ هـ (٢) / يناير ١٣٨٠ م . ولم يجد السلطان أمام اشتداد وطأة المعازبة ، واستمرار خروجهم عن الطاعــة ، من التوجه بنفسه على رأس حملة إليهم فى شوال ٧٨٢ هـ / يناير ١٣٨١ م ، ولكنهم ما أن علموا بأخبار هذه الحملة حتى بادروا بالتعلق برؤوس الجبال ، فنهب الجند بلادهم وأحرقوها (٣) ، وظلت القوات السلطانية تترصدهم ، وتتابعت الاغارات عليهم كلما بدرت منهم بادرة عصيان ، للبطش بالعاصين والمارقين منهم ومن غيرهم من القبائل وإرغامهم على الطاعة وتسليم الرهائن (٤) . ومع ذلك فلم تنجح سياسة العنف فى استنزال

---

(١) الخزرجى : العقـــود حـ ٢ ص ١٦٨ ، العسجد ص ٥٠٢ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٦٩ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٦٩ ، العسجد ص ٥٠٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٤ ب .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٧١ ، العسجد ص ٥٠٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨١ و ١٨٥ و ١٨٦ و ١٩٤ و ٢٠١ و ٢٠٦ و ٢١٥ و ٢١٩ ، ٢٤١ - ٢٥١ و ٢٥٦ و ٢٦١ - ٢٦٧ و ٢٦٨ - ٢٦٩ ، العسجد ص ٥٠٩ و ٥١٣ - ٥١٤ و ٥١٩ و ٥٢٤ و ٥٣١ - ٥٥٠ و ٥٥٤ .

هذه القبائل، إذ أنها لا تلبث أن تعود إلى التمرد كلما أتيحت لها الفرصة لذلك .

أما بالنسبة للزيدية ، فمن الواضح أن سلاطين بنى رسول قد تحاشوا — منذ عهد المجاهد — الدخول بقدر الامكان فى صراع ضدهم ، فى الوقت الذى لم يكن الامام الزيدى يفوت فيه أى فرصة تسنح له للتوسع على حساب الدولة الرسولية إلى حد تجاوزت فيه هـــذه التوسعات صنعاء جنوبا . وفيما يتعلق بموقف القوى الزيدية من سلطنة الأشرف الثانى ، فقد اتسم منذ البداية بالمراقبة والترصد المقرون بالحذر حتى تنجلى الأمور ، واستغـلال كل فرصة مواتية للتحرك ضد السلطان وتأييد خصومه ، ودعمهم بالمـال والسلاح والتواطوء معهم ما أمكنهم ذلك . وعلى هذا النحو نشهد الامام الزيدى ينتهز فرصة غضب الأشرف الثانى على وزيره وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد النظارى واقصائه له من الوزارة بعد فترة قصيرة من اسنادها إليه سنة ٧٨٤ هـ/١٣٨٢م، حتى قام الامام بمراسلته واستدعائه ، وأحسن استقباله وأكرمه (١) . وكان من الطبيعى أن تتوتر العلاقات بين الزيدية والسلطان بسبب ذلك ، وتتأزم الأمور عندما يقدم السلطان على قتل رسوله إلى الامام فى ذى القعدة سنة ٧٨٦ هـ / ديسمبر ١٣٨٤ م بتهمة إفشاء أسرار كان السلطان قد استأمنه عليهـا (٢) . واتخذ الامام هذا الحدث ذريعة للتحرك، وزحف فى حشود كثيفة قاصداً تعز ، وذلك فى شعبان سنة ٧٨٧ هـ / سبتمبر ١٣٨٥ م ، فأسرع السلطان إلى مغادرة زبيد إلى تعز لانقاذها . فلما علم الامام بذلك توقف بمدينة ذى جبلة من مخلاف

---

(١) العقود حـ ٢ ص ١٧٣ ، العسجد ص ٥٠٦ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ١٨٠ ، العسجد ص ٥١٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٥ ب .

جعفر واكتفى بنهبها وعاد إلى قواعده دون أن يحقق هدفه (١) . ثم أخذ في إعادة تنظيم أتباعه ، واختبـــار ولائهم له وإقصاء المتذبذبين منهم والمتقلبين، والانتقام من الخارجين عليه منهم (٢) . وبهذه التنظيمات الجديدة تمكن من السيطرة على كثير من المدن والقرى والحصون القريبة من صنعاء (٣).

وفي سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م خرج الامام في جيش كبير إلى عـدن ، ولم يصادف في طريقه إليها أي أثر لمقاومة . ودارت بينه وبين أهل عدن وحاميتها معارك طاحنة في ذي القعدة ٧٨٩ هـ/ نوفمبر ١٣٨٧ م لقي فيها منهم مقاومة عنيفة ، اضطرته إلى رفع الحصار والعودة ، خاصـــة بعد ما أصيب عسكره بوباء مات بسببه الكثيرون منهم (٤) .

ولا يتوقف الامام عن توجيه الحملات وشن الهجمات على المناطق التابعـة للسلطان في الفترة من سنة ٧٨٩ إلى ٧٩٣ هـ / ١٣٨٧ — ١٣٩١م ، ففي العام التالي توجه على رأس جيش الي مدينة حرض في شمال تهامة . ولكن السلطان أسرع بارسال حملة مضادة (٥)، لم يكد الامام يعلم بها حتى انسحب بقواته (٦)

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٨٣ ، العسجد ص ٥١٢ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٩٢ و ١٩٣ ، العسجد ص ٥١٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١٠٦ (أ) .

(٣) زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٧٣ .

(٤) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، العسجد ص ٥١٩ .

(٥) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٠٤ .

(٦) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ١٩٥ ، العسجد ص ٥١٩ .

وتحول إلي مدينة المحالب ، ولكن واليها تصدى له وأرغمه على الانسحاب(١). وظل الامام ينتهز الفرص لمهاجمة السلطان ، وقد واتته الفرصة عندما قام السلطان باستدعاء نوابه فى شمال تهامة ، وخروج هؤلاء إليه بمعظم قواتهم فى ربيع الأول سنة ٧٩١ هـ / مارس ١٣٨٩ م ، وأرسل بعض قواته تعاونها بعض القبائل المتمردة ، للاغارة على منطقة شمال تهامة ، وتخريب مدنها . وعلى أثر ذلك خرج الامام بنفسه على رأس قوة من أتباعه ، وهاجم حرض والمهجم والمحالب وتمكن من السيطرة عليها ، ويبدو أنه استخدم العنف فى هجماته ، فأثار بذلك الذعر فى قلوب سكان المنطقة (٢) . وأمام هذا الخطر أعد السلطان حملة كبيرة وجهها إلى الزيدية، وأردفها بامدادات متواصلة ، وتمكن السلطان بذلك التحرك السريع من تخليص تهامة (٣) من السيطرة الزيدية. ويذكر الخزرجى أن الامام قام بإرسال ثلاثة من اتباعه إلى السلطان «فقابلهم السلطان بالقبول وأنعم عليهم » (٤) ولم يوضح الخزرجى الغرض من هذه السفارة ، ولكن يبدو أن سعى الامام لتحسين علاقاته مع السلطان كان يهدف أن يؤدى إلى وقف الحملات المتتابعة التى دأب السلطان على توجيهها ضد الزيدية ، وهكذا نجح فى إيهام السلطان بولاء زائف ليطمئن هذا من ناحيته، وعندئذ يمكنه أن يضرب ضربته فى غفلة من السلطان . وهذا يفسر خروج الامام على رأس حملة الى زبيد وقيامه بمحاصرتها فى جمادى الآخرة ٧٩١هـ/

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٩٧ ، العسجد ص ٥٢٠ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٢٠١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٢٠٢ ، العسجد ص ٥٢٣ .

( ) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٠٥ .

يونيه ١٣٨٩ م ، وعمل خلال الحصار على الاتصال بكثير من أجناد المدينة الضامن موالاتهم له ، ولولا صمود أهل زبيد واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم، لسقطت المدينة - في يسر وسهولة - في أيدي الزيدية ، ولكن الامام اضطر إلى رفع الحصار والانسحاب (١) ، خاصة وقد بلغته أنباء عن وصول حملة مضادة ، يمكنها التعاون مع حامية المدينة في تطويق قواته ، ولهذا بادر الامام إلى فك الحصار وعاد أدراجه خوفا من الهزيمة (٢) .

وللحد من خطورة الامام خرج السلطان الأشرف إلى ذى جبلة ، ومنها خف في حشوده في شهر رمضان سنة ٧٩١ هـ / أغسطس ١٣٨٩م لمطاردة الامام وقواته ، ولولا وصول مدد إليه في الوقت المناسب لمني بهزيمة نكراء بسبب موالاة بعض القبائل التي اعتمد عليها من أهل المنطقة للامام ، ومع ذلك فقد اضطر الامام الى الانسحاب الى ذمار لاعادة تنظيم قواته. وفي شوال ٧٩١هـ/ سبتمبر ١٣٨٩ م جرد الامام حملة على تهامة ، توجهت في البداية إلى حرض ومنها إلى المحالب (٣) ، ولكن والى المحالب ما كاد يعلم بخبر هذه الحملة حتى أعد العدة لمواجهتها ، ولم ينتظر حتى يحيط أتباع الامام بالمدينة، بل بادر بالتجهز

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، العسجد ص ٥٢٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٦ أ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ٢ ص٢٠٧ ، ابن الديبع: قرة العيون ص١٠٦ ، زبارة . أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢١٠ ، العسجد ص٥٢٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٦ ب .

والخروج لملاقاتهم ، وكمنت قواته لهـــم فى الطريق ، وفاجأوهم وألحقوا الهزيمة بهم ، وقتلوا منهم عددا كبيرا على رأسهم قائد الحملة (١) . ولم تفت هذه الهزيمة فى عضد الامام ،ذلك أنه خرج فى ربيع الأول سنة ٧٩٢هـ / فبراير ١٣٩٠م على رأس حملة للاغارة على بعض الحصون التابعة للسلطان فى منطقة الشوافى ، ولكنه قوبل بمقاومة عنيفة أجبرته على العودة (٢).

وفى شهر صفر ٧٩٣ هـ / يناير ١٣٩١ م زحف الامام بقواته إلى منطقـة جبل بعدان (٣) من بلاد الشوافى ولكن قبائل المنطقـــة استدرجته إلى كمين نصبوه له ولقواته ، وتمكنوا من التغلب عليه وقتل الكثير من أتباعه فانسحب بفلوله الى ذمار (٤) . غير أنه لم يلبث أن أعاد تنظيم قواته وأغار على بلاد بنى شاور بالقرب من ذمار فى شهر رجب سنة ٧٩٣ هـ / يونيه ١٣٩١ م ، وأعمل فيها النهب والقتل والتخريب (٥) . وكان فى الامكان أن يستمر الامام فى سياسته العدائية نحو السلطان لولا أن الموت لم يمهله طويلا ، فقد توفى بصنعاء فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ هـ / أكتوبر ١٣٩١ م ، فقد حدث له أثناء عودته من هذه الحملة أن هاجت بغلته والقته عنها ، فتعلقت قدمه بركابها فازدادت نفورا

---

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢١١ ، العسجد ص ٥٢٧ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٧٤ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ، العسجد ص ٥٢٩ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٣٢ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢١٩ ، العسجد ص ٥٣٢ .

(٥) العقود حـ ٢ ص ٢٢١ ، العسجد ص ٥٣٣ .

وسحبته معها فى مكان وعر ، ولم يتمكن رجاله من تخليصه منها الا بعقرها فأقام متألما حتى توفى متأثرا بهذه الاصابة (١) .

وكان لوفاة الامام الناصر صلاح الدين أثره فى إضعاف القوى الزيدية . وحدوث انقسام خطير فى صفوفهم . فقد رأى البعض مبايعة إبنه عــلى بالامامة فى حين رأى غيرهم إمامة أحمـــد بن يحيى المرتضى ، وبايع كل من الفريقين بالامامة من كان يميل إليه ، ومن ثم بدأ صراع مرير بين الامامين من أجل الانفراد بالامامة (٢) . واستمر الصراع بينهما إلى أن وقـــع الامام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى أسيرا فى يد الامام المنصور على بن صلاح الدين سنة ٧٩٤ هـ (٣) / ١٣٩٢ م . ولم يمض وقت طويل حتى قام إمام آخر هـو الهادى على بن المؤيد بن جبريل سنة ٧٩٦ هـ (٤) / ١٣٩٤ م ، وازداد الطين بلة أن تمكن الإمام الأسير من الفرار سنة ٨٠١ هـ (٥) / ١٣٩٩م ، وانضم الى الإمام الجديد الهادى ضد الإمام المنصور (٦) ، واشتد الصراع على هذا النحو بين الفريقين .

---

(١) الخزرجى : العقـــود جـ ٢ ص ٢٢٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٢) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٨١ .

(٣) زبارة : نفس المرجع الجزء ص ٢٨٠ .

(٤) زبارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٥ .

(٥) زبارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٨٩ .

(٦) زبارة : نفس المرجع والجزء ص ٢٩٠ .

وفى خضم هذا الصراع الزيدى استطاع عـــدد من القبائل التخلص من التبعية للقوى الزيدية (١) . وبدأت هذه القبائل تتقرب إلى السلطان الأشرف وتوافد مشايخهم وعدد من أشراف الزيدية على السلطان ، ففى المحـــرم سنة ٧٩٤ هـ / ديسمبر ١٣٩١ م توجه الشريف المهـــدى بن عز الدين الحمزى والشريف شمس الدين سليمان بن يحيى إلى السلطان ، كما قدم إليه الشيخ شمس الدين على بن الرياحى الشرجى فى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٤ هـ / فبراير ١٣٩٢م على رأس وفد من أهله، فأكرمهم السلطان وخلع عليهـم(٢) . وفى شهر جمادى الأولى وصل شيخ الجحادر — من قبائل مذحج — فى جمع من أتباعه ، كما وصل أيضـا الشريف الزيدى أبو الفضائل المدوى ، «وتواترت القبائل من كل ناحية » (٣) . وفى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٥ هـ / يناير ١٣٩٣م جاءه أشراف جهران (٤) ، كما قدم الشريف صلاح بن على بن مطهر الحسنى إلى السلطان فى رجب ٧٩٧ هـ / ابريل ١٣٩٥ م، وتنازل للسلطان عن حصن ذروان ، فأنعم عليه وكساه ومنحه أربعين ألف درهم (٥) . وفى رمضـان ٧٩٧ هـ / يونية ١٣٩٥ م وصل الشريف عماد الدين يحيى بن أحمد الحمزى (٦) ،

---

(١) زبارة: أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٢٧ ، العسجد ص ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٣٠ ، العسجد ص ٥٣٧ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢٤٢ ، العسجد ص ٥٤٤ .

(٥) الخزرجى : العقـود حـ ٢ ص ٢٧٣ ، العسجد ص ٥٥٥ ، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٧ أ ـ ب ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٨٧ .

(٦) العقود حـ ٢ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، العسجد ص ٥٥٦ .

فأحسن السلطان استقبال الجميع وخلع عليهم الخلع السنية .

وهكذا وبدون كبير عناء تهيأت أحوال اليمن للاستقرار ، وأصبح السلطان الملك الأشرف صاحب الكلمة النافذة في البلاد ، وتحسنت العلاقات بينه وبين الإمام المنصور علي بن صلاح الذي أرسل في جمادى الآخرة ٧٩٩ هـ/ مارس ١٣٩٧ م للسلطان هدية نفيسة (١) . واستمرت حالة الهدوء تسود البلاد حتى نهاية حكم الأشرف الذي توفي في تعز ليلة الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (٢) / اكتوبر سنة ١٤٠٠ م ، بعد حكم دام قرابة ربع قرن (٣) .

---

(١) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٢٨٩ ، العسجد ص ٥٦٤ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٨٧ .

(٢) الخزرجي : العقود حـ ٢ ص ٢١٦ ، العسجد ص ٥٨٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي حـ ١ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ ، حـ ٢ ص ٥٠٤ ، النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٢٥ ، حوادث الدهور ص ٢٧٦ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٢٩٢ . (لقد أنهى الخزرجي كتابيه « العقود اللؤلؤية » « العسجد المسبوك » بتاريخ السلطان الأشرف الثاني إلى سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ، ولم يذكر من تاريخ اليمن شيئا بعد هذا التاريخ بالرغم من وفاته بعد ذلك بتسع سنوات أي سنة ٨١٢ هـ . ومما يذكر أن ناسخ كتاب العسجد المسبوك - نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية - قد أضاف بقية تاريخ بني رسول إلى نهاية دولتهم وذلك نقلا عن ابن الديبع ، وبمقارنة هذه الإضافة بما كتبه ابن الديبع اتضح أنها منقولة عن كتاب « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ») .

(٣) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٦ ص ١٦٧ .

٣ ـ عهد السلاطين الضعاف ونهاية الدولة :

١ ـ عهد الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل :

كان السلطان الأشرف قد عقد ـــ قبل وفاته بأيام ـــ البيعة بالسلطنة لابنه الناصر أحمد ، وعمل الناصر منذ توليه عرش السلطنة على القضاء على حركات العصيان التي شملت معظم بلاد اليمن ، وإقرار الأوضاع فيها ؛ فبدأ بالاستيلاء على بعض الحصون التي خرج ولاتها عن طاعته ، كما وجه حملاته إلى بلاد المعازبة فسارع هؤلاء بطلب الأمان فأمنهم (١) ، ولكنهم تظاهروا بالطاعة اكتسابا للوقت إذ لم يلبثوا أن عادوا إلى العصيان ، فسادت قوات السلطان إليهم وقتلت وشردت عددا كبيرا منهم . وكان انتقام الناصر شديدا بحيث قضى على مقاومتهم ، فركنوا إلى الهدوء (٢) .

ونشط الناصر بعد ذلك في توجيه الحملات ضد العصاة والمتمردين ، فاستولى في شوال سنة ٨٠٣ هـ/ مايو ١٤٠١ م على حصن المهور ـــ أحد حصون وادى سهام ـــ فساعده ذلك على إحكام السيطرة على منطقة سهام . كما استولى في أول عام ٨٠٤ هـ (٣) / أغسطس ١٤٠١ م على حصن ريمة (٤) .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٥ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٣ ، قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٦ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ، بغية المستفيد ص ٧٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٥٩ .

(٤) ريمة ، حصن يقع إلى الشمال من وضاب ، إلى الجنوب من جبال برع (الويسي : اليمن الكبرى ص ١٧٠).

وفى ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م وجه حملة إلى بلاد المقاصرة (١) وقتل منهم جمعا كبيرا، ونهب بلادهم وخربها، ثم استولى على مدينة دثينة (٢) قهرا سنة ٨٠٨ هـ/(٣) ١٤٠٥م.

وفى سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م قاد إحدى الحملات ضد والى جازان — فى شمال تهامة — الذى شق عصا الطاعة ، فلما وصل إلى المدينة ألفاها خالية قد تركها واليها وأهلها خوفا من تنكيله بهم . فأقام عدة أيام بها ، جاءه فى أثنائها رسول واليها يطلب الأمان فأمنه (٤) . فلما وصل إليه أرسله إلى زبيد (٥) ، وولى واليا آخر على المدينة ، فلما عاد السلطان إلى زبيد تشفع بعض علماء زبيد وصلحاؤها لديه ، فاستجاب لهم وأعاد صاحب جازان إلى ولايته بعد أن خلع عليه وأعطاه عشرين ألف دينار وخمسين عبدا بالإضافة إلى الهدايا والتحف(٦).

وكان السلطان الناصر قد توجه من جازان إلى مدينة حلى ، وكان واليها

---

(١) المقاصرة، قبائل تقيم إلى الشمال من وادى سهام .

(EL – Khazrejiyy : op. cit. vol. III, 3.p. 190, Note, 1355).

(٢) دثينة ، بلدة من بلاد الجحافل (الجندى : السلوك ص ٤٤٤ ، الخزرجى العقود جـ ١ ص ١٥٨) وتقع إلى الشمال من لحج

EL – Khazrejiyy : op. cit, vol. III, 3, p. 104, Note, 653, 654.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ ، بغية المستفيد ص ٧٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٢ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ أ ـ ب ، بغية المستفيد ص ٧٦ .

(٦) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب ، بغية المستفيد ص ٧٧ .

موسى بن أحمد بن عيسى الحرامى قد انفرد بولايتها بعد مقتل أخيه (١) ، فأسرع لمقابلة السلطان قبل اقتراب ركبه من مدينة حلي حاملا له الهدايا والتحف الثمينة (٢) ، مجددا له الولاء والطاعة . ولما كان لزاما على مدينته أن تتحمل تموين معسكر السلطان وجيشه أثناء إقامتهم فيها ، ولضعف إمكاناته تقدم مستعطفا السلطان ، وقال له : « إن هذه البلد ضعيفة لاتطيق وطأة مولانا السلطان » فاستجاب له السلطان بعد أن الزمه بتقديم عدد من الخيول كل عام (٣) .

ويذكر ابن حجر(٤) أنه قامت حروب بين موسى والي حلي وقبائل كنانة (٥) ، فانتهز شريف مكة هذه الفرصة واستولى على حلي ، ولجأ واليها إلى السلطان الناصر أحمد ، فأرسل هذا إلى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة يطلب منه ترك حلي وعدم التعرض لواليها ، فاستجاب لطلبه(٦) .

وهكذا تمكن السلطان الناصر أحمد من أن يسيطر على الموقف في اليمن ،

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ـ مخطوط ـ حـ ١ ص ٧٥٥ ، العيني : عقد الجمان مجلد ٦٦ ص ١٦٦ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٣ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٧٦-٧٧ .

(٤) أنباء الغمر جـ ١ ص ٧٥٥ .

(٥) هم ، بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس ، وديارهم باليمن وبجهات مكة (القلقشندي : قلائد الجمان ص ١٢٤) .

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر حـ ١ ص ٧٥٥ .

وسكنت الاضطرابات فيها لفترة تزيد على خمس سنوات (١) لم تحدث بعدها إلا حوادث قليلة متفرقة . حتى كانت سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م عندما خالف أهل وصاب فقام السلطان بإخماد ثورتهم واستولى على حصونهم(٢) .

وفي سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧م أغار الإمام علي بن صلاح الدين على بني طاهر نواب السلطان في رداع (٣) ، فأسرع السلطان لنجدتهم ، وتمكن من التغلب على الإمام ، وقتل عددا كبيرا من أتباعه ، وتتبع فلوله إلى وادي خبان (٤) . وواصل السلطان الناصر حملاته التأديبية إلى بلاد المعجالم شمالي لحج ، ومنها إلى أبين ودثينة ثم عدن ، وقفل عائدا بعدها إلى تعز فزبيد (٥) .

وفي عهد الناصر قامت عدة محاولات ضده من أجل السيطرة على الحكم . وأولى هذه المحاولات، تلك التي قام بها ضده أخوه حسين بن الأشرف ، إذ استطاع الاستيلاء على مدينة زبيد سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩ م ، وأعلن نفسه سلطانا على البلاد(٦) ، وتلقب بالظافر . ولكن السلطان الناصر تمكن من اقتحام زبيد

---

(١) يحيي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٣ .

(٢) يحيي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٤ .

(٣) رداع ، مخلاف باليمن من بلد بني عبس (EL - Khazrejiyy : op . cit. p. 83, Note, 50) إلى الجنوب الشرقي من ذمار .

(٤) وادي خبان ، إلى الشمال من جبل بعدان .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب — ١١١ أ ، بغية المستفيد ص ٧٧ — ٧٨ .

(٦) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٨ ص ٤٨٨ .

والدخول إليها قهرا وقبض على أخيه حسين وسجنه فى حصن تعز، ولكن حسينا لم يلبث إلا قليلا حتى استولى على حصن تعز، فأقام السلطان الناصر عليه الحصار حتى تمكن من القبض عليه مرة أخرى، وعهد لأخيه الظاهر بكحله، فقام بسمل عينيه . وقد استنكر ابن الديبع هذا التصرف باعتباره وصمة عار يندى لها الجبين فى تاريخ أسرة بنى رسول، وندم الناصر على ذلك ولام أخاه لتسرعه فى تنفيذ أمره الذى أصدره له ساعة غضب (١) .

ومن المحاولات التى وقعت فى عهد الناصر لاقصائه عن السلطنة، حركة محمد بن أبى القاسم نجاح الأشعرى، الذى سخر أمواله الكثيرة لانتزاع العرش السلطانى من صاحبه الشرعى. فتوجه إلى مدينة زبيد وتمكن من الاستيلاء عليها فى ربيع الأول ٨٠٦ هـ (٢) / ١٤٠٣م، ولكنه لم يحتفظ بالمدينة غير يوم واحد، إذ لم يأت صباح اليوم التالى حتى كان قد تم القضاء عليه وقتله . فصارت حركته مثلا بين العامة فيقولون : « ملك نجاح ساعة وراح » (٣).

استمر حكم السلطان الناصر أحمد أربعة وعشرين عاما وثلاثة أشهر، تمكن بفضل حملاته من الحفاظ على عرشه وإقرار الأحوال فى البلاد (٤). وقد وصفه

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ، بغية المستفيد ص ٧٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٤ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ ب .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٦ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٧٩.

(٤) الخزرجى: العسجد ص ٥٨٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ ب – ١١٢ أ ، بغية المستفيد ص ٨٠ .

ابن تغرى بردى ، بأنه كان من شرار بنى رسول، وأن البلاد قد خرب معظمها في عهده لظلمه وعسفه وعـدم سياسته وتدبيره (١) . وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٨٠٧هـ / (٢)ابريل ١٤٢٤ م .

ب — عهد المنصور عبد الله بن الناصر احمـد واخوه الأشرف الثالث اسماعيل : —

تولى المنصور عبد الله السلطنة بعد وفاة أبيه (٣) ومع أنه كان صغير السن، إلا أنه استطاع فرض هيبته وتثبيت سلطانه على البلاد ، ويذكر ابن الديبع أنه « كان ذا رأى وتدبير لسياسة المملكة على صغر سنه» (٤) . ولكنه لم يعمر طويلا ، إذ كانت وفاته في ربيع الآخر ٨٣٠ هـ (٥) / فبراير ١٤٢٧م . بعد حكم لم يدم أكثر من ثلاث سنوات .

خلف الأشرف الثالث إسماعيل أخاه المنصور عبد الله على عرش بنى رسول، وكان هو أيضا صغيراً عندما تولى السلطنة ، ولهذا فقد قام بتدبير أمر المملكة

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ، المجلد الأول جـ ١ ص ١٣٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصـــدر والجزء والصفحة ، حوادث الدهور ص ٢٠٧ ، الدليل الشافي ص ٨ ب ؛ الخزرجي العسجد ص ٥٨ ؛ ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ أ ، بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ١٢٣ ، جـ ٣ ص ٥١٤ ، الدليل الشافي ص ٨ ب .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ أ .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٨٧ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

له جماعة من أعيان دولته (١) . ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بين القائمين بأمر الدولة ، وواجهت دولة بنى رسول مشاكل عويصة ساعدت على اضمحلال الدولة وعجلت بانهيارها السريع . فقد ترتب على خروج كثير من القبائل عن الطاعة ، وقيامهم بأعمال السلب والنهب ، أن انتشرت الفوضى فى البلاد ، فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه المحن والقحط والجدب (٢) ، فتجرأ الناس على سلطانهم ، وانتهى الأمر بقيام جماعة من المماليك والعبيد بالقبض على السلطان وخلعه عن العرش (٣) ، وانتهبوا قصره فى جمادى الآخرة سنة ٨٣١ هـ /مارس ١٤٢٨ م ، بعد عام وشهرين من ولايته (٤) .

ج ـ عهد الظاهر يحيى بن الأشرف اسماعيل بن العباس :

بعد خلع الأشرف ، استقر رأى الثوار على إقامة عمه الظاهر يحيى، وكان الظاهر سجينا منذ أيام أخيه الناصر أحمد ، فأخرجه الثوار من سجنه وبايعوه سلطانا على البلاد، فأمر بالتحفظ على ابن أخيه المخلوع فى حصن الدملوة ، فأقام فيه سجينا حتى وفاته (٥) .

وكان الظاهر يستشعر بالأخطار التى تحيط به ، خاصة من قبل العناصر

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٢ ب .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج٣ ص ٥١٤ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٠ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص٥٨٨، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٢ب، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٤ .

التى عزلت سلفه ، ولكنه لم يتسرع فى التخلص منهم ، وتربث حتى واتته الفرصة ، وعندئذ لم يتردد فى التنكيل بهم ، وتتبعهم قتلا وتشريدا (١) . كما عمل على التخلص من كبار رجال سلفه ، وعلى رأسهم الوزير القاضى شرف الدين إسماعيل بن عبد الله العلوى وأسرته ، فصادرهم واستولى على أموالهم وشردهم (٢) .

وفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٣٠-٣١م خرج عدد من العبيد بمدينة المحالب عن طاعة السلطان وتوجهوا إلى بلاد الواعظات بالقرب من المحالب، واتخذوها قاعدة لشن الهجمات على مدن تهامة وقراها ، فأسرع السلطان الظاهر إلى مدينة المهجم ليكون قريبا من مسرح المعارك ، ويعمل من هناك على إقرار الأوضاع ، ولكن حملاته لم تقض على هؤلاء المتمردين . ولحسن حظ السلطان اضطر العبيد إلى الاشتباك مع قبائل المنطقة ، وقد ساعدت هذه الاشتباكات على التخلص من العبيد ، بعد أن قتل فيها أعدادا كبيرة منهم (٣) ، وخربت مدينة المحالب واشتعلت فيها النيران (٤) .

ولم تستقر الأحوال فى منطقة تهامة ، فقد شملت الثورات معظمها ،

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٧ - ٥٦٨ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٣ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٥ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٤ أ .

وتغلبت القبائل على ناحية حرض ، وقام أهل سهام بالخروج عن الطاعة وأخربوا وأحرقوا مدن الكدراء والقحمة ونشال في منطقة سهام (١) . كما عاد القرشيون إلى العصيان ، وكثرت الفتن والاضطرابات (٢) . وتعذر على السلطان الظاهر القضاء على هذه الفتن إلى أن وافته المنية في شهر رجب سنة ٨٤٢ هـ (٣) / يناير ١٤٣٩ م .

د ـ عهد الأشرف الرابع اسماعيل بن الظاهر يحيى :

تولى الأشرف السلطنة بعد وفاة أبيه بإجماع كبار رجال الدولة وأهل الحل والعقد (٤) . وانتهج الأشرف سياسة تقوم على الحزم والتشدد مع القبائل الثائرة (٥) وتوالت حملاته التي باشرها بنفسه للقضاء على عصيان هذه القبائل إلى حد أنه لقب « بالمجنون » لاقدامه وشدة بأسه وجرأته (٦) . ويذكر

(١) يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٦٩ .

(٢) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٥ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٢، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٥ ب ، بغية المستفيد ص ٨٥ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٥١٩ ، حودث الدهور ص ٣٧٦ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٥ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٥١٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٦ .

(٦) الخزرجي: المسجد ص ٥٩٣، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ أ ، بغية المستفيد ص ٨٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٩ .

يحيى بن الحسين أنه « كان شابا تغلب عليه رأى الجهل والسفه ، فسفك الدماء ، وأثار الفتن العظمى » (١) .

ورغم اصطناعه العنف مع الثوار ، فإن هجمات القرشيين والمعازبة تزايدت ، ودارت بينه وبينهم مواقع عديدة سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م ، تبادل فيها معهم النصر والهزيمة ، ولكن معظمها انتهى بهزيمة قواته ، وسقوط الكثير من أجناده بين قتلى وأسرى (٢) ، الأمر الذى نستدل منه على مدى ما وصلت إليه دولة بنى رسول من ضعف ، وعدم قدرة الحكومة المركزية على مواجهة ثورات القبائل التى كانت تستهدف القضاء عليها . وبلغ من قوة القبائل أنها استطاعت التغلب على السلطان وجيشه فى معركة عنيفة دارت بينها فى ذى القعدة سنة ٨٤٣ هـ / ابريل ١٤٤٠ م ، ولم يصمد فيها عسكره إلا قليلا ، وفر السلطان بنفسه بأعجوبة (٣) فى عدد يسير من خاصته (٤) .

وبسبب تحرج موقف السلطان الأشرف أمام الهزائم المتكررة التى منى بها ، واستفحال خطر القبائل تظاهر بالرغبة فى إزالة أسباب ثورتهم ، ودعاهم

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٣، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ أ ـ ب ، بغية المستفيد ص ٨٦ ـ ٨٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٠٨ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٧٩ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٣، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٦ب ، بغية المستفيد ص ٨٧ .

إلى وليمة أقامها في قرية بيت الفقية شمال زبيد في جمادى الأولى سنة ٨٤٥ هـ / سبتمبر ١٤٤١ م بقصد التفاهم معهم ، حضرها جماعة من مشاهير المعازبة ومشايخهم ، فلما جلسوا إلى السماط أمر بضرب أعناقهم ، فقتل منهم أربعين رجلا ، وتمكن الباقون من الفرار (١) .

ولم تضع هذه الجريمة الشنعاء حداً لثورات القبائل التي استمرت بغير هوادة دون أن يتمكن من إخمادها أو التخفيف من حدتها (٢) إلى أن توفي في شوال سنة ٨٤٥ هـ (٣) / فبراير ١٤٤٢ م .

هـ - سلطنة المظفر الثاني :

كان المظفر يوسف الثاني بن عمر بن إسماعيل بن العباس الرسولي ، قد لاذ بمنطقة وصاب خوفا من ابن عمه الأشرف الرابع ، فلما توفي أجمع أهل الحل والعقد على إقامة المظفر الثاني سلطانا على اليمن خلفا للأشرف ، لما كان يتحلى به من العدل وحسن السيرة (٤) . ولكن الدولة كانت قد قطعت شوطا

---

(١) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٩ ، ص ١١١٣ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٧٩ .

(٣) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ١١٦ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ .

(٤) الخزرجي : المسجد ص ٥٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ أ ، بغية المستفيد ص ٨٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٧٩ .

كبيرا نحو الانهيار ، ولهذا فقد شملت عهده الفوضي والاضطراب (١) منذ اليوم الذى تولى فيه السلطنة . فلم يكد يعتلي العرش حتى خرج عليه جماعة من جنده بزعامة قائدهم يشبك الخاصكى،وأقاموا أحد أبناء رسول وهو محمد بن اسماعيل ابن عثمان بن الأفضل عباس سلطانا على البلاد فى المحرم ٨٤٦ هـ/ مايو ١٤٤٢م ولقبوه بالمفضل ، وجعلوا من زبيد مقرا له ، فعمل المفضل هذا على اجتذاب القبائل الثائرة - وخاصة المعازبة والقرشيين - الى جانبه ، فاستدعاهم الى زبيد وأنفق فيهم الكثير من الأموال ، ووزع عليهم الخيل والسلاح ، فازدادوا بذلك قوة على قوة (٢) . ولكن السلطان المظفر الثانى أرسل حملة بقيادة بعض كبار قادته تمكنت من اقتحام مدينة زبيد والقبض على المفضل فى الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٤٦ هـ (٣) / ١٦ أغسطس ١٤٤٢ م وارساله معتقلا إلى تعز (٤) ، أما أهل زبيد فقد أرسل المظفر اليهم منشورا بالأمان قرىء فى جامعها (٥) . وعمل على الانتقام من المماليك المخالفين الذين أقاموا الأفضل سلطانا ، فتمكنت قواته من التغلب عليهم وقتل قائدهم يشبك الخاصكى (٦) .

---

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٢٧٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٠ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ .

(٦) الخزرجى العسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ .

وعاقب السلطان من استمر على عصيانه منهم بقطع جامكيته ، فأدى ذلك إلى قيامهم بنهب غلال الأراضي المحيطة بزبيد[١] ، واشعالهم نار الفتنة ، وجدوا في البحث عمن يتعاون معهم من بني رسول ، حتى عثروا على أحدهم في مدينة حيس وهو الناصر أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله بن المجاهد ، فولوه سلطانا بزبيد في جمادى الآخرة سنة ٨٤٦ هـ / اكتوبر ١٤٤٢ م بحجة أن المظفر لم يعد قادرا على القيام بأعباء الحكم وأنه لا يصلح للسلطنة[٢] .

وزادت سطوة المماليك مرة أخرى ، إذ تجمعوا في شهر رجب ٨٤٦ حول قصر زبيد واتفقوا على نهب المدينة ، فانتشروا ينهبون ويقتلون ويثيرون الرعب والفزع في المدينة دون أن يتجرأ أحد على التصدى لهم[٣] . ومن ناحية أخرى استغل جماعة من أهل زبيد خروج الناصر أحمد بن الظاهر إلى وادى زبيد في شعبان سنة ٤٦ هـ[٤]/ديسمبر ١٤٤٢م ، وأقدموا على إغلاق أبواب المدينة فيما عدا باب واحد لم يتمكنوا من إغلاقه بسبب قيام أصحاب الناصر بحراسته . وكان هؤلاء القوم يهدفون من وراء إغلاقهم أبواب المدينة أن يمنعوا الناصر من العودة إلى زبيد تخلصا من الأخطار التى قد تلحقهم

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٠.

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ ب، بغية المستفيد ص ٨٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٣) الخزرجي : العسجد ص ٥١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٣ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٠ .

بسببه ، ولكنهم لم يلبثوا أن اضطروا إلى الفرار عندما اكتشفت محاولاتهم ـ أما الناصر فقد أسرع بالعودة ، وانتهبت المدينة بأمره نهبا شنيعا وقتل من أهلها أعداد كبيرة ، حتى « أصبحت زبيد حصيدا كأن لم تغن بالأمس[١] ، وتفرق أهلها »[٢] .

ولم تمدنا المصادر بما قام به السلطان المظفر الثانى ضد تلك الحركات التى قام بها المماليك المتمردون الذين استبدوا واستفحل خطرهم وعاثوا فى البلاد الفساد . ويبدو أنهم لم يحققوا أهدافهم من إقامة الناصر أحمد بن الظاهر ، ولهذا عزلوه فى ربيع الأول سنة ٨٤٧هـ/ يولية ١٤٤٣م ، وأخرجوه من زبيد[٣] .

و ـ المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف وسقوط دولة بنى رسول :

لم يخلع المماليك السلطان الناصر أحمد بهدف عزمهم على العودة لطاعة السلطان المظفر الثانى وإنما ليقيموا سلطانا آخر ينافسون به المظفر ، فأقاموا المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف سلطانا فى زبيد فى ربيع الأول ٨٤٧ هـ/ يولية ١٤٤٣م . وكان المسعود ـ وقت اختياره ـ صغيرا لم يبلغ الثالثة عشر من عمره ، لهذا كان الواجهة التى عمل المماليك من ورائها ضد

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٠ و١١١٤ .
(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٠ .
(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٠ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٠ .

المظفر ، وبدأوا نشاطهم ـ تحت رايته ـ بالتوجه إلى عدن واستولوا عليها فى ذى القعدة سنة ٨٤٧هـ [١] /فبراير ١٤٤٤م . ثم توجهوا إلى لحج وكان فيها بنو طاهر ، الذين كانوا بدورهم يطمعون فى الاستبداد بملك اليمن . وكان يهمهم زيادة ضعف بنى رسول ، ليسهل عليهم القضاء على دولتهم . ولهذا لم يقاوم بنو طاهر المسعود وقواته وتركوا لهم لحج فدخلها المسعود وأتباعه سنة ٨٤٨هـ [٢] / ١٤٤٤م .

ولم يلبث المسعود أن زحف بقواته إلى تعز سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ودخلها ، وكان المظفر متحصنا بقلعتها فأحكم المسعود الحصار عليه حتى يئس من النجاة ، فاستنجد بنوابه بنى طاهر ، فجاءه الشيخ عامر بن طاهر على رأس حملة تمكنت من إجبار المسعود على فك الحصار ومغادرة تعز ، وذلك فى رمضان سنة ٨٥٢هـ [٣] /أكتوبر ١٤٤٨م والتوجه إلى عدن [٤] . أما المظفر فقد أعد حملة قادها وبصحبته بنى طاهر إلى لحج، ودارت بينهم وبين المسعود وقواته معركة فى ذى القعدة ٨٥٢هـ/يناير ١٤٤٩م ، قتل فيها عدد من أتباع المسعود [٥] . ولكن يبدو أن المسعود استطاع بعد ذلك إرغام المظفر على

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨أ ، باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٤.

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٧ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٠ .

(٣) باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٤ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨أ ، بغية المستفيد ص ٩١ .

(٥) باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٣ .

التخلي عن السلطنة ، ذلك أن المصادر تذكر أن المسعود تسلم حصن تعز في سنة ٨٥٤هـ [1] / ١٤٥٠م . ولم يرد ذكر للمظفر في المصادر بعد ذلك إلى نهاية الدولة .

ويبدو أن المماليك الساخطين لم يرق لهم انفراد المسعود بالسلطنة ، لذلك أقاموا سلطانا آخر هو المؤيد حسين بن الملك الظاهر بن الأشرف ، وذلك في شعبان سنة ٨٥٥ هـ [2] . فلما علم المسعود بتولية المؤيد توجه على رأس حملة إلى زبيد في رمضان ٨٥٥ هـ / اكتوبر ١٤٥١ م ، وأقام الحصار عليها، ولكنه اضطر – عندما أحس بالخيانة في صفوف قواته – إلى العودة إلى تعز [3] ومنها إلى عدن [4] . أما بنو طاهر فقد نشطوا لتنفيذ أطماعهم في الاستيلاء على السلطنة ، وتقدموا في المحرم سنة ٨٥٨ هـ / يناير ١٤٥٤ م إلى عدن، حيث دارت بينهم وبين المسعود عدة معارك خارج المدينة أسفرت عن انتصار بني طاهر في بعضها وهزيمتهم في البعض الآخر ، وانتهى الأمر بتدهور أحوال المسعود، ولم يعد مسموع الكلمة ، وأصبح صورة، له الخطبة

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع: قرة العيون ص ١١٨ب، بغية المستفيد ص ٩٢ .

(٢) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٢ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٥ .

(٣) يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٤ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٨ب ، ١١٩أ ، بغية المستفيد ص ٩٢ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٢ و١١١٥ .

السكة لا غير،(١) فى عدن ، مما اضطره إلى التخلى عن السلطنة فى السادس من جمادى الآخرة سنة ٨٥٨ هـ(٢) /٣ يونية ١٤٥٤م .

أما السلطان المؤيد حسين فإنه ما أن علم بتنازل المسعود وخروجه من عدن ، حتى طمع فى الاستيلاء عليها ، ونجح فى ذلك ودخلها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ٨٥٨ هـ(٣) / ٢١ يونية ١٤٥٤ م فتوجه بنو طاهر إلى عدن فى جيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء عليها فى الثالث والعشرين من رجب وأمنوا المؤيد وحددوا إقامته ، ثم سمحوا له بالتوجه إلى زبيد ومنها إلى مكة (٤) .

وهكذا قويت شوكة بنى طاهر واستولوا على البلاد ، واستحوذوا على مقاليد الأمور وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى رسول التى عمرت ما يقرب من مائتين وثلاثين عاما .

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص١١٨ب، ١١٩أ ، بغية المستفيد ص ٩٢ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٥ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ — ١١١٦ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص١١١٦ .

الفصل الثالث

دولة بني طاهر

أولا :- الأوضاع السياسية عند قيام دولة بنى طاهر :-

١ - نسب بنى طاهر :-

تعتبر دولة بنى طاهر - في حقيقتها - امتدادا لدولة بنى رسول ، ذلك أن الطاهريين استغلوا كونهم نوابا للرسوليين ، وانتهزوا حالة الضعف والانقسام التي مرت بها الدولة الرسولية فى منتصف القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ونجحوا فى تأسيس دولتهم سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م .

وينتسب بنو طاهر إلى الفرع الأموى من قريش [١] ، ويقال أنهم من نسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز [٢] . وقد نسبهم ابن تغرى بردى إلى قبائل القرشية فى اليمن [٣] . ويعتبر موضوع النسب بصفة عامة من أهم

---

(١) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢١ ، ١١٢٧ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر - مخطوط رقم ٢٠٣٣ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية - ص ١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٦ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٦ .

(٢) با مخرمة : نفس المصدر والصفحات ، الشبلى اليمنى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٣ و ٣٧٦ .

مارکز على إثباته بعض حكام اليمن، بهدف إضفاء الصفة الشرعية على حكمهم ومن اهتم بذلك المعـــز إسماعيل بن طغتكين ـ أحد سلاطين الأيوبيين في اليمن (١) ـ وتبعه في ذلك بنو رسول(٢) ، وهو أمر لم يثبت صحته .

أما عن نسب بنى طاهر إلى الأمويين ، وإلحاقهم بأعقاب عمر بن عبد العزيز ، فأمر لم تثبته المصـــادر العربية ، بل يثير لدينا الشك والارتياب ؛ لعاملين : الأول : ان العباسيين عملوا على استئصال الأمويين ، وبصفة خاصة في البلاد التي خضعت لسيطرتهم ، وكانت بلاد اليمن في جملة مناطق نفوذهم ، وكان يتولاها نواب من قبلهم حرصوا ـ كغيرهم من نواب العباسيين في الولايات الأخرى ـ على التخلص من بقايا البيت الأموى .

أما العامل الثانى : فإن المصادر التي أوردت النسب الطاهرى لم تلق أى ضوء على كيفية وصولهم إلى اليمن ، وتاريخ هذا الحدث ، أو ذكر شيء من أخبارهم قبل القرن التاسع الهجرى .

أما رواية ابن تغرى بردى في نسبة بنى طاهر إلى قبائل القرشية ، فغير قائمة على أى أساس لعـــدة أسباب منها ، أن بنى طاهر كانوا يسكنون مدينة المقرانة وجبن بمخلاف رداع ـ الواقع إلى الجنوب الشرقي من ذمار ـ في حين أن قبائل القرشية كانت قد استقرت بأسفل وادى رمع (٣) بمنطقة تهامة إلى الشمال من زبيد ، وإليهم تنسب قرية القرشية في تلك المنطقة (٤) . وهكذا

(١) انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن، الفصل الخامس.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٩ وما بعدها .

(٣) الشرجى : طبقات الخواص ـ طبع مصر سنة ١٣٢١هـ ـ ص ١٧٨.

(٤) الخزرجى : العقد الفاخر الحسن ج ٢ ص ١٥٠ أ .

يتضح اختلاف مضـــارب كل منها فى الوقت الذى استقرت فيه القبائل فى مناطق عددة . يضاف إلى ذلك أن قبائل القرشية كانت من أكثر قبائل اليمن اضطرابا أيام بنى رسول ، ومن المستبعد أن يطمئن بنو رسول إلى الطاهريين أو يعتمدون عليهم إذا ما كانوا فعلا من قبـــائل القرشية . ثم أن ثورات القرشيين استمرت فى عهد بنى طـاهر ، وبذل سلاطين تلك الدولة جهوداً كبيرة لإخمادها ، فلو أن بنى طاهر كانوا ينتسبون حقيقة إلى القرشية لما أقدم هؤلاء على الثورة عليهم .

وهكذا يتضح أن انتساب بنى طـاهر إلى بنى أمية أو إلى قبـائل القرشية اليمنية لايقوم على أساس . وأيا ما كان الأمر ، فإن بنى طاهر يمنيون ، اشتغلوا بزراعة الفوة (١) واهتموا بالتجارة واحترفوها (٢) .

٢ – ظهور بنى طاهر ودورهم فى الصراعات بين سلاطين بنى رسول :–

لم يرد ذكر بنى طـاهر فى المصـــادر العربية إلا ابتداء من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، أى عند بدء دخولهم فى خدمة بنى رسول . وبالتدريج أصابوا بعض الشهرة إلى أن أصبحوا أمنـاء السلاطين بنى رسول على التجـارة ووكلاء عنهم فى عدن (٣) ، ونوابا لهم فى مخلاف رداع وهى

---

(١) الفوة نوع من النبات يستخدم فى الصباغة (ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧) .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص ١١١١ ، تاريخ ثغر عدن ج١ ص١٠٢ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ب بغية المستفيد ص ٧٧ . بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص١١٥٨ ، الجرافى : المقتطف ص ٨٣ ، الواسعى : تاريخ اليمن ص ١٨٨ .

منطقة هامة ، إذ كانت تعتبر خط دفاع أمامي ضد التوسع الزيدي جنوبي ذمار، فلقد تعرضت تلك المنطقة سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م لاغارات الامام الزيدي علي ابن صلاح الدين ، وذلك منذ بداية سلطنة الناصر أحمد بن اسماعيل بن العباس الرسولي . ونظراً لضعف دولة بني رسول ، لم يتمكن نائبهم الشيخ علي بن طاهر من الصمود في وجه الإمام ، ووافق على التنازل له كرها عن إحدى القلاع الهامة في منطقة رداع ، ولكن ما أن قفل الامام عائداً إلى ذمار ، حتى نكث بنو طاهر عهدهم معه ، فعاد الامام إليهم واتبع معهم سياسة تقوم على العنف ، فأخذ يخرب بلادهم ويدمر عمرانهم ، ولم ينصرف عنها إلا بعد أن وفد بنو طاهر عليه واعتذروا له عما بدر منهم (١) .

وكان الشيخ معوضة (٢) بن تاج الدين ــ جد بني طاهر ــ معاصرا للسلطان الناصر أحمد الرسولي، وتشير المصادر إلى اتصال بني طاهر بسلاطين بني رسول وتعاونهم معهم وارتباطهم بهم ، ففي سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م وفد الشيخ طاهر بن معوضة على السلطان الناصر أحمد الرسولي ، فأكرمه (٣) وأنعم

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٥٨ ــ ٥٥٩ .

(٢) هو معوضة بن تاج الدين بن محمد بن سعيد بن عامر ، ويرفع بعض المؤرخين نسبه إلى وهب بن منبه بن حرب القرشي الأموي . (الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٨ ، الجرافي : المقتطف ص ٨٢) . وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٨١٢ هـ / أكتوبر ١٤٠٩ م (الخزرجي: العسجد ص ٥٨٤، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب ، بغية المستفيد ص ٧٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٥٧) .

(٣) يحيى بن الحسين : غايه الأماني ص ٥٦٣ .

عليه وعلى من جاء بصحبته . والظاهر أن السلطان استوثق من ولاء طاهر وبنيه له،فاعتمد عليهم فى إقرار الأوضاع بمدينة المقرانة وما إليها من مخلاف رداع ، وأسند إليهم مهمة التصـــدى للقوى الزيدية التى تطمع فى التوسع جنوبى ذمار . فلما أغار الامام الزيدى على بن صلاح الدين مرة أخرى على مدينة المقـــرانة سنة ٨٢٠ هـ/١٤١٧م خشى بنو طاهر الهزيمة وسارعوا إلى الاستنجاد بالسلطان الناصر أحمد ، وتمكنوا ـ بمعاونته ـ من التصدى للامام وإيقاع الهزيمة بقواته (١) ، ومطاردة فلوله إلى وادى خبان الواقع إلى الشمال الشرقى من مدينة إب (٢) .

ويستمر ولاء بنى طاهر لبنى رســـول ، ويستمر أيضا توافدهم على تعز عاصمة الرســـوليين ، ففى سنة ٨٣٥ هـ/ ١٤٣١ - ٣٢ م مثل الشيخ على بن طاهر بين يدى السلطان الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل الرسولى ، فحظى عنده بمثل ما كان يحظى به أبوه من الاكرام والإنعام . وتوطدت الصلات بينهما بزواج هذا السلطان من إبنة الشيخ طـاهر بن معوضة (٣) ، ومن ثم أخذ نفوذ بنى طاهر فى الازدياد وبرز دورهم ، وأسهموا بنصيب كبير فى الأحداث التى وقعت فى أواخر حكم الرسوليين .

ففى سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م تولى المظفر يوسف بن المنصور عمر بن الأشرف

---

(١) الكبس : اللطائف السنية ص ٢٥٩ .

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ب بغية المستفيد ص ٧٧ ، با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٥٨ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٣ ب بغية المستفيد ص ٨٠ .

الرسولي السلطنة ، ولكن لم يلبث بعض من بايعه من المماليك أن خرجوا عن طاعته وتآمروا عليه ، وأقاموا في المحرم سنة ٨٤٦ هـ / مايو ١٤٤٢ م سلطانا آخر في زبيد لمنافسته ، هو المفضل بن أسد الدين محمد بن إسماعيل بن عثمان ابن الأفضل الرسولي [١] ، وعندئذ أصدر السلطان المظفر أوامره إلى الشيخ على ابن طاهر بالتصدى لهذه الحركة ، فتوجه على رأس قوة كثيفة إلى زبيد ، وأرغم الثوار على العودة إلى الطاعة بل واضطرهم إلى اعتقال سلطانهم المفضل بن أسد الدين وتسليمه إلى السلطان المظفر [٢] تجنبا لما قد يصيبهم من عقاب السلطان الشرعى .

وما كاد المماليك المتمردين يستعيدون ثقة المظفر بهم ، حتى قاموا بتدبير مؤامرة جديدة ، ولم يمض وقت طويل حتى عادوا إلى العصيان وأقاموا في جمادى الآخرة سنة ٨٤٦ هـ / [٣] أكتوبر ١٤٤٢ م سلطانا آخر هو أحمد بن الظاهر بن يوسف بن عبد الله الرسولي ، ولقبوه بالناصر . ويبدو أنهم تعجلوا في تنصيبه سلطانا ، ذلك أنهم خلعوه في ربيع الأول سنة ٨٤٧ هـ / يوليه ١٤٤٣ م ، وأقاموا مكانه في نفس الشهر المسعود صلاح الدين بن الأشرف بن الناصر الرسولى ، فبدأ بالاستيلاء على عدن في ذى القعدة سنة

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٥ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٨٨ ، الكبسي : اللطائف ص ٢١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٠ و ١١١٣ .

(٣) الخزرجى : العسجد ص ٥٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ ب ، بغية المستفيد ص ٨٩ .

٨٤٧هـ / فبراير ١٤٤٤م . واضطر السلطان المظفر إلى الاستعانة ببنى طاهر لوضع حد لهذه الحركة ، وأرسلهم فى جموع أتباعهم المرابطة فى لحج ومراقبة تطورات الأحداث عن كثب ، غير أن بنى طاهر وإن كانوا يظهرون الولاء للسلطان المظفر ، إلا أنهم كانوا يخططون بدورهم للاستيلاء على ملك بنى رسول مستغلين الظروف الصعبة التى كانت تلك الدولة تمر بها آنذاك ، من الانقسام والتفتت وعدم ولاء الجند ، مما أدى إلى ضعف هؤلاء السلاطين وانكماش ظلهم من مناطق كثيرة ، وقيام الطامعين والمتنافسين على عرش السلطنة (١) .

أما المسعود فقد رأى فى وجود قوات المظفر بقيادة بنى طاهر فى لحج ، خطرا يهدده فى عدن ولهذا قرر مواجهتهم بنفسه ، فخرج على رأس حملة فى ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، وتمكن من انتزاع لحج منهم (٢) . وهكذا بدأت كفة المسعود ترجح ، وطمع فى التخلص من السلطان المظفر ، فزحف إلى تعز فى سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م وحاصره فى قلعتها ، فلما طال عليه الحصار أستنجد ببنى طاهر ، فقدموا لنجدته (٣) وأرغموا المسعود على فك الحصار عنه فى سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م وتعقبوا فلوله وطاردوه إلى عدن (٤) ، ودارت بين الجانبين فى ظاهر تلك المدينة عدة معارك لم تسفر عن نتيجة حاسمة . فلما فشل

---

(١) با مخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١١٤ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢١٢ .

(٢) با مخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) با مخرمة . نفس المصدر والصفحة ، الكبسى : نفس المرجع والصفحة .

(٤) با مخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٥ .

بنو طاهر عائدين إلى قاعدتهم حاول المسعود من جديد الاستيلاء على تعز ، ونجحت محاولته أخيرا ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة وقلعتها في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م بعد أن فر المظفر منها (١) .

وهكذا أثبت المسعود قدرته في السيطرة الجزئية على بعض المناطق ، وركز قواه على للتخلص من السلطان المظفر ، تمهيدا للانفراد بملك بني رسول ، متناسيا بذلك أن المماليك الذين أقاموه كانوا يستهدفون من وراء توليته مجرد استمرار التنافس بين بني رسول على عرش السلطنة ، وعدم إتاحة الفرصة لانفراد أحدهم بالملك ، وهو أمر استغله بنو طاهر لتحقيق مخططهم في الاستيلاء على البلاد وإقامة دولة باسمهم .

٣ ـ سقوط دولة بني رسول :

أصبح مماليك بني رسول يشكلون أكثر العناصر خطورة على الدولة ، فقد قويت شوكتهم وأصبحوا يتحكمون في عزل السلاطين وتنصيبهم ، وكان لا يهمهم سوى استمرار سيطرتهم والقضاء على الجهود الرامية لإقرار الأوضاع في اليمن . فلما أحسوا بمقدرة المسعود واحتمال نجاحه في السيطرة الكاملة على البلاد ، أقاموا في شعبان سنة ٨٥٥هـ/ سبتمبر ١٤٥١م سلطانا ثالثا هو المؤيد حسين بن الظاهر الرسولي . فأدى ذلك إلى زيادة التنافس بين السلاطين الثلاثة على العرش ، فبادر المسعود للتخلص من هذا المنافس الجديد قبل أن يستفحل أمره ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى عدن عندما أحس بعدم ولاء عسكره له (٢) ، فلما أعاد تنظيم قواته تحول مرة أخرى إلى مواجهة

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة ، الكبسي : نفس المرجع والصفحة .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

معسكر المظفر ممثلا في بني طاهر (١) .

وكان بنو طاهر قد تجهزوا بدورهم للاستيلاء على عدن ، فتصدى المسعود لهم وبادرهم بالقتال في لحج في أوائل سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م ، ولكن المعركة لم تسفر عن أي نتيجة حاسمة ، واضطر المسعود للعودة إلى عدن بسبب الاضطرابات التي نشبت بين فرعي قبيلة يافع من آل أحمد وآل كلد المقيمين فيها ، فقد اختل صمام الأمن بسبب ذلك ، وتعرضت بيوت التجار والأغراب في عدن للسلب والنهب ، وكان آل كلد يؤلفون السواد الأعظم من سكان المدينة ويسيطرون عليها من الداخل ، فلما أحس آل أحمد بسطوة آل كلد وازدياد خطرهم ، لجأوا بحكم سيطرتهم على حصون المدينة وأسوارها إلى الانتقام من بني كلد ، وذلك بأن استغلوا فرصة قيام بني طاهر بحصار عدن ، واتصلوا بهم وتحالفوا معهم وتعهدوا لهم بتذليل مهمة الاستيلاء عليها ، واشترطوا عليهم مقابل ذلك ضمان الاحتفاظ بمكانتهم والعمل على تخليصهم من أعدائهم آل كلد وإخراجهم من عدن . فلما استولى بنو طاهر - بمعاونة آل أحمد - على عدن في رجب ٨٥٨هـ (٢)/يولية ١٤٥٤م قام الطاهريون بتأمين أهلها ، وأمهلوا آل كلد ثلاثة أيام ليغادروا المدينة .

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٥٩٧ - ٥٩٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٨ ب - ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٢ ص ١١٢١ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ١٩٩ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢١ .

وأباحوا دم من يبقى منهم بعد انقضائها ، فتفرق آل كاد وتوجه معظمهم إلى الشحر ولجأ الباقون إلى زيلع وبربرة وغيرها [١] .

وكان المسعود قد وفق في الخروج من عدن قبل أن يحتلها بنو طاهر ، وانتهى به الأمر إلى خلع نفسه من السلطنة [٢] . وكان السلطان المؤيد حسين بن الظاهر يحيى قد تمكن من دخول عدن أثناء محاصرة بني طاهر لها ، وبعد خروج المسعود منها ، وظل مقيما بها حتى استولى بنو طاهر عليها، فأحسنوا إليه ورتبوا له راتبا ، وحددوا إقامته ، ثم سمحوا له بمغادرة عدن بعد أن اشتروا منه ما معه من خيل وسلاح ومتاع [٣] . فلما خرج المؤيد قصد زبيد ، وأصبح وليس له من أمر السلطنة إلا إسمها ، في حين إستبد المماليك بأمر السلطنة .

وكان لسيطرة هؤلاء المماليك على زبيد أكبر الأثر في الإضرار بأهلها واستثارتهم عليهم ، وحتى يمكن التخلص من خطرهم قام بعض أعيان المدينة

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٦ .

(٢) لما خرج المسعود من عدن استجار بأحد الصالحين وأقام عنده ، ثم جاءه بعض المماليك وطلبوا منه التوجه معهم إلى زبيد ، فلما استوثق منهم دخل المدينة معهم في رمضان ٨٥٨هـ ، ولكنه لم يبق بها طويلا ، فقد غادرها في آخر شوال ، وخلع نفسه ثم رحل إلى مكة . (ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ب ، بغية المستفيد ص ٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٥ ، والكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢١) .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ أ ، بغية المستفيد ص ٩٣، بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٦ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢١ .

بمكاتبة المجاهد على بن طاهر فى عدن وإعلان تأييدهم وولائهم له ، وقد كان ذلك مبررا اصطنعه ابن طاهر للتحايل على الاستيلاء على زبيد بغير حرب ، واتفق مع الأمير الدين زين جياش بن سليمان السنبلى على الخروج من عدن على هيئة المطرود منها ، حتى يسهل عليه الدخول الى زبيد دون إثارة شكوك المماليك فيه ، باعتباره من أعداء بنى طاهر ومطاريدهم فتوجه الأمير جياش أولا إلى مدينة موزع [1] ، وشرع فى مكاتبة مماليك زبيد ، وعرض خدماته عليهم للتعاون ضد الطاهريين ، فاستقر رأى غالبيتهم على السماح له بدخول زبيد ، وتظاهر جياش لهم بالولاء وحسن المشورة حتى أمنوا له ، ووثقوا فيه ، ولكنه كان يضمر فى قرارة نفسه تمزيق شملهم والوقيعة بينهم ، ونجح فى استمالة عدد منهم إلى بنى طاهر [2] ، وعندئذ أرســـل إلى المجاهد على ابن طاهر يستحثه على الحضور فلم يتردد فى ذلك ، وإنما عمل على مخادعة مماليك زبيد ، وتوجه فى شوال سنة ٨٥٩هـ/سبتمبر ١٤٥٥م إلى تعز ، وهناك أدركه حشد كبير من القرشيين للانضمام إليه والدخول فى خدمته ، فأكرمهم ووعد بمكافأتهم وواصل تقدمه بهم إلى زبيد . فلما علم مماليكها بقدومه، سقط فى أيديهم وفر عدد كبير منهم من المدينة [3] . وكان الأمير جياش قد أعلن

---

(١) تقع بلدة موزع على مسافة ١٥ ميلا تقريبا إلى الشرق من ميناء المخا .
(EL-Khazrejiyy : The Pearl Strings, vol. III, 3, p, 147, Note, 952.)

(٢) يحي بن الحسين غاية الأمانى ص ٥٨٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٩ ، بغيـة المستفيد ص ٩٤ ـ ٩٥ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٢٢ .

أن المدينة قد آلت للملك المجاهد الطاهرى ، فكان لتصرفه هذا أكبر الأثر فى إثارة ما تبقى من المماليك وزعمائهم الذين توجهوا إليه واستنكروا عليه ذلك ، ولكنه تشدد معهم ، وقام أعوانه بقتل أحد زعمائهم وإلقاء رأسه إلى المماليك المتجمهرين حول الدار ، واعتقل عددا آخر منهم ، فتفرق الباقون وآثروا النجاة بأنفسهم خارج المدينة (١) ، وتم ذلك يوم الجمعة ثانى أيام عيد الأضحى الموافق ١١ ذى الحجة سنة ٨٥٩هـ/٢٣ نوفمبر ١٤٥٥م ، فأصبحت الخطبة على منابر زبيد فى ذلك اليوم للسلطان الظافر عامر الثانى بن طاهر (٢) فى حين كانت خطبة العيد فى اليوم السابق للسلطان المؤيد (٣) . واستمرت الخطبة للظافر عامر الثانى رغم كونه أصغر من أخيه المجاهد على (٤) ، «وانقادت له العربان وذلت له الأقران ، ودانت له العباد وأمنت به البلاد ، وانقمع به المفسدون » (٥) .

وهكذا استطاع بنو طاهر إقامة دولتهم على أنقاض دولة بنى رسول ، وكان لحالة الضعف والتفسخ التى كانت تمر بها دولة بنى رسول أثرها فى

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٥ – ٩٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٧ ، وص ١١١٩ ، الكبسى : اللطائف ص ٥٨٨ .

(٣) تمكن المؤيد من مغادرة اليمن إلى مكة ومنها توجه إلى مصر حيث أكرمه السلطان إينال ورتب له مرتبا يقوم بكفايته فى مكة ، فرحل إليها وأقام بها بقية عمره . (بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٢) .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٨ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٦ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١١٧ .

سقوط تلك الدولة التى استمر حكمها مائتين وثلاثين عاما ، تضافرت قرب نهايتها الأسباب ، التى عجلت بانهيارها ، فمن صراع حول عرش السلطنة وتمرد القبائل على الدولة ، وخروج مماليك بنى رسول عن الطاعة ، وتحكمهم فى إقامة السلاطين وعزلهم ، وتشجيعهم التنافس على العرش . هذا بالاضافة إلى القوى الزيدية المتربصة للانقضاض على الحكم القائم ، وقد أتاح لها هذا الاضطراب فرصة النجاح فى السيطرة على المنطقة الممتدة من ذمار وصنعاء جنوبا إلى صعدة وما يليها من جبال اليمن شمالا . وكان فى الامكان أن تقوم الامامة الزيدية ببسط نفوذها على بلاد اليمن وإقامة حكم زيدى كامل فيها ، لولا تفرق كلمتهم ونشوب الصراع بين زعمائهم حول الوصول للامامة والانفراد بها .

وهكذا فقد استنفد اشتغال بنى رسول فى القضاء على حركات التمرد والعصيان ، ومواجهة المناوئين لسلطانهم من بنى قرابتهم كل طاقاتهم المادية والمعنوية ، والتهم كثيراً من الأموال للانفاق على تلك الحروب الداخلية ، وكانت الموارد الضخمة للدولة ، وخاصة مايتعلق بعائد ميناء عدن من الرسوم الجمركية تسمح بالانفاق على تلك الحملات المتوالية ، إلا أن ازدهار جدة نتيجة وصول السفن التجارية إليها رأسا ، لم يلبث أن أضعف من شأن ميناء عدن لتحول السفن عن الرسو فيها ، وأطاح بالمورد الرئيسي لدخل بنى رسول ، فكان ضياعه سببا فى زيادة ضعفهم وعجزهم عن الانفاق على الجند الذين فقدوا الولاء للدولة . واستغل بنو طاهر هذا العجز أحسن استغلال ، وتمكنوا فى نهاية الأمر من الاستقلال بملك اليمن .

ثانيا : قيام الدولة الطاهرية :

أ - سلطنة الظافر عامر الاول واخيه المجاهد على بن طاهر :

يرجع الفضل فى قيام دولة بنى طاهر إلى الجهود الكبيرة التى بذلها

الأخوان الظافر عامر الأول والمجاهد علي بن طاهر ، فقد قاما بقيادة أتباعهما وتوليا عملية الاستيلاء على ملك بنى رسول ، وأسسا دولتهما على أنقاضها ، وقاما بأمر السلطنة شريكين فى الحكم . إلا أن الظافر عامر استأثر بالخطبة والسكة دون أخيه رغم كونه الأصغر ، ويبدو أن ذلك قد تم برضاء أخيه الأكبر المجاهد علي . وقد ظل الأمر على ذلك إلى سنة ٨٦٤هـ [١]/١٤٥٩ - ٦٠م عندما أعلنت الخطبة للمجاهد علي وضربت السكة باسمه [٢] فى جميع أنحاء الدولة برضاء أخيه الأصغر الظافر عامر أيضا [٣] .

ومن الملاحظ أن المصادر لم توضح أسباب اشتراك الأخوين فى السلطنة ، وانفراد الظافر عامر بأمر الخطبة والسكة فى بداية الدولة ، أو سبب تحولها للمجاهد منذ عام ٨٦٤هـ . وأغلب الظن أن الهدف من اشتراكهما فى السلطنة يرجع إلى حرص بنى طاهر على تجنب وقوع صراعات حول عرش السلطنة بين الأخوين ، إذ أن هذا التنافس كان من أهم الأسباب فى انهيار دولة أسلافهم . ونعتقد أن إعلان الخطبة والسكة للظافر عامر رغم كونه الأصغر قد ترجع إلى الدور الكبير الذى قام به فى تأسيس دولة بنى طاهر ، أو لأنه كان صاحب فكرة الاستيلاء على ملك بنى رسول . وأيا ما كان الأمر فإن اشتراكهما فى الحكم كان ضرورة حتمتها الظروف لتجنب المنافسات على عرش السلطنة وضمان تدعيم أركان الدولة الناشئة . ومن الأدلة التى تثبت حرصهما

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢١ .

(٢) الكبسى : اللطائف السنية ص٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ .

على ذلك الخلاف الذى وقع بين الأخوين الشريكين فى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م ، بسبب اضطهاد الظافر عامر للشريف على بن سفيان والى زبيد ، وعزله وتولية أخيه عبد الملك بن طاهر مكانه ، دون التحقق من صحة ما نسبه أهل زبيد إليه (١) . أو فى قول آخر بسبب قيام المجاهد علي بعزل أخيه عبد الملك عن ولاية زبيد وإعادة الشريف علي بن سفيان إليها ، ولجوء عبد الملك إلى أخيه الظافر عامر شاكيا من أخيه المجاهد ، فأثار ذلك غضب المجاهد واستياءه فأبدى زهده فى السلطنة رغم أنه صاحب الخطبة والسكة ، واعتزم ترك البلاد (٢) . وتوجه إلى الساحل ليستقبل مركبا إلى بلاد الحجاز ، ولم يعدل عن رأيه إلا بعد أن ألح عليه أعيان مدينة زبيد وفقهاؤها بالبقاء ، كما سارع أخوه الظافر عامر بالتوجه إليه وطيب خاطره واسترضاه ، حتى عدل عن قراره ، وهكذا يتضح مدى حرص المجاهد على على تفادى المنافسات والصراعات ، فرغم كونه الأكبر سنا وصاحب الخطبة والسكة ، إلا أنه آثر مغادرة البلاد وعدم الدخول فى صراعات أسرية حرصا على وحدة كيان الدولة وضمان إستمرار تماسكها .

٣ - الأحوال الداخلية عند قيام دولة بنى طاهر :

ورث بنو طاهر بلادا تسودها الفوضى والاضطرابات وتمزقها الفتن الداخلية والانقسامات الدائمة فالامامة الزيدية ، تمكنت من استغلال ظروف الضعف

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ أ ، بغيه المستفيد ص ١٠٣ - ١٠٤ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٢ ص ١١٢٨ .

(٢) يحيي بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩٦ .

والانحلال التى سادت بلاد اليمن أيام بنى رسول واستطاعت السيطرة على قسم كبير من البلاد يمتد من ذمار وصنعاء جنوبا إلى صعدة وما يليها من جبال اليمن شمالا . ولولا الصراعات التى نشبت بين القوى الزيدية حول الامامة ، وقيام أكثر من إمام فى وقت واحد ، وتفكك تلك القوى ، لأمكنها تثبيت سيطرتها الكاملة على البلاد . ومن ناحية أخرى فقد جنحت أعداد كبيرة من القبائل إلى إعلان عصيانها والخروج عن طاعة بنى طاهر ، واستقلت بما كان بحوزتها من البلاد ، وتجاوزت ذلك إلى الاغارة على ما حولها من المناطق وقطع الطرق وأعمال السلب والنهب وإثارة الفوضى فى ربوع اليمن ، وكانت معظم هــــذه القبائل الثائرة فى منطقة تهامة إلى الشمال من زبيد [١] ، ومنها المعازبة والقرشيين وبنى حفيص ، هذا بالإضافة إلى القلاقل التى كانت تثيرها بعض القبائل فى مناطق أخرى من البلاد .

وحتى يتمكن بنو طاهر من إقرار الأوضاع الداخلية ، فقـد كان حتما عليهم التصدى لحركات تلك القبائل والقضاء على ثوراتها ، ولهذا الهدف نشط الطاهريون فى إعداد الحملات التى ركزت بشكل خاص على القبـائل المقيمة شمالى زبيد [٢] . ورغم تعدد هذه الحمـلات وتواصلها ، فلم تكن ذات فعالية كبيرة ، ولم تؤد إلى السيطرة الكاملة الثابتة [٣] .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٧ .

(٢) ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة .

(٣) لمزيد من التفصيلات عن تمرد القبائل ، انظر القسم الثانى من هـــذا الفصل ص ٢٨٧ وما بعدها .

وأيا ما كان الأمر ، فقد عمل سلاطين بني طاهر على توطيد أركان دولتهم ، وبذلوا العديد من المحاولات للسيطرة على البلاد والقضاء على حركات التمرد الداخلية فيها ، فبدأوا بالاستيلاء على عدن وتعز وزبيد وما بينها من المناطق كما سبق ذكره . ثم استولوا في ذى القعدة ٨٥٨ هـ على حصن التعكر (١) ، وأعلنت بعض القبائل ولاءها لهم ، وممن وفد على بنى طاهر بعد استيلائهم على عدن الشيخ يحي بن عمر الثابتى صاحب مدينة الحـــديدة ، فبعد أن تأكدوا من ولائه وأقسم لهم على الطاعة (٢) ، كلفه السلطان المجـاهد على بالتوجه إلى منطقة بيت الفقيه شمالى زبيـد وزوده بالأموال الطائلة ليسخرها فى استمالة قبائل المنطقة ، ويضمن بذلك ولاءهم لبنى طاهر (٣) .

وحرص بنو طاهر على تجنب الوقوع فى منافسات على العرش بين أمراء البيت الطاهرى ، ولذلك نلاحظ أن السلطان الطاهرى كان يستصحب معه أمراء أسرته فى معظم حملاته أو فى جولاته التى كان يتفقد فيها المناطق التى كان يتوجه لزيارتها (٤) .

كما لم يتوان بنو طـاهر فى الضرب بشدة على أيدى العابثين ، ففى المحرم

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٤ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ص ٩٤ – ٩٥ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، ١٢٤ ب ، بغية المستفيـد ص ٩٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، بامخرمة : قـلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨ ، ١١٣٠ ، ١١٣٢ ، ١١٤٠ ، ١١٦٧ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٩٣ ، ١١٩٦ .

سنة ٨٦١هـ / ديسمبر ١٤٥٦م استولى أحمد الثوار ويدعى ابن لبين على حصن تعز ، فأرسل السلطان المجاهد على حملة إلى تعز تمكنت من استعادتها ، ووقع ابن لبين أسيرا وقتل خمسين من أتباعه [١] ، كذلك اهتم بنو طاهر بتأمين الطرق والقضاء على المفسدين وتبديد شملهم والتخلص من أخطارهم [٢] .

٣ ـ موقف صاحب الشحر من قيام دولة بنى طاهر :

خضعت بلاد الشحر لليمن منذ استيلاء السلطان المظفر يوسف ثانى سلاطين بنى رسول عليها [٣] ، فلما ضعفت دولتهم خرجت تلك البلاد عن حكمهم ، واستقرت السلطة فيها لقبيلة كندة [٤] . وبسقوط دولة بنى رسول وقيام الدولة الطاهرية ، قام الطاهريون بطرد آل كاد اليافعيين من عدن ، فرحل معظمهم إلى الشحر وأغروا صاحبها أبا دجانة محمد بن سعيد بن فارس الكندى بالإستيلاء على عدن، وأرشدوه على مواضع يعرفونها يسهل على قواته اقتحام المدينة منها . فتجهز أبو دجانة فى تسعة مراكب [٥] وأبحر

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠١ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٧ .

(٣) انظر تفصيلات استيلاء المظفر على الشحر فى الفصل الرابع ،

(٤) صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ جـ١ ص ٩٠ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٥ .

بها من بلده في شهر ربيع الآخر سنة ٨٦١ هـ / مارس ١٤٥٦ م . وعلى الرغم من تكتمه الشديد على تحركاته بهدف مفاجأة المدينة والاستيلاء عليها دون مقاومة ، فقد تسرب خبر الحملة وتسلل لفيف من الموالين لبني طاهر والمعادين لأبي دجانة في قارب من ميناء الشحر خفية في الليل ، وتمكنوا من الوصول إلى عدن قبل وصول الحملة ، وأبلغوا الأمر إلى واليها الشريف علي بن سفيان الذي لم يكن متوفرا لديه وقتئذ العدد الكافي من الجند لمواجهة الموقف ، ولهذا بادر بالكتابة إلى الظافر عامر والمجاهد علي يستحثهما لانقـــاذ المدينة [1] . ومبالغة منه في الحيطة أسرع بالتأهب لمقابلة الحملة إلى حين وصول الامدادات. فلما وصل أبو دجانة أمام عدن تعرضت سفنه لعاصفة عاتية تسببت في تحطيم اثنتين منهـا [2] .

أما السلطان الظافر عامر بن طاهر فقد أسرع في جموع جيشه إلى عدن ، فاطمأن بوصوله أهلها ، وفي نفس الوقت تسرب اليأس إلى نفس أبي دجانة واستقر عزمه على القفول بسفنه ، ولكن لسوء حظه فقد عبثت الرياح بسفينته وجرفتها إلى الشاطيء ، فتلقفتهـا قوات بني طاهر وأسرت أبا دجـانة وابن

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بامخرمة . قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٥ ، صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ج ١ ص ٩٣ ، سعيد عوض باوزير : صفحات من التاريخ الحضرمي ـ القاهرة ١٣٧٨ هـ ص ١١٥ ــ ١١٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحـر جـ ٣ ص ١١٢٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٨ .

أخيه ومن كان بسفينته من أتباعه (١) وكان من بين الأسرى أحد زعماء يافع من آل كلد ويدعى مبارك الشايق اليافعى، فقتله أعداؤه آل أحمد بعد أن اتهموه بتحريض أبي دجانة على غزو عدن (٢) .

وكان أبو دجانة قد أناب عنه أمه (بنت معاشر) ، وكانت امرأة كاملة ذات حزم وعزم ، فقامت بأمر البلاد أثناء غيابه خير قيام ، ويروى أنها أبدت اعتراضها على الحملة ، ولكنه لم يأخذ برأيها . فلما وقع فى الأسر حزنت عليه كثيراً ، وحزمت أمرها وتوجهت بنفسها الى عدن سعيا فى أمر إطلاقه مقابل التنازل عن الشحر لبنى طاهر ، وكان ذلك من حسن طالعهم ، فقد جاء أبو دجانة للاستيلاء على عدن ، ففقد بلاده وعرشه وحياته ، ذلك أن السلطان الظافر عامر وافق على العرض الذى تقدمت به أم أبي دجانة ، فأمر بإطلاق إبنها من السجن ، ولكنه استبقاها فى عدن حتى تم تسليم الشحر لنائب بنى طاهر ، ثم أذن لها بالعودة ، وقيل أن أبا دجانة لم يخرج من عدن إلا مسموماً (٣) .

ودخلت الشحر على هذا النحو فى فلك الدولة الطاهرية ، وأسند بنو

---

(١) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ، محمد بن هاشم العلوى : تاريخ الدولة الكثيرية — القاهرة ١٩٤٨ — ص ٢٩ ، حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية — القاهرة ١٩٦٠ — ص ١١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٥ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٥ .

طاهر ولايتها إلى الأمير جياش بن السنبلى سنة ٨٦٣ هـ [١]/ ١٤٥٩ م الذى دخلها نيابة عن بنى طاهر فى ذى القعدة من تلك السنة [٢] ، واستمرت تحت حكم بنى طاهر حتى سنة ٨٦٦ هـ عندما تمكن أحد إخـــوة أبى دجانة من الاستيلاء على الشحر وطرد نائب بنى طاهر منها [٣] ، ولم يلبث أن تحكم فى طرق الملاحة ، وأخـذ يعترض المراكب المتجهة إلى عدن [٤] . وأثارت تلك التصرفات ثائرة السلطان الظافر عامر فتجهز بنفسه فى حملة كبيرة لتأديبه ، ومما يذكر أن أجر الجمال التى استخدمت لحمل أثقالها يقـدر باثنى عشر ألف دينار ؛ وقد سلكت الحملة الطريق البرى الساحلى فى صفر ٨٦٦ هـ / نوفـمبر ١٤٦١ م ، فلما اقتربت من الشحر فر صاحبهـــا ، وتمكن السلطان من استرجاعها [٥] . ولما دخلتها قواته استباحت المدينة ونهبتها ، ولم تكف عنهـا إلا بعد أن أمر السلطان بذلك . أما الأسرى ، فقد أرسلهم السلطان فى السفن إلى عدن ، فلما أقر الأوضاع فيها أناب بها أحد أتباعه ، وعضده بـدر بن عبد الله الكثيرى صاحب ظفار وحضرموت [٦] . وكان آل كثير ــ وهم

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٠ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١١٨ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩١ .

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٩ ، الكبسى : اللطـائف السنية ص ٢٣٣ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغيـــة المستفيد ص ١٠٢ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٠٢٧ .

من همدان – ينقمون على أسرة أبي دجانة الكندى منذ انتزاعهم الشحر منهم سنة ٨٣٨ هـ [١] / ١٤٣٤ – ١٤٣٥ م .

٤ – مقتل السلطان الظافر عامر وانفراد أخيه المجاهد علي بالسلطنة :

أبدى بنو طاهر نشاطا حربيا ملحوظا لمد نفوذهم على صنعاء وما يليها شمالا ، بهدف القضاء على سيطرة الإمامة الزيدية عليها [٢] . ولم يتردد السلطان الظافر عامر في اغتنام الفرص المواتية لتحقيق هذا الهدف ، ففي ذى القعدة ٨٧٠ هـ / يونية ١٤٦٦ م خرج من عدن على أثر دعوة تلقاها من صنعاء يعرض فيها أصحابها استعدادهم لمساعدته في الاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من تحذير أخيه المجاهد علي له من هذه المغامرة وتخويفه من الوقوع في مكيدة ربما يكون أهل صنعاء قد دبروها للايقاع به ، إلا أنه لم يأخذ بتحذيره . فلما وصل إلى صنعاء حملت القوات الزيدية عليه قبل أن يستعد للقتال ، فانهزم عسكره ، وثبت هو في قلة من خلصائه حتى سقط صريعا في السابع من ذى القعدة سنة ٨٧٠ هـ/ [٣] ٢١ يونية ١٤٦٦ م . ودوى خبر مصرعه في الآفاق ، وكان له أعمق الأثر في اضطراب البلاد وفي تحرك مطامع القبائل المتمردة ، سيما

---

(١) صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى ج ١ ص ٩٠ ، محمد بن هاشم العلوى : تاريخ الدولة الكثيرية ص ٢٩ .

(٢) انظر تفصيلات الصراع بين بنى طاهر والامامة الزيدية في نهاية هذا الفصل ص ٣١٣ وما بعدها .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

القبائل الضاربة بمنطقة تهامة ، وزاد ذلك من ثقل التبعات الملقاة على عاتق الحكم زبيد الذي بذل جهودا هائلة لإقرار الأوضاع في البلاد .

كان السلطان المجاهد على إبان تلك الأحداث مشغولا بحصار حصن حب بخلاف بعدان ، وقد أحكم حصاره على الحصن إلى حد أنه قطع الميرة والأقوات عن أهله حتى أشرفوا على الهلاك جوعا (١) ، فاضطروا إلى تسليمه إليه في رجب ٨٧٠ هـ / فبراير ١٤٦٦ م ، وما أن تحقق للمجاهد ذلك حتى قفل عائداً إلى عدن (٢) ولما بلغه فيها خبر مقتل أخيه غادر عدن إلى منطقة رداع ثم رحل منها الى ذى جبلة ومنها الى زبيد ، وذلك بعد نجاح واليها في تهدئة الأوضاع في تهامة وتخفيف حدة التوتر في المنطقة (٣) .

وفي عهد المجاهد اضطربت قبائل تهامة فاضطر إلى تجريد الحملات لاخماد حركاتهم التي استمرت تحتدم طوال عصر الطاهريين . وقد واصل السلطان المجاهد حملاته ضد تلك القبائل ، كما قام بجولات تفقد فيها بلاده إلى أن توفى في العاشر من ربيع الآخر سنة ٨٨٣ هـ (٤) / ١١ يوليه ١٤٧٨ م ، بعد حكم دام

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ أ.

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٠٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٨ أ ، بغية المستفيد ص ١٢٤ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤١ الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٢ ، ٢٠٠ .

ربع قرن ، قضى نصفه الأول شريكا لأخيه الظافر عامر ، وانفرد في النصف الثاني بعرش السلطنة وقد تجنب ـ طوال عهده ـ الاصطدام بالقوى الزيدية وقنع بإقرار الأوضاع في البلاد وإخماد حركات القبائل المتمردة .

ثالثا ـ الدولة الظاهرية بعد المجاهد :

أ ـ سلطنة المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر :

خص المجاهد على بن طاهر ابن أخيه عبد الوهاب بن داود برعايته لما توسم فيه من كفاية ومقدرة ، فأدناه إليه ورفع منزلته ، واختاره وليا لعهده قبل وفاته بست سنوات ، ففي المحرم ٨٧٧ هـ / يونية ١٤٧٢ م مرض المجاهد على مرضا شديدا أشرف منه على الموت ، فاستدعى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود وعهد إليه بأمر البلاد من بعده ، ولكن المجاهد لم يلبث أن تماثل للشفاء [١] وامتد به الأجل ست سنوات أخرى . فلما توفى في ربيع الآخر ٨٨٣ هـ / يولية ١٤٧٨ م أجمع بنو طاهر على تولية عبد الوهاب بن داود ـ تنفيذا لعهد المجاهد له ـ ولقبوه بالمنصور . وكان سلاطين بني طاهر يحرصون على تأكيد سيطرتهم على عدن خشية أن تخرج عن طاعتهم فيفقدون بذلك موردا رئيسيا من موارد دولتهم طالما حرصوا على بقائه وتنميته ، ولهذا السبب بادر المنصور عبد الوهاب على أثر مبايعته بالتوجه إلى عدن [٢] ، فوصلها بعد ثلاثة أيام من وفاة عمه [٣] . ولما كان دخول عدن لا يتم إلا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ أ ، ١٢٨ ب ، بغية المستفيد ص ١١٥ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ١١٣١ و ١١٣٧ .

(٢) بامخرمة قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٣٤ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٨ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٧ .

بتصريح خاص من السلطان بسبب حرص بني طاهر الشديد وخوفهم من الانقسامات والصراعات على العرش بين أفراد أسرتهم ، وفى نفس الوقت لم يكن والي عدن قد علم بوفاة المجاهد واستخلاف المنصور عبد الوهاب ، ولهذا عمد السلطان الجديد إلى تجنب هذا الموقف ، وأبرز إذنا بدخولها كان قد وقعه السلطان المجاهد له قبل وفاته بقليل ، للسماح له بدخول عدن لاستقبال السفن الواردة ، وتجهيز البضائع الصادرة [1] . فلما استقر بالمدينة اجتمع بواليها وكبار رجالها وأهل الحل والعقد فيها وأخبرهم بوفاة عمه واعتلائه عرش السلطنة فبايعوه ، ولم يلبث أن غادرها بعد أن دبر « أمورها وقرر قواعدها وسار بالناس سيرة جميلة وفرق في العسكر أموالا جزيلة وكساوى جليلة » [2] .

٣ ــ التنافس على عرش السلطنة :

حرص بنو طاهر منذ قيام دولتهم على عدم الدخول فى منافسات على الملك ، ولذلك اشترك الأخوان الظافر عامر والمجاهد على فى عرش السلطنة ولهذا السبب أيضا كان الدخول إلى أية مدينة محظورا بغير إذن موقع من السلطان ، كما كان السلطان يستصحب معه رجالات الأسرة إذا توجه على رأس حملة ، أو خرج لتفقد أحوال بلاده ، حتى لا يتهيأ لأحد منهم انتزاع الملك منه أثناء غيابه . وقد نجحت هذه السياسة فى فترات اشتراك الظافر عامر والمجاهد على فى الحكم .

---

(١) باخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٤١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٨ ب ؛ باخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٤٢ .

فلما توفى الظافر عامر الأول ، واستقل أخوه الأكبر المجاهد علي بالملك واصل تنفيذ هذه السياسة . ويبدو أن السلطان المجاهد لم يخلف عقبا ، ولذلك عهد بالملك من بعده إلى عبد الوهاب بن داود ابن أخيه ، مما أثار سخط بعض أبناء السلطان الظافر عامر بن طاهر الذين كانوا يرون أنهم أحق بالسلطنة منه ، باعتبار أن أباهم كان شريكا للمجاهد في الملك . وهم على هذا النحو أصحاب الحق الشرعي في وراثة الملك عن أبيهم سيما أن المجاهد لم يكن له عقب .

ومع أن أبناء الظافر عامر قد امتثلوا لعهد عمهم ، وبايعوا المنصور عبد الوهاب بن داود بالسلطنة ، إلا أن ذلك لم يتم عن اقتناع ، فقد عز عليهم أن تخرج السلطنة منهم فقرروا النكث ، واستغلوا فرصة توجه المنصور عبد الوهاب إلى عدن لإقرار الأوضاع فيها ، والعمل على تأكيد سيطرته على البلاد ، حتى شق يوسف بن الظافر عامر عصا الطاعة ، وأعلن الخروج على السلطان الجديد [1] ، ولم يلبث أن استقل بحكم مدينة زبيد واتخذها قاعدة له طمعا في استكمال السيطرة على بقية البلاد والاستيلاء على عرش السلطنة ، ثم أقدم على إبطال الخطبة في زبيد للسلطان المنصور عبد الوهاب ، وجعلها لبني طاهر عامة [2] ، واستعد لمواجهة السلطان ، فرتب المقاتلة على سور المدينة وأرغم أهلها على حمل السلاح والدفاع عنها ، وهددهم بالانتقام إذا حاولوا الانتقاض عليه والخروج عن طاعته . فلما علم السلطان المنصور

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٣١ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٧ .

عبدالوهاب بذلك أسرع بالتوجه إلى زبيد، فوصلها في جمادى الأولى سنة ٨٨٣هـ/ أغسطس ١٤٧٨ م ، وبدأ بالسعي لاقناع يوسف بن عامر بالعدول عن الخلاف والعودة إلى طاعته ، ولكن ذلك لم يزده إلا تمسكا بالخلاف (١) .

ثم أنه أقدم على الاستعانة بمماليك زبيد لمواجهة الموقف ، فأمر بخروجهم للدفاع عن المدينة من الخارج إذا ما اقتربت قوات السلطان من السور ولكن المماليك أسرعوا بمجرد خروجهم بالتوجه إلى معسكر السلطان ، وأعلنوا انضمامهم إليه، فلما رأى يوسف ذلك خرج في اثرهم من المدينة لإعادتهم (٢) ولكن أهل زبيد أغلقوا باب المدينة ، وصاح صائحهم بالطاعة للملك المنصور عبد الوهاب ، ولم يمكنوا يوسف بن عامر من العودة إليها . وكان يوسف قد شحن حصن قوارير بالقرب من زبيد بالطعام والسلاح ،فأراد التوجه إليه والتحصن فيه ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه لشدة الظلام ، وخشى أن يقع أسيراً ويتعرض لانتقام السلطان ، فنصحه بعض أتباعه بالتوجه إلى السلطان والاعتذار له والدخول في طاعته ، فسار بمن معه تجاه معسكر السلطان ، فلما اقترب اضطرب المعسكر ظنا منهم أنه إنما جاء لحرب . ولكن لم تكن قلوبهم إلا بعد ما أعلن أنه إنما قدم طائعا للسلطان ، و أظهر ندمه عما بدر منه (٣) .

أما السلطان المنصور عبد الوهاب ، فقد استقبل ابن عمه يوسف بن عامر

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ أ ، بغية المستفيد ص ١٢٧ ، بامخرمة قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ أ ، بغية المستفيد ص ١٢٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤٢، يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١٠.

استقبالا حسنا ، ولم يزد عن مجرد معاتبته برفق ، وتكفل له الاطمئنان وأنزله بمخيم أخيه أحمد بن عامر الذى ظل على ولائه للسلطان . فلما كان صباح اليوم التالى ، الثانى عشر من جمادى الأولى ٨٨٣هـ / ١١ أغسطس ١٤٧٨م دخل الجميع مدينة زبيد [١] ، وهناك أقبلت وفود القبائل معربة عن ولائها للسلطان ، فأجزل لها العطاء [٢] . وأقام فترة فى زبيد لإقرار الأوضاع فيها .

لم يطمئن يوسف بن عامر ، وتوجس خيفة من انتقام السلطان ، ولهذا طلب السماح له بالخروج من زبيد ومغادرة اليمن ، ولم يوافق السلطان إلا بعد إلحاح من أحمد ابن عامر - أخى يوسف - الذى كانت له عند السلطان منزلة رفيعة . وخرج يوسف من زبيد فى الثالث عشر من جمادى الأولى ٨٨٣هـ/ ١٢ أغسطس ١٤٧٨م وركب إحدى السفن إلى الحجاز ، فأقام مكرما لدى الشريف محمد ابن بركات أمير مكة [٣] . وحاول يوسف أثناء مقامه فى مكة الحصول على مساعدة شريفها للاستيلاء على اليمن ، ولكن الشريف لم يوافقه على ذلك [٤] .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢٩ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣٤ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤٢ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب ، بغية المستفيد ص ١٣٠ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤٢ .

(٤) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٦ .

ولعل هذا الموقف من أميرمكة أيأسه من نصرته، فقد ظل يوسف بن عامر يراوده الأمل للوصول إلى العرش، ولهذا السبب قرر العودة إلى اليمن، وتم ذلك في سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م . ولخوفه من السلطان المنصور عبد الوهاب اتصل ببني حفيص[1] الزيديين[2] الثائرين على بني طاهر واستجار بهم ، فأكرمه زعيمهم الشيخ أحمد بن أبي الغيث وزوجه بإبنته ، فلما علم السلطان بذلك توجه على رأس حملة إلى بلاد بني حفيص شمالي زبيد ، واستصحب معه أحمد بن عامر – أخا يوسف بن عامر – ولم يلجأ السلطان إلى القتال إلا بعد أن أخفق في تسوية الخلاف . ودارت المعركة في ذي القعدة سنة ٨٨٤ هـ[3]/ يناير ١٤٨٠ م ، فتمكن بنو حفيص من قتل أحمد بن عامر . فلما علم أخوه يوسف بمقتله انضم إلى المعسكر السلطاني طلبا لثأر أخيه من بني حفيص ، وانتهت المعركة بهزيمة بني حفيص ومقتل عدد كبير منهم ، وعاد يوسف بن عامر مع السلطان المنصور عبد الوهاب إلى زبيد ومنها إلى تعز[4] . والظاهر أن يوسف ظل يسعى إلى السيطرة على العرش ، إذ صدر الأمر بإعتقاله في سنة ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م بحجة عدم ولائه ، وظل سجينا بسجن مدينة رداع[5]

---

(١) عن ثورات بني حفيص الزيديين انظر فيما يلي ص ٣٠٠ .

(٢) الزيديون قبائل – خلاف أتباع المذهب الزيدي – ويقطنون المنطقة الواقعة شمالي زبيد في مدينة الزيدية المسماه باسمهم، وما حولها .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٣٤ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ – ١٣١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١١ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٣ .

حتى توفى فى سنة ٩٠٨ هـ [١] / ١٥٠٢ م .

ولكن وفاته لم تضع حداً لمحاولات أبناء الظافر عامر بن طاهر للاستيلاء على العرش ، ففى جمادى الأولى سنة ٨٩١هـ / مايو ١٤٨٦م قام إبراهيم بن عامر بمحاولة أخرى ، ولكنها باءت بالفشل وانتهى أمره بالقبض عليه وإيداعه سجن رداع قبل أن يستفحل أمره [٢] .

وهكذا كرس المنصور عبد الوهاب جهوده للقضاء على منافسات خصومه التى بدأت فى عهده ودافع عن عرشه ، وجهز الكثير من الحملات للقضاء على الحركات الداخلية المعادية . ولم تفتر عزيمته حتى توفى بمدينة جبن من بلاد رداع ليلة السابع من جمادى الأولى سنة ٨٩٤ هـ [٣] الموافق ٨ إبريل ١٤٨٩م .

٣ — عهد الظافر عامر الثانى :

كان المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر قد عهد بالملك من بعده لابنه صلاح الدين عامر . فلما توفى المنصور بويع ابنه عامر سلطانا على البلاد ، ولقب بالسلطان الظافر . فلما تمت بيعته بدأ فى ترتيب أمور دولته ، وأخذ يطوف فى أنحاء بلاده ليتفقد أحوالها ويقر الأوضاع فيها [٤] .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٠ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية ص ١٤٢ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٣ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١٣٧ و ١١٦٨ ، الشبلى : السنا الباهر ص ٢٠٠ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٣ ب — ١٣٤ أ ، بغية المستفيد ص ١٤٩ ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٥ — ٦١٦ .

وكان أبناء الظافر عامر الأول يطمعون فى الاستيـــلاء على السلطنة منذ انتقالها من المجاهد على إلى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود . وكان لاستمرار السلطنة فى أعقاب عبد الوهاب بن داود ممثلة فى الظافر عامر الثانى أعظم الأثر فى قيام كل من عمر ومحمد وعبد الله أبنـــاء الظافر عامر الأول بالثورة على السلطان الجديد ، وقامت جموع أتباعهم وغيرهم من الناقمين بنهب مدينة جبن من بلاد رداع ، واستولوا على حصنهـا ، ولم يتردد الظـافر عامر الثـانى فى التحرك ، فخرج فى جمـادى الأولى سنة ٨٩٤ هـ / ابريل ١٤٨٩ م على رأس حملة ضخمة للقضاء على ثورتهم (١) . فلما علم عبد الله بن عامر بقرب وصوله ، خرج من مدينة جبن فى مجموعة من أتباعه ، وقام السلطان بحصار حصن جبن ما يقرب من شهرين ، إلى أن تم التوصل إلى عقد صلح مع عمر ومحمد إبنى عامر على أن يقطعهما السلطان إقطاعات حددها بالإضافة إلي جامكية سنوية قدرت بأربعين ألف دينار (٢) .

قام السلطان برفع الحصار عن مدينة جبن بعد عقد الصلح وتسوية الخلافات مع أبناء الظافر عامر الأول، ولكنه ما أن رحل عنها لتفقد بعض المناطق حتى بلغه قيام أبناء عامر بن طاهر بنقض الصلح، وخروج محمد بن عامر على رأس حملة للاستيلاء على تعز ، فلقى مقاومة عنيفة من أهلها ، وباءت حملته بالفشل (٣) .

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٦٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٠ ، بامخـرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٥١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٦ .

كما أسرع السلطان لمواجهته ، ووقعت بينه وبين السلطان معركة ضارية في رمضان سنه ٨٩٤ هـ / أغسطس ١٤٨٩ م ، أسفرت عن هزيمة ابن عامر ومقتل خمسمائة وأربعين رجلا من أتباعه ، وغنم السلطان كثيرا من الأموال والعتاد(١).

لم يهنأ السلطان بانتصاره ، إذ سرعان ما انضم عبد الباقي بن محمد بن طاهر إلى الثوار ، وخرج على رأس حملة ثانية إلى عدن في رمضان سنة ٨٩٤ هـ / أغسطس ١٤٨٩م ، ومعه مجموعة من السلالم الخشبيه ليستخدمها رجاله في اقتحام أسوارها (٢) . ولكنه لم يستطع الاقتراب بقواته من الأسوار لشدة مقاومة القائمين بالحراسة عليها . وفي نفس الوقت استشعر محمد بن عبد الملك بن داود والى عدن وابن عم السلطان بالخطر لعدم توفر العدد الكافي من الجند للدفاع عن المدينة ، ولهذا انتهز فرصة وجود السفن التجارية بميناء عدن ، وكانت تضم حراسا مسلحين ، فاستعان بهم ورتبهم للدفاع عن المدينة (٣) ، وقد قبل أصحاب السفن قيام رجالهم بهذه المهمة خوفا من أن تتعرض بضائعهم للنهب في حالة سقوط المدينه في أيدى المهاجمين . فلما أحس والى عدن بنجاحه في الدفاع عن المدينة ، أعد العدة وخرج من عدن لمحاربة عبد الباقي وأتباعه وتمكن من إيقاع الهزيمة به وأسر عدد كبير من أتباعه ، سجن بعضهم وقام بكحل الباقين (٤) ، أما عبد الباقي بن محمد بن طاهر فقد أفلح في النجاة

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٢٠١ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٠ .

(٤) بامخرمه : نفس المصدر والصفحة .

بنفسه (١) .

أما زبيد فقد كان يتولاها الأمير محمد بن عيسى البعدانى ، وكان معظم عساكره بزبيد خليط من أجناد ينتمون إلى المدن التي استولى عليهما عبد الله ابن عامر ، ولذلك فقد كانوا يميلون إلى عبد الله بن عامر تجنبــــا لانتقامه من ذويهم إذا ماساعدوا أعداءه ضده ، ونجح هؤلاء الجند في ضم أحمد بن محمد المعروف بالمقرطس شيخ دار الضرب بزبيد إليهم، وكان الوالى البعدانى متزوجا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيـــون ص ١٣٥ أ ، بغية المستفيد ص ١٥٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٧ . (لم يأمن عبد الباقى على نفسه بعد الهزيمة ، ففر إلى ساحل إفريقية الشرقى في شعبان سنة ٨٩٧ هـ/يونية ١٤٩٢م، فلما علم السلطان الظافر الثانى أرسل إلى المجاهد بن سعد الدين أحد أمراء ممالك الطراز الإسلامى يطلب منه التحفظ عليه وإعادته ، فقام هـذا بالقبض عليه . وحدث أثناء وجوده هناك أن أغار صاحب الحبشة على ابن سعد الدين فاشترك عبد الباقى فى الجهـــاد وقام بدور كبير فى مساندة قوات المسلمين . فأكرمه ابن سعد الدين ولم يتعرض له بسوء ، وسمح له بالعودة إلى اليمن ، فلجأ إلى قبائل يافع واستقر عندهم) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٧٢ ، (وظل مقيما هناك حتى تم اعتقـاله وسجنه فى جمادى الآخـر سنة ٩٠٣ هـ / يناير ١٤٩٨ م) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، الفضل المزيد على بغية المستفيد ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٩٠٨٧ تاريخ ـ ص ٣٣ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٨٧ . (فظل سجينا إلى أن عفـا السلطان عنه سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥ م وأخرجه مع ابراهيم ومحمد ابنى عامر) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٥٥ أ . (عندما اضطربت أحوال البلاد داخليـا وتعرضت للغزوات الجراكسة من ناحية أخرى) .

من أخت المقرطس الذى كان بحكم المصاهرة مقربا من هذا الوالي يدخل عليه وقتما شاء بغير استئذان ، فاستغل المقرطس هذه الصلة وتآمر على قتله (١) تمهيدا للاستيلاء على زبيد لعبد الله بن عامر . ففى الثانى عشر من رمضان سنة ٨٠٤ ه / ٩ أغسطس ١٤٨٩ م دخل المقرطس وبصحبته رجلين من أتباعه على الوالي الذى لم يكن عنده وقتئذ إلا خادمه الذى اعتاد ملازمته ، فلما هم المقرطس بالانقضاض عليه أشار البعدانى إلى خادمه فضرب المقرطس بالسيف ضربة قطع بها عضده ، ونجا الوالي وتمكن من قتل المقرطس وزميليه والقبض على شركائهم (٢) . وعلى إثر ذلك أرسل الوالي إلى السلطان يبلغه بخبر المؤامرة ويطلب إليه إمداده بقوة عسكرية عوضا عن الحامية التى لم يعد يأمن جانبها . وتأمينا للموقف استعان بأهل وصاب فأمدوه بخمسمائة رجل إلى أن وصلته الامدادات من السلطان ، فأنعم على أهـــل وصاب وكافأهم وأعادهم مكرمين إلى بلدهم (٣) .

لم تتوقف المنازعات فى سنة ٨٩٥ه / ٤٩٠ م ، وخاصة بعد أن تمكن أبناء عامر بن طاهر من السيطرة على بعض الحصون والمناطق (٤) ، ودارت بينهم وبين السلطان الظافر الثانى عدة معارك انتصر السلطان فى معظمها (٥). وكان

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٥ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٥٣ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص١٣٨ و ١١٦٩ — ١١٧٠ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ص١٥٤ ، بامخرمة . قلادة النحر جـ٣ ص ١١٧٠ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٦ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٠ — ١١٧١ .

عبد الله بن عامر أكثر إخوته نشاطا فقد نجح فى الاستيلاء على حصن جبن، ولكن السلطان بادر بمحاصرته فى ربيع الأول سنة ٨٩٥ هـ / يناير ١٤٩٠ م، ونشبت بينهما عدة معارك قتل فيها عدد كبير من المتمردين ، غير أن عبد الله ابن عامر تمكن من الفرار بأهله وأمواله إلى رباط قريب من مدينة جبن ، ينشد فيه المنعة والأمان ، ويتخذه مركزا يبث منه الغارات على أطراف معسكر السلطان أثناء قيــامه بحصار مدينة جبن (١) ، فلما تعددت إغاراته لم يجد السلطان بدا من الاغارة على الرباط وانتهاك حرمته ، فاختار من كل قبيلة من القبائل الموالية له جماعة وأمرهم بقتل كل من يجدوه بالرباط دون الاقدام على نهبه . وعلى هذا النحو تمكن من إيقــاع الهزيمة بعبد الله بن عــامر الذى تمكن من النجــاة مرة أخرى . وغنم عسكر السلطــانى كثيرا من الغنائم ، ولــكن السلطان أمرهم برد ما استولوا عليه ، ما عدا ما يتعلق بالثــوار من بنى طاهر (٢) .

وواصــل السلطان حصاره لحصن جبن إلى أن تسلمه فى جمــادى الأولى سنة ٨٩٥هـ / مارس ١٤٩٠ م بعد أن أصدر أمانا لجميــع المحصورين فيه (٣) ، وبر السلطان بوعده معهم فيما عدا والدة يوسف بن عامر ، فقد تحفظ عليهــا

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧١ .

(٢) ابن الديبع: نفس المصدر ص ١٥٦ – ١٥٧ ، بامخرمة نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الديبع : قرة العيــون ص ١٣٩ أ ، يحيى بن الحسين : غــاية الأمانى ص ٦٠٧ .

باعتبارها المحرضة على إشعال نار هذه الفتنة (١).

وعلى الرغم من نجاح السلطان في إحباط الثورة ، إلا أنه واصل مطاردة زعمائها خوفا من تجدد ثورتهم وتمكن في نهاية الأمر من القبض عليهم . ففى شوال سنة ٨٩٦ هـ / أغسطس ١٤٩١ م حاصر محمد بن عامر ، وتمكن في أول ذى الحجة من اعتقاله وإيداعه سجن رداع واستولى على ما كان بيده من الحصون (٢) .

أما عبد الله بن عامر فكان قد أرسل عبداً له إلى تعز في مهمة فانكشف أمره ، ولما قبض عليه في شوال سنة ٩٠٥ هـ / مايو ١٥٠٠ م دل على مخبأ سيده فسهل بذلك عملية اعتقاله . وقيل أنه كان مختبئا بإحدى قرى وادى مكسب — بالقرب من مدينة يفرس من أعمال الحجرية — فتعرف عليه حداد وأبلغ عنه شيخ الناحية الذى تمكن من إعتقاله ، وتوجه به إلى تعز بناء على أمر السلطان ، ولما تأكد السلطان من القبض عليه أرسل له قميصا وعمامة ورداء" أماناً له ، واستقبله لدى وصوله إلى تعز إستقبالا حسنا ، ولكنه لم يلبث أن اعتقله وقيده (٣) وأودعه سجن رداع (٤) فظل سجينا فيه حتى توفى

(١) ابن الديبع قرة العيون ص ١٣٦ أ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٧١ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٩ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد ص ٣٥ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٣ ب، الفضل المزيد ص ٣٥ ب، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٨ .

في شوال سنة ٩٠٧ هـ / (١) إبريل ١٥٠٢ م . وباعتقـــاله انتظم ولاء أبناء الأسرة للسلطان الظافر عامر الثاني (٢) . ولهذا تفرغ للقضـاء على حركة القبائل الخارجة عن الطـاعة ، وتمكنت قواته من فرض السيطرة على البلاد وتوالت وفود القبائل عليه للاعراب له عن الطـــاعة والولاء ، فأجزل لهم السلطان العطاء (٣) .

وهكذا صرف السلطان الظافر عامر الثاني جهوده للتخلص من المنافسين له من أسرته ، كما بذل جهدا كبيرا للقضاء على ثورات القبـائل ، ولم يشغله ذلك على العمل لبسط نفوذه على المناطق التي كان أئمة الزيدية يسيطرون عليهـا ، حتى تحقق له الاستيلاء على صنعاء وعلى كثير من المدن والحصـون الواقعة إلى الشمال منها . ويمكننا القول بأن دولة بني طاهر بلغت في عهـده أقصى اتساع لها .

وكان لظهور الخطر البرتغالي في المحيط الهندي والبحر الأحمر في عهد السلطان الظافر عامر الثاني ، كما كان لموقفه المعـادي من الحملات التي أرسلها السلطان الغوري لمحاربة البرتغاليين أثره في تحول القوات المملوكية عن مهمتها الأساسية، إلى القيام بغزو اليمن والتوغل إلى صنعاء ، ومقتل السلطـان الظافر عامر

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٤٦أ، الفضل المزيد ص٣٧ب ، بامخرمة: نفس المصدر ص ١٨٠ أو ١١٩٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٤ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٣٧ أ .

الثاني في إحدى معاركه ضد المماليك عند صنعاء في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩٢٣ / (١) ١٥ مايو ١٥١٧ م .

٤ - الموقف بعد مقتل السلطان الظافر عامر الثاني -

تدهورت الأحوال في البلاد وازدادت سوءا بعد مقتل السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب فقد نشط أئمة الزيدية لاستكمال السيطرة على بلاد اليمن. كما اضطرت القوات الجركسية إلى الاستقرار في اليمن بعد أن أعلن قائدها الولاء للفاتح العثماني السلطان سليم ، الذي أجهز على دولة الجراكسة ، واستولى على الشام ومصر ، ودخلت الحجاز في طاعته .

أما فيما يتعلق ببني طاهر ، فيجدر القول بأن دولتهم سقطت بمقتل السلطان الظافر عامر بن عبد الوهاب في سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، على الرغم من احتفاظ بعض أمراء الأسرة ببعض المناطق وأهمها عدن . ومن العجب أن يستمر التنافس والصراع بين بقايا بني طاهر رغم كل تلك المخاطر التي كانت تستوجب تكتل جهودهم ووحدة صفوفهم لإحياء دولتهم . وعلى الرغم من وفاة السلطان الظافر في ربيع الآخر سنة ٩٢٣هـ ، فقد استمرت الخطبة في عدن باسمه إلى الجمعة الأولى من عام ٩٢٤ هـ . وكان أحمد ابن السلطان القتيل هو القائم بالأمر والنهي في مدينة المقرانة ببلاد رداع . كما كان مرجان بن عبد الله الظافري يقوم بتنفيذ أوامره ، ولكنه لم يبدأ في إعلان الخطبة له في عدن إلا إبتداء

(١) العيدروسي : النور السافر ص١١٨ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ١١٩ و ٢٠٤ ، الكبسي : اللطائف السنية ص٢٣٩ . (لمزيد من التفصيلات انظر ، الفصل الخامس) .

من الجمعة الثانية من سنة ٩٢٤هـ/ يناير ١٥١٨م، ولم يقدر لهذه الخطبة أن تستمر له أكثر من جمعتين لوفاته (١)

وهكذا أصابت الكوارث دولة بني طاهر وعصفت بهم النوائب والنكبات. ولكن من بقي منهم لم يعتبر بكل هذا، ولم يسع إلى تضافر الجهود لاستعادة أركان تلك الدولة المنهارة، وإنما انساقوا وراء أطماع الملك، فجرفهم تيار التنافس. فلما توفي أحمد بن الظافر عامر الثاني في أوائل سنة ٩٢٤هـ، اتفق أهل الحل والعقد في مدينة المقرانة على مبايعة عامر بن عبد الملك بن داود. وخطب له في عدن بأمر واليها مرجان الظافري، كما خطب له أيضا في البلاد التي ظلت تحت سيطرة بني طاهر كالمقرانة ورداع ولب وذي جبلة (٢). ولكن لم يمض وقت طويل حتى خرج أحمد بن محمد بن عامر بن طاهر عن طاعته واستقل بحكم مدينة رداع، فسير إليه عامر بن عبد الملك قوة أوقعت به الهزيمة، فتحصن بقلعة المدينة، وقام جند عامر بنهب المدينة وتخريب مزروعاتها، فاضطر أحمد بن محمد بن عامر إلى طلب الدخول في طاعة عامر بن عبد الملك وعقد صلح معه، وأقام في المقرانة إلى أن توفي عامر بن عبد الملك مسموما في آخر رمضان ٩٢٥هـ(٣)/ سبتمبر ١٥١٩م.

وعلى الرغم من اتفاق أهل الحل والعقد في مدينة المقرانة على تولية أحمد ابن محمد بن عامر بن طاهر السلطنة من بعده، إلا أنه لم يحظ بتأييد الأمير

---

(١) بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ١٢٠٧.

(٢) بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ٢٠٧.

(٣) بامخرمة: نفس المصدر ص ١٢٠٨.

مرجان الظافرى والى عدن الذى : « لم تطلب نفسه بمبايعته » ، ولكنه « لم يمكنه فى الظاهر إلا موافقة الجماعة »[1]. وكان مرجان يخشى أن ينتزع بنو طاهر عدن منه ، ولهذا حرص على عدم تمكينهم منها ، وتحايل على إختلاق المشاكل وشغلهم بحلها وتوريطهم فى حروب تصرفهم عن قصد عدن ، فأرسل مرجان إلى أحمد بن محمد بن عامر يغريه بمحاربة القوات المملوكية الموجودة فى مدينة تعز . ولإخفاء نواياه قام بإمداده ببعض القوات تعزيزا له ، فلما التحمت قوات أحمد بن محمد بن عامر فى معركة مع المماليك حول تعز ، وكاد أن يحرز النصر عليهم ، انسحبت الفرقة التى أرسلها مرجان من ميدان المعركة وخذلت أحمد بن محمد بن عامر وتركته فى قله من أتباعه ، ما أدى إلى هزيمته ، ولم يتمكن من الفرار إلا بعد عناء[2] . ولم يكتف مرجان الظافرى بذلك ، وإنما أخذ يبث الأموال بين القبائل التى كانت تؤيد أحمد بن محمد بن عامر حتى تخلت عنه[3] .

واستمر مرجان الظافرى يعمل على تقويض البقية الباقية من بنى طاهر كما سعى إلى إشعال التنافس بينهم من جديد ، فأظهر ميله إلى أحدهم وهو عبد الملك بن محمد بن عبد الملك ، واجتمع به خارج عدن سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م وبايعه ، ووعده بالسماح له بدخول عدن بعد القيام بمحاربة أحمد بن محمد ابن عامر والتخلص منه[4] . وهكذا يتضح لنا أن السيطرة على عدن كانت

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر السابق ص ١٢٠٩ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر ص ١٢١٠ .

فى حد ذاتها الفيصل لإثبات المقدرة على استحقاق السلطنة ، بحيث أصبحت القبائل لا تنقاد لأحد من بنى طاهر إلا إذا كان مسيطرا على تلك المدينة متصرفا فى أمورها ، يدخلها متى شاء دون أن يعترضه واليها . ومن الجدير بالذكر أن الرسوم المتحصلة على التجارة فى عدن لم تعد تكفى لمجرد مواجهة الأعباء الخاصة بها والدفاع عنها فبعد أن كان السلطان يعتمد على جزء من مواردها ، لجأ الوالى مرجان الظافرى إلى الاستيلاء على مغل لحج ليستعين به فى مواجهة متطلباته (١) واتسمت تصرفاته بالتحكم المطلق فى عدن وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها ، ولهذا كان يخشى دخول أحد أفراد البيت الطاهرى إليها خوفا على مركزه . وقد حاول عبد الملك بن محمد بن عبد الملك دخول المدينة ، ولكن مرجان كان يسوف ويماطل ، ولم ييأس عبد الملك ، فما زال يكاتبه ليأذن له فى الدخول إليها والمقام فيها ولو لأيام يتمكن خلالها من التجهيز لمقاتلة غريمه أحمد بن محمد بن عامر ، وأخير اسمح له مرجان بدخولها فى ربيع الأول سنة ٩٢٧ هـ/ فبراير ١٥٢١ م ، وتظاهر مرجان بالاحتفال بمقدمه ولكنه كان يترصده ويحصي عليه حركاته ، ويبث حوله العيون ، فكان لا يدخل إليه أحد من الناس إلا وعلم به مرجان (٢) . وكان عبد الملك يعلم بهذا الحصار الذى فرضه عليه مرجان ، ورغم ذلك كان عبد الملك يمهد لضم العسكر إلى صفه ، وأسفرت جهوده عن استمالة قبائل يافع إلى طاعته . فلما فطن مرجان إلى ذلك أخذ يطالب عبد الملك بالخروج من عدن للتخلص من أحمد بن محمد ابن عامر ، ولكن عبد الملك كان يعتذر بقلة ما لديه من المال للنفقة ، واستكمال تجهيز العدد اللازم من الجند لمحاربة منافسه ، وكان عبد الملك يرمى من وراء

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١٢١٠ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

ذلك أن يمده مرجان بالعسكر الذى يستطيع استخدامه فى محاربة مرجان نفسه وانتزاع عدن منه .

وندم مرجان الظافرى على سماحه بدخول عبد الملك إلى عدن ، وأدرك أنه تورط فى هذا الأمر ، وأحس بنواياه العدوانية ، وعندئذ أخذ يدبر اغتياله أثناء قيامه بالصلاة بالمسجد ، ولكن عبد الملك اكتشف المؤامرة ولم يتوجه للصلاة ، وأصبح محتما عليه مواجهة مرجان ومحاربته تمهيداً للسيطرة على عـــدن (١).

وتتوقف المصادر عن متابعة الأحـداث الداخلية بعدن التى انحصر فيها بقايا بنى طاهر . وأيا ما كان الأمر فقد استطاع عبد الملك الاستيلاء على عدن بعد وفاة مرجان سنة ٩٢٧(٢) هـ / ١٥٢١ م ، ثم أعقبه عليها عامر بن داود آخر بنى طاهر فيها (٣) ، وهو الذى انتهز فرصـة مرور سليمان باشـا العثمانى سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م فى طريقه إلى الهند لمحاربة البرتغاليين وأعلن ترحيبـه به ، وفتح له أبواب عدن ، ولكن سليمان أمر بشنقه (٤) ، واستولى منه على عدن غدرا . فكان ذلك سببا فى نفور أهل الهند منه ، وامتناعهم عن معاونته ضـد القوى البرتغالية (٥) .

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص ١٢١١ .

(٢) العيدروسى : النور السافر ص ١٣٢ .

(٣) العيدروسى : نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٨٤ .

(٥) النهروالى : البرق اليمانى فى الفتـــح العثمانى — الرياض ١٩٦٧ ص ٨٠ – ٨١ .

رابعا ـ الفتن والثورات الداخلية فى عهد بنى طاهر :

لم تقتصر المصاعب التى واجهت سلاطين بنى طـاهر على الصراعات التى نشبت بينهم وبين الطامعين من أمراء أسرتهم فى السلطنة ، وإنمـــا تعرض حكمهم لكثير من حركات العصيان واحتدمت الثورات فى مناطق متعددة من بلاد اليمن ، ففى الجنوب ثارت قبائل يافع ، وفى تهامة رفعت قبـائل القرشية والمعازبة وبنى حفيص لواء العصيان ، وتسببت فى الاضطرابات التى شـغلت الطاهريين لفترة طويلة من الزمن ، وفى منطقة الجبـــال تكررت ثورات الحبيشي ، كما اشتد الصراع بين بنى طاهر والإمامة الزيدية .

ولما كانت معظم تلك الثورات قد استمرت طوال حكم هـذه الدولة ، لذلك كان من الأفضل إعداد دراسة موضوعية لها لبيان المراحل المتكامـلة لكل منهـا .

١ ـ موقف قبائل يافع من بنى طاهر :

كانت غالبية قبيلتى آل أحمد وآل كلد اليافعيتين تنزل فى عدن، وقد بلغ التنافس والتنازع فيما بينها أقصاه فى أواخر عهـد دولة بنى رسول ، فأدى ذلك إلى انعدام الأمن وشيوع الفتنة والاضطراب فى عدن ، وتعرض بيوت التجار والأغراب فيها للسلب والنهب ، ولم يسلم من ذلك إلا من دخل فى حماية إحدى القبيلتين نظير ما تقرره عليه من مال . فكان شيخ القبيلة التى ينتصرون بهـا ، يبعث نفرا من أتباعه، يرابطون على سطح الدار ويرشقون بالحجارة من يحاول الاقتراب منها ، ويرغمونه على الفرار . وكان آل كلد يسيطرون على المدينة من داخلها وينتشرون فى أحيائها ، فى حين كانت سيطرة آل أحمد على حصون المدينة وأسوارها . فلما تفوق آل كلد عليهم وغلبوهم على أمرهم ، استغلوا

الحصار الذى فرضه الطاهريون على عدن سنة ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤ م ، وعمدوا إلى الاتصال بهم ، وعرضوا عليهم تقديم ضروب العون والمساعدة تسهيلا لمهمة الاستيلاء على عدن [١] ، لقاء التعهد برفع منزلتهم وطرد آل كلد من عدن بعد استيلاء بنى طاهر على المدينة .

وتنفيذا لهذا الاتفاق انطلق المجاهد على بن طاهر مع زعماء آل أحمد فأدخلوه عدن مع جمع من عسكره من سور الجبل ليلة الثالث والعشرين من رجب سنة ٨٥٨ هـ / ١٩ يولية ١٤٥٤ م ، وما أن تم لبنى طاهر ذلك حتى دقوا الطبول ليلا ، ورددوا صيحتهم « بالنصر للمشايخ بنى طاهر » . فلما سمع آل كلد ذلك أيقنوا بالهلاك ، وتركوا بيوتهم وقضوا الليل خارجها حائرين ، فلما أدركهم الصباح وفتحت أبواب عدن ، دخل الظافر عامر بن طاهر مع باقى عسكره ، وأعلن الأمان لأهلها ، باستثناء آل كلد فقد أمهلهم ثلاثة أيام الرحيل من عدن ، تحل له بعدها دماءهم . فتفرق آل كلد شذر مذر ، منهم من خرج إلى زيلع وإلى بربرة وإلى سائر بر العجم وخرج غالبهم إلى الشحر [٢] ، عسى أن تواتيهم الفرصة لينتقموا لأنفسهم من بنى طاهر .

وفى الشحر التف من وصلها من آل كلد حول صاحبها أبا دجانة محمد بن سعيد بن فارس الكندى ودخلوا فى خدمته ، واكتسبوا ثقته ، ثم أخذوا يغرونه بغزو عدن ، ويذللون له مهمة الاستيلاء عليها ، مستغلين فى ذلك

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٥ .

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٦ .

درايتهم بعورات المدينة التي يمكن عن طريقها اقتحامها في يسر وسهولة دون أن يصادفوا مقاومة من ناحية تلك المنافذ . وما زالوا به يهونون عليه أمر فتحها ويدفعونه إلى ذلك . فلما اقتنع برأيهم وعزم على توجيه حملته ، انضم آل كلد إليها ، غير أن أخبار تلك الحملة تسربت إلى عدن ، وانتهت بالفشل ووقوع أبو دجانة وعدد من أتباعه في أسر السلطان الظافر عامر الأول [١]، من بينهم أحد زعماء آل كلد اليافعيين المحرضين لصاحب الشحر على غزو عدن ، فتسلمه أعداؤه آل أحمد وقتلوه [٢] .

ومما لاشك فيه أن نجاح بني طاهر في طرد آل كلد اليافعيين من عدن وتشريدهم لهم من جهة ، ثم فشل محاولة هؤلاء باتفاق مع صاحب الشحر في توجيه ضربة لبني طاهر بالاستيلاء على عدن من جهة ثانية ، كان لذلك أعظم الأثر في إضعاف آل كلد واستكانتهم لفترة طويلة ، إلى أن أتيحت لهم الفرصة للانتقام . فقد تولى الظافر عامر الثاني السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٩ م ، فقوبلت سلطنته بمعارضة شديدة من أبناء الظافر عامر الأول بن طاهر . وكان لتلك المعارضة أثرها القوي في إثارة القوى المعادية لبني طاهر ، وكان من الطبيعي أن ينضم بنو يافع إلى المعارضين للسلطان الظافر عامر الثاني ، تأييداً لعبد الله بن عامر

---

(١) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ، محمد بن هاشم العلوي : تاريخ الدولة الكثيرية ص ٢٩ ، حمزة علي ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص ١١١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢ .

ابن طاهر . فكتب الظافر الثاني إلى واليه في عدن يأمره بطرد من بقي في عدن من يافع انتقاما منهم على نصرتهم لأعدائه ، فطرد والى عدن حوالى خمسمائة منهم [١] . وواصل السلطان سياسته الانتقامية منهم ، ولم يتردد في مهاجمتهم وانتزاع ما بأيديهم من حصون . ثم دارت معركة كبيرة بين الجانبين في ربيع الأول سنة ٨٩٨ هـ / يناير ١٤٩٣ م انتصرت فيها قوات السلطان وقتلت من يافع أكثر من مائة وأسرت مثل ذلك العدد واستولت على عدد من حصونهم [٢].

وترتب على تجدد عصيان يافع ، ومناهضتهم للسلطان ونصرتهم للطامعين في السلطنة من آل طاهر [٣]، أن عاود الظافر عامر الثاني الاغارة عليهم. ودارت بينهم معركة كبيرة في جمادى الآخرة سنة ٩٠٣ هـ / يناير ١٤٩٨ م انهزمت فيها يافع هزيمة نكراء [٤] واستولى السلطان الظافر عامر على بلادهم وحصونهم دون كبير عناء . ولم يكن منهم أمر متعب بعد ذلك مع كثرتهم واتساع بلادهم ودعاويهم العريضة . وكان استفتاح بلدهم من أسهل الفتوح فدخلوا عليه وأذم عليهم ، فتابوا من الخلاف توبة نصوحا ، وسار منهم جماعة تحت ركابه ، [٥] ، أما عبد الباقي بن محمد بن طاهر الذى كان لاجئا عندهم ، فقد

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٨ ب ، بغية المستفيد ص ١٦٤ — ١٦٥ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٢٠ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٧٢ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٢ ب — ٣٣ أ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٨٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٢٤ .

أمكن اعتقاله وأمر السلطان بسجنه (١) فظل سجينا حتى عفا عنه سنة ٩٢١هـ/(٢)
١٥١٥ م .

٢ ـ ثورات قبائل القرشية :ـ

استقرت قبائل القرشية (٣) فى منطقة تهامة شمالى مدينة زبيد ، وكان القرشيون وجيرانهم المعازبة من أكثر قبائل اليمن ميلا إلى الثورة وجنوحا إلى الاضطراب منذ أيام بنى رسول ، كما كانوا من العوامل الرئيسية فى سقوط دولة بنى رسول ، فلما استولى بنو طاهر على ملك اليمن ، عملوا على مهادنة تلك القبائل ، واجتهدوا فى استرضائها . ولهـــذا السبب لم يتردد القرشيون فى الدخول فى طاعة بنى طاهر والتعاون معهم فى بداية دولتهم ، وليس أدل على ذلك من انضمامهم إليهم واشتراكهم معهم فى حملتهم التى استهدفت الاستيلاء على مدينة زبيد من بقايا بنى رسول سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥م . وكان من الطبيعى أن يقتحم القرشيون معهم المدينة ويقوموا بأعمال السلب والنهب فيها ، وقد روى أن السلطان المجاهد على بن طاهر كان قد أذن لهم بنهب المدينة لقاء نصرتهم له ، غير أنهم ما كادوا يشرعون فى انتهابها حتى تجمع أهل زبيد وتصدوا

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ أ ، الفضل المزيد ص ٣٣ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة . (وكان عبد الباقى بن محمد طاهر قد فر إلى ساحل إفريقية الشرقى خوفا من السلطان ، فلما عاد إلى اليمن لجأ إلى يافع واستقر عندهم) انظر ماسبق ص ٢٧٦ هامش ١ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ .

(٣) إليهم تنسب قرية القرشية على بعد فرسخ من مدينة زبيد (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ٢ ص ٢٣٨) .

لهم وتغلبوا عليهم ، وقتلوا عـددا منهم ، وطاردوا الباقين وأرغموهم على الفرار من المدينة (١) . وأعقب تلك الهزيمة التى منى القرشيون بهـا ، وفاة شيخهم الصديق بن محمد غراب فى نهاية عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م ، وتسببت وفاته فى إضعاف شوكتهم (٢) .

ولم يكن بنو طاهر غافلين عن حـركات القرشيين وثوراتهم ، فأخـذوا يحصون عليهم حركاتهم تمهيداً للقضاء عليهم . ويبدو أنه ظهر للسلطان المجاهد على منهم ما أغضبه ، لذلك قر عزمه على أن يمنع عنهم النفقة التى كان قد قررها لهم ، وأقدم فى سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨ م على اعتقال جماعة من زعمائهم ، فقيـدهم وحبسهم فى مدينة المقرانة (٣) . والظاهر أن ذلك الإجـراء لم يكن كافيا لإجبارهم على الطاعة ، أو أنه أثار ثائرتهم ، بدليل قيـام السلطان المجـاهد فى العام التالى بالقبض على جماعة أخرى منهم فى مدينة زبيد ، ومصادرتهم بعشرين ألف دينار (٤) .

وما زال بنو طاهر يتشددون مع القرشيين ويترصـدون حـركاتهم ، ...

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٧ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٨ ، بامخرمة : قـلادة النحر جـ ٣ ، ص ١١١٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢١ب ، بغية المستفيد ص٩٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٦ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

وتمكنوا ـ لفترة طويلة ـ من كبح جماحهم ، حتى كانت سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م عندما تحالفوا مع قبائل المعازبة وشقوا عصا الطـاعة على السلطان المجـاهد ، وشنوا الغارات على قرى وادى زبيد ، الأمر الذى أطمع غيرهم من القبائل فى التدبير للاستيلاء على مدينة زبيد . ولكن أهل المدينة استبسلوا فى الدفاع عنها حتى وافتهم إمدادات السلطان من عدن وقضت على حركات تلك القبائل (١) .

ومع ذلك فإن عزيمة القرشيين وروحهم القتالية لم تفتر ، وأخذوا يتحينون الفرص للثورة ، ولم تلبث محاولاتهم أن تجددت فى صفر سنة ٨٧٨ هـ / يوليو ١٤٧٣ م ، ولكن والى زبيد استطاع القضاء على تمردهم واعتقل عـددا منهم أرسلهم إلى السلطان فى تعـز (٢) ، كما قام يوسف بن عامر ابن أخي السلطان المجاهد على بالقضاء على محاولة أخـرى للتمرد حدثت فى ربيـع الأول سنة ٨٨٢ هـ / يونية ١٤٧٧ م ، وأمر بقتل أحد زعمائهم لما نسب إليه من تحريض لهم على التمرد (٣) . وهكذا ضعف أمرهم واستنفذت قواهم ووهنت عزائمهم ولم يعودوا يشكلون أى خطر على بنى طاهر .

٣ ـ ثورات قبائل المعازبة : ـ

المعازبة من قبائل تهامة ، وتقع منازلهم إلى الشمال من زبيد ، وكانوا مثل جيرانهم القرشيين مصدر متاعب كثيرة لحكام اليمن منذ أيام بنى رسول . فلما قامت دولة بنى طاهر حاول سلاطينهم اجتذاب المعازبة وكسب قلوبهم وحملهم

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٤ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بغية المستفيد ص ١١٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٧ ب ، بغية المستفيد ص ١٢٢ .

على الطاعة ، فأرسل إليهم السلطان المجاهد على يدعوهم إلى التعاون معه والكف عن أعمال السلب والنهب، فلما لم يستجيبوا له توجه في شهر المحرم سنة ٨٦٠هـ/ ديسمبر ١٤٥٥ لمحاربتهم [١] . وكان قد أرسل في الوقت ذاته الشيخ يحيى ابن عمر الثابتي صاحب الحديدة إلى ناحية مدينة بيت الفقيه بالقرب من موطن المعازبة، وأمده بكثير من الأموال لاستخدام عرب المنطقة وضمان ولائهم [٢].
فلما توجه السلطان المجاهد على لمحاربة المعازبة انضم إليه صاحب الحديدة بمن تجمع معه، كما شاركه القرشيون في تلك الحملة. وكانت قبائل المعازبة من القوة بحيث استطاعت الصمود وكادت تحقق النصر لولا ثبات السلطان في ساحة المعركة إلى أن تحقق النصر له وأنزل بالمعازبة هزيمة نكراء [٣] .

أسكتت هزيمة المعازبة هذه ثائرتهم لمدة عام ، ولكن جموعهم لم تلبث أن عاودت الإغارة على مدينة فشال [٤] الواقعة شمالي زبيد، واشتبكت مع حاميتها في المحرم ٨٦١ هـ / ديسمبر ١٤٥٦م ، وقتلت عددا من أفرادها واستولت...

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص٩٧ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٤ — ٩٥ ، بامخرمه : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٦ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٠ ب ، بغية المستفيد ص ٩٧ .

(٤) تقع فشال على وادى رمع بين زبيد وبيت الفقيه، وهي على خط عرض ٢٥ َ ر١٤ ْ شمالا ، وخط طول ٢٥ َ ر٤٣ ْ شرقا . (EL- Khazrejiyy : op. cit Vol. 3, p. 73, Note, 424.)
وهي المدينة المعروفة الآن بالحسينية (زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٥١).

على بعض الخيول (١)، فأسرع المجاهد على الانتقام ،فلما وقع القتال وكادت الهزيمة تلحق بالمعازبة ، بادروا إلى طلب الصلح والدخول فى طاعة السلطان وقدموا له ستين رأسا من الخيل (٢) .

وتظاهر المعازبة بالطاعة بحكم ضعفهم ، إلى أن استعادوا قوتهم ، ولكن والى زبيد لم يمهلهم ، وأغارت قواته على بلادهم فى جمادى الأخرى سنة ٨٦٣هـ/ مايو ١٤٥٩ م واستولت على مواشيهم (٣) . فاضطروا إلى التظاهر من جديد بالطاعة والولاء وقدموا للسلطان عددا من الخيول سنة ٨٦٥ هـ(٤) / ١٤٦١ م .

ومع ذلك لم تخمد ثورات المعازبة ، ولم تفتر حركاتهم ، ففى ذى القعدة سنة ٨٦٨ هـ / يوليه ١٤٦٤م عادوا مرة أخرى إلى السلب والنهب وأغاروا على قرية التحيتا (٥) ، وقتلوا عددا من اهلها (٦) . ولم يمكنوا بعض أتباع السلطان من مزاولة عملهم فى بلادهم ، وتصدوا لهم وقتلوا جماعة منهم فى ربيع

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ أ ، بغية المستفيد ص ٩٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغية المستفيدص ٩٩ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٨٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٠ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ .

(٥) التحيتا إحدى قرى زبيد ، وتقع إلى الغرب منها على خط عرض ١٤ر١٢ ْ شمالا ، وخط طول ٤٣ر١٢ ْ شرقا .

(EL – Khazrejiyy : op. cit, p. 2.6, Note, 1585.) .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٦ .

الأول سنة ٨٦٩هـ/ نوفمبر ١٩٦٤م . فبادر السلطان بغزو بلادهم والانتقام منهم وتمكن جيشه من قتل عدد كبير منهم ، كما وقع بعضهم في الأسر (١) وتمكن والي زبيد من القبض على شيخهم محمد بن يوسف وعاد به مقيدا إلى زبيد في جمادى الأولى سنة ٨٦٩هـ(٢)/ يناير ١٤٦٥م ، غير أن بعض المقربين للسلطان تشفعوا فيه عند السلطان المجاهد على حتى أطلقه (٣) . وقد استهدف السلطان من وراء ذلك امتصاص نقمة المعازبة ، ووضع حد لثوراتهم، ولكن حسن النية التي أبداها السلطان نحوهم لم تغير من الأمر شيئا ، إذ لم يلبثوا أن أغاروا في آخر ذي الحجة سنة ٨٦٩ هـ/ أغسطس ١٤٦٥م على قرية الشبارق الواقعة إلى الشرق من زبيد وأعملوا السلب والنهب فيها ، ولم تهدأ ثائرتهم حتى خرج والي زبيد على رأس حملة في ربيع الأول سنة ٨٧٠ هـ/ أكتوبر ١٤٦٦م للقضاء على تجمعاتهم ، وأسفرت الحملة عن قتل عدد كبير منهم والاستيلاء على الكثير من أموالهم ومواشيهم (٤) .

كان لمقتل السلطان الظافر عامر الأول بن طاهر أثناء حصاره لصنعاء سنة ٨٧٠/ ١٤٦٦ م أعظم الأثر في ازدياد مطامع المعازبة وغيرهم من القبائل اليمنية ، وعلى الأخص قبائل تهامة ، مما ألقى عبئا كبيرا على عاتق والي زبيد الذي تصدى لمقاومة حركات المعازبه وغيرهم ، وصمد أمامهم إلى أن جاءه

---

(١) ابن الديبع: نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الديبع: نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٧ ، بامخرمة ، قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

السلطان المجاهد على فى ربيع الأول ٨٧١هـ/أكتوبر١٤٦٦م فى قوة من العسكر اشتبكت مع المعازبة بالقرب من مدينه بيت الفقيه شمالى زبيد وانتصر عليهم ، وتابع فلولهم قتلا وأسرا ، وغنم منهم الكثير ، واستمر يطاردهم حتى أذعنوا للطاعة وسلموا له اثنين وخمسين فرسا [١].

وأخذ السلطان المجاهد يترصد حركات المعازبة ويسعى لإخمادها أولا بأول ، فقام فى أوائل سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م بشن الإغارات عليهم وقتل عدد منهم [٢]. وفى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م شدد السلطان هجماته على المعازبه ، وأغار عليهم ثلاث مرات وقضى على عدد كبير منهم ، ونهب بلادهم نهبا شنيعا [٣]، وسقط فى مقدمة القتلى شيخ المعازبة الشيخ عبد الله بن حسن العنبرى ، وترتب على مصرعه عودتهم إلى الطاعة وتسليم عدد من الخيول دليلا على الولاء والطاعة [٤]. ولكن هذه الطاعة كانت قصيرة الأمد ، فلم يلبث المعازبة أن باغتوا بعض رجال السلطان الذين ظلوا فى بلادهم لمباشرة بعض الأعمال فيها ، وغدروا بهم فى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ، فأثار ذلك غضب السلطان الذى سير إليهم حملة تأديبية تمكنت من إيقاع الهزيمة بهم وقتل عدد كبير منهم ، فأضطروا للعودة

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بغية المستفيد ص ١٠٨ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٠٣ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢٥ أ -ب ، بغية المستفيد ص ١١٢ ، ١١٣ ، بامخرمة ، قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٣ .

إلى الطاعة (١) .

وفى شوال سنة ٨٧٩هـ/فبراير ١٤٧٥م قام والى زبيد بالاغارة على المعازبة ، وقتل أعدادا منهم ، كما قام بنهب بيوتهم واستولى على مواشيهم (٢) . وكان سلاطين بنى طاهر يعتمدون على والى زبيد لإقرار الأوضاع بمنطقة تهامة ، ومحاربة القبائل الثائرة بها . ففى سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٩م قاد والى زبيد حملة للقضاء على عصيان المعازبة (٣) ، ثم أتبعها السلطان بحملة أخرى فى شعبان ٨٩٥هـ/يونيه ١٤٩٠م أحكمت الحصار عليهم ، وأرغمتهم على بذل الطاعة وتسليم تسعين فرسا . ولكن لم تكد قوات السلطان تقفل عائدة حتى عاودوا عصيانهم ففاجأتهم تلك القوات مرة ثالثة ، وقتلت منهم أكثر من أربعين رجلا (٤) بالإضافة إلى ضحايا المعركتين السابقتين . لم تفت تلك الهزائم فى عضد المعازبة ، فعلى الرغم من ذلك كله تواصل تلك القبائل ثورتها وانشقاقها ، الأمر الذى دعا السلطان إلى الخروج بنفسه على رأس حملة سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م لاستنزالهم (٥) .

---

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ، بغية المستفيد ص ١١٥ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٥ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢٧ أ ، بغية المستفيد ص ١١٨ - ١١٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣٢ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيد ص ١٥٣ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٦ ب ، بغية المستفيد ص ١٥٨ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧١ .

(٨) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ .

فدمر بلادهم وسحق قوتهم وأباد عددا كبيرا منهم وانتقم منهم شر انتقام (١).
ولم يكتف بذلك بل عهد إلى والى زبيد بمواصلة الغارات عليهم، فتوجه الوالى
فى شعبان سنة ٨٩٦هـ / يونية ١٤٩١م لمحاربتهم ، فتصدت له قواتهم ، وكاد
الوالى أن ينتصر عليهم وتمكن من قتل نحو ستين من رجالهم، إلا أنهم تمكنوا
من إعادة تنظيم صفوفهم وحملوا عليه حملة قوية وتمكنوا من تطويقه وقتله (٢).
فلما علم السلطان الظافر عامر الثانى بذلك، خرج فى سنة ٨٩٧هـ / ٩٢ . ١٤م على
رأس حملة وأحكم عليهم الحصار وأرغمهم على الاذعان له بالطاعة ، فقدموا
للسلطان أربعين فرسا إثباتا لولائهم له (٣) .

ولقد تميزت قبائل المعازبة بالعناد والتمرد المستمر ، فلم يتمكن بنو طاهر
رغم حملاتهم المتعددة على مواقعهم من إخماد ثوراتهم . فـلم يمض عامان على
استنزال السلطان لهم حتى عاودوا العصيان ، واضطر السلطان الظافر عامر
الثانى إلى القيام بحملة على بلادهم سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م ، فأباد منهم جمعا ،
ونهب أموالهم ومواشيهم ، (٤) . وتكررت الاغارات عليهم خلال تلك
السنة (٥) لعدم وفائهم بما التزموا به للسلطان .

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٨ .
(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٧ أ - ب ، بغية المستفيد ص ١٦٠ ،
بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .
(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٨ أ ، بغية المستفيد ص ١٦٣ ، يحيى
ابن الحسين . غاية الأمانى ص ٦٦٩ .
(٤) بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٧٢ وراجع ابن الديبع : بغية المستفيد
ص ١٦٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٨ .
(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٧٢ .

وفى شعبان ٩٠٣ هـ / مارس ١٤٩٨ م تابع السلطان حملاته على بلاد المعازبة فتمكنت قواته من قتل وأسر عدد كبير منهم (١) . وأدت تلك الحملات إلى الحد من ثوراتهم وإنهاك قواهم . وبالتدريج خفت حدة تلك الثورات التى اعتادوا القيام بها ، ولم تعد تحدث إلا على فترات متباعدة . ففى شعبان ٩٠٨ هـ / فبراير ١٥٠٣ م عاد المعازبة إلى الخلاف وقاموا بأعمال السلب والنهب فى المناطق المجاورة لهم . ولكن سرعان ماهدأت حركتهم قبل وصول عسكر السلطان إليهم ، وقاموا برد ما استولوا عليه ، فعفا السلطان عنهم (٢) . ولكنهم شقوا عصا الطاعة من جديد بعد عام واحد ، وتعرضوا للقوافل المارة ببلادهم وقطعوا الطريق عليها ، فتوجه والى زبيد على رأس حملة لإقرار الأمن فى منطقتهم ، فلما علموا بالحملة تركوا قراهم ولاذوا بالأودية والشعاب ، فانتهبت القوات ديارهم ودوابهم وألقى القبض على بعضهم ، فأسرعوا إلى طلب الصلح وتقديم الرهائن (٣) . ومنذ ذلك الحين خمدت ثوراتهم ولم يصدر عنهم مايعكر الصفو ، إذا ما استثنينا محاولتين قاموا بهما فى عامى ٩١٧ ، ٩١٩ هـ (٤) (١٥١١ و ١٥١٣ م) لم تسفر أى منها عن شىء .

٤ - ثورات بنى حفيص الزيديين :

ليس المقصود بالزيديين هنا اتباع المذهب الزيدى ، وانما نعنى بهم القبائل التى كانت تنزل فى تهامة تجاه جزيرة كمران ، حيث تقع مدينة الزيدية - المسماه

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد ص ٣٣ أ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٨ ب .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٩ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٠ أ ، ١٥١ ب .

بالشمم ـ وما حولها . ويعتبر بنو حفيص من رؤسائهم ، وهم من أتبـاع المذهب السنى ، ولا يمتون للمذهب الزيدى بصلة .

لم يكن لبنى حفيص الزيديين ذكر فيما أثير من شغب وتمرد أيام بنى رسول وماقبلهم . ويبدو أنهم ظلوا مسالمين طائعين لبنى طاهر الذين خلفوا بنى رسول فى السلطنة . ففى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وفد جماعة منهم يتقدمهم بعض مشايخهم ، منهم أحمد بن أبى الغيث بن حفيص ومحمد بن القاسم ، على بلاط السلطان الظاهرى المجاهد علي ، فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم [1] .

واستمر بنو حفيص الزيديين على ولائهم لبنى طاهر فترة طويلة . ولم تمدنا المصادر بأسباب تحولهم إلى العصيان ، ونعتقد أن الدافع الأساسى الذى دعاهم إلى هذا التحول إنما يرجع إلى تأثرهم بحركات العصيان والتمرد التى اشتهر بها جيرانهم القرشيون والمعازبة . ففى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م توجه والى زبيد على رأس حملة لمحاربة بنى حفيص ، وهاجمهم فى الثامن عشر من رجب (٢١ يناير) وقتل زعيمهم أبا الغيث [2] بن محمد بن حفيص فى جماعة من أهله وأتباعه يزيدون على الثلاثمائة [3] واستولى على بعض قراهم وترك فيها حامية ترابط فيها [4] . ولكن ماأن غادر والى زبيد بلادهم متوجها الى مقره ،

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ ، بغية المستفيد ص ١٠٣ .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٢ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٥ أ ، بغية المستفيد ص ١١٠ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٤ .

(٤) بامخرمه : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٠ .

حتى تمكن أحمد بن أبي الغيث من الاستنجاد ببعض القبائل المجاورة ، وبادر بمهاجمة الحامية في رمضان من نفس العام ، وقام بقتل عدد كبير منهم ، وأرغم الباقون على الفرار ، واستعاد بنو حفيص الزيديين مافقدوه من بلادهم (١) . فلما علم السلطان بذلك أسرع في إرسال حملة في المحرم سنة ٨٧٥ هـ / يولية ١٤٧٠ م بقيادة ابن أخيه عبد الوهاب بن داود وبصحبته الشريف علي بن سفيان والي زبيد للانتقام من بني حفيص ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة لقي فيها الشريف علي بن سفيان مصرعه . وقاوم بنو حفيص ولكنهم انهزموا في النهاية وقتل منهم عدد كبير فأذعنوا للطاعة (٢) .

والظاهر أن السلطان المجاهد علي بن طاهر رأى اصطناعهم ، فعندما توجه أحد رؤسائهم وهو عز الدين بن حفيص بعد المعركة إلى زبيد ومثل بين يدي السلطان ، أحسن استقباله وخلع عليه وعلى من جاء معه وأنعم عليهم . ومنحهم اثنى عشر ألف دينار لاستخدامها في استمالة القبائل المحيطة بهم للسلطان . غير أن بعض القبائل لم يكن من مصلحتها أن يسود الاستقرار المنطقة ، فاعترضوا طريق ابن حفيص عند عودته إلى بلاده في ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ / سبتمبر ١٤٧٠ م ، واستولوا على مامعه . فلما علم السلطان المجاهد بذلك توجه على رأس حملة الانتقام من تلك القبائل والقضاء على تمردهم (٣) .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١١ ، بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٢ ، بامخرمة : قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٢٠ - ١١٢١ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٠٤ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٢ - ١١٣ ، قرة العيون ص ٢٥ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٠٤ .

وتتوتر العلاقات مرة أخرى ، ويتوجه السلطان المجاهد على على رأس حملة كبيرة إلى بلاد بنى حفيص ، فلما اقترب منها جاءه أحمد بن أبى الغيث ابن حفيص حاملا المصحف الشريف على رأسه ومتشفعا بالعلماء والصالحين لطلب الأمان ، فعفا السلطان عنه [١] ومما يذكر أن أخاه على بن أبى الغيث كان معتقلا فى زبيد منذ أوائل سنة ٨٧٦ هـ [٢] / ١٤٧١ م ، فلما صفح السلطان عن أحمد بن أبى الغيث استنابه عنه على بلاده وأشرك معه عزالدين ابن محمد بن أبى القاسم بن حفيص ، وترك معهما بعض جنده وعاد فى رجب سنة ٨٨٠ هـ / نوفمبر ١٤٧٥ م إلى زبيد [٣] . واستمر بنو حفيص على ولائهم لبنى طاهر ، فعندما أرسل السلطان المجاهد ابن أخيه يوسف بن عامر إليهم فى شعبان سنة ٨٨١ هـ / نوفمبر ١٤٧٦ م ، استقبلوه استقبالا حسنا وقدموا إليه المقررات السنوية التى اشترطها السلطان عليهم [٤] . كما جاءته وفود القبائل مجددة للطاعة فاستقبلهم وأجازهم بالجوائز السنية [٥] . وانتظم بنو حفيص فى الطاعة وأرسلوا ما عليهم من مقررات سنة ٨٨٢ هـ [٦] / ١٤٧٧ م .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٢ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٥ ، قره العيون ص ١٢٦ أ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٠ ، قرة العيون ص ١٢٧ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٧ أ .

(٥) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢١ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤٠ .

(٦) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ ، قرة العيون ص ١٢٧ ب .

فلما تولى السلطان المنصور عبد الوهاب بن داود السلطنة ، وخرج ابن عمه يوسف بن عامر عن طاعته ، انتهى به الأمر إلى الالتجاء سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م إلى بنى حفيص للاحتماء بهم وتزوج بابنة زعيمهم أحمد بن أبى الغيث[١] مما أساء العلاقات من جديد بينهم وبين السلطان الطاهرى المنصور عبد الوهاب. ولهذا توجه على رأس حملة للقضاء على عصيان ابن أخيه والانتقام من بنى حفيص لمناصرتهم له . فلما وصل السلطان إلى مشارف بلادهم عمل فى البداية إلى السعى لعقد الصلح وتصفية الأمور سلميا ، ولكن بنى حفيص أبوا أن يسلموا غريمه يوسف بن عامر إليه ، فغضب السلطان واشتبك معهم فى قتال عنيف ، أبدى فيه بنو حفيص شجاعة وصمودا لا نظير لهما ، وتمكنوا من قتل أحمد بن عامر — أخى يوسف — وكادت المعركة تنتهى لصالحهم ، لولا انضمام يوسف بن عامر إلى القوات السلطانية ، وقيامه بدور كبير حتى أمكن التغلب على بنى حفيص فى ذى القعدة سنة ٨٨٤ هـ/يناير ١٤٨٠ م وقتل أكثر من أربعمائة منهم (٢) ، وعاد يوسف بن عامر مع السلطان إلى زبيد ، ولكن السلطان لم يلبث أن أمر باعتقاله سنة ٨٨٥هـ (٣) / ١٤٨١ م .

أما بنو حفيص فقد عاودت قوات السلطان الإغارة عليهم فى سنة ٨٨٥هـ

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٩ ب .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ — ١٣١ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٢ ص١١٢٤ و ١١٦٣ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ — ١٣١، قرة العيون ص١٣٠أ ، بامخرمة : المصدر ص١١٦٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١١.

واشعلت النيران فى قراهم وقتلت عددا آخر منهم(١) . وفى العام الثانى وجه السلطان حملة كبيرة إليهم ، ولكنهم بادروا بالدخول فى الطاعه ، وعند عودة الحملة إلى زبيد توجه معها عدد من رؤساء بنى حفيص ومعهم أولاد زعيمهم أحمد بن أبى الغيث لتركهم رهائن لدى السلطان ضمانا لعـــدم العودة إلى العصيان (٢) . غير أن أحمـد بن أبى الغيث خشى تجدد الخلاف من قبيلته ممـا يعرض أولاده للخطر ، لذلك ترك بـلاده وفر بمن تبقى من أسرته وحاشيته ، واستقر بمدينة أبى عريش بمنطقة جازان شمـالى تهـامة ، فترة من الزمن ثم عاد متخفيا إلى مدينة الزيدية(٣) . فلما علم السلطان بذلك أرسل إليه قوة فى سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٣م تمكنت — بعد عناء شديد — من اعتقاله وحمله إلى زبيد وأدخلوه على جمل ذليـلا مقيدا حاسر الرأس فى مستهل ذى القعدة سنة ٨٨٧هـ (٤) / ديسمبر ١٤٨٣م .

ويبدوا أن هذا التصرف الشائن أثار حفيظة قبيلته واعتبرته وصمة عـار

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٢ ، قرة العيون ص ١٣٠ أ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٤ ، قرة العيـون ص ١٣٠ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٧ ، قرة العيـون ١٣١أ ، بامخرمة : نفس المصدر جـ٣ ص١١٣٥ ، ١١٦٥ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٣٧ ، بامخرمة: نفس المصدر ص١١٦٥ (ظل أحمد بن أبى الغيث سجينا فى حصن تعز حتى توفى فى ربيع الآخر سنة ٨٨٩هـ/ مايو ١٤٨٤م) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ص ١١٣٥ و ١١٦٦ .

لطمت جبينها ،لذلك ثار بنو حفيص في صفر ٨٨٨هـ /مارس ١٤٨٣م على الحامية المرابطة في بلادهم ، وتمكنوا من قتل بعض أفرادها ، وأجبروا الباقين على الفرار . فكان لذلك رد فعل عنيف لدى السلطان المنصور عبد الوهاب ، فأمر والي زبيد بالتوجه على رأس حملة انتقامية ضد بني حفيص ، ولم يلبث أن توجه بنفسه على رأس حملة أخرى ، وأمر بنهب بلادهم وأحرق إحدى قراهم وانتقم منهم شر انتقام ، ورتب في بلادهم حامية كبيرة وعاد إلى زبيد(١) .

واستمر السلطان المنصور عبد الوهاب يواصل ضغوطه العسكرية ضد بني حفيص ، فأرسل حملة أخرى في شوال سنة ٨٩٠هـ/ أكتوبر ١٤٨٥م بقيادة ابنه عامر لمحاربة الفئة الباغية منهم ، فقام بمحاصرتهم وقطع موارد المياه عنهم حتى أذعنوا للطاعة (٢) ، وسلموا مائة وثلاثين فرسا وأربعين جملا بالإضافة إلى أربعين ألف دينار (٣) . وتعهد السلطان بموالاه بني حفيص وغيرهم من قبائل تهامة بالحملات ، ففي شعبان ٨٩١هـ/ أغسطس ١٤٨٦م أنفذ حملة كبيرة إليهم ، وقد بالغ قائدها قاسم بن وهبان في تحصيل المقررات المفروضة عليهم ، فتكاتفوا ضده وأوقعوه في كمين نصبوه له وقتلوه في جماعة من عسكره (٤) . فلما علم السلطان، سير إليهم قوة بقيادة عمر بن عبد العزيز للانتقام لمقتل ابن

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٣٠ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٦٦ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣١ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية ص ١٤١ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٤) ابن الديبع : بغية ص ١٤٢ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٣٧ و ١١٦٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦١٤ .

وهبان . فلما وصلت القوات إلى المنطقة جنحت تلك القبائل إلى المسالمة تجنبا للقتال ، وسلمت كل قبيلة ما عليها من مقررات، فأرسل بها عمر بن عبد العزيز إلى السلطان (١) . وبقي في قلة من أتباعه في بلاد بني حفيص لإقرار الأوضاع فيها ، فانتهز هؤلاء فرصة إنشغاله وفاجأوه في جمادى الأخرى سنه ٨٩٢هـ/ مايو ١٤٨٧م فخرج منهزما من بلادهم ، وأرسل يبلـــغ السلطان بتفاصيل الحادث ، فتجهز في جيش كبير وعزم على الانتقام من بني حفيص ، فلما وصل إلى بلادهم وجدهم قد غادروها خوفا من إنتقامه، فأمر بهدم دورهم وإحراقها إنتقاما منهم (٢) وعاد السلطان بعد ترك عمر بن عبد العزيز واليا على بلاد بني حفيص وأمده بتعزيزات جديدة في ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ(٣) أكتوبر ١٤٨٧م. ورغم ذلك عاد بنو حفيص إلى العصيان مرة أخرى ، فتوجه السلطان إليهم في العام التالي، فاضطروا إلى الطاعة وتسليم ما ألزمهم به من المال والخيل (٤) .

فلما توفي السلطان المنصور وخلفه ابنه الظـــافر عامر الثاني ، عاد بنو حفيص إلى التمرد ، فأرسل الظافر معظم عسكره بقيادة محمد بن عيسى البعداني والي زبيد لمحاربتهم ، فأثخن فيهم وأرغمهم على الانصياع للطاعة هم وغيرهم من قبائل تهامة ، ويبدوا أن السلطان أراد معاملتهم باللين فأظهر رضــاه عنهم وأفرج عن رهائنهم ، أبناء أحمد بن أبي الغيث وأنعم عليهـم وكساهم ، ثم

(١) ابن الديبع : بغية ص١٤٣ ، قرة العيون ص١٣٢أ ، يحيي بن الحسين : غاية الأماني ص٦١٤.

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص١٣٢ أ ، بغيــة ص ١٤٤ ، بامخرمة : نفس المصدر ص١١٦٦ — ١١٦٧ .

(٣) بامخرمه : نفس المصدر ص ١١٦٧ .

(٤) ابن الديبع بغية : المستفيد ص ١٤٦ ، قرة العيون ص ١٣٢ ب .

ردهم إلى بلادهم ، بعد أن أقسموا له على الطاعة ، وقدموا رهائن آخرين تأكيدا لطاعتهم له ووفاء بما أقسموا عليه من عدم الخلاف[١]، وفي عام ٩٥. هـ/ ١٤٩٠م أرسلوا إليه ما كان مفروضا عليهم من مقررات [٢] . ويبدوا أيضا أن بني حفيص عاودوا الخلاف بعد عام واحد ، بدليل توجه السلطان الظافر عامر الثاني للاغارة على بلادهم في صفر سنة ٨٩٦هـ/ ديسمبر ١٤٩٠م ، فلما اقترب منها سارع بجماعة من زعمائهم لإستقباله ولكنه أمر باعتقالهم لاتهامات وجهت إليهم [٣].

وترتب على سياسة القمع والعنف التي اتبعها بنو طاهر مع بني حفيص أن فقدوا القدرة على الخلاف والعصيان وجنحوا إلى الطاعة ـ مرغمين ـ لبني طاهر ما يقرب من عشر سنوات ، إلى أن تجددت غارات الطاهريين عليهم وعلى القبائل المجاورة لهم في جمادى الأولى ٩٠٥هـ / ديسمبر ١٤٩٩م ، وفتكوا بهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، حزوا رؤوس بعضهم ودخلوا بها إلى زبيد[٤]. فخيم الهدوء على أثر تلك الغارة من جديد على المنطقة . ولم تزودنا المصادر بأخبار عن حدوث تمرد منهم لفترة تزيد عن خمسة عشر عاما . ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك، ففي سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م كان الخطر البرتغالي قد بلغ مداه،

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٤٧ — ١٤٨ ، قرة العيون ص١٣٣ أ، بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص١١٦٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص١٣٦ ب .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٦٥ ، قرة العيون ص١٣٧ أ، بامخرمة نفس المصدر ص١١٧٢ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٠ ب .

وتعقدت الأحوال في اليمن نتيجة لموقف السلطان الظاهري من الحملات المملوكية التي أرسلها السلطان الغوري لمقاومة البرتغاليين في المياه الهندية، ومنع خطرهم عن البحر الأحمر، فاستغلت القبائل اليمنية المعادية للطاهريين إمتناع السلطان الظافر الثاني عن التعاون مع القوات المملوكية، وأغارت جموعهم التي بلغت أكثر من ستة آلاف رجل ومائة فارس على مدينة الضحي الواقعة جنوبي مدينة الزيدية، ولكن واليها استطاع — بما لديه من قوات قليلة — التصدي لهم وألحق الهزيمة بهم [1]، وفي نفس الوقت أسرع السلطان بإرسال حملة بقيادة ابنه عبد الوهاب لإمداد حامية الضحي، فلما وصلها أسرع مشايخ بني حفيص إلى المثول بين يديه متعهدين بتأدية مايقررة عليهم غير أنهم لم يثبتوا على الطاعة ونقضوا عهدهم فاستؤنفت الغارات عليهم واعتقل زعماءهم وأجبروا على على الطاعة [2]. ولكن ما أن بدأ الغزو المملوكي لليمن حتى أسرع بنو حفيص وغيرهم من قبائل تهامة إلى التعاون الكامل مع تلك القوات نكاية في بني طاهر [3]، فكان لتعاون تلك القبائل أثره في إلحاق الهزائم المتكررة بالسلطان الطاهري وقواته والقضاء على دولته [4]

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٤ أ، الفضل المزيد ص ٥٣ب، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩١، يحيي : غاية الأماني ص ٦٤٢ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٤ أ — ب، الفضل المزيد ص ٥٤ أ، بامخرمة: نفس المصدر ص ١١٩٣ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ، بامخرمة نفس المصدر ص ١١٩٨ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١٢٠٤، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٤ .

٥ - ثورات الحبيشي :-

والحبيشي ، هو عباس بن الجلال بن عبد الباقي ، وهو ممن رفع لواء التمرد والعصيان في منطقة الجبال على السلطان المجاهد على بن طاهر ، وقام في ذي الحجة سنة ٨٦١ هـ/ أكتوبر ١٤٥٧ م بالاستيلاء على المخلافة من بلاد ذي جبلة بمنطقة اليمن الأوسط . وكان لابد للسلطان الظاهري من مواجهة تلك الثورة ، فزحف بجموع كثيفة من قواته إلى مدينة ذي جبلة وأقام هناك إلى ربيع الأول ٨٦٢ هـ/ يناير ١٤٥٨ م مراقبا الموقف ، إلى أن تهيأت له الفرصة للاغارة على الحبيشي والتغلب عليه وقتل عدد كبير من أتباعه [1] . وواصل السلطان حملاته على منطقة نفوذ الحبيشي وتمكن في ذي القعدة من نفس العام من الاستيلاء على عدد من الحصون التي كانت تحت سيطرته [2] . وتوقفت حملات السلطان بضع سنوات ثم استؤنفت في جمادى الآخرى سنة ٨٦٦ هـ / مارس ١٤٦٢ م لاستعادة بعض الحصون التي كان الحبيشي قد سيطر عليها [3] . وقد وفق المجاهد في إخماد حركته ، وأرغمه على طلب الدخول في الطاعة ؛ وقبل طلبه وتم التوصل إلى الصلح في أواخر ٨٦٨ أو أوائل ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م وأنعم

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢١ ب ، بغيـــة المستفيد ص ٩٩ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٦ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٨٩ ، الكبسي : اللطائف ص ٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٣ ، قرة العيـــون ص ١٠٣ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٩٥ .

عليه (١) .

وقد أثبتت الأحداث أن الدخول في الطـــاعة كانت وسيلة تلجأ إليها القبائل لتخفيف ما كان يصيبها من تنكيل السلطان بأفرادها ، فهي بمثابة هدنة مؤقتة تقبلها القبائل الثائرة إلى أن تستعيد قواها أو تتــاح لها الفرص للثورة من جديد . ويبدو أن عباس الحبيشي آثر الجنوح إلى الطاعة ، ولكن أخاه إدريس بن الجلال الحبيشي هو الذى بدأ بالعصيان في هذه المرة في سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م ، فاضطر السلطان المجاهد إلى السير إليه في شعبان سنة ٨٧٠ هـ / يناير ١٤٧٣م لمحاصرته في حصن خدد بمنطقة ذي جبلة . ولكن الحصار لم يؤد إلى نتائج حاسمة وعاد السلطان إلى زبيد (٢) . ولم يلبث أن عاد إلى المنطقة ذاتها من جديد بعد شهرين، ووقعت بينه وبين إدريس الحبيشي عدة وقائع كان النصر فيها للسلطان المجاهد علي ، الذى تمكن من الاستيلاء على عدة حصون (٣) . ولم يجد بنو الحبيشي بدا من العمل على التوصل إلى الصلح والعودة إلى الطاعة فتم لهم ذلك في ربيــــع الأول سنة ٨٧٩هـ/ يوليه ١٤٧٤م ، وتوجه الشيخ إدريس بن الجلال الحبيشي مع السلطان ودخل في ركابه إلى تعز (٤) .

---

(١) ابن الديبع : بغيــــة المستفيد ص١٠٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٢٨ .

(٢) ابن الديبع : بغيه المستفيد ص ١١٦ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٣١ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١١٦ .

(٤) ابن الديبع : نفس المصدر ص١١٨ ، قرة العيون ص١٢٩ب، بامخرمة نفس المصدر ص١١٣٢ .

استقرت الأوضاع بين الجانبين عدة سنوات تجددت بعدها رغبة بني طاهر في استعادة الحصون التي كانت بحوزة الحبيشي ، وخاصة حصن خدد باعتباره من المعاقل المنيعة والهامة لتحكمه فيما حوله من المناطق ، ولهذا توجه السلطان على رأس حملة كبيرة ، وحاصر ذلك الحصن في ذي القعدة سنة ٨٨٢هـ/فبراير ١٤٧٨م . وكان ادريس الحبيشي قد لجأ إلى حصن الخضراء القريب من حصن خدد ، فبدأ السلطان بمحاصرته كذلك ، وأمر بضربه بالمنجنيق حتى خرب معظمـه مما اضطره إلى طلب الأمان من السلطان وتسليم ما بحـوزته من الحصون [١] .

ويبدو أن الحبيشي استطاع استغلال الصراع الذي دار بين السلطان المنصور عبد الوهاب ومنافسيه من بني طاهر ، وتمكن من استعادة بعض الحصون ومن بينها حصن خدد، فاضطر السلطان المنصور إلى إحكام الحصار على هذا الحصن واستعادته في ربيـع الثاني سنة ٨٨٦هـ/ يونيه ١٤٨١م والاستيلاء على ما وجده فيه من عدد وذخائر [٢] .

ثم استقرت الأحوال بعد ذلك في تلك المنطقة ، وخشي أهلها انتقام بني طاهر إذا ما تجدد عصيانهم ، ولهذا أرسل أهل بعدان ـ في تلك المنطقة ـ إلى السلطان الظافر عامر الثاني بن عبد الوهاب عقب توليـه عرش السلطنة سنة

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٢٣ ، قرة العيون ص١٢٠ب،بامخرمة نفس المصدر ص١١٣٣ و ١١٤١ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص١٣٣ ، قرة العيون ص١٣٠ب،بامخرمة نفس المصدر ص ١١٦٤ .

٨٩٤هـ/ ١٤٠٩م يبلغونه بوقـــوع اضطراب فى بلادهم ويطالبون منه سرعة الحضور لإقرار الأوضاع فيها [1] .

٦ - الصراع الزيدى الظاهرى فى عهد بنى طاهر :

تعتبر الأمامة الزيدية من أقوى القوى المعارضة للسلطات الحاكمة في اليمن ، فالأئمة كانوا يهدفون دائما إلي السيطرة الكاملة على البلاد ، لذلك كان الصراع مستمرا بينهم وبين السلطات الحاكمة . غير أن الأمر كان يتوقف بصفة عامة علي مدى قوة الدولة القائمة ، فكلما أثبتت مقدرتها على السيطرة والتحكم فى البلاد ، كلما انكمشت القوى الزيدية والتزمت الهدوء، في الوقت الذى كانت تعد نفسها لمعارك مقبلة ، فكانت تدخر قواها لفرصة مواتية تثبت فيها وتتوسع على حساب القوى الحاكمة المنهارة . خاصة فى المنـاطق التي يشكل أتباعهم فيها أغلبية كبيرة كصنعاء وما يليها شمالا من جبال اليمن .

وكان الصراع والتنافس بين بنى رسول علي عرش السلطنة فرصة مناسبة استغلها الأئمـة للسيطرة على منطقة صعدة والاستقلال بحكمهـا ، والتوسع تدريجيا في المناطق التى تليها جنوبا ، بحيث تمكنوا من الاستيلاء على صنعاء، ومد نفوذهم جنوبها إلى ذمار وما حولها قرب نهاية عصر الدولة الرسولية .

والحقيقة أنه لولا الانقسامات والمنازعات بين قوى الزيدية حول الامامة وقيام أكثر من إمام فى وقت واحد ، وتنافس الأئمة وقيام الحرب بينهم من أجل الانفراد بالإمامة ، لكان فى إستطاعتهم استكمال السيطرة علي بلاد اليمن ووراثة ملك بنى رسول .

(١) بامخرمة : نفس المصدر ص١١٦٩ .

ومع قيام دولة بنى طاهر شغلت القوى الزيدية بالصراعات والحروب فيما بينها (١)، واستغل بنو طاهر حالة التصدع فى الكيان الزيدى ، وعملوا على التقرب من الأطراف المتنازعة ـ كل على انفراد ـ واجتهدوا فى توسيع شقة الخلاف واستمرار القتال فيما بينها مما يؤدى فى النهاية إلى إضعافهم واستنزاف قوتهم (٢) . وفى نفس الوقت عمل بنو طاهر على تجنب الدخول فى صراع مباشر ضد الزيدية ، والتفرغ لتكريس الجهود لتوطيد دعائم دولتهم ، ولذلك نلاحظ أنه ما كاد الامام الناصر يغير سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م على مخلاف رداع ـ إلى الجنوب الشرقى من ذمار ـ حتى عمل بنو طاهر على تلافى التصادم معه، وسعوا إلى مسالمته وتمكنوا بالفعل من التوصل إلى عقد صلح معه (٣) . إلا أن الإمام لم يلبث أن أغار مرة أخرى فى رجب أو شعبان سنة ٨٦٣هـ/ مايو أو يونية ١٤٥٩م ، الأمر الذى دعا بنو طاهر إلى التصدى له ، وتمكنت قواتهم بقيادة الأمير جياش بن سليمان السنبلى من إيقاع الهزيمة به وقتل جماعة من أتباعه وإجباره على العودة (٤) .

وفى رمضان سنة ٨٦٤هـ/يونيه ١٤٦٠م أغار الإمام مرة أخرى على رأس قوة كبيرة على بلاد رداع ، فتوجه السلطان الظافر عامر الأول بن طاهر لمقاتلته ، وبادره الحرب قبل أن يتهيأ للقتال ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٥٨٧ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٥٨٨ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٢٠ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٦ ، الكبسى : اللطائف السنية ص٢٢٣ .

(٤) يحيى بن الحسن : غاية الأمانى ص ٥٨٩ .

الإمام من الانتصار في النهاية، وأسفرت المعركة عن مقتل محمد بن طاهر - أخي السلطان - في جماعة من أتباعه، كما قتل وأسر عدد من أتباع الإمام (١).

ونتيجة الإغارات المتعددة التي شنها الامام الناصر محمد على مناطق نفوذ الطاهريين طمعا في التوسع على حسابهم، توجه السلطان الظافر عامر بن طاهر على رأس حملة كبيرة سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦١م إلى ذمار - وكانت وقتئذ تابعة للامام - فغادرها الإمام إلى صنعاء "ولم يلتفت إلى محاربة الظافر" (٢)، واضطر والي ذمار للخروج إلى معسكر السلطان وتقديم فروض الطاعة والولاء له وطلب الأمان لأهل المدينة خوفا من تعرضها للنهب والتخريب، فاستجاب له السلطان ودخل المدينة بصحبته بغير حرب في شهر رجب من ذلك العام، ولم يتعرض المعسكر السلطاني لأهل ذمار بأي سوء. فلما أقر السلطان الأوضاع فيها أناب ابن أخيه علي بن تاج الدين عنه وعاد إلى رداع، حيث وفدت عليه جموع القبائل مؤيدة طائعة (٣).

وفي سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م خرج السلطان الظافر عامر الأول على رأس حملة إلى الشحر وترددت الشائعات آنذاك حول هلاكه ومن معه عطشا في الصحراء. فانتهز الإمام الناصر محمد تلك الفرصة وزحف بقواته إلى ذمار

---

(١) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠٠، باغرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٨ و ١١٢٦، يحيى بن الحسين: غاية الأماني ص ٥٨٩، الكبسي: اللطائف السنية ص ٢٢٣.

(٢) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٠.

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

واستولى عليها [1] . وقد صادف ذلك عودة السلطان من حملة الشحر ، فلما علم بسقوط ذمار أسرع بقواته إليها ، وقام في نفس الوقت بمكاتبة قادة الزيدية المناوئين للناصر محمد وحرضهم على محاربته ، مستهدفا شغل الإمام الناصر في جبهتين ، ونجحت خطة الظافر على نحو لم يكن في الحسبان ، فلم يكد يصل إلى ذمار حتى كان الإمام قد تركها لمصيرها ، وتوجه إلى حصن هران الواقع بالقرب من ذمار وتحصن فيه ، مما اضطر أهل ذمار إلى تسليم مدينتهم للظافر بالأمان ، فأمنهم [2] ودخل مدينتهم في رجب سنة ٨٦٦ هـ [3]/ ابريل ١٤٦٢م ثم لم يلبث أن خرج بعسكره لمحاصرة الإمام في حصن هران [4]، فلما اشتد عليه الحصار جنح إلى الصلح وعرض تسليم الحصن ، مقابل اعتراف السلطان بسيطرته على المناطق الواقعة شمالى نقيل يسلح شمالى ذمار ، ولكن السلطان لم يوافق [5] على ذلك الشرط واستمر محاصرا للامام . غير أن الإمام تمكن من التخلص من الحصار، إذ خرج سراً في بعض خاصته من الحصن وتوجه إلى صنعاء ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها إذ اعترضته بعض القبائل وقامت بأسره [6] وعرضت تسليمه إلى السلطان الظافر عامر الأول ، ثم تراجعت عن ذلك تحت تأثير أحد فقهاء الزيدية وتم تسليمه الى الإمام المطهر بن محمد بن

---

(١) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٠، الكبسي: اللطائف السنيه ص ٢٢٣

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٥٩٢ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١٩ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٢ أ - ب، بغية المستفيد ص ١٠١ - ١٠٣ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٧ .

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٣ .

(٦) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٣ ,

سليمان (١) فظل سجينا عنده إلى أن توفى فى سنة ٨٦٨ هـ (٢)/ ١٤٦٣م.

وفى صنعاء انقسم الرأى الامام الزيدى بين مؤيد للامام المطهر بن محمد ومعارض له، إلا أن محمد بن الامام الناصر الأسير تمكن - رغم تخوفه من الامام المطهر - من التحفظ على صنعاء، ورأى أنه قد أصبح بين شقى رحى، يحاصره من الجنوب السلطان الظافر، ومن الشمال الإمام المطهر، ولم يكن فى مقدوره مقاومة هاتين القوتين، فى الوقت الذى كان فى صنعاء عدد من المؤيدين لسيطرة المطهر على صنعاء. ولما كان محمد بن الإمام الناصر معاديا للامام المطهر فقد سعى إلى الانتقام منه وتخليص والده من أسره، ولذلك رأى أن يسلم مدينة صنعاء للسلطان الظافر حتى يتحقق له بذلك وقوع الصدام بين الإمام والسلطان، ويتمكن عن طريق ضرب فريق بفريق من أن يحقق نفعا لنفسه، وبالفعل قام بمراسلة السلطان الظافر وتم الاتفاق معه على تسليم المدينة مقابل خمسين ألف دينار (٣). ودخل السلطان بقواته صنعاء فى شوال سنة ٨٦٦ هـ/ يولية ١٤٦٢م وولى عليها ابن أخيه عبد الوهاب بن داود، وترك معه فيها حامية كبيرة (٤).

وبذلك توسع بنو طاهر، واشتد ملكهم، واستقروا فى هذا الأمام على

(١) ابن الديبع: قرة العيون ٢٢ أ، بغية المستفيد ص ١٠٣ أ، باخرمة: نفس المصدر والصفحة، يحى بن الحسين: نفس المرجع والصفحة.

(٢) يحى بن الحسين: نفس المرجع ص ٥٩٤ و ٥٩٥.

(٣) يحى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٥٩٤.

(٤) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠٣، قرة العيون ص ١٢ ب، باخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ٢٧ ب.

كثير من اليمن »(١) . وكان السلطان يتردد على صنعاء لتفقد أحوالها ، ففى شوال ٨٦٧ هـ / يولية ١٤٦٣ م توجه إليها ودخل فى احتفال كبير ، وأقام بها فترة، عمل خلالها على إقرار الأوضاع فى المنطقة (٢) ، ثم غادرها بعد أن أناب فيها الأمير محمد بن عيسى البعدانى (٣) .

بدأ محمد بن الناصر يستشعر مشاعر الضيق والسخط بعد أن أخفق فى خطته ، ولم يتحقق الصدام الذى كان يرجوه بين الامام المطهر والسلطان ، والظاهر أنه عبر عن تلك المشاعر بدليل أن السلطان الظافر عامر الأول بادر بالكتابة إلى واليه على صنعاء يأمره بتدبير الحيلة لإرسال محمد بن الناصر إليه حتى يضمن عدم قيامه بتدبير الاستيلاء على صنعاء . وفطن ابن الناصر إلى ما يدبره ضده ، فأرسل يستدعى أحد كبار أعوانه ويدعى محمد بن عيسى شارب الأسدى(٤)، واتفق وصول صاحبه هذا إلى صنعاء أثناء غياب واليها — فى معظم جيشه — لتفقد بعض المناطق التابعة له (٥). فلما وصل محمد بن عيسى شارب ليلا نادى أتباعه على الحراس ليفتحوا باب المدينة للأمير محمد بن عيسى ، فحسبوه والى صنعاء لتشابه الأسماء ،وبذلك تيسر له دخول المدينة على

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٤ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة .

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ٥٩٥ .

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٥٩٦ — ٥٩٧ ،الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٤ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٣ ب ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٢٤ .

أنه واليها فاستولى عليها في المحرم ٨٦٩ هـ / سبتمبر ١٤٦٤ م. فلما علم الوالي الجميقي بما حدث عاد إلى ذمار ومنها إلى المقرانة (١) .

أما السلطان الظافر عامر الأول فقد غضب غضبا شديدا لفقد صنعاء بهذه الصورة، وبادر على الفور بالتوجه على رأس جيش جرار لاستعادتها ، ولكن محمد بن الامام الناصر آثر أن يصالحه على مال التزم بتأديته إليه (٢) . وقيل بل اضطر السلطان إلى فك الحصار عن المدينة والعودة، لرغبة بعض قادته وجنده في قضاء عيد الأضحى مع أهليهم (٣). وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة ، ذلك أنه لم يلبث أن عاد ثانية في آخر المحرم سنة ٨٧٠ هـ/ سبتمبر ١٤٦٥ م لمحاصرة صنعاء ، وقامت قواته بعمليات تخريب واسعة النطاق حولها (٤) .

ومن الجدير بالذكر أن الصراع بين الزيدية على الإمامة كان قد بلغ ذروته ، فالإمام المطهر كان يسعى للقضاء على محمد بن الإمام الناصر ، وفي سبيل ذلك لم يتردد في التعاون مع الظافر وأرسل ابنه من كوكبان في مجموعة من الجند إليه لمعاونته في الاستيلاء على صنعاء . وكان والي ثلا - بالقرب من كوكبان - يظهر ولاءه للامام المطهر في حين كان يبطن غير ذلك ، فاستغل

(١) بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١١٢٨ - ١١٢٩ .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٦ ، قرة العيون ص ١٢٣ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٢٩ .

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٥٩٨ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، قرة العيون ص ١٢٤ أ .

فرصة خروج ابن الإمام المطهر فى غالبية العسكر من كوكبان وطمع فى الاستيلاء عليها واعتقال الإمام ، ثم كتب إلى محمد بن الناصر فى صنعاء يخبره بذلك ، فأمده بمجموعة من الجند ، وتمكن بفضلهم من دخول كوكبان ومحاصرة الإمام في داره . ودارت معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بهزيمة صاحب ثلا وأسره ومصرع جميع أتباعه . وكان ذلك الوالى قد أرسل عقب دخوله كوكبان إلى محمد بن الناصر يبلغه باستيلائه عليها فدقت الطبول بالبشرى فى صنعاء . وعندئذ خشى ابن المطهر على أبيه ، فأمده السلطان الظافر الأول بتجريدة من عسكره ، فلما وصلوا الى ثلا شرعوا فى تخريب جانب كبير منها ، ثم تحولوا إلى كوكبان ، ولكنهم عادوا الى السلطان بعد أن اطمأنوا على سلامة الإمام المطهر ، أما السلطان فإنه لم يلبث أن فك الحصار عن صنعاء [1] مكتفيا بما قامت به قواته من تخريب ما حول المدينة من مناطق زراعية [2] .

توجه السلطان الظافر عامر الأول إلى عدن ، ولكنه ما كان يصل إليها حتى لحقته رسائل من صنعاء يطلب مرسلوها منه العودة إليها ووعدوه بنصرته ومساعدته فى الاستيلاء عليها . فأسرع مهرولا إليها فى حشد كبير ، فوصلها على حين غفلة من أهلها فى ذى القعدة سنة ٨٧٠ هـ / يونية ١٤٦٦ م . ولكنه لم يكن مستعدا للقتال اعتمادا على ماوعده به أهل صنعاء . ولهذا لم يستعص على قوات محمد بن الناصر بقيادة محمد بن عيسى شارب التغلب عليه وهزيمته وسقوطه صريعا فى جملة كبيرة من عسكره يوم الاثنين السابع من ذى القعدة

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٩٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٠ .

سنة ٨٧٠ هـ [١] / ٢١ يونيه ١٤٦٦ م . وغنم أهل صنعاء كميات هائلة من الغنائم ، حتى « استغنى المفلس » [٢] .

ومما يذكر أن السلطان المجاهد علي كان قد حذر أخاه المظفر من الاعتماد على مايصله من أهل صنعاء ، إذ قد يكون ذلك مكيدة منهم لإيقاعه في كمين أعدوه له ، ولكن السلطان الظافر عامر الأول لم يعر نصيحة أخيه اهتماما ، فلما قتل وهزمت قواته ، اضطربت أحوال اليمن ، وبذل السلطان المجاهد علي جهودا مضنية من أجل إعادة الاستقرار إلى البلاد [٣] . وشغل بذلك ، وأعرض عن مواصلة الحرب ضد الزيدية [٤] ، مما أتاح الفرصة لمحمد بن الناصر أن يطمئن من ناحية بني طاهر فترة طويلة من الزمن ، وأن يتمكن — من ناحية أخرى — من الصمود أمام الحملات التي كان الإمام المطهر يجهزها للاستيلاء على صنعاء [٥] . ولكن محاولات الإمام لم يكتب لها النجاح ، على الرغم من قيامه بالاستيلاء على مدينة ذمار [٦] ، التي استمر يسيطر عليها ، وكانت وفاته بها في شهر صفر سنة ٨٧٩ هـ [٧] / يونية ١٤٧٤ م .

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٧ ، قرة العيون ص ١٢٤ أ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٠١ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٨ ، قرة العيون ص ١٢٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٩ .

(٤) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٥ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٠٢ .

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٠٣ .

(٧) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٦ .

لم ينته الصراع بين الزيدية بوفاة المطهر بن محمد بن سليمان ، فقد قام ابنه عبد الله محتسبا ـ والاحتساب عند الزيدية مرحلة سابقة للامامة ومؤهلة لها ـ وبدأت مرحلة جديدة من التنافس على الإمامة ، فقد قام الشريف الزيدى محمد بن يوسف بن صلاح الدين المرتضي بالدعوة لنفسه بالامامة . كما قام عز الدين ابن الحسن بن على بن المؤيد إماما ، ولكنه تخلى عنها ، ثم لم يلبث أن قام بتجديد دعوته مرة أخرى . وأجمعت الزيدية على مبايعته فيما عدا أهل صعدة الذين تمسكوا بإمامة محمد بن يوسف [١] ، أما صنعاء فكانت تحت سيطرة محمد بن الإمام الناصر . وعلى هذا النحو من التفكك والانقسام والتنافس وما اقترن به من صراع حربى ، أخذت الزيدية تنحدر نحو اضمحلال محتوم [٢] .

ويمكن القول بأن الفترة التى انفرد فيها السلطان المجاهد على بالسلطنة بعد مقتل أخيه الظافر عامر الأول اتسمت بزهد المجاهد فى مناجزة الزيدية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر عهد السلطان المنصور عبد الوهاب ، عندما استعاد مدينة ذمار فى شهر رمضان سنة ٨٨٩ هـ / سبتمبر ١٤٨٤ م ، وأرغم صاحبها عبد الله بن الإمام المطهر على الفرار منها [٣] والاحتماء بصنعاء ، فأحسن محمد بن الناصر استقباله رغم ما بين أسرتيهما من عداء [٤] .

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٦ — ٦٠٧ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٠٨ .

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٤٠ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٦٦ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦١٤ .

ويبدو أن أهل ذمار كانوا قد خرجوا عن طاعة السلطان المنصور عبد الوهاب، ومالوا إلى القوى الزيدية، وسوروا مدينتهم ودعموا تحصيناتها(١)، والظاهر أن انشقاقهم حدث فى بداية سلطنة الظافر عامر الثانى، بدليل أنه خرج فى قوة من عسكره إلى ذمار فى ذى القعدة سنة ٨٩٥هـ / سبتمبر ١٤٩٠م، وظل يحاصرها إلى أن تمكن من تدمير جانب من سورها، ومن خلاله نجح فى اقتحام المدينة وفتحها عنوة فى السابع من ذى الحجة سنة ٨٩٥هـ / ٢٢ أكتوبر ١٤٩٠م، ووافق على تأمين أهلها بشرط أن يستكملوا تخريب سور مدينتهم. ثم أناب السلطان أحد ثقاته فى ذمار وغادرها بعد أن أقر الأوضاع فيها(٢).

أما الزيدية، فقد استمر الانقسام والتصدع فى صفوفهم، ففى رجب سنة ٩٠٠هـ / ابريل ١٤٩٥م توفى الإمام عز الدين بن الحسن بن على بن المؤيد، فقام بأمر الإمامة من بعده ابنه الحسن. وفى شهر ذى القعدة من نفس العام كانت دعوة الشريف الزيدى محمد بن على الوشلى السراجى بالإمامة(٣) معارضا بذلك الإمام الحسن بن عز الدين والامام محمد بن يوسف، وكان من الطبيعى أن تنشب الحرب بين تلك القوى حتى يتمكن أحدها من الانفراد بالامامة. ثم لم تلبث كفة الامام الوشلى أن أخذت فى الرجحان(٤)، فبدأ فى التحرش

---

(١) ابن الديبع: قرة العيون ص ١٣٦ ب - ١٣٧ أ، يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٦١٨.

(٢) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٥٩، بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٧١.

(٣) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٦٢١ - ٦٢٢.

(٤) بامخرمة: نفس المصدر ص ١١٨٥، يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٦٢٣.

بني طاهر ، ففي سنة ٩٠٢ ﻫ / ١٤٩٦ م قام بتحريض أهل ذمار للخروج عن طاعة بني طاهر [١] ، وواصل الإمام الوشلي نشاطه بالإغارة سنة ٩٠٤ ﻫ / ١٤٩٨ م على البلاد الخاضعة لسيطرة بني طاهر ، ولكن القوات الطاهرية بقيادة على بن محمد البعداني تمكنت من مفاجأة قواته والالتفاف حولها وتطويقها مما أحدث ارتباكا في صفوفه ، وسهل للقوات السلطانية الانتصار عليه [٢] ، فلم ينج إلا بنفسه [٢] .

ثم سادت فترة من الهدوء أعقبها خروج السلطان الظافر الثاني بنفسه على رأس جيش ضخم إلى صنعاء ، وقيامه بحصارتها في شعبان سنة ٩٠٧ ﻫ / [٣] فبراير ١٥٠٢ م وقذفها بالمنجنيق . فلما اشتد الحصار على صنعاء استنجد أهلها بالإمام الوشلي وبمحمد بن حسين الحمزي المعروف بالبهال [٤] ، صاحب صعدة ، فأسرعا في جموع كبيرة لنجدتهم . فلما علم السلطان الظافر عامر الثاني بأمر تلك النجدة ، أرسل حملة بقيادة محمد بن على البعداني لاعتراض طريق تلك

---

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤١ أ ، الفضل المزيد ص ٣١ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٧ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٢ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٨ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٢٤ .

(٨) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٣٤ أ .

(٩) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٥ ب - ١٤٦ أ ، الفضل المزيد ص ٣٧ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٠ .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٩ .

الإمدادات والقضاء عليها أو ارغامها على العودة ، ولكن البعدانى لم يستطع الصمود أمام تلك الحشود الضخمة وإضطر إلى العودة منهزماإلى السلطان (١) فلما أحس السلطان الظافر الثانى بتحرج موقفه بوصول النجدات وصعوبة الانسحاب ، أبدى إستعداده للصلح ، إلا أن زعماء الزيدية اشترطوا شروطا لم يقبلها ، فقرر العودة وقام بإحراق أثقاله (٢) حتى لا تعوق انسحابه ، ولا يتركها ليستفيد منها أعداؤه . فلما بدأ بالانسحاب فى المحرم سنة ٩٠٨هـ/يولية ١٥٠٢م تصور زعماء الزيدية أن الفرصة قد سنحت لهم لإيقاع الهزيمة به ، وتتبعوا قواته ، ولكن السلطان تمكن من التغلب عليهم ، ووصل إلى ذمار دون أن يتهيأ لخصومه الإيقاع به (٣) .

أما محمد بن الناصر صاحب صنعاء ، فقد رحب بالامام الوشلى ومحمد بن حسين البهال عند دخولها المدينة، ولم يتردد فى الاعتراف بإمامة الوشلى، الذى ظل مع البهال فى صنعاء عدة أيام ثم عاد كل منهما بعدها إلى بلده (٤) . ولم يلبث محمد ابن الناصر أن توفى فى شعبان سنة ٩٠٨هـ / (٥) فبراير سنة ١٥٠٣م ، فقام

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٥ ب ، ١٤٦ أ ،بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٩٠ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ .

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص١٢١ أ ، غاية الأمانى ص٦٢٩ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص١٤٥ب -١٤٦ أ ،الفضل المزيد ص٣٨ أ بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٩٠ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٢٩ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص١٤٦ ب ، الفضل المزيد ص٣٨ ب ،بامخرمة نفس المصدر ص١١٨٢ و ١١٩١ .

أخوه أحمد بن الناصر بحكم صنعاء بعده (١).

وعلى الرغم من الصراع الدائر بين القوى الزيدية ، إلا أن تهديد السلطان الطاهري بالاستيلاء على صنعاء وحد صفوفهم ، وتوافدت جموعهم لحمايتها ونصرة أهلها . ولما كانت صنعاء من أهم مدن اليمن ، وعن طريقها ينفتح الطريق أمام بني طاهر لاستكمال السيطرة على الجزء الشمالي من اقليم الجبال ، فقد أعد السلطان الظافر عامر الثاني عدته لتجهيز حملة أخرى على صنعاء ، فلما توافدت جموع القبائل عليه توجه إليها في ربيع الأول سنة ٩١٠ / أغسطس ١٥٠٤م وحاصرها وضربها بالمنجنيقات (٢) . وتكاتفت الزيدية للدفاع عن صنعاء وجاء الإمام الوشلي ومحمد بن حسين البهال صاحب صعدة في جموع كثيفة لمحاربته . وكان السلطان الظافر قد وضع تلك النجدات في الحسبان ، وقام بتقسيم جيشه إلى قسمين ، الأول ومهمته حصار صنعاء . والثاني - بقيادته - وهدفه مواجهة القوات الزيدية القادمة لنجدة صنعاء ، فدارت بين الجانبين معركة من أعنف المعارك التي وقعت في عصر دولة بني طاهر ، انتصر فيها السلطان الظافر الثاني انتصارا حاسما في رمضان سنة ٩١٠هـ ,فبراير ١٥٠٥م .

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٦٢٩ ، الكبسي : اللطائف السنية ص٢٣٠ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٧ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٩٢ . (ويقال أن قوات الظافر عامر الثاني قد زادت على مائة وسبعين ألف رجل من بينهم ثلاثة آلاف فارس) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٠ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٦٣٣ ، الكبسي : اللطائف ص ٢٣٠ . (إلا أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا إذا ماقورن بتعداد القوات التي استخدمها بنو طاهر في حروبهم الداخلية الأخرى) .

وقتل فيها عدد كبير من قوات الإمام وصاحب صعدة ووقع الامام الوشلي أسيرا [١]، وغنم بنو طاهر كثيرا من الغنائم . أما محمد بن حسين البهال فقد تمكن من الأفلات والفرار بأعجوبة بعد أن تكبد خسائر جسيمة [٢].

وفيما يتعلق بالقوات التى كانت تحاصر صنعاء ، فقد واصلت مهمتها ، وانتهز أهل صنعاء فرصة المعركة الدائرة بين السلطان والإمام وأغاروا على القوات المرابطة حول المدينة بهدف فتح ثغرة تمكنهم من إمداد القوات المشتبكة مع السلطان ، أو إتاحة الفرصة لها لدخول المدينة للاحتماء والتحصن فيها . إلا أن القوات السلطانية المحاصرة لصنعاء تمكنت من التصدى لهم وأوقعت الهزيمة بهم ، ودوت هزيمة الإمام الزيدى ووقوعه فى الأسر دويا هائلا فى صنعاء، وخاف أهلها من أن يتعرضوا للعنف إذا ماقام السلطان بفتح المدينة عنوة، ولذلك طلبوا منه تأمينهم ، فلما وافق قاموا بفتح أبواب المدينة فدخلها بقواته

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٧ ب ، الفضل المزيد ص ٤٠ ب ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٢ ، العيدروسي : النور السافر ص ٥٣ ، يحيى ابن الحسين : نفس المرجع ص ٦٣٣ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ ؛ (وكانت وفاة الأمام الوشلي فى صنعاء فى ذى القعدة سنة ٩١٠ هـ / ابريل ١٥٠٥ م . ويقال أنه مات مسموما بسجنه فيها) ابراهيم بن القاسم بن المؤيد : طبقات الزيدية ـ مخطوط بمكتبه الامام يحيى بصنعاء ـ ص ٢٠٠ أ ، يحيى ابن الحسين : نفس المرجع ص ٦٣٤ .

(٢) كانت وفاة البهال فى بلدة صعده فى رجب ٩١٥ هـ/أكتوبر ١٥٠٩ م (ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٩ ب ، الفضل المزيد ص ٤٦ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٨٥ ، ١١٩٣) .

واستولى عليها في السابع من شوال سنة ٩١٠هـ (١) . كما تمكن من الاستيلاء على كثير من الحصون القريبة منها (٢) . فلما أقر الأمور في مدينة صنعاء أناب فيها الفقيه محمد النظاري وأنعم على القبائل التي اشتركت معه في القتال وسمح لأفرادها بالعودة (٣) . أما صاحب صنعاء الشريف أحمد بن الناصر فقد أرسله السلطان في المحرم ٩١١هـ/ يونيه ١٥٠٥م إلى تعز فأقام فيها مجللا مكرما مع أهله وحشمه (٤) إلى أن توفي سنة ٩١٢هـ (٥) .

ولم يلبث أمر الزيدية أن ضعف بعد تلك الضربة التي وجهها إليهم السلطان الظافر عامر الثاني بن عبد الوهاب ، وكان لا بد من شخصية قوية تجمع شمل القوى الزيدية من جديد ، خاصة بعد أسر الإمام الوشلي ووفاته ، وتتمثل تلك الشخصية في الإمام يحيى شرف الدين (٥) الذي أقيمت له الدعوة بالإمامة

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص١٠٧ب – ١٠٨أ ، الفضل المزيد ص٤٠ب – ٤١أ ، بامخرمة : قلادة النحر ص١١٩٢ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٠ب ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٤٤ب ، الكبسي : اللطائف السنية ص٢٣١ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤١أ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ص١١٩٢ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٦٢٣ ، الكبسي : اللطائف السنية ص٢٣١ .

(٦) هو الإمام المتوكل على الله رب العالمين يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي لدين الله احمد بن يحيى المرتضى (غاية الأماني) بن أحمد بن المرتضي بن مفضل بن منصور بن مفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى =

في جمادى الآخرة سنة ٩١٢هـ/ أكتوبر ١٥٠٦م غير أنهم يحظ بإجماع كامل من العناصر الزيدية(١) في بداية الأمر، ذلك أنه لم يقم بدور فعال في مقاومة القوات الطاهرية التي استطاعت السيطرة سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م على حصون ثلا وحضور وكوكبان - إلى الشمال الغربي من صنعاء - كما استولت على بعض المناطق الأخرى التي كانت تحت السيطرة الزيدية (٢) . ولم تفلح المحاولات التي قام بها الزيدية ، ففي عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م قضى والي صنعاء على مؤامرة قام بها بعض أهل صنعاء للفتك به وإنتزاع صنعاء (٣) منه .

وهكذا بلغت دولة بني طاهر أقصى إتساع لها في عهد السلطان الظافر عامر الثاني ، غير أنه يؤخذ عليه تقصيره في مواجهة البرتغاليين الذين إزداد خطرهم في المحيط الهندي والبحر الأحمر . ومن المعروف أنه شغل ببعض الجولات التفقدية في أنحاء كثيرة من بلاده ، فقد زار في سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م كل من مدينة إب وذي جبلة من اليمن الأوسط (٤) ، ثم توجه إلى صنعاء مما

= ابن القاسم بن يوسف بن احمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (الكبسي : اللطائف ص٢٣١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي - مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ - جـ٤ ص٤٣٠).

(١) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٦٣٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥ أ ، الفضل المزيد ص٤٨ب - ٤٩ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص٦٣٨ ، الكبسي : اللطائف السنية ص٢٢٣ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٥٢ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٠ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر ص١١٩٧ .

أطمع أشراف صعدة بالفتك به ، فقد وفد عليه فى صنعاء بعض رؤسائهم وعرضوا عليه الحضور إلى صعدة ليتسلمها منهم ، ولكنه أرسل معهم نائبة عنه للقيام بتلك المهمة والإقامة فيها مع حامية أعدها معه ، وفى طريقهم إلى صعدة أوقعوهم فى كمين كانوا قد أعدوه للسلطان ولم يتخلصوا منه إلا بعد أن وصلتهم نجدة من السلطان ، فعادوا إلى صنعاء [1] .

أما عن الخطر البرتغالى فيبدوا أن السلطان الظافر عامر الثانى كان قد ترك فى بادىء الأمر مهمة التخلص منه للدولة المملوكية ، ولكنه غير موقفه تجاه المماليك ، ولم يكتف بعدم التعاون معهم أو الامتناع عن إمدادهم بالمؤن ، وعدم السماح لهم باستخدام بعض الموانى بسواحل اليمن ، بل وقف منهم موقفا عدائيا ، مما أدى إلى تحول الحملة المملوكية الثانية عن هدفها فى محاربة البرتغاليين واستدراجها إلى غزو اليمن والقضاء على دولة بنى طاهر بقتل آخر سلاطينها الظافر عامر بن عبد الوهاب فى ربيع الآخر ٩٢٣هـ/ ابريل ١٥١٧م وهذا ما سوف نتعرض له فى الفصل الأخير .

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص١٥٣ أ - ب ، الفضل المزيد ص٥٢ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص٦٤٠ .

الباب الثانى

العلاقات الخارجية

الفصل الرابع : العلاقات الخارجية فى عصر بنى رسول.

الفصل الخامس : العلاقات الخارجية فى عصر بنى طاهر.

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية في عصر بني رسول

أولاً ـ في عصر نور الدين عمر بن علي بن رسول :ـ

ارتبطت بلاد اليمن ـ منذ بداية الاسلام ـ بالدولة الاسلامية ، كولاية من ولاياتها ، ولهذا كانت علاقاتها الخارجية ترتبط ارتباطا وثيقا و بصفة أساسية بعاصمة الخلافة . أما علاقاتها بالولايات الإسلامية أو الدول الأخرى ، فكانت تتم من خلال الخلافة القائمة . وكان ولاة اليمن يتم تعيينهم أيام الخلفاء الراشدين والأمويين و بني العباس ، بمعرفة الخليفة . ومع ضعف الدولة العباسية تحولت تبعيتها تدريجيا إلى تبعية إسمية تتمثل في الخطبة والسكة .

ومع بدء نشاط الشيعة وانتشار حركتهم ، كانت بلاد اليمن موئلا لتلك الحركة المناهضة للعباسيين ، فلما قامت الدولة الفاطمية في افريقية ، وانتقل مقرها إلى مصر ، استطاع علي بن محمد الصليحي إقامة الدولة الصليحية ـ الاسماعيلية ـ كدولة تدين بالولاء للخليفة الفاطمي بمصر ، في حين ظلت الدويلات اليمنية السنية الأخرى ، كدولتي بني زياد و بني نجاح من بعدهما ، تابعتين إسميا للخلافة ببغداد .

وبقيام الدولة الأيوبية على أنقاض الدوله الفاطمية في مصر ، أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م على رأس حملة للاستيلاء عليها ، من أجل القضاء على بقايا النفوذ الشيعي وضم اليمن إلى ركبه

التحرر العربى للجهاد ضد الصليبيين ، وتأمين حدود الدولة الأيوبية بالسيطرة على المنفذ الجنوبى للبحر الأحمر . وأصبحت بلاد اليمن الموحدة منذئذ تابعة للأيوبيين، وتدين بالولاء للخليفة العباسى من خلال تلك التبعية . ومع أن حكامها الأيوبيين تمتعوا بقدر كبير من حرية التصرف ، إلا أن بلاد اليمن ظلت تشكل جزءاً من الدولة الأيوبية حتى وفاة المسعود يوسف بن الكامل الأيوبى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .

١ - موقف الأيوبيين من محاولات بنى رسول السيطرة على الحجاز :-

وباستقلال نور الدين عمر بن على بن رسول - نائب المسعود - بملك اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م دخلت بلاد اليمن فى طور جديد من العلاقات العدائية مع الأيوبيين فى مصر ، وأصبحت تلك العلاقات المتدهورة تمثل السمة المميزة للعلاقات اليمنية الأيوبية منذ بداية استقلال نور الدين باليمن وانسلاخها عن الدولة الأيوبية .

ولما كانت بلاد الحجاز - التابعة وقتذاك للأيوبيين - هى المعبر البرى بين مصر واليمن ، فقد أصبحت محور الصراع بين هاتين القوتين . ومن ثم تحول هدف الأيوبيين من محاولة استرداد بلاد اليمن إلى العمل على استمرار تبعية بلاد الحجاز لهم ، بعد أن نجح نور الدين فى نقل مسرح المعارك إليها تأمينا لسلامة دولته .

وترجع صلة نور الدين عمر بن على بن رسول ببلاد الحجاز إلى أيام المسعود يوسف الأيوبى ، الذى كان قد استولى على مكة فى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م

وأصبحت تابعة له (١) ، وأناب عنه فيها نور الدين عمر بن رسول (٢) وترك معه حامية من ثلاثمائة فارس (٣) . وقد حاول شريف مكة حسن بن قتادة استعادة نفوذه وسيطرته على مكة ، ولكن نور الدين باغته بالهجوم قبل أن يستكمل استعداداته . وهزمه وشتت جموعه وقتل من أتباعه عددا كبيرا ، وولى الشريف حسن الأدبار أمام نائب المسعود (٤) . وظل نور الدين ينوب عن المسعود في مكة حتى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٢٤ م عندما استدعاه المسعود حينما اعتزم

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ١٨٩ – ١٩٠ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٢٤ ، ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٢٨ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ١٧ ص ٣٣ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ١٣٨ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٠ ، ابن الوردى : تاريخه جـ ٢ ص ١٤٤ ، الخزرجى : العسجد ص ٢١٦ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ١٤٩ أ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥٥١ ، جـ ٤ ص ٣٥٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢١٣ ، الذهب المسبوك ص ٧٧ – ٧٨ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢ ص ٥٢ ص ٤٣٣ ، الشرفى : اللآلى المضية جـ ٢ ص ١٣٤ ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ، مخطوط بدار الكتب ، ص ٤٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٢ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٣ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٧٨ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٢ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٥ .

على السفر إلى مصر لزيارة والده الملك الكامل محمد ، فأنابه مع إخوته على اليمن، إلى أن يعود من مصر[١] . ولما استقر رأى المسعود على ترك اليمن سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م ليتولى دمشق وأعمالها بعد وفاة عمه المعظم عيسى واستيلاء والده الملك الكامل محمد عليها [٢] ، ولى نور الدين عمر على حكم اليمن نيابة عنه[٣] . ولكن المسعود لم يكد يصل إلى مكة – فى طريقه إلى مصر – حتى وافته المنية.

أحسن نور الدين استغلال فرصة وفاة المسعود لمصلحته ، وعمـــل على اكتساب ثقة الملك الكامل ؛ ولهذا أسرع بتجهيز الأموال والهدايا والتحف وأرسلها إليه ، تعبيرا عن إخلاصه فى نيابته عنه فى حكم اليمن [٤] . ونجح

---

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٠ ب ، الخزرجي: العسجد ص ٢١٦ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٣ ، العقد الفاخر ج ٢ ص ١٤٩ أ ، العقد الثمين ج ٣ ص ٣٩٣ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٨ ، ابن تغرى بردى : المنهـل الصافى ج ١ ص ٢٩ ، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٧٥ ، يحي بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥٨ ، الفاسى : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٠٠ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ١٣ ص ٤٠٢ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب ص ٩٩ أ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٩ ، الخزرجى : العسجد ص ٢٢٤ ، العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٧ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٢٣٠ .

نور الدين فى إقناع الملك الكامل بطاعته ووفائه له ، فحظى بثقته وأبقاه نائبا له على بلاد اليمن (١) . وقد ساعد على ذلك أن الدولة الأيوبية كانت تجتاز فترة عصيبة من تاريخها ، فالصراع كان على أشده بين الملك الكامل وإخوته ، مما أدى إلى ضعف الدولة وزيادة المطامع الخارجية فيها (٢) .

وإذا كان نور الدين قد نجح فى اكتساب ثقة الملك الكامل ، فإنه نجح أيضا فى إخفاء مطامعه فى الاستقلال باليمن(٣)، مما ساعده على العمل تدريجيا فى تنفيذ تلك المطامع ، وبدأ خطته بالعمل على إحكام السيطرة على البلاد ، فقام بعزل من يخشاه من ولاة المسعود (٤) ، وولى على المدن والحصون من يثق فيهم من أتباعه (٥) . فلما تم له ما أراد ، جاءه الأشراف الزيدية ودخلوا فى طاعته وأغروه بخلع طاعة الأيوبيين والاستيلاء على اليمن ، وتحالفوا معه على تأييده ومساندته ضد الأيوبيين (٦) . وما أن استكمل تلك المرحلة الأولية حتى أقدم على إعلان استقلاله بملك اليمن أواخر عام ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م (٧) .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٢ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص٢٥٥، العينى : عقد الجمان مجلد٣ ص١٧٩

Wiet : L' Egypte Arabe, pp . 354 – 359 .

(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٢٢٩ ، الفاسي : العقد جـ ٣ ص ٣٩٤ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ١ ص ٢٣٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٧٥ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٧ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص١٤١ ، النويرى : نفس المصدر =

كان نور الدين يقدر عواقب ما اجترأ على القيام به ، والمخاطر التى قد تتهدده من قبل القوى الأيوبية فى مصر ، بعد أن أصبح فى نظرهم مغتصبا لجزء من دولتهم . ولهذا بادر بالعمل على تأمين دولته وحمايتها من الحملات الأيوبية المنتظرة . ولما كانت بلاد الحجاز هى المعبر الوحيد للجيوش الأيوبية القادمة برا من مصر ، فقد تبين له أن استمرار تبعية الحجاز للأيوبيين يشكل خطراً دائماً على دولته، لسهولة خطراً وصول الحملات والإمدادات الأيوبية عن طريقها إلى اليمن ، هـــذا إلى جانب وجود حامية أيوبية قوية مرابطة فيها (١) . ولذلك كان يتحتم على نور الدين ــ حماية لدولته ــ أن يعمل على إزالة الأخطار التى تتهدده من ناحية الحجاز ، وذلك بالاستيلاء على تلك البلاد ، أو على الأقل نقل مسرح المعارك إليها ، وتحويلها إلى خط دفاع أمامى لليمن . ولا شك أن استيلاء نور الدين على بلاد الحجاز وسيطرته عليها من شأنه أن يؤدى إلى امتداد نفوذه واتساع رقعة دولته ، وارتفاع مكانته فى العالم الإسلامى باعتباره حامى حمى الحرمين الشريفين .

وبدخول نور الدين فى صراع سافر ضد الأيوبيين ، يبدأ دور جديد من التنافس على الحجاز ، فعلى الرغم من أن الظروف الصعبة التى كانت تمر بها الدولة الأيوبية لم تكن تسمح بتوجيه الحملات لاسترداد اليمن ، إلا أن إقدام نور الدين على انتزاع الحجاز من السيطرة الأيوبية ، قد وضعه ــ فى اعتبار الأيوبيين ــ فى مصاف القوى المعادية لهم كالصليبيين والخوارزمية . وهــذا

= والجزء ص ٤٢ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٦ ، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ١٤٩ .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١٧٩ .

يفسر الأسباب التى حملت الملك الكامل الأيوبى على التحرك لمواجهة مطامع نور الدين عمر بن رسول ، فبدأ فى تجهيز الحملات لضمان استمرار تبعية الحجاز له ، ووضع حد لمطامع نور الدين واستعادة اليمن إلى الكيان الأيوبى . وكانت أولى تلك الحملات التى أرسلها الملك الكامل ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م إلى الحجاز بقيادة شجاع الدين طغتكين لتدعيم الحامية الأيوبية فيها وتمكينها من الصمود أمام مطامع نور الدين (١) .

أما نور الدين فإنه لم ينتظر حتى تداهمه القوات الأيوبيـة ، ورأى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، فبادر – بمجرد علمه بتجهيز الحملة الأيوبية – بإرسال أول حملة له بقيادة أحد كبار أتباعه ويدعى ابن عبدان وأرسل معه الشريف راجح بن قتادة (٢) – وكان من الموالين له من أشراف مكة – وأمدها بكثير من الأموال لإنفاقها على أهل مكة ضمانا لولائهم (٣) . ومن ناحية أخرى عقد طغتكين قائد الحملة الأيوبية اجتماعا بكبار رجالات مكة وأعيانها واستحلفهم على الوقوف بجانبه ومناصرته والإخلاص له ، وأنفق فيهم نفقة كبيرة . ولكن أهـل مكة لم يلبثوا أن مالوا إلى اليمنيين بمجرد مراسلة الشريف راجح بن قتـادة لهم وتذكيرهم بالمعاملة الحسنة التى عاملهم بها

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ أ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ١ ص١٧٩ ، جـ٢ ص٣٩٥ ، شفاء الغرام جـ٢ ص٢٠٠ ، بامخرمة : ثغر عدن جـ٢ ص١٧٦ .

(٣) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ أ ، الخزرجى : العقود جـ١ ص٤٩ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ أ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

نور الدين أيام ولايته على مكة من قبل المسعود (١) . ولهذا لم يجد طغتكين بداً — أمام خذلان أهل مكة له — من الانسحاب بقواته (٢) إلى نخلة ومنها إلى ينبع حيث يتهيأ له أن يتحصن مع حاميتها الأيوبية (٣) . وكتب إلى الملك الكامل يبلغه بتطورات الموقف (٤) . أما القوات اليمنية فقد استطاعت الاستيلاء — في يسر وسهولة — على مكة في ربيع الآخر سنة ٦٢٩هـ / يناير ١٢٣٢م بغير حرب لخروج قوات الأيوبيين منها (٥) .

ولم تكد الأنباء تصل إلى الملك الكامل باستيلاء قوات نور الدين بن رسول على مكة والتجاء القوات الأيوبية إلى ينبع حتى أسرع بتسيير حملة إلى الحجاز بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ (٦) وزوده بتعليمات إليه

---

(١) الخزرجي : العقود جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، الفاسي : العقد الثمين جـ١ ص ١٧٩ ، جـ٣ ص ٣٩٥ .

(٢) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٥٩ ، الأرج المسكي في التاريخ المكي ص ٤٧ .

(٣) الفاسي . العقد الثمين جـ٢ ص ٧٤٠ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص ٤٧٩ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ ب ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤١ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٠ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٤٣ ب ، الخزرجي : العقود جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

كل من الشريفين أبي سعد صاحب ينبع وشيحة أمير المدينة يأمرها بالتعاون مع الحملة (١) . وغادرت الحملة مصر ، في عسكر لا يقابل كثرة ، (٢) إلى مكة، فوصلها في رمضان سنة ٦٢٩ هـ (٣) / يونية ١٢٣٢ م . ورأى ابن عبدان مفاجأة القوات الأيوبية ، فخرج بقواته من مكة وبصحبته الشريف راجح ابن قتادة ، والتحمت قواته مع قوات الأيوبيين في معركة انتهت بهزيمته ومقتله واستيلاء الأيوبيين منه على مكة (٤) ، وانتقام ابن شيخ الشيوخ ممن ساعد ابن عبدان من أهل مكة لخذلانهم شجاع الدين طغتكين وانضواء غالبيتهم لقوات صاحب اليمن (٥) .

لم يرض نور الدين بهزيمة قواته ، ولهذا عجل بإرسال جيش كثيف إمدادا للشريف راجح بن قتادة (٦) — الذى كانت قد تجمعت لديه شتات

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ١ ص ١٧٩ ، جـ٣ ص ٣٩٥ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧١ .

(٢) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٠٩ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٠ ، العسجد ص ٢٢٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٦ ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ص ٤٧ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ : الفاسى : شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٠٠ .

(٦) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٦ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

ما تبقى من جيش ابن عبدان ـ وأمده نور الدين بخزانة عظيمة من المال للانفاق منها على العسكر (١) . وبفضل تلك الإمدادات وما احتشد لديه من فلول ابن عبدان زحف الشريف راجح إلى مكة فاستولى عليها (٢) بغير قتال في صفر سنة ٦٣٠ هـ (٣) / نوفمبر ١٢٣٢م ، بعد أن انسحبت عساكر الأيوبيين منها (٤) .

واستبد الغضب بالملك الكامل عندما بلغته أخبار تنكيل ابن شيخ الشيوخ بأهل مكة ، وبلغ من غضبه عليه أن استدعاه وعزله (٥) . ولما وصلته الأنباء باستيلاء قوات نور الدين على مكة ، جهز حملة من سبعمائة رجل بقيادة علاء الدين آق سنقر الزاهدي توجهت إلى ينبع في شوال ٦٣٠هـ(٦)/١٢٣٣م ، ومن هناك تقدمت في طريقها إلى مكة ، وقبل أن تصلها كان الشريف

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ٣ ص ٣٩٥، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٤٢ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٠ ،

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 88.

(٣) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤١ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٦) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٢٤٤ ، العصامى : سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ .

راجح قد خرج عنها ، فدخلها الزاهدى بغير قتال [١] ، وأحسن إلى أهلها [٢] ، وحج بالناس [٣] ، ثم ترك فيها حامية أيوبية بقيادة قطب الدين ابن مجلى الذى حل محل ابن شيخ الشيوخ[٤] .

أما السلطان نور الدين ، فقد عمد إلى إعادة تزويد الشريف راجح ابن قتادة بالأموال ليستخدمها فى تجهيز ماالديه من عسكر اليمن [٥] . وبفضل تلك الأموال أمكنه أن يزحف بقوة كثيفة إلى مكة فدخلها بعسكره [٦] فى الخامس من ذى القعدة سنة ٦٣١ هـ/٢ أغسطس ١٢٣٤ م ، بعد أن خرج منها ابن مجلى وحاميته . وهكذا تذبذب ميزان النصر والهزيمة بين صاحب اليمن الرسولى وصاحب مصر الأيوبى ، ولكن كفة اليمن لم تلبث أن رجحت . ومن الجدير بالذكر أنه لم يحج فى تلك السنة سوى ركب الحاج اليمنى [٧] .

---

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

(٢) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٤٢ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص ٧٤٠ — ٧٤١ .

(٤) ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٠ ، كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٣ ، المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٤٥ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص٤٣ ب ، المقريزى السلوك ج١ ص ٢٤٩ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج٢ ص ١٧٦ .

(٦) الخزرجى : العقود ج١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، الفاسى : العقد ج٢ ص٣٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٧) ابن أيبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣١٤ ، درر التيجان ص ٥٦١ .

٣ ـ علاقة نور الدين بن رسول بالخلافة العباسية :

لم يقنع نور الدين بالسيطرة على بلاد اليمن فحسب ، وإنما نازع الأيوبيين نفوذهم على الحجاز . ولهذا عمل على استكمال شرعية حكمه بالحصول على اعتراف الخليفة العباسي به ، فقام بتجهيز هدية عظيمة أرسلها في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م إلى الخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر، طالبا تشريفه بالنيابة والتقليد بالسلطنة (١). فاستجاب الخليفة ووعد بإرسال المطلوب صحبة ركب الحاج العراقي في موسم الحج إلى عرفات (٢) . ولذلك توجه نور الدين في تلك السنة لأداء فريضة الحج واستقبال التشريف والتقليد (٣) . ولكن ركب الحاج العراقي لم يصل في ذلك العام ، لفوات الوقت في إصلاح الآبار على امتداد الطريق الموصل من بغداد إلى مكة ، بعد أن خربها عربان المنطقة ، فلما تم الفراغ من إصلاحها كان قد فاتهم وقت الحج (٤) ، مما اضطرهم للعودة إلى العراق . وترتب على ذلك بطبيعة الحال أن قفل نور الدين عائدا إلى اليمن .

---

(١) الخزرجي : العقود ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص٦٦ ب ، الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ب ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٧١ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ١ ص ٥٤ ، العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٣٤ب، الخزرجي : العقد الفاخر جـ٢ص٦٦ب.

(٤) ابن حاتم : السمط، ص٣٤ب ، الخزرجي: العقود جـ١ ص٥٤، العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : نفس المصدر ص ٦٦ ب .

وفي العام التالي صحب رسول من قبل الخليفة ركب الحاج العراقي ، حاملا رسالة (١) توجه بها بعد موسم الحج إلى اليمن لابلاغ صاحبها بأن التشريف والتقليد قد تم إرسالهما من البصرة عن طريق البحر (٢) . وما كاد التشريف والتقليد يصلان إلى اليمن برفقة رسول الخليفة حتى أقيمت مراسم التقليد (٣) . وهكذا استمد نور الدين صلاحياته من الخليفة العباسي مباشرة، مما أكسب حكمه الصفة الشرعية باعتباره تابعا للخلافة العباسية .

ومن الجدير بالذكر أنه لما توجه نور الدين إلى مكة سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م لاستقبال التشريف والتقليد المنتظر وصولهما من بغداد ، شك الشريف راجح ابن قتادة في الأمر وتجنب لقاءه ، كما أنه لم يؤد فريضة الحج في ذلك العام خوفا منه (٤) . فغضب نور الدين من هذا التصرف (٥) ، ولم يعد الشريف راجح إلى مكة إلا بعد مغادرة نور الدين لها (٦) . وترجع أسباب تخوف الشريف راجح إلى ما كان بينه وبين إخوته من خلاف ظن الشريف أن نور الدين هو الذى تسبب فيه وحرض عليه كمقدمة لخلع راجح عن نيابته

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) الخزرجي : العسجد ص٢٢٩ ، العقد الفاخر جـ٢ ص٦٦ ب ، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٦ .

(٣) الخزرجي :العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٥ ، الفاسي :العقد الثمين جـ٣ ص٣٩٥ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ب ، الخزرجي : العسجد ص ٢٢٩ .

(٥) الخزرجي :العقود اللؤلؤية جـ١ ص٥٤ ، الفاسي :العقد الثمين جـ٣ ص٣٩٥ .

(٦) الفاسي : نفس المصدر جـ ٢ ص ٧٤١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٦ ب .

له على مكة ، ولكن نور الدين أنكر مانسبه الشريف راجح إليه (١) .

٣ – استمرار الصراع بين بني رسول والأيوبيين حول الحجاز ، وما أسفر عنه من نتائج :

رأينا كيف بدأ التنافس بين السلطان نور الدين والسلطان الكامل محمد حول السيطرة على الحجاز ، وكيف تبودلت الحملات بينهما واستمرت الى حد أنه كلما استولى أحدهما على مكة ، سارع الطرف الآخر بارسال حملة لتدعيم قواته حتى تصبح قادرة على استردادها (٢) ، إلى أن استقر الأمر في مكة لصالح نور الدين في سنة ٦٣١ هـ . وقد أثار ذلك ثائرة الملك الكامل فسير في العام التالي حملة قوامها خمسمائة فارس (٣) بقيادة أحد مماليكه (٤) وهو أسد الدين جغريل (٥) وبصحبته أربعة من أمراء الأجناد أحدهما يدعى وجه السبع والثاني البندقي والثالث ابن أبي زكريا والرابع ابن برطاس . فلما علم نور الدين بأمر تلك الحملة قبل وصولها ، بادر بارسال مدد للشريف راجح

---

(١) الخزرجي : العقود جـ١ ص٥٥، العسجد ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ابن تغرى بردى: المنهل الصافي جـ٤ ص ٢٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين حـ ٣ ص ٣٩٥ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، العرشي : بلوغ المرام ص ٤٤ ،

De Gaury : Rulers of Mecca. p. 88 – 89 .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

(٤) المقريزي : السلوك حـ ١ ص ٢٥٠ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٣ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٦ .

بقيادة ابن النصيرى ، وأمره بالتصدى للحملة الأيوبية والصمود فى وجهها واجبارها على العودة دون تحقيق مساعيها فى الاستيلاء على مكة . وعلى الرغم من وصول المدد اليمنى قبل مجىء القوات الأيوبية ، إلا أن الشريف راجح لم يتمكن من التصدى لها بسبب عدم استكمال استعداداته (١) ، واضطر إلى الخروج من مكة وافساح الطريق أمام القوات الأيوبية لتدخل مكة من غير قتال (٢) فى رمضان سنة ٦٣٢ هـ (٣) / مايو ١٢٣٥ م .

وبذلك تحرج موقف الشريف راجح وابن النصيرى ، إذ أصبحا يتحملان تبعة إخفاقهما فى التصدى للأيوبيين ، وعدم تنفيذ الخطة التى أمرهما السلطان بتنفيذها ، ولهذا توجها إلى اليمن لإطلاع السلطان على حقيقة الموقف (٤) . فقام باعداد حملة أخرى فى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م بقيادة الشهاب بن عبدان — وهو ابن قائد الحملة اليمنية الأولى — وزوده بالمال الكافى (٥) ، للانفاق على الحملة . وانضم إليه الشريف راجح بن قتادة ، فلما اقتربت الحملة اليمنية من مكة فاجأها أسد الدين جفريل خارجها بالهجوم وتمكن من التغلب على عسكر اليمن وأسر الشهاب بن عبدان قائد تلك الحملة وأرسله معتقلا

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، جـ ٣ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٤ أ ، ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦١ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٩٦ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣٩٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٥٥ ، العسجد ص ٢٢٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

إلى مصر (١) .

وكان من المتوقع بعد فشل حملة الشهاب بن عبدان أن يقوم السلطان نور الدين على النحو الذى اعتاده بتوجيه حملة أخرى للاستيلاء على مكة ، إلا أن الأمر اختلف هذه المرة عن المرات السابقة ، بسبب انشغاله وقتذاك بإقرار الأوضاع الداخلية باليمن ، نتيجة لخروج زعماء الزيدية عن طاعته واستقلالهم بالمناطق التى كان قد أقرهم عليها ، ولهذا لم يتمكن من إرسال حملة لانتزاع مكة من الايوبيين . وقد ساعد ذلك الموقف على استمرار سيطرة الوالى الأيوبى أسد الدين جغريل على مكة إلى سنة ٦٣٥ هـ / (٢) ١٢٣٨ م .

وما أن انتهى نور الدين من إقرار الأوضاع فى اليمن ، حتى شرع فى تجهيز حملة من ألف فارس (٣) قادها بنفسه إلى مكة (٤) ، فلما اقترب من

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، ابن أيبك : درر التيجان ص ٥٦٢ ، كنز الدرر حـ ٧ ص ٣١٨ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٥٥ ، المسجد ص ٢٢٩ ، الفاسي : العقد الثمين حـ ١ ص ١٨٠ ، حـ ٢ ص ٧٤١ — ٧٤٣ ، حـ ٣ ص ٣٩٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٧٦ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٠٠ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦١ ، المسجد ص ٢٣٢ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ص ١٨٠ ، جـ ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٠١ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة ، العصامى : سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ ، العقيلى : المخلاف السليمانى حـ ١ ص ٢١٥ ، De Gaury : Rulers of Mecca, p. 88 ,

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٥٥ .

مشارفها ، أسرع الشريف راجح بن قتادة لاستقباله والانضمام إليه والاشتراك في الحملة (١) . ورأى نور الدين أن من الخير له تمزيق صفوف أعدائه بشراء ولائهم ، ولهذا لجأ إلى استمالتهم بالمال ، وبتلك الوسيلة أصبح في إمكانه إحداث انقسام في صفوف الأيوبيين ، فقرر لكل من ينضم منهم إليه ألف دينار وفرس وكسوة ، فمال إليه بعضهم (٢) . فلما أحس أسد الدين جغريل بخطورة الموقف ، تخلص من أثقاله فأحرقها (٣) وغادر مكة بقواته (٤) ، فدخلها نور الدين بقواته معتمرا في رجب سنة ٦٣٥ هـ (٥) / فبراير ١٢٣٨م ، ورتب فيها حامية من مائة وخمسين فارسا (٦) تحت امره اثنين من أتباعه ،

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦١ . العسجد ص ٢٣٢ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٨٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ أ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦١ ، العسجد ص ٢٣٢ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حاتم السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجي : العقـود جـ ١ ص ٦١ ، العسجد ص ٢٣٢ ؛ الفاسي : العقد جـ ٣ ص ٣٩٦ .

(٤) العيني : عقد الجمان مجلد ٣ ص ٥ ص ٢٠٧ .

(٥) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦٢ ، العسجد ص ٢٣٢ ، الفاسي : العقد جـ ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ ، العقيلي : المخلاف السليماني جـ ١ ص ٢١٥ .

(٦) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

هما ابن الوليدى وابن التعزى ، وقفل عائدا إلى اليمن (١) .

أما القائد الأيوبى أسد الدين جغريل ، فقد انسحب إلى مدينة الرسول ، فلما وصلها علم بخبر وفاة الملك الكامل محمد الأيوبى ، فعاد بعسكره إلى مصر (٢) مما أدى إلى استمرار سيطرة نور الدين عمر بن رسول على مكة ، ولم تتعرض حاميته فيها لأيه مخاطر طيلة الفترة التى تلت وفاة الملك الكامل (سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م) حتى بداية سلطنة ابنه الصالح نجم الدين أيوب (سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م) ولكن الصالح بعد أن تغلب على المشاكل التى صادفته ، وتمكن من اعتلاء عرش السلطنة الأيوبية واقصاء أخيه العادل ، لم يتردد فى صرف جانب من اهتمامه لاسترداد السيطرة الأيوبية على بلاد الحجاز ، وأرسل فى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م حملة من ألف فارس (٣) عهد بقيادتها إلى الشريف شيحة بن هاشم بن مهنا أمير المدينة الذى تمكن من انتزاع مكة من الحامية اليمنية بغير قتال (٤) .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٢ ، العسجد ص ٢٢٣ ، الفاسى : العقد جـ ٣ ص ٣٩٦ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٥ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٢ ، العسجد ص ٢٢٣ . (كانت وفاة السلطان الملك الكامل فى ٢١ رجب ٦٣٥ هـ / ٩ مارس ١٢٣٨ م) ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٣٠ .

(٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٧ ، العصامى : سمط النجوم العوالى ص ٤٨٠ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٤ ، العسجد ص ٢٢٣ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٢ ، جـ ٣ ص ٣٩٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٠٥ .

وكان نور الدين يعلم مدى الضعف الذى وصلت إليه الدولة الأيوبية ، وقد قوى ذلك من عزمه على التمسك بالسيطرة على مكة والاحتفاظ بنفوذه فيها ، وفى سبيل تحقيق تلك الغاية قرر انفاذ حملة فى نفس العام عهد بقيادتها إلى كل من ابن النصيرى والشريف راجح بن قتادة ، فلما علم الشريف شيحة باقتراب الحملة اضطر إلى مغادرة مكة فدخلها الجيش اليمنى واستولى عليها (١).

لم يجد الصالح نجم الدين أيوب بدا من العمل على حسم الموقف برمته ، لهذا فكر فى توجيه حملة إلى بلاد اليمن للاستيلاء عليها ، ومن ثم تخلص بلاد الحجاز تلقائيا له. ويؤكد هذا ، نص أورده النويرى (٢) ، جاء فيه أن الصالح أصدر أوامره فى التاسع من ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ / ٢٨ سبتمبر ١٢٤٠ م بتجهيز زردخاناه وشوانى وحراريق إلى القلزم بقصد التوجه رأسا إلى بلاد اليمن والاستيلاء عليها (٣)، ولكن الظروف حالت دون الاستمرار فى التنفيذ ، فأوقف أمر الحملة إلى اليمن إكتفاء بالإمدادات التى أرسلها إلى الشريف شيحة والتى مكنته من استعادة مكة فى ذى القعدة سنة ٦٣٨ هـ / مايو ١٢٤١ م من الحامية اليمنية (٤) ، وتولى الشريف شيحة أمر الحج فى

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٢ ، جـ ٣ ص ٢٩٦ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٧١ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٥٣ ص ٢٣٨ .

(٤) النويرى : نفس المصدر والصفحة ، وانظر ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ص ٤٧ .

ذلك العـام (١) .

وهكذا ظلت السيطرة على مكة يتناوبها بنو رسول مرة والأيوبيون مرة أخرى ، إلا أن الحملة التي قادها نور الدين بنفسه سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م تعد خاتمة الحملات المتبادلة بين الجانبين والتي استمرت أكثر من عشر سنوات لتحقيق السيطرة على الحجاز . ويرجع سبب خروج نور الدين بنفسه على رأس تلك الحملة إلى أنه كان قد بعث الشريف راجح على رأس قوة من عسكره لاستعادة مكة، غير أن الأخبار وردت إلى الشريف راجح بأن الصالح أيوب أرسل مددا لتعضيد حاميته بمكة (٢) . وأدى ذلك إلى توقف الشريف راجح عن مواصلة السير بحملته ، وأرسل إلى السلطان نور الدين لإبلاغه بجلية الأمر فرأى أن يتولى بنفسه قيادة الحملة المقبلة إلى مكة (٣) . فلما وصلت أنباء تلك الحملة الضخمة إلى مسامع الشريف شيحة خرج بالقوات الأيوبية من مكة (٤) فدخلها ابن رسول في جيشه الكبير في رمضان سنة ٣٩ هـ (٥) مارس ١٢٤٢ م .

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ ، الخزرجي : العسجد ص ٢٣٤ ، العقود جـ ١ ص ٦٥ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ أ – ب الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٦٨ ، العسجد ص ٢٣٥ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٨ ب

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٤) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٥ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ١٦١ و ٣٤٢ ، ابن ظهير : الجامع اللطيف ص ٣١٢ .

وما أن استولى نور الدين على مكة فى تلك المرة ، حتى عمل على تدعيم سيطرته على الحجاز ، فشرع فى منع وصول الامدادات الأيوبية إليهـــا ، وتمكين قبضته على البلاد . وكانت ينبع من المعاقل التى يحتفظ الأيوبيون فيها بحاميةلهم ، ومن ثم كانت القوات الأيوبية التى ترغم على التخلى عن مكة تلوذ - فى كثير من الأحيان - بها إلى أن تصلهم الامدادات من مصر . ولهذا السبب قرر نور الدين الاستيلاء على ينبع - القاعدة الرئيسية للأيوبيين فى الحجاز - ليمنعهم مستقبلا من تهديد سلطانه فى الحجاز . ولهذا عمل على استمالة الشريف أبى سعد صاحب ينبع ، واشترى قلعة المدينة منه ثم أمر بتخريبها [1].

وهكذا استطاع نور الدين - بعد أن نجح فى الاستقلال بملك اليمن - أن

---

(١) عن مطامع الخوارزمية والصليبيين فى تلك الفترة ، انظر ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٢١ وما بعدها، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٦ ص ٣٢١ وما بعدها ، العينى : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٣٢٠ وما بعدها، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلاميه جـ ٢ ص ١٢١ ، سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٢٣ ، الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى - المجله التاريخية المصرية مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ - ص ٢٠٦ ، السيد الباز العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ص ١٢٧ .

Weit : L' Egypte Arabe, pp. 352, 355, 360 , 372 - 378. Kantarowicy : Fredric the Second, pp. 185, 187, Stevenson: The Crusaders in the East, p. 314, Grousset: Histoire des Croisades, vol. III, p. 231. Runciman : A History of Crusades, vol. III, pp. 169,184 , 216, 226 - 227.

يشغل الأيوبيين عن الوصول إلي اليمن وذلك بالدخول فى منافسة معهم حول الحجاز . وكان للظروف القاسية التى كانت تمر بها الدولة الأيوبية أثرها فى تسهيل مهمة نور الدين، فالصراع بين أمراء البيت الأيوبى فى مصر والشام على السلطنة بلغ أشده ، واستنفذ جانبا ضخما من قوى الأيوبيين ، يضاف إلى ذلك انشغالهم بالخطر الذى يتهددهم من جانب الخوارزمية والصليبيين ، مما صرفهم عن التطلع إلى مشكلات تعد ثانوية بالقياس بتلك الأخطار . وترتب على ذلك كله توقف الحملات الأيوبية الموجهة إلي مكة ، الأمر الذى أتاح الفرصة لنور الدين لبسط نفوذه وسيطرته علي بلاد الحجاز .

والواقع أن الصراع اليمنى الأيوبى حول الحجاز اتسم بصلابة عزم نورالدين بن رسول وإصراره على الاحتفاظ بتبعية مكة لسيطرته ، فكان كلما تمكنت القوات الأيوبية من استعادتها ، قام بتدعيم قواته إلى الحد الذى تصبح فيه قادرة على الاستيلاء عليها مرة أخرى . ولهذا تتابعت الحملات من الجانبين ودارت المعارك بين قوات صاحب اليمن من ناحية وقوات الملك الكامل ثم ابنه الصالح نجم الدين أيوب من ناحية أخرى ، وتناوب كل من الفريقين السيطرة عليها . وكانت معظم المعارك ينقصها الحسم، فالإمدادات الأيوبية كانت تستغرق وقتا طويلا لتصل إلي الحجاز ، فى حين كان لقرب بلاد اليمن من الحجاز أعظم الأثر فى تسهيل مهمة الجانب اليمنى المنافس ، فكانت تزود قواتها بالإمدادات المتتابعة ، هذا إلى جانب الجهود التى كان الشريف راجح ابن قتادة يبذلها لاستخدام الكثير من أعراب الحجاز ، مما ساعد على تحقيق التفوق العددى فى كثير من الأحيان . ومع ذلك فإن إعداد أى حملة مضادة كان يتم على أساس تقديرات القوة التى تركها الجانب الآخر لحماية مكة . ومن الملاحظ أنه لم يحدث قتال بين قوات الطرفين داخل مكة ، إذ كلما أحست

الحامية المرابطة في مكة بقرب وصول حملة مضادة عمدت إلى الانسحاب من مكة والتخلي عنها في معظم الأحوال ، فتدخلها قوات الطرف الآخر بغير حرب ، وربما اشتبكت معها في قتال يتم عادة خارج مكة ، تعظيما من الجانبين المتحاربين لحرمتها .

٤ ـ أعمال نور الدين عمر بن علي بن رسول في مكة :ـ

كان نور الدين مصلحا من كبار المصلحين ، اهتم بأعمال البر والتعمير في مكه منذ أن كان يتولاها نيابة عن المسعود بن الكامل ، ففي سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٣ م قام بعمارة المسجد الذي اعتمرت منه السيدة عائشة رضي الله عنها (١) وهو مسجد الهليلجة ـ نسبة إلى شجرة هناك ـ الذي بني في التنعيم (٢) ، كما عمر دار الخليفة أبي بكر في زقاق الحجر (٣) . وفي سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م ـ أثناء صراعه ضد الأيوبيين ـ أرسل إلى الشريف راجح بن قتادة بقناديل من الذهب والفضة ليعلقها بالكعبة بدلا من تلك التي استباحها بنو قتادة أثناء صراعهم ضد أخيهم الشريف راجح(٤) .

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم جـ ١ ص ٧٢ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ ، المنهل الصافي جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٢) النهروالي : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٤٥٤ ، محمد حسين هيكل : في منزل الوحي ص ٢٦٥ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم جـ ٨ ص ٧٢ ، حوادث الدهور ص ٣٧٤ المنهل الصافي جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٤ أ ، الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٥٥ ، المسجد ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي جـ ٤ ص ٢٩٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ أ .

ولما استقرت مكة تحت سيطرته سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م قام بعدة إصلاحات فيها ، فأبطل المكوس والجبايات والمظالم (١) ، وكتب بذلك مربعة علقت على زمزم في مقابلة الحجر الأسود (٢) ، كما أنشأ المدرسة المنصورية ــ نسبة إليه ــ بجوار مدرسة الزنجيلي في الجانب الغربي من المسجد الحرام (٣) ، كما عمر رباطا بمكة (٤) .

وقبل عودة نور الدين إلى اليمن ، استناب على مكة مملوكه فخر الدين إياس الشلاح (٥) ، وجعل الشريف أبا سعد بن على بن قتادة بالوادى مساعدا لعسكره ، وظل نواب نور الدين على مكة أكثر من سبع سنوات كانت كلها ــ على حد قول مؤرخى اليمن ــ سنى خير على أهلها ، فبنوا الدور وعمروا القصور ، واقتنت نساؤهم الحلى من الذهب والفضة . وكان نور الدين يبعث إليهم كل عام بالصدقات (٦)، كما قام نوابه على راحة الحجيج وخاصة بالنسبة للشخصيات البارزة ، ففى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م ، توجهت

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٧ ، شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٣٧ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٢٧٥ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٦٩ ، العسجد ص ٢٢٥ ، بامخرمة : ثغرعدن جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ٤ ص ٢٦٩ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الخزرجى : العسجد ص ٢٠٦ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ب ، الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : العسجد ص ٢٣٦ .

والدة الخليفة المستعصم بالله العباسى لأداء فريضة الحج ، فاستقبلها فخر الدين الشلاح نائب السلطان نور الدين وقام على خدمتها ، كما أرسل إليها السلطان هدية عظيمة (١) .

ومن أشهر الأحداث التى وقعت فى عهده ، تلك الريح العاصفة التى هبت على مكة فى سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م (٢) وأدت إلى نزع كسوة الكعبة وتمزيقها ، وأصبحت الكعبة بغير كسوة ، وزال عنها شعار السواد ، فكان ذلك فألا على زوال الدولة العباسية (٣) . فلما حاول نائب صاحب اليمن كسوتها ، منعه شيخ الحرم العفيف منصور بن منعة البغدادى ، ولم يسمح له بكسوتها ، بحجة أن ذلك لا يكون إلا من مال الخليفة ، وقام شيخ الحرم باقتراض مبلغ ثلاثمائة دينار اشترى بها ثيابا من القطن وصبغها باللون الأسود وركب عليها الطرازات القديمة وكسا بها الكعبة (٤) بعد أن كانت تكسى

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة ، الخزرجى : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ذكر الفاسى هذه الحادثة سنة ٦٤٣ هـ فى حين أورد أنه وجدها بخط الميورقى سنة ٦٤٤ هـ (تحفة الكرام ـ مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٢٨١٣ ح ـ ص ٢٧ أ) وكذلك أوردها العينى فى حوادث سنة ٦٤٤ هـ مؤيدا بذلك الميورقى (عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٨٥) .

(٣) قال العينى بأن هذه الكسوة كانت قد عتقت ، لأنها لم تجدد منذ عام ٦٤٠ هـ لعدم وصول ركب الحاج العراقى من قبل الخليفة (عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٨٥) .

(٤) العينى : نفس المصدر والصفحة ، الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج مخطوط بدار الكتب رقم ٥٥٨٧ تاريخ ص ٤١ .

بالديباج الأسود [1].

ولقد حافظ نور الدين بن رسول على تبعية مكة له ، واستمر يقيم عليها نوابه حتى وفاته [2] في التاسع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ [3] / ١٣ فبراير ١٢٥٠ م . وكان نور الدين قد استجاب فى أواخر عهده لأحد أتباعه وهو شمس الدين محمد بن المسيب ، وولاه على مكة فى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩ م بدلا من فخر الدين إياس الشلاح، وكان ابن المسيب قد التزم له بأداء مبلغ محدد من المال ومائة من الخيل سنويا [4]، بالإضافة إلى تكفله بالنفقة على ما معه من الجند [5]. ولكنه لم يكد يصل إلى مكة حتى طمع فى الاستبداد بأمرها ، وأساء إلى سيده بما قام به من إعادة الجبايات والمكوس التى كان السلطان نور الدين قد أسقطها عن أهل مكة ، واقتلع النائب المربعة الخاصة بذلك ، والمثبتة قبالة الحجر الأسود [6] . ولم يتوقف عند هذا الحد وإنما استولى على ما كان

---

(١) الفاسى : تحفة الكرام ص ٢٧ أ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٣ ص ٢٩٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١٢ ، با مخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٧٨

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٤٩ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٨٢ – ٨٣ ، العسجد ص ٢٤١ – ٢٤٢ ، الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٠ ب .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٤٧ ب .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٧٧ ، العسجد ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٩ ب .

(٦) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

يرسله سلطانه من صدقات إلى فقراء مكة . وبنى لنفسه حصنا على جبل أبى قبيس واخرفى نخلة ، وجمع أموالا طائلة ، وامتنع عن الإنفاق على الجند ، فتفرقوا عنه ، وعاد معظمهم إلى اليمن . واستغل الشريف أبو سعد حسن بن على ابن قتادة فرصة ما قام به ابن المسيب واعتقله فى شهر ذى القعدة ٦٤٧ هـ (١) / فبراير ١٢٥٠ م ، واستولى على مالديه من أموال وغيرها . ولكى يظهر بمظهر الولاء والاخلاص لسلطان اليمن . استحضر شيخ الحرم وأعيان مكة والمجاورين وأشهدهم بأنه إنما قام بهذا العمل لتأكده من اعتزام ابن المسيب الخلاف والهرب بما تجمع لديه من الأموال إلى العراق ، وتعهد الشريف أبو سعد بالتحفظ على ماصادره منه حتى يأتيه أمر السلطان نور الدين فيقوم بتنفيذ مايأمره به . غير أن الأنباء لم تلبث أن وردت بمقتل نور الدين (٢) .

ثانيا : العلاقات اليمنية مع مصر والحجاز فى عهد المظفر يوسف :-

١ - استقلال بنى قتادة بحكم مكة :

ساءت الأحوال الداخلية فى اليمن بعد مقتل نور الدين عمر بن على بن رسول ، وشغل ابنه المظفر يوسف فى حروب داخلية ، بذل فيها قصارى جهده للظفر بالسلطنة ، والدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه ، فصرف قسما كبيرا من جهوده فى التخلص من منافسيه من بنى رسول ، والقضاء على

---

(١) الفاسى: نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٣٧ ، الطبرى : الأرج المسكى فى التاريخ المكى ص ٤٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٧ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٧٨ ، العسجد ص ٢٣٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦١ ب .

المطامع الزيدية ، والعمل لتمكين سطوته على البلاد [١] .

وفى مصر ، فشلت المحاولات الأيوبية المتكررة للاحتفاظ ببلاد الحجاز ، نتيجة لانقسام البيت الأيوبى فى مصر والشام ، واشتداد النزاع فيما بينهم ، وتحالف أمراء الأيوبيين فى الشام ضد الملك الكامل الذى اضطر بدوره إلى التحالف مع الصليبيين . وقد أتاح ذلك الفرصة لتلك القوى المعادية للعمل على تحقيق مطامعها فى السيطرة على أجزاء من الدولة الأيوبية ، مما ترتب عليه تصدع بناء تلك الدولة ثم انهيارها وسقوطها فى النهاية فى سنة ٦٤٨ هـ [٢] / ١٢٥٠ م ، وقيام دولة المماليك البحرية على أنقاضها .

وقد اشتغل سلاطين دولة المماليك البحرية بالعمل على تثبيت سيطرتهم والدفاع عن دولتهم الناشئة ضد القوى المعادية فى الداخل والخارج ، كما كان لاستفحال الخطر المغولى فى أعقاب سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى صفر ٦٥٦ هـ / فبراير ١٢٥٨ ، ومصرع الخليفة المستعصم بالله ، وتهديد هولاكو لبلاد الشام ومصر ، أكبر الأثر فى تحرج موقف السلطان المملوكى ، إذ وقع عليه عبء مواجهة ذلك الخطر الداهم . وقدر للسلطان المظفر قطز بانتصاره

---

(١) انظر ماسبق ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٩٧ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٨٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٧١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٧ ،

Wiet : L'Egypt Arabe , pp . 359 - 369 .

على قوى المغول فى عين جالوت فى سنة ٦٥٨ ﻫ / ١٢٦٠ م [١] أن يزيح هذا الخطر نهائيـا عن الشام ومصر ، ويخلص البلاد من مصير تعس كان من الممكن أن يقترن بمصائر الدول الاسلامية الآسيوية التى اجتاحتها جحافل المغـول .

وفيما يتعلق بمكة ، فمن المعروف أن إمرتهـا ظلت فى بنى هاشم إلى ولاية الشريف مكثر بن عيسى بن فليته الحسنى [٢] ، ثم انتقلت بعد وفاته فى سنة ٥٩٧ ﻫ إلى الشريف أبى عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسنى (٣) . وتتابع بنو قتـادة على حكم مكة إلى أن استولى عليها المسعود ابن الـكامل صاحب اليمن في سنة ٦١٩ ﻫ / ١٢٢٢ م ، وعندئذ خرجت مكة عن حكم بنى قتادة ، وأصبحت تابعة للقوى المسيطرة عليها ـ مصر أو اليمن ـ

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ ص ١٧ ، المقـــريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٢ و ٤٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجـــوم ج ٧ ص ٥٠ و ٧٦ و ٨١ ، العينى : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٣١٤ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ص ١٨٣ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ج ٢ ص ٥٤٩ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨ ــ ١٩٩ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٦٢ حاشية ٢، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٧ ــ ٢٧٥ ، Hogarth : History Arabia, p. 82,

Wensinck : Art. Mecca & Katada in ENC. of Islm.

(ويذكر الفـاسى أن ولاية مكة آلت إلى قتادة سنة ٥٩٧ ﻫ على ماذكره الميورقى ، وفى سنة ٥٩٨ على ماذكره الذهبى فى العبر ، أو سنة ٥٩٩ حسب رواية ابن محفوظ) العقد الثمين ج ٤ ص ١٨٣ ، شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٩ .

وتولى إمرتها نواب من قبل القوى المسيطرة إلى أن ستقرت تبعيتها لبنى رسول سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م، وظل نواب نور الدين بن رسول يمثلونه فيها حتى وفاته فى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م ، عندما أقدم الشريف أبو سعد حسن بن على بن قتادة على اعتقال ابن المسيب والاستئثار بإمرتها بعد أن بلغه نبأ مقتل صاحب اليمن نور الدين بن رسول . ومما لاشك فيه أن الظروف التى كانت تمر بها كل من اليمن ومصر كان لها أثرها العميق فى تشجيع بنى قتادة على الاستقلال بمكة وما يليها جنـــوبا ، فى حين سيطر الحسينيون أشراف المدينة على الجزء الشمالى من الحجاز (١) .

وباستقلال الشريف أبو سعد حسن بن على بن قتادة بإمرة مكة ، بدأت المنافسات بين بنى قتادة على امارتها ، فتوجه الشريف جماز بن حسن بن قتادة إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى صاحب دمشق وحلب وطلب مساعدته ضد خصـومه ، فى مقـابل ذكر اسمه فى الخطبة ، وأمده الناصر يوسف بحملة تمكن بفضلها من الاستيلاء على مكة (٢) فى شوال سنة ٦٥١ هـ (٣) / نوفمبر ١٢٥٣ م ، وقتل واليها الشريف أبا سعد (٤) . وما أن تم



---

(١) Bu.khardt : Travels in Arabia , vol . II , p : 277 .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٩ .

DeGaury ; op . cit . pp . 86 , 92

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٦٣ أ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١٠٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٥ .

(٤) ذكر الفاسى أن مقتل أبى سعد حادث فى شعبان وقيل فى رمضـــــان . (شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١) .

له ذلك حتى نكث بعهده لصاحب حلب ، وخطب لصاحب اليمن المظفر يوسف [1] . ومع ذلك فلم يقدر له الاستمرار فى حكم مكة ، إذا استطاع الشريف راجح بن قتادة ـ حليف بنى رسول ـ انتزاع ولايتها منه [2] فى ذى الحجة سنة ٦٥١ هـ[3] / يناير ١٢٥٤ م . إلا أن ابنه غانم بن راجح لم يلبثه أن خرج عليه وتمكن من الاستيلاء منه على مكة فى ربيع الأول [4] ٦٥٢ هـ / ابريل ١٢٥٤ م ، وذلك بتحريض من الشريفين إدريس بن قتادة وأبى نمى ابن أبى سعد بن على بن قتادة ، فلما نجح فى تنفيذ خطتها وأزاح أباه عن الحكم ، تآمرا عليه وانتزعاها منه واشتركا معا فى حكمها [5] .

وهكذا عمل أشراف مكة ـ وعلى الأخص بعد سقوط الخلافة فى بغداد ـ على تثبيت سيطرتهم والاستقلال بحكمها ، وقد بلغ من سطوتهم أنهم لم يذكروا اسم الخليفة العباسى على منابر مكة بعد إحياء الخلافة فى مصر على يد الظاهر بيبرس [6] .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٩ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ . De Gaury: Rulers of Mecca , p . 92 .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ١١٥ ، العسجد ص ٢٦٣ ، الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٧٤٢ ؛ شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠١ ، زينى دحلان : خلاصة الكلام ص ٢٧ .

(٥) ابن حاتم : السمط ص ٦٥ ب ، الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٢ ، الطبرى : الأرج المسكى ص ٤٨ .

(٦) Arnold : The Caliphate, pp. 100 - 101.

كان للصراع القائم بين أشراف مكة ، واضطراب الأحوال فيها ، أثره العميق في قيام المظفر يوسف ـ بعد أن تخلص من مشاكله الداخلية ـ بإرسال حملة من ثلاثمائة فارس بقيادة مبارز الدين بن برطاس إلى مكة في ذى القعدة سنة ٦٥٢ هـ/ديسمبر ١٢٥٤م لاقرار الأوضاع فيها وإعادتها إلى سيطرة بنى رسول . فلما علم الشريفان إدريس وأبو نمى بذلك استنجد بالشريف جماز ابن شيحة صاحب المدينة وخرجوا في خمسمائة فارس لمقاتلة ابن برطاس [1] ، ولكن المعركة التى دارت بين الطرفين خارج مكة انتهت لصالح ابن برطاس وهزيمة الأشراف ومقتل عدد كبير من أتباعهم ، واستولى ابن برطاس على مكة وحج في ذلك العام بالناس [2] .

فلما انتهى موسم الحج كان الأشراف قد تمكنوا من حشد جموع كثيفة زحفوا بها سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م إلى مكة وحاصروا ابن برطاس فيها، وتمكنوا من دخولها من جهة الجبال المحيطة بها [3] . وكاد النصر يتحقق للمرة الثانية لابن برطاس لولا أن تفرقت قواته وانشغلت بالغنائم ، مما أتاح الفرصة لانتصار الأشراف ، ووقوع ابن برطاس أسيرا ، فافتدى نفسه بخمسة آلاف دينار وعاد إلى اليمن [4] .

ويغلب على الظن أن السلطان المظفر قد وفق بعد ذلك في إقامة علاقات

---

(١) ابن حاتم : نفس المصدر والصفحة .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ١١٥ ، العسجد ص ٢٦٣ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٦٧ ب .

(٣) الخزرجى : العقود جـ١ ص ٩٩ - ١٢٠ ، العسجد ص ٢٦٦ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ١ ص ١٢٠ ، العسجد ص٢٦٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٦٧ب ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ١ ص٩٣- ٩٤ ، De Gaury : op. cit., p. 92.

طيبة مع أشراف مكة ، ذلك أنه لما استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م وقضوا على الخلافة العباسية فيها ، تولى المظفر يوسف سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩م أمر الحرم الشريف(١) وعمارته واقامة منائره وخدمته ، والانفاق على قومته (٢) .

وفي سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١م توجه السلطان المظفر يوسف لأداء فريضة الحج (٣) في حشد كبير من أهل اليمن وأعيانها ، فلما اقترب من مكة فر الشريفان أدريس وأبو نمي خوفا منه ، فدخلها المظفر حاسر الرأس معتمرا (٤) في الرابع من ذي الحجة (٣٠ أكتوبر) ، ونزل في المدرسة المنصورية التي أنشأها أبوه (٥) . واغتنم فرصة وجوده بمكة ليقوم ببعض أعمال البر والإحسان ، فتصدق بأموال طائلة (٦) ، وقد بلغ من كثرتها أن شملت جميع أهل مكة والحجيج على اختلافهم ، كما أنعم على أهل الحرم والحاج المصري بصفة خاصة (٧) ، وقام بغسل الكعبة بنفسه وطيبها ونثر عليها

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ٦٨ ب .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ١٢٨ ، العسجد ص ٢٧١ .

(٣) الذهبي : تاريخ الاسلام جـ٣١ ص ١٥٥ .

(٤) الخزرجي : العقود جـ١ ص١٣٤ ، العسجد ص ٢٧٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٧ ب .

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر ص٧٠ ب .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٩ ،

Jomier : Le Mahmal et la Caravane, p. 50.

(٧) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧١ أ ، الخزرجي : العقود جـ١ ص١٣٤ – ١٣٥ ، العسجد ص٢٧٦ .

الذهب والفضه (١) . وكسا الكعبة ، فكان أول من كساها بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد (٢) ، وتكرر قيامه بكسوتها فى سنوات أخرى (٣) ، إذ أرسل فى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م كسوة للكعبة وأخرى للضريح النبوى (٤) كما قام فى سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٨م بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة على يد نجم الدين حسن بن التعزى (٥) ، ثم كسا الكعبة مرة ثالثة فى سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣م على يد قاسم بن محفوظ (٦) .

٣ ـ تطور العلاقات اليمنية المصرية بين المظفر يوسف والظاهر بيبرس :

ارتفعت مكانة السلطنة المملوكة فى العالم الاسلامى بما حققته من انتصار ساحق على قوى التتار فى عين جالوت ، وبمناسبة ذلك الانتصار قام المظفر قطز بإرسال كتبه إلى سلاطين المسلمين يبشرهم فيها بانتصار المماليك الساحق

---

(١) الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقريزى : الخطط حـ١ ص٢٠٢ ، الذهب المسبوك ص ٢٨٤ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، تحفة الكرام ص ٢٧ب ، المقريزى : الخطط نفس الجزء والصفحة ، الذهب المسبوك نفس الصفحة .

(٣) الفاسى : تحفة الكرام ، نفس الصفحة .

(٤) ابن حاتم : نفس المصدر ص ٧٢ أ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ١٤١ ، العسجد ص٢٧٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص٧٧ب .

(٥) ابن حاتم نفس المصدر ص ٧٦ أ ، الخزرجى : العقود حـ١ ص ١٦٩ ، العسجد ص ٢٨٠ .

(٦) الخزرجى : العقود حـ١ ص١٧٤ ، العسجد ص ٢٨٣ .

على التتار ، وكان السلطان الرسولى من بين من أرسل لهم قطز بالبشارة (١).

فلما تولى بيبرس عرش السلطنة المملوكة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م كتب بذلك إلى الملوك وفى جملتهم المظفر يوسف صاحب اليمن (٢) . وكان الظاهر بيبرس يحظى باحترام سلطان اليمن وتعظيمه لما عرف عن دوره البطولى فى عين جالوت ، فكان ذلك من بين الأسباب التى جعلت السلطان الرسولى يسعى إلى توثيق علاقاته السياسية بمصر ، ويتجلى ذلك من أحد مواقفه ، فعندما حج فى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م حدث عندما حان وقت الوقوف بعرفات أن أمر بأن ترفع أعلامه مضمونه إلى أعلام مصر ، فلما اعترض بعض أتباعه وطلب من المظفر تقديم أعلامه رفض قائلا : « أترانى أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس » (٣) . فكان ذلك التصرف من المظفر فاتحة لصفحات جديدة من

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ٧ ص ٣٦٠ — ٣٩٢ ، أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام — بيروت ١٩٦٩ — ص ٢٦٩ — ٢٧١ . (ويذكر القلقشندى أن الملك المظفر قطز أرسل كتابا بالبشارة بهزيمة التتار إلى صاحب اليمن ، وهو « يومئذ المنصور » . غير أن السلطان المنصور وهو نور الدين عمر بن على بن رسول توفى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م قبيل سقوط الدولة الأيوبية فى مصر بعدة أشهر ، ولم يعاصر المماليك ، ويرجع سبب وقوع القلقشندى فى هذا الخطأ إلى أخذه هذا الكتاب « من أفواه بعض الناس » . وقد يقصد بالمنصور السلطان المظفر يوسف إذ أن من ألقابه (أبو المنصور) .

(٢) العينى : عقد الجمان حـ٥٤ ص٤٥٨ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص٧١ أ ، الخزرجى : العقود حـ١ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٢٧٥ ، العبادى : نفس المرجع ص١٦٨ .

العلاقات الودية مع دولة المماليك فى مصر ، وبدأت منذئذ السفارات والهدايا تتردد بين البلدين ، فى سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م وصلت رسل اليمن إلى مصر « بمراكب موسقة » (١) . كما وصلت هدية أخرى إلى مصر فى سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م تشتمل على تحف كثيرة (٢) من الخيل والفيلة والحمر الوحشية (٣) ، وغير ذلك مما جرت به العادة كالمسك والعنبر والنفضيات وغيرها ، فقبلت الهدية ، وأعفى رسول صاحب اليمن من الرسوم المستحقة على ما كان معه من البهار (٤) .

ومما يروى بمناسبة تلك الهدية الأخيرة ، أن والدة السلطان المظفر أرسلت — مع هدية ابنها — كمية من البهار لانفاق قيمتها على المجاهدين ، فأمر بيبرس ببيعها . ويذكر ابن الفرات أن السلطان اشترى بجزء من قيمتها جملة من المنجنيقات عندما عزم على الغزو ، واستخدم المتبقى فى فدية بعض الأسرى (٥) . فلما تهيأ رسل المظفر للعودة ، جهز السلطان بيبرس معهم سنجقا وخلعة وشعار السلطنة إلى المظفر الرسولى (٦) ، كما أرسل إليه — بناء

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك حـ١١ ص ٩٦ أ ، وانظر ، المقريزى : السلوك حـ١ ص٥٤٣ .

(٢) عقد الجمان : مج ٥٤ ص ٥٤٥ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٢٩ .

(٣) المقريزى : السلوك حـ١ ص ٥٦٣ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر حـ١٠ ص١٢ ب .

(٥) ابن الفرات : المصدر والجزء والصفحة .

(٦) المقريزى : السلوك حـ١ ص ٥٦٣ — ٥٦٤ ، العينى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .

على طلبه ـ قميصه أمانا له ، بالإضافة إلى بعض آلة الحرب . وكتب إليه قائلا : « قد سيرنا لك آلة السلم والحرب مما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد » . وأرسل إليه بعض الطيور الجارحة ، « ورسم بأن يكاتب بالمقام العالى المولوى السلطانى ، وكاتبه السلطان ، بالمملوك » . وتوجه رسوله إلي اليمن بالمكاتبات والهدايا صحبة رسل اليمن العائدين سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م (١) .

وبينما كانت الصلات الودية تزداد وثاقة يوما بعد يوم بين بنى رسول والمماليك ، كانت الصراعات تشتد والحروب تحتدم بين الأشراف من بنى قتادة منذ استعادة سيطرتهم على مكة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م واستقلالهم بحكمها عن اليمن ومصر ، وترجع أسباب تلك الصراعات إلي مطامع زعماء بنى قتادة ورغبة كل منهم فى الانفراد بإمرتها (٢) ، مما أدى إلى عدم استتباب الأمن وانتشار الفوضى فى ربوع الحجاز ، وتعرض أهل مكة والمجاورين للنهب والقتل ، ولم يسلم من ذلك الحجيج والتجار (٣) وخاصة فى مواسم الحج .

ومما كان يزيد الموقف اشتعالا ، استئثار الشريف الحاكم بالسلطة ، واستحواذه على الهبات والأموال وعائدات الضرائب ، وغير ذلك من

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك حـ ١٢ ص ١٢ ب ، (ومما يذكر أن رسول بيبرس توفى فى اليمن بعد أن قام بتسليم المكاتبات والهدايا) ابن حاتم : السمط ص ٧٦ أ ، الخزرجى : العقود ج ١ ص ١٦٩ ، العسجد ص ٢٨٠ .

(٢) De Gaury : Rulers of Mecca, pp. 93, 94, 100

(٣) De Gaury : op. cit., p. 99 .

الموارد التي كانت تحصل في موسم الحج أو على مدار السنة ، في حين كانت رغبة الأشراف من أهل بيته أن يلتزم بمشورتهم ، ولا يتصرف في أمر إلا بموافقتهم ، وأن يقتسم موارد البلاد معهم . ولهذا كان الخارجون على شريف مكة — من أسرته — يعمدون إلى الاستعانة بالقوى المحيطة ، سواء في مصر أو اليمن أو العراق [١] أو الحفصيين بتونس [٢] ، وطلب المعونة العسكرية منهم ليتمكنوا من الوصول إلى الحكم ، في مقابل التلويح بذكر اسم من يساعدهم في الخطبة على المنابر ، كوسيلة للاغراء [٣] مما أدى إلى تورط تلك الدول في دائرة الصراعات ، وبالتالي فساد علاقاتها فيما بينها [٤] .

والأمثلة على ذلك كثيرة نقتصر هنا على مايتعلق بالعلاقات اليمنية المصرية، التي لم تلبث أن تأزمت نتيجة للصراع بين أشراف مكة . فقد كان الشريفان

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ص ١٩٣ — ١٩٥ ، دراسات في تاريخ المغرب ص ١٢٩ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر والصفحة

De Gaury : op. cit., pp 94 - 95 .

(٤) لقد بلغ من شدة الصراعات واستمرارها بين أشراف مكة وما يتعرض له المسلمون من أضرار بسببها أن فكر أحد سلاطين المماليك في القضاء نهائيا على الأشراف واستئصال شأفتهم . ولكن العلماء تصدوا له وأقنعوه بالعدول عن ذلك لما للأشراف من شرف الانتساب إلى الرسول باعتبارهم من سلالته . (المقريزي : السلوك حـ ٢ ص ٣٢٩ ، De Gaury : op. cit., p. 100) .

إدريس بن قتادة وأبو نمى بن أبي سعد بن على بن قتادة شريكين في حكم مكة منذ استوليا عليها سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٤ م . وفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م تمكن أبو نمى من طرد شريكه وانفرد بحكم مكة (١)، وأرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يبرر فيها موقفه من ادريس ، مدعيا أنه إنما لجأ إلى هذا التصرف عندما تأكد له ميل إدريس إلى سلطان اليمن ، وأنهما - أي الشريف إدريس والسلطان المظفر - « تحاملا على دولة السلطان الملك الظاهر » (٢) .

وقد تكون رسالة أبي نمى سببا مباشرا توجه الظاهر بيبرس إلى الحجاز في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م . إذ لم يكن ذلك في برنامجه على الاطلاق، بدليل أنه لم يصرح بذلك لدى خروجه من القاهرة في طريقه إلى الكرك ، وأغلب الظن أن تلك الرسالة وصلته بعد خروجه من القاهرة ، إذ لم يلبث أن خرج من الكرك إلى الشوبك ومنها سلك طريقه عبر سيناء إلى الحجاز(٣). فلما وصل إلى مكة ، كان الشريف أبو نمى قد صالح شريكه ادريس وأعاده معه إلى الامرة (٤) . فلما وصل الظاهر بيبرس استقبلاه استقبالا حافلا .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك حـ ١٢ ص ٤٥ ب ، العيني : عقد الجمان مج ٤ ص ٥٥٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر حـ ٤ ص ٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٣ ص ٧٥٤ ، ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك - مخطوط رقم ٦١٧٠ ح بدار الكتب - حـ ١ ص ١٢١ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ض ٥٨١ ،
De Gaury : Rulers of Mecca, p. 93 .

(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

وسجل بيبرس أثناء مقامه بالحجاز كثيرا من أعمال البر والخـــير ، وتصدق بكثير من الأموال وأنعم بالكساوى على أهل الحرمين (١) ، وخاصة أمراء الحجاز باستثناء أميرى المدينة لفرارهما عندوصوله إلى الحجاز وتجنبهما استقباله خوفا منه (٢) كما عمل على إزالة الخلافات القائمة بين شريفى مكة (٣) وكتب لكل منهما منشورا بالاشتراك فى الولاية (٤) ، وخصص لهما عشرين ألف درهم سنويا نظير العمل على تيسير الحج وعدم فرض أى مكس على الحجاج ، وعدم التعرض للتجار ، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه . وسلم الأوقاف الموقوفة على الحـرم فى مصر والشام لنوابهما (٥) ، وعين معهما – وبناء على طلبهما – نائبـا له فى مكة ، يكون الحل والعقد على يديه (٦) ، وقام بالاضافة

(١) المقريزى : السلوك نفس الجزء والصفحة .

(٢) الفاسى : نفس المصدر والجـزء ص ٢٤٠ ، المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) De Gaury : op. cit. p. 93 .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٨٢ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٧٩ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٣٠ ،
Jomier : Le Mahmal et la Caravan e Egyptienne, p. 210 .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٨٢ . (يبدو أن شريفى مكة قصدا من وراء وجود نائب للسلطان معهما ، ضمان عدم تجدد النزاع بينهما وأن يأمنا – من جهة أخرى – بتواجده معهما ، مطامع منافسيهما ، واكتساب ثقة السلطان ورضائه عنهما من جهة ثالثة) .

إلى ذلك بكسوة الكعبة (١) . وهكذا استرجعت مصر سيادتها على الحجاز وأصبح تنصيب وعزل ولاتها من اختصاص السلطان المملوكي .

ولم يغفل بيبرس مانقل إليه من تدخل المظفر الرسولى فى شئون الحجاز ، فأرسل إليه كتابا ينكر عليه فيه مابلغه عنه من تصرفات - ومما ورد فى ذلك الكتاب قوله : « سطرتها من مكة المشرفة ، وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة» (ويعنى بالخطوة المنزلة) وقال له :إن « الملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ، ويبذل من نفسه فى الذب عن حوزة الدين . فإن كنت ملكا فاخرج والتق بالتتار (٢) .

ومن الواضح أن خطاب بيبرس اتسم بالقوة والتجريح ، فقد أكد فيه دور مصر وسلاطينها فى الذب عن الاسلام والجهاد فى سبيل الله ، وتحمل عبء الدفاع عن أراضي الإسلام ضد غزوات الطامعين والأعداء . أو فيما يتعلق بما نسبه أبو نمى أبى المظفر يوسف ، فمن المعتقد أنه كان محض افتراء ، قصد بو نمى به إفساد ماطرأ على العلاقات اليمنية المصرية من تحسن ، وإدخال الطرفين في صراع يماثل ماحدث حول الحجاز في أواخر العصر الأيوبى ، ليتحقق لأشراف مكة الحصول على مكاسب من الجانبين إذا ماقامت الحرب بينهما . ويؤيد هذا الرأى ، ماسبق أن توضح من أمثلة

---

(١) المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٣٥٧ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام - بيروت ١٩٧٢ - القسم الأول ص ١٥٧ .

(٢) ابن الفرات: تاريخ الدولة والملوك جـ ٢ ص ٦٣ أ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٨١ - ٥٨٢ .

تعبر عن تعظيم السلطان المظفر للسلطان بيبرس ، عندما رفض تقديم الأعلام اليمنية على أعلامه فى عرفات عند قيامه بالحج سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م (١) ، لا لشيء إلا تقديرا لجهاده فى سبيل الاسلام .

وتصمت المصادر عن الاشارة إلى رد الفعل الذى أحدثته رسالة بيبرس لدى المظفر ، ويغلب على الظن أنه لم يسكت على تلك الاتهامات وأنه كتب إلى بيبرس موضحا له الموقف ، بما يؤكد عدم صحة مانقله الشريف أبو نمى إليه ، أو أنه استطاع ـ بما عرف عنه من ذكاء وتبصر بالأمور ـ الحفاظ على العلاقات الودية مع بطل من أعظم أبطال الإسلام ، كما أنه ليس من مصلحته ولا من صالح بلاده أن يعرض بلاده لمخاطر الغزو الخارجى ، فى وقت كان الخطر الزيدى قد اشتد فى الداخل .

ويذكر الخزرجى (٢) أن المظفر أرسل إلى مصر خمسمائة فارس ، مشاركة من بلاده فى الجهاد ضد الصليبيين مع تحمل كافة نفقاتهم (٣) ، هذا بالإضافة إلى ما كان يرسله إلى سلطان مصر من صنوف الهدايا والتحف (٤) . غير أن الخزرجى ـ لم يحدد تاريخ إرسال تلك القوة . وإذا سلمنا بصحة ذلك الخبر الذى انفرد به الخزرجى لعدم إشارة المصادر المصرية المعاصرة إليه ـ فمن المرجح أن ذلك تم ردا على كتاب بيبرس ، وإثباتا لحسن نوايا المظفر ، ثم حفاظا على العلاقات الودية بين القطرين الشقيقين ، هذا بالإضافة إلى الرغبة الصادقة فى

---

(١) انظر ماسبق ص ٣٦٧ .

(٢) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٢٧٩ ، العسجد ص ٣١٤ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ٨٢ أ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٢٧٩ ، العسجد ص ٣١٤ .

مشاركته أهل مصر في الجهاد ضد البغاة والعداة من المغول والفرنج على السواء .

ونستدل أيضا على عودة العلاقات الودية بين اليمن ومصر من تلك السفارات والهدايا المتبادلة بين البلدين . فابن الفرات يذكر أن سفارة يمنية وصلت إلى القاهرة في ذي الحجة من سنة ٦٦٩ هـ / يولية ١٢٧١ م محملة بالهدايا والتحف الثمينة وغيرها (١) ، وتكرر ذلك منه سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م وكان الظاهر بيبرس يرحب بتلك السفارات ، ويعمل من جانبه على الرد عليها ، فيأمر بتجهيز الهدايا السنية وإرسالها صحبة رسل اليمن لدى عودتهم الى بلادهم (٢).

ومن مظاهر تحسن العلاقات اليمنية المصرية تجاوز الصلات السياسية إلى تبادل الخبرات بين اليمن ومصر في كافة المجالات المعروفة وقتئذ ، منها على سبيل المثال الاستجابة لما طلبه السلطان المظفر الرسولي من السلطان الظاهر بيبرس بشأن إرسال طبيب إلى اليمن للاستعانة به في القضاء على وباء ظهر بمدينة ظفار من بلاد عمان (٣) .

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر والجزء ص ٨٣ أ ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ٥٩٥ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ١٢٩ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٢٣٢ .

(٢) ابن الفرات : نفس المصدر حـ ١٣ ص ٣٠ أ ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ٦٢١ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

ومن الجـــدير بالذكر أن العلاقات الودية التى سادت بين اليمن ومصر تجاوزت حدود البلدين ، فقد استغل يكونو أملاك ملك الحبشة (١٢٧٠ — ١٢٨٥ م) الصداقة القائمـة بين المظفر الرسولى والسلطان بيبرس ، وأرسل رساله سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م إلى السلطان المظفر بكتب موجهـة إلى السلطان المملوكى بيبرس ليتولى المظفر بدوره إرسالها إلى مصر تأييدا لطلبه لارسال مطران من مصر إلى الحبشة المرتبطة بالكنيسة المصرية . وكان أول ما فعله المظفر أنه حجز رسل ملك الحبشة لديه وكتب مع رسالة ملك الحبشة رسالة يخبر فيها الظاهر بيبرس بالأمر (١) . وقد تعهـد صاحب الحبشة فى رسالته لبيبرس بإرسال الهدايا وأنه سيلبى كل ما يطلبه السلطان الملك الظاهر بيبرس ويرسله إلى السلطان المظفر ليتولى بدوره إرساله إلى مصر ، ضمانا لعـــدم تعرض المطلوب للنهب مثلما حدث فى مرة سابقة (٢) .

ويتضح مما سبق أن العلاقات اليمنية المصرية فى عهـد المظفر الرسولى والظاهر بيبرس كانت فى جملتهـا طيبة ، وقـد حرص المظفر على استمرار ارتباطه بتلك العلاقات الودية مع خلفاء بيبرس .

٣ — سياسة المماليك فى البحر الأحمر وأثر ذلك على العلاقات مع اليمن :

اهتم سلاطين المماليك بعد أن استقرت دعائم دولتهم بشئون البحر الأحمر ،

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور — القاهرة ١٩٦١ — ص٢٦٧ — ٢٦٨ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ١٣ ص ١٦ أ — ١٧ أ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٨ ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ٢٩ ص١٢٣ — ١٢٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ٨ ص ١٨٧ — ١٨٩ .

بهـــدف بسط نفوذهم السياسى والاقتصادى والدينى على الدول المطلة على سواحله ، وتأمين الملاحة فيه بقصد انعاش الحركة التجـارية ، وحماية المقدسات الاسلامية وتيسير الحج على المسلمين .

ومن المعروف أن البحر الأحمر كان يعـد منذ أقدم العصور الطريق البحرى الرئيسي الذى يربط الشرق تجـاريا بالغرب ، والشريان الحيوى الهام المتحكم فى التجارة العالمية عبر حقب التاريخ . وكان التنافس قائما منذ القدم بين هذا الطريق وطريق بحر عمان (الخليج الفارسى) على وجه الخصوص فتزداد أهمية أحدها على حساب الآخر ، وفقـــا للظروف القائمة والقوى المتحكمة فى كل منهما .

فمع قيام الدولة العباسية ، كان طبيعيـا أن تزداد أهمية طريق الخليج باعتباره أقرب الطرق المائية المؤدية إلى ساحـل الابلة فرضة البصرة ، حيث تحمل السلع عبر المجارى المائية فى دجـلة والفرات إلى دار الخلافة والمراكز التجارية بالعراق ، ولكن هذا الطريق أخـذ يفقد أهميته تدريجيا منذ أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها ، وسرى الضعف فى كيانها ، وبوجه خاص بعد أن افتقد عنصر الأمن بانتشار القرصنة فيه ، مما ساعـد على استعادة البحر الأحمر لمكانته الملاحية . ومن الجدير بالذكر أن استئناف النشاط البحرى فى البحر الأحمر ، وجه اهتمام المسئولين فى مصر إلى أهميـة تأمين الملاحة فيه ، حماية للتجارة وحفاظا على سلامة المسافرين فيه من الحجاج إلى بر الحجاز . وليس أدل على ذلك من اهتمام الفاطميين بتخصيص أسطول من خمس سفن المرابطة بميناء عيذاب لحماية مراكب الكارم من اغارات القراصنة (١) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٣ ص ٥٢٤ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص١٥٧ — ١٥٨ .

وبقيام الدولة الأيوبية ازداد الاهتمام بالبحر الأحمر كهدف أساسي من سياسة صلاح الدين. ومن أجل توحيد الجبهة الإسلامية، ولإحكام السيطرة على البحر الأحمر [١]، استولى صلاح الدين على اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م [٢]. كما فرض سيطرته على الحجاز، واستولى على قلعة أيلة التي كان الصليبيون قد اتخذوا منها قاعدة لانتهاك حرمة المقدسات الاسلامية «فكادت القبلة يستولى على أصلها، ومشاعر الله يسكنها غير أهلها» [٣]. فلما كانت المحاولة الصليبية التي قام أرناط بها بهدف الاعتداء على المقدسات الاسلامية سنة ٥٧٨هـ [٤]/ ١١٨٣م استطاع صلاح الدين اتخاذ الاجراءات التي أدت إلى إحباط تلك المحاولة الدنيئة. وواصل الأيوبيون جهودهم بعد صلاح الدين لإحكام السيطرة على البحر الأحمر، فكانت قطع أسطولهم تمخر عباب هذا البحر إلى الحجاز واليمن وغيرهما [٥].

ومع قيام دولة المماليك البحرية في مصر، شغل أول سلاطين تلك الدولة

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ح٢ ص٢٢٨.

(٢) عن الفتح الأيوبي، انظر، محمد عبد العال: دولة بني أيوب في اليمن.

(٣) أبو شامة: الروضتين ح١ ص ٢٤١ — ٢٤٣، ابن واصل: مفرج الكروب ح٢ ص٤٨٦ — ٤٩٣.

(٤) أبو شامة: ح٢ ص٣٦ — ٣٧، الذهبي: دول الاسلام ص٦٦، الصفدي: الوافي بالوفيات ح٥ ص٦٤٨.

(٥) ابن حاتم: السمط ص٣ب، الخزرجي: العسجد، ص ١٨٨، ابن عبد المجيد: بهجة الزمن ص ٤٤ب، النويري: نهاية الأرب ح٣١ ص ٤، المقريزي: السلوك ح١ ص٧٤ — ٧٦.

بالعمل على تثبيت أركانها ، والتخلص من الأخطار الخارجية التى كانت تهددها ، لاسيما خطر التتار الذين اجتاحوا دار الاسلام وأسقطوا الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م، وهددت جحافلهم بلاد الشام ومصر[١].

ويمكننا القول بأن انتصار المماليك الحاسم على قوى التتار فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ[٢]/١٢٦٠م وتوقف المد المغولى وانحساره فى أعقاب ذلك الانتصار ، كان من أهم العوامل التى رفعت من قدر دولة المماليك البحرية فى العالم الاسلامى . ثم تبوأت تلك الدولة مكانتها المرموقة وتدعم مركزها، ولم تلبث أن تزعمت العالم الإسلامى منذ وفق السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة . وقد أصدر الخليفة العباسى تقليدا للظاهر بيبرس بالبلاد الاسلامية وما ينضاف إليها[٣] ، وهى : « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من

---

(١) المقريزى : السلوك حـ١ ص٤٠٩ - ٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ٧ ص٥٠ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر المماليك البحرية ص٢٠ ، العصر المماليكى ص ٢٧ ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص٢١٨ .

Browne ; A litrary History of Persia, vol. II, p. 463, D'Ohsson: Histoire ds Mongols, vol. III, pp. 256-257, Streck (M.)ENC. of Islam, art. Baghdad, Barthold : ENC. of Islam, art. Hulagu

(٢) المقريزى : السلوك حـ١ ص٤٣٠ - ٤٣١ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٤ ، العصر المماليكى ص ٣٤ - ٣٥ ، الأيوبيون والمماليك ص٢٢٢ ، الحركة الصليبية حـ٢ ص ١١٢٧ .

(٣) المقريزى : السلوك حـ١ ص ٤٥٠ .

الفتوحات ، (١) .

وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن المماليك كانوا قد شغلوا عن الاهتمام بالبحر الأحمر ومشكلات مكة والمطامع اليمنية فى الحجاز ، لفترة ركزوا خلالها على الصراع مع بقايا البيت الأيوبى من جهة ، وبالجهاد المقدس ضد التتار والفرنج من جهة ثانية ، وشجع التقليد الخليفى للسلطان المملوكى القيام بواجبه فى السيطرة على الحجاز ، وحماية الحرمين الشريفين وتيسير الحج ، وهذا ما قام الظاهر بيبرس بتحقيقه عندما قام بأداء فريضة الحج سنه ٦٠٧هـ/ ١٢٦٩م حيث تمكن من استعادة مكانة مصر فى تلك البلاد . كما كان عليه أن يبسط سيطرته على اليمن أو على الأقل يربطها برابطة الولاء لدولة المماليك فى مصر ، ويتمثل ذلك فى العلاقات الطيبة التى سادت بين مصر واليمن فى عهد كل من بيبرس والمظفر . وكان على الظاهر بيبرس لتحقيق تلك السياسة أن يسيطر على البحر الأحمر ، ويجعل منه بحيرة مملوكية ، وأن يعمل على تأمين موانيه وسواحله ، لتنشيط الحركة التجارية فيه ، وشرع فى تنفيذ تلك السياسة بإعادة طريق الحج البرى عبر سيناء (٢) ، وسلك بنفسه ذلك الطريق لأداء فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م ، ثم عمد إلى تأمينه من

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص٤٥٤ .

(٢) كان هذا الطريق قد بطل استخدامه طوال فترة الحروب الصليبية ، واستعمل طريق عيذاب بدلا منه . (جاستون فييت : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص٤٨ — ٥٠ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية فى مصر والشام ص٢٦٣ ،

Murray : Aidhab, J.R.S. Sept. 1926, p. 236.

طريق تعمير قلعة السويس (١) ، لتكون قاعدة حربية للدفاع عن حدود مصر الشرقية ، ومنطلقا للحملات إلى بلاد الحجـــاز إذا ما استدعت الأحوال ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن إعادة استخدام طريق سيناء لم يتم على حساب ميناء عيذاب (٢) فقد وجه لكل منها نصيبه من الاهتمام ، وحرص على تأمين طريق عيذاب البرى المؤدى إلى مكة عبر البحر الأحمر ، من غارات البـدو والبجاة سكان المنطقة ، عن طريق حملاته المتواصلة عليهم ، إلى أن أعاد الأمن إلى السالكين عبره . وإلى جانب تأمين الطريقين البريين ، عمـل بيبرس على

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ٧ ص١٩٢ .

(٢) كان ميناء عيـذاب من أهم الموانى المصرية فى البحر الأحمـر ، وذلك بالرغم مما كان يعانيه المسافرون فيه من مخاطر ، إلا أنه كان أكثر أمنـا ، ويؤدى إلى ساحل الحجاز واليمن (كتاب الاستبصار ص٨٧ ، ابن جبير : الرحلة ـ تحقيق حسين نصار ـ ص٢٧ وما بعدهـا) وكانت عيذاب قد أصبحت ـ منـذ العصر الفاطمى ـ المركز الرئيسي لتجارة الهنـد واليمن والحبشة . (المقريزى : الخطط جـ١ ص٣٥٦ ، السيد عبد العزيز سالم .البحرية الاسلامية ص ١٥٦) وعلى الرغم من العودة إلى استخدام طريق سيناء ، فإن ميناء عيذاب لم يفقد أهميته إلا بعد انتعاش ميناء الطور بعد سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م (القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٣ ص ٢٤٣ و٤٦٤ و٤٦٨ - ٤٦٩ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ١٥٧)وانتهى أمر عيذاب تماما عندما قام السلطان برسباى بتخريبها سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م .

(Depping (G.B.) : Histoire du Commerce entre le levant et l' Europe, Paris, 1830, T.I, pp. 53 54).

تأمين الملاحة فى البحر الأحمر، فانتهز فرصة تعرض صاحبى سواكن ودهلك للتجار فى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، واستنكر بادىء ذى بدء هذا العمل منهما[1]، ثم لم يتردد بعد ذلك بعامين فى تسيير حملة إلى سواكن تمكنت من الاستيلاء عليها وإقرار الأمور فيها [2]، ونستدل مما ذكره المقريزى على أن هذه المدينة ظلت خاضعة لمصر بدليل أنها واصلت دفع الزكاة فى سنة ٦٦٥هـ[3]/١٢٦٧م. أما جزيرة دهلك، فقد عمل حكامها على التقرب إلى المماليك وتحسين علاقاتهم معهم تجنبا لمطامع بنى رسول فى اليمن [4].

واستكمالا لإحكام السيطرة على البحر الأحمر أرسل الظاهر بيبرس أسطولا [2] من خمس سفن إلى ميناء عيذاب لتأمين الملاحة فى هذا البحر [6] على النحو الذى كان معمولا به أيام الفاطميين.

وهكذا أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية، وبفضل ذلك أمكن سياسيا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٠٦.

(٢) Rene Basset : Art. "Dahlak" in the ENCY. of Islam.

(٣) Lane-Poole ; The Histoty of Egypt. p. 264.

(ومما يذكر أن المماليك اهتموا بدور صناعة السفن، وقام الظاهر بيبرس بعمارة دار الصناعة فى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢ وتبعه الأشرف خليل الذى أنشأ أسطولا قويا سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م، ثم الناصر محمد بن قلاوون الذى أنشأ أسطولا آخر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م واستمر اهتمام المماليك بعد ذلك بأمر البحرية. (المقريزى : السلوك جـ١ ص٦٠١، الخطط جـ٢ ص١٩٤ - ١٩٥، العبادى : البحرية ص٢٢٠).

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٥٢٤.

مد النفوذ المصرى إلى الأراضى الواقعة على سيفه ، كما أمكن من الناحية الدينية ، السيطرة على الحجاز وحماية المقدسات الاسلامية وتسهيل تأدية فريضة الحج للمسلمين ، ومن الناحية الاقتصادية ، أدت سيطرة مصر على البحر الأحمر وتأمين الملاحة فيه إلى انتعاش التجارة الشرقية ، وجنت مصر من وراء ذلك مكاسب ضخمة .

٤ ـ دور اليمن فى ازدهار طريق البحر الاحمر :

كان لموقع اليمن الاستراتيجى فى الركن الجنوبي الغربى من جزيرة العرب وتحكمها فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، أعظم الأثر فى قيامها بدور رئيسي وبارز فى تجارة هذا البحر . وكانت عدن أهم ثغور اليمن وأعظم مركز تجارى فى المحيط الهندى ، فهى المرسى الرئيسي لبلاد اليمن (١) ، تتردد عليها مراكب الهند (٢) والسند والصين (٣) وكرمان وفارس وعمان (٤) .

وعلى الرغم من قدم عدن فى التاريخ العربى ، إلا أن أهميتها فى الإسلام

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ـ مصر ١٩٣٨ ـ حـ١ ص١٥٩ ،
Kammerer : La Mer Rouge, T.I, p. 66.

(٢) أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص٧٨ .

(٣) ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ ، ص ٥٦ .

(٤) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢١٦ .

بدأت تتضح منذ قيام دولة بنى زياد[١] حيث أخذت فى الازدهار ، وأصبحت مقصد أهل اليمن ومنتجعاً لهم ، فأقبلوا على الاستقرار فيها وتعميرها ، وقصدتها مراكب الهند والصين [٢] . وعلى الرغم من حصانتها الطبيعية ، فإن بنى زريع [٣] حرصوا على تدعيمها بسور[٤] وأصبحت لذلك من أمنع البلاد وأحصنها [٥] ، ولم يكن لعدن مدخل إلا من جانب واحد[٦] . فلما خضعت لدولة بنى أيوب ، قام عثمان الزنجبيلي نائبهم على عدن بإنشاء أسوار أخرى فى مواضع متعددة منها [٧] . كما اهتم بميناء عدن وحرص على تدعيم وتنظيم

---

(١) حكمت دولة بنى زياد اليمن من سنة ٤ ٢ هـ إلى ٤٠٩ هـ / ٨١٩-١٠١٨م (انظر ، عمارة : تاريخ اليمن ص ٢ وما بعدها ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١ أ وما بعدها ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٢١٥ ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب في اليمن ص ١٠ وما بعدها ،

Kay : Yaman, p. 255

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٩ .

(٣) كانت دولة بنى زريع فى عدن (٤٦٧ - ٥٦٩ هـ / ١٠٧٥ - ١١٧ م) انظر ، محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ص ٣٥ وما بعدها .

(٤) ابن المجاور . صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٢١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٠ .

(٥) ابن الأثير : : الكامل جـ ١١ ص ١٧٨ .

(٦) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ١٥٩ .

(٧) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٢٨ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٠ و ١٤ و ٤٧ - ٤٨ .

العمل فيه ، فانتعشت الحركة التجارية واستقر الأمن في المدينة . وأدى ذلك إلى زيادة العمران المدني وانتعاش الحركة التجارية في الأسواق وتدفق الراغبون في سكناها من مختلف المناطق[١]، ويعبر ابن المجاور عن ذلك بقوله : وغالب سكان البلد عرب مجمعة من الاسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقادشة وجبالية وأهل ذبحان وزيالع ... وحبوش . وقد التأم إليها من كل بقعة ، ومن كل أرض ، وتمولوا فصاروا أصحاب خير ونعم [٢] ... » ، بخلاف الوافدين الذين كانت إقامتهم قاصرة على فترة الموسم التجاري فيما بين أغسطس وابريل من العام التالي [٣] .

وكان النظام المتبع في ثغر عدن لاستقبال المراكب ، أن يقوم موظف يطلق عليه « الناظور » برصد المراكب القادمة من أعلى الجبل [٤] . فإذا رست

---

(١) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٣٠ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٠ و ١٤ - ١٥ ، ٤٩ .

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٣٤ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٥٤ .

(٣) Hunter : An Account of British Settlement of Aden. pp. 41 43.

(٤) كان الناظور يقوم برصد المراكب القادمة ، وقت الشروق والغروب حيث يساعد شعاع الشمس الممتد على سطح الماء على الرؤية ، فإذا مالاح له شيء على صفحة الماء قام بقياس ذلك ورصده بعود معه . فإذا كان طيرا تحرك عن موضعه ، أما إذا ظل ثابتا مستقيما تأكد له أنه مركب ، وعندئذ يصيح بأعلى صوته « هيريا » - وهي صيحة يقصد بها الإعلان عن وصول مركب ليتم الاستعداد لاستقبالها - فإذا صدقت رؤيته منح دينار =

المراكب في الميناء تقدم نائب السلطان إليها ، وقام أحد موظفي الديوان بتفتيش الرجال بدقة ، أما النساء فقد كانت تخصص لتفتيشهن امرأة [1] ، ثم يتم تفريغ حمولة السفن ونقلها إلى الفرضة [2] . ويصف ابن المجاور ما كان يعانيه التجار عند وصولهم إلى عدن من متاعب ، فيقول : « وخرج الإنسان من البحر كخروجه من القبر ، والفرضة كالمحشر ، فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد ، [3] وكان بيع تلك البضائع يتم عن طريق دلال ، مقابل

= من كل مركب ، وإذا كان غير ذلك عوقب بالضرب . فإذا اقتربت المراكب استقبلتها السنابك وصعد موظفوا الميناء إليها لمعرفة اسم الناخوذة والبلد القادم منه ، وحصروا أسماء التجار وبيان ما تحمله المركب من أصناف ، وتعود السنابك بالبيانات للوالي ، ومن ثم ينتشر المبشرون في المدينة لتبشير أهل من وصل . (انظر ، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ، جـ ١ ص ١٣٨ – ١٣٩ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٥٦ – ٥٨) .

(١) كانت عملية التفتيش يتم في المراكب ، وكان المفتش يتولى تفتيش الرجال واحدا واحدا ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل ، وتحت الاباط والضرب على الحجزة والاليتين . أما النساء فكانت تمتد يد العجوز في أعجازهن و ...... (ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٣٩ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٥٨) .

(٢) الفرضة ، هي المكان الذي كان يتم فيه فحص البضائع الواردة ، وتقدير العشور عليها (بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١٤)

(٣) ابن المجاور : نفس المصدر ص ١٢٨ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٤٨ .

رسم دلالة نقدى وأحيانا عينى ، بواقع ١٪ من قيمتها يتحمله المشترى [١] .
فإذا ماتم البيع وعزم التجار على السفر كان لزاما عليهم الحصول على تصريح بالمغادرة من الوالى بعد التأكد من خلوهم من المديونية ، مع التزام ضامن بتحمل ماقد يظهر عليهم بعد ترك البلاد ، فإذا لم يتوفر الضامن نودى فى المدينة للاعلان عن سفر المعلن عن اسمه ، حتى يتقدم من له ديون عليه لاستخلاصها ، ثم يسمح له بالسفر بعد سدادها أو لعدم وجود ديون عليه[٢] .

وكان يتم تحصيل العشور بميناء عدن إلى جانب رسوم أخرى ، كرسم الفرضة والشوانى وغيرهما . وكانت الرسوم تختلف من سلعة لأخرى ، كما كانت بعض السلع الضرورية تعفى من العشور [٣] .

وكان الاهتمام الشديد بتأمين التجارة والعمل على اجتذاب السفن إلى عدن ، دافعا على القيام بإرسال الشوانى لحراسة السفن التجارية فى المحيط الهندى وحمايتها وتأمينها من لغارات القراصنة . والأيوبيون فى اليمن هم أول من سن هذا التقليد ، إذ لم تكن الشوانى تستخدم قبلهم لهذا الغرض . فلما فتح تورانشاه بن أيوب اليمن ، احتفظ بما كان معه من شوانى ، كما كان يتم

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ ،

Huart (C.) : Histoire des Arabes T. I, p 115 .

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٦ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ .

(٣) انظر ، ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٠ وما بعدها ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٥٨ — ٦٣ .

الاحتفاظ بعد ذلك بمعظم ما كان يصلهم منها صحبة الإمدادات الأيوبية لليمن (١).
وكان سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أول من أمر بانفاذ الشوانى إلى المحيط لحماية التجار من القراصنة (٢) .

ويبدو أن تلك الشوانى توقفت بعد ذلك عن القيام بمهامها ، مما أدى إلى تعرض السفن التجارية للأخطار ، كما حدث سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م عندما توقفت السفن عن الوصول إلى عدن ، الأمر الذى دعا الأتابك سنقر – نائب الأيوبيين فى اليمن – إلى القيام بتجهيز الشوانى مرة أخرى سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م لتأمين السفن ، وقد بلغت تلك الشوانى فى جولاتها بالمحيط حتى بلدة قلهات حيث تمكنت من إعادة الأمن فى طريق السفن إلى عدن (٣) . ولم تكن السلطات الأيوبية فى اليمن تفرض رسوما إضافية على السفن التجارية أو التجار مقابل ما كانت تتكلفه من نفقات الحراسة ، باعتبار أن حراسة تلك السفن كان يدخل فى نطاق الواجبات الملقاة على حكومة اليمن . واستمر ذلك إلى أيام المسعود يوسف آخر الأيوبيين فى اليمن ، والذى قام سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م بفرض رسم اضافى لتغطية ماتنفقه الدولة عليها بواقع ١٠٪ من قيمة العشور فكان مقدار المحصل من التجار نظير هذا الرسم يتراوح ما بين الخمسين والستين

(١) ابن حاتم : السمط ص ٣ ب ، ٣٦ أ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٤٨ أ – ب ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤٠ ؛ الخزرجى : العسجد ص ١٨٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٤ – ٧٦ ، ابن أيبك : درر التيجان حوادث سنة ٦١١ ، يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ص ٥٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٤١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٦١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ٢٨ ب .

ألف دينار سنويا . واستمرت تلك الرسوم تفرض على التجـار إلى أن بطل استعمال الشوانى فى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م ، وبطل معهـا ماكان يفرض من رسوم بسببها (١) .

وكانت عـدة السفن التجارية التى تصل إلى ثغر عدن فى أواخر العهـد الأيوبى فى اليمن تتراوح مابين سبعين وثمانين مركبـا ، بلغ مقدار العشـور المحصلة عن بعضها ثمانين ألف دينار . وكانت تلك الأموال المحصلة ترسـل سنويا من عدن إلى السلطان فى تعز فى أربع خزائن تحتوى كل واحدة منها على مايقدر بمائة وخمسين ألف دينار أو يزيد (٢) . فى حين لم تتجاوز كل منها فى عهد الصليحيين المائة ألف دينار (٣) .

وإذا كان ثغـــر عدن قد اجتذب كثيرا من السفن التى تمخر المحيـط الهنـدى (٤) فقد بدأت أهميته تقل منذ بداية دولة بنى رسول ، نتيجة للسياسة

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٤٠ - ١٤٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ و ١٤٥ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٥ .

(٣) عمارة : تاريخ اليمن ص ٤٨ ، ابن المجاور : صفة بلاد اليمن جـ ١ ص ١٢١ - ٢٢٢ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٤١ ، العرشي بلوغ المرام ص ٣٧ ، الواسعى تاريخ اليمن ص ١٦٥ .

(٤) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ و ١٢٥ ، بامخـــرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٥ ،

Kammerer : La Mer Rouge, T. I. p. 66 .

التى انتهجها نور الدين عمر بن رسول ، الذى احتكر عملية شراء السلع التجارية بالأسعار والأوزان التى يحددها ، ثم يتولى نوابه بيعها بأثمان باهظة وأوزان تنقص عن تلك التى اشتراها بها ، فحقق بذلك أرباحا طائلة ، فى حين تكبد التجار خسائر جسيمة(١) ، فكان ذلك دافعا للتجار على التحول عن عدن إلى طريق الخليج ، كما تأثرت التجارة من ناحية أخرى بظروف الصراع الذى نشب بين نور الدين والأيوبيين فى مصر ، مما كان له أعمق الأثر على حركة تجارة العبور فى البحر الأحمر .

فلما تولى المظفر يوسف السلطنة بعد أبيه فى اليمن ، اهتم منذ اللحظة الأولى بأمر عدن ، وقام بزيارتها فى صفر سنة ٦٤٨ هـ / مايو ١٢٥٠ م ، وذلك على الرغم من أنه لم يكن قد استكمل بعد السيطرة على بلاده ، ويغلب على الظن أنه رفع بعض المظالم عن التجار ، بدليل أنهم حملوا إليه الكثير من الهدايا والتحف والأموال . ومما يذكر أن متحصلات ثغر عدن التى تسلمها المظفر يوسف من واليها بلغت خمسمائة ألف دينار (٢) .

وعلى هذا النحو بدأت عدن تزدهر من جديد فى عهد المظفر الرسولى (٣) ، كما أثمرت جهوده التى بذلها من جانبه فى تدعيم الجهود التى قام بها السلطان الظاهر بيبرس لتأمين الملاحة فى البحر الأحمر ، مما عاد بالفائدة على دولتيهما .

---

(١) ابن المجاور : نفس المصدر والجزء ص ١٤٧ - ١٤٨ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٥٦ أ .

(٣) Lewis (Bernard) : Egypt and Syria, (The Cambridge History of Islam - Cambridge, 1970,) p. 225 .

وكان من الطبيعى — فى الوقت الذى كان المظفر يعمل فيه على تنمية ثغر عدن وازدهاره — أن يهتم بتأمين الملاحة ، وأن تتسم علاقاته بالدول البحرية والتجارية الآسيوية بالصداقة والود. ويشير ابن حاتم إلى قيام المظفر الرسولى بإرسال سفارة وهدايا جليلة إلى فارس سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ، ولكن الرياح عصفت بالسفن وألقت بها إلى ساحل ظفار فاستولى سلطانها سالم بن ادريس الحبوضى عليها وعلى حمولتها من البضائع والهدايا ، ووقع السفير ومن كان يرافقه من التجار أسرى فأساء سالم معاملتهم (١) .

وقد حاول المظفر بادىء ذى بدء حل المشكلة سلميا ، وكتب بذلك إلى سلطان ظفار ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، بل أن سلطان ظفار تمادى فى عدائه وسير حملة بحرية للاغارة على عدن . ولهذا السبب اضطر المظفر — أمام تحديات سلطان ظفار — إلى اصطناع القوة للانتقام منه وضمان سلامة الملاحة ، وعدم التعرض للسفن التجارية بسوء ، وأرسل حملتين ، اشتبكت أولاهما مع قوات ظفار ، أما الثانية فقد استولت على الشحر لخروج صاحبها عن طاعة المظفر ، وموالاته لسلطان ظفار (٢) .

غير أن الحملات البرية أثبتت عدم فاعليتها فى تحقيق نصر حاسم ، أو القضاء

---

(١) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٠٨ ، العسجد ص ٢٩٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ أ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٤ ، بامخرمة نفس المصدر والجزء ٨٤ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ١٩٩ .

على مطامع سلطان ظفار ، لبعد المسافة . لذلك اهتم المظفر بالحملات البحرية وأصدر أوامره إلى والى عدن لعمارة الشوانى والمراكب والطرائد الموجودة والعمل على إصلاحها (١) ، كما أنشأ عددا آخر (٢) ، ثم توجه السلطان بنفسه إلى عدن لتفقد الاستعدادات البحرية وتجهيز المراكب (٣) وأبحرت السفن من ثغر عدن فى نفس الوقت الذى خرجت فيه حملتان بريتان أخريان ، إحداهما تقدمت عبر الطريق الساحلى الموازى للحملة البحرية . أما الحملة البرية الثانية ، فقد توجهت عن طريق منطقة الجوف شمال شرق اليمن لتتجه من هناك جنوبا عبر حضرموت إلى ظفار . وقد أسفرت هذه الحملات عن هزيمة سلطان ظفار وقتله ، وأسر وقتل الكثير من أتباعه ، واستولى المظفر على ظفار فى رجب ٦٧٨هـ/ (٤) نوفمبر ١٢٧٩ م ، وأقطعها لابنه الواثق نور الدين ابراهيم (٥) كما ولى ابنه المؤيد داود على حضرموت والشحر (٦) .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٠٩ ، العسجد ص ٢٩٢ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ٤١ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٩٩ .

(٤) ابن حاتم : السمط ص ١٠١ أ - ١٠٤ ب ، الجندى : السلوك ص ٤٥٤ ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٥٩ ب - ٦٠ أ . الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢١٠ - ٢١٣ ، العسجد ص ٢٩٢ - ٢٩٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ ب - ٧٩ أ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٦٨ ، العسجد ص ٣٠٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٦) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٦٣ أ - ٦٤ ب ، الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢٧٥ ، العسجد ص ٣١٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٨١ ب .

وأحدث استيلاء المظفر الرسولى على ظفار دويا هائلا ، عبر عنه الخزرجى بقوله : « ارتعدت الأقطار القصية هيبة السلطان وامتلأت من خوفه قلوب ملوك فارس وأصحاب الهند والصين لما رأوا من علو همته وعظيم نقمته ، فأرسل صاحب عمان بهدية فرسين ورمحين إلى الأمير شمس الدين أزدمر [نائب السلطان الرسولى] وهو يومئذ فى ظفار ، ووصلت هدايا صاحب الصين ، ووصل [رسول] صاحب البحرين إلى زبيد »[١].

ولا شك فى أن هذا الانتصار كان من العوامل الهامة لاستقرار الأمن فى المحيط الهندى ، ودافعا على زيادة الإقبال على عدن ، بعد أن أصبح سلطان اليمن مسيطرا على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية إلى عمان ، مما هدد الطريق التجارى عبر بحر عمان (الخليج الفارسى) وقلل من أهميته ، وزاد بالتالى من أهمية البحر الأحمر ، وأدى إلى زيادة النشاط الملاحى فيه .

٥ - العلاقات اليمنية المصرية بعد احياء الخلافة العباسية فى مصر :-

عمل بنو رسول على الارتباط بالخلافة العباسية فى بغداد ، والحصول على تقليد من الخليفة بالاعتراف بملكهم، وذلك كاجراء حتمى لشرعية حكمهم ، وهو أمر اعتاده سلاطين الولايات والمناطق الأخرى ، وحرصوا عليه باعتبارهم نوابا عن الخليفة العباسى فى الحكم .

ولهذا حرص نور الدين عمر - مؤسس دولة بنى رسول - على الحصول على تقليد من

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢١٣ ، وقارن ، العسجد ص ٢٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ .

الخليفة فى بغداد ، وعلى هذا الأساس ارتبطت دولته بالولاء للخلافة العباسية[١].
كما عمل على اكتساب رضاء الخليفة عليه فأرسل إليه الهدايا ، ولم يترك مناسبة
إلا وعمل على إظهار ولائه للخليفة اكتسابا لتأييده مثلما حدث عندما انتهز
فرصة قيام والدة الخليفة بأداء فريضة الحج سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م وأرسل
إليها الهدايا الجليلة ، ولم يدخر نائبه فى مكة جهـــدا فى القيام على خدمتها
وراحتها [٢] . وبلغ من مكانة الخليفة العباسى وقدره عند بنى رسول ، أنه لما
قام نور الدين فى أواخر عهده بتحليف العسكر لابنه المفضل ، غضب المظفر
يوسف الابن الأكبر ، وعزم على التوجه إلى الخليفة العبـاسى ليشكو لديه
تفضيل أبيه نور الدين لأخيه الأصغر عليه ، وليتمكن من الحصول على حقه
الشرعى فى السلطنة عن طريق الخليفة نفسه . ولكن مقتل نور الدين المفاجىء
حال دون توجه المظفر إلى بغداد بعد أن أصبح حتما عليه أن يكافح فى سبيل
الاستيلاء على هذا الحق بالقوة [٣] ، ومع ذلك فما أن استطاع المظفر التخلص
من منافسيه وخفت حدة التوتر فى اليمن ، حتى بادر بالعمل للحصول على تقليد
منه وتشريف بالنيابة عن الخليفة ، وأرسل لهذا الغرض سفارة إلى بغداد سنة
٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م ، ولم يتردد الخليفة العباسى فى إجابته إلى طلبه [٤] ، وأمر
بكتابة منشور بذلك أرسله إليه مع خلعة وأربعين ألف دينار[٥] ، فلما وصل

(١) انظر ماسبق ص ٣٤٤ .

(٢) ابن حاتم : السمط ص ٤٦ ، الخزرجى : العسجد ص ٢٣٦ .

(٣) انظر ما سبق ص١٢٣ :

(٤) زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ١٦٣ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٣ ب .

رسول الخليفة إلى المظفر ألبسه الخلعة وقرأ عليه منشور الخليفة . وعاد الرسول إلى بغداد مزودا بالهدايا والتحف التى أعدها المظفر للخليفة [١] .

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة المستعصم العباسي كتب إلى المظفر يأمره بالقضاء على الإمام الزيدى أحمد بن الحسين [٢] ، والظاهر أن المظفر استغل ذلك ليثبت ولاءه للخليفة ويظهر كفايته فى القضاء على القوى المعادية للعباسيين ، وتمثلها فى اليمن قوى الزيدية ، ولهذا تضمن كتابه الذى أرسله إلى الخليفة تفاصيل تتعلق بما بذله من جهود للقضاء على قوة الامامة الزيدية [٣] .

وبسقوط الخليفة فى بغداد ، وقيام الظاهر بيبرس بإحيائها فى القاهرة ، أصبح السلطان بيبرس - بموجب تقليد الخليفة له - صاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد التى نص عليها التقليد ومن بينها اليمن [٤] . وهذا يعنى أن بلاد اليمن قد تحولت من الاستقلال إلى التبعية المباشرة لسلطان مصر المملوكي ، وهو أمر لن يقبل به سلاطين بنى رسول ، بعد أن قاموا بجهود كبيرة فى سبيل الاستيلاء على اليمن والاستقلال بحكمها ، بل وامتد نفوذهم إلى الحجاز ، وتدعم ملكهم بتقليد من الخليفة العباسى المستنصر ثم المستعصم من بعده ، واكتسبوا بذلك الصفة الشرعية من خلافة بغداد . ولهذا فإن إغفال خليفة

---

(١) الخزرجى : العقود ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠ ، العسجد ص ٢٥٥ .
(٢) الخزرجى : العقود ص ٩٩ ، العسجد ص ٢٥٥ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ١٨١ ، زبارة أئمة اليمن ص ١٦٣ .
(٤) انظر ما سبق ص ٢٧٩ .

القاهرة لحقهم ، وإضافه اليمن إلى ملحقات السلطنة المملوكية ، لم يقابل بالرضاء من السلطان المظفر الرسولي .

وعلى الرغم من ذلك الموقف ، فقد تحسنت العلاقات اليمنية المصرية ، ويرجع ذلك إلى ما أصبح يتمتع به السلطان المملوكي من قوة مكنته ، ليس فقط من الصمود أمام جحافل المغول ، وإنما تحقيق الانتصارات الساحقة عليها وعلى غيرها من القوى المعادية كالصليبيين ، مما أكسب سلطان مصر تقدير واحترام السلطان الرسولي المظفر الذي بلغ من احترامه وتقديره له أن رفض مشورة بعض خواصه بتقديم الأعلام اليمنية على أعلام السلطان بيبرس ؛ وقال كلمته المشهورة « أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس ، وأقدم أعلامي لحضوري » (١) .

وهكذا ، وتفاديا للمخاطر التي قد تتهدده من قبل دولة المماليك، عمل السلطان المظفر يوسف على تحسين العلاقات مع السلطان بيبرس اكتسابا لتأييده ، وقد تجاوزت العلاقات حد تبادل السفارات والهدايا ، إلى قيام الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م بإرسال أمان إلى المظفر ضمانا لعدم تعرض المماليك لبلاده ، كما أرسل إليه سنجقا وخلعة وشعار السلطنة (٢) . « ورسم

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ١٣٤ ، أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك ص ١٦٨ .

(٢) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ، أحمد مختار العبادي : نفس المرجع ص ١٩٠ .

أن يكاتب بالمقام العالي المولوي السلطاني » . (١) وذلك على الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا ينكرون على ماعداهم التلقب بالسلطنة (٢) .

وكان المظفر حريصا على إظهار ولائه للسلطان المملوكي درءا للمخاطر التي قد تهدد عرشه وبلاده من ناحيته ، ولهذا استمرت علاقات الود بينه وبين السلطان سيف الدين قلاوون ، وعمل المظفر على تدعيمها ، ولم يتردد في مهاداته وموادعته ، ففي سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وصلت سفارة السلطان المظفر إلى مصر بهدية نفيسة ، فقبلها قلاوون ، كما استجاب لطلب المظفر في أمان (٣) ، أمر قلاوون بكتابته على قميصه ووقعه هو وابنه الملك الصالح ، ومما ورد فيه : « إنا داعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معا دون من عاداهم ، ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم . لا نرضي له ولأولاده إلا مارضيناه لأنفسنا ، وإنا لا نقبل في حقه سعاية ساع ولا قول واش ولا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا ، مادام ملازما لشروط مودتنا » (٤) .

وعلى الرغم من تمسك سلاطين بني رسول بالدعاء لخليفة بغداد ، وعدم

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٢ ص ١٢ ب ، العيني : عقد الجمان جـ٤٥ ص ٥٤٥ .

(٢) انظر ماسبق ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٠٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣١ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٧٩ أ .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ٩ ص١٢٣ أ ـ ب ، محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ١٣٠ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٢٣٣ .

ذكر خليفة القاهرة عند الدعاء على منابر اليمن (١) ، فلم يكن سلاطين المماليك على استعداد لخوض معارك لهذا السبب ، طالمـــا تمسك بنو رسول بتقديم ماالتزموا به من أموال وهدايا سنوية ، تتأكد بها المودة بين الجانبين (٢) ، وهكذا فلم يكن ليثار موضوع الخطبة إلا عندما تتأزم العلاقات نتيجة امتناع سلاطين اليمن عن إرسال ما اعتادوه من هدايا وأموال (٣) .

وأيا ما كان الأمر فقد استمرت رسل المظفر يوسف في التردد على السلطان المنصور قلاوون بالهدايا والتحف ، ففي سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م أرسل المظفر إلى قلاوون هدايا نفيسة متنوعة من تحف الهند والسند واليمن (٤) ، تشتمل على الخيول العربية الأصيلة ، وفيل وكركدن وعدد من البغاوات ، وعلى ثلاث قطع كبيرة من العود الذى بلغ من ثقل القطعة الواحدة منهـا أن كان يحملها رجـلان ، بالإضافة إلى الكثير من الرماح والسيوف وأصناف البهار والأقمشة وغيرها من التحف . فقبل قلاوون الهدية وأنعم على الرســل (٥)

---

(١) انظر ، الخزرجى . العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٦٩ ، العامرى : غربال الزمان ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٣٢ ، Arnold : The Caliphate, p. 87 :

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢١ ، جـ ٧ ص ٣٤٠ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ١٥٢ – ١٥٨ ، القلقشندى : جـ ٦ ص ٤٢١ – ٤٢٦ ؛ جـ ٧ ص ٣٤٨ – ٣٥١ ، ص ٣٦٣ – ٣٦٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ١١٧ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٥ ص ٢٢ أ ، النويرى : نفس المصدر جـ ٢٩ ص ٢٨٥ ب .

بالخلع وأرسل معهم في مقابل ذلك هداياه إلى السلطان المظفر [١] .

ومن الجدير بالذكر أن المظفر لم يترك فرص الانتصارات المملوكية على المغول والصليبيين وغيرهم تمر دون أن يبعث بتهانيه إلى السلطان المملوكي [٢]، كما حرص السلطان المملوكي بدوره على الكتابة إلى صاحب اليمن مبشرا بانتصاراته وفتوحاته [٣] أو رادا على تهاني سلطان اليمن [٤] .

غير أن العلاقات الودية التي سادت بين مصر واليمن لم تلبث أن انتابها الفتور بعد وفاة المنصور قلاوون ، إذ توقف المظفر عن مهاداة صاحب مصر ، الأمر الذي أثار غضب الأشرف خليل بن قلاوون عليه ، فأرسل إليه سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م كتابا شديد اللهجة صحبة أحد تجار الكارم عنفه فيه وهدده ، وعرض له باشتغاله باللهو والطرب ، وختمه بقوله : « لأخرجن اليمن عن عينك وأقتل من مال إليك أو والاك » وعنون الرسالة بعبارة : « يصل إلى الخارجي باليمن » . كما أمر التاجر أن يحذره باستعداده لتجهيز حملة إذا لم يأته من السلطان المظفر كتاب يعتذر له فيه ، ويعود إلى إرسال ما اعتاده من الهدايا مرة أخرى . إلا أن المظفر لم يقبل تلك الرسالة منذ طالع عنوانها ، وردها إلى

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٢٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص ١٤٤ .

(٣) ابن عبد الظاهر : نفس المصدر ص ١٨٦ – ١٨٩ ، الفيومي : نثر الجمان في تراجم الأعيان – مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ – جـ ٢ ص ٣٢٢ أ ، القلقشندي : جـ ٧ ص ٢٥٣ – ٢٥٧ ، ٢٦٠ – ٢٦٢ ، ص ٢٦٦ – ٢٧٠ .

(٤) القلقشندي : جـ ٧ ص ٣٤٤ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١٣ .

التاجر بحجة أنها ليست موجهة إليه ، وطلب منه فى تهكم البحث عن الخارجى المقصود لتوصيلها إليه أو القيام بردها إلى مرسلها فى حالة عدم الاهتداء إليه. فقام التاجر بمشافهة السلطان بفحوى الرسالة . فرد عليه المظفر بقوله : « هذا كلام قز غلب عليه الجهـــل»(١) . ولم يلبث الظاهر أن توفى سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م ، ولم يعمر ابنه الأشرف وخليفته فى السلطنة طـويلا إذ توفى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م .

ثالثا : العلاقات اليمنية المصرية بين سلاطين بنى رسول ـ بعد المظفر ـ وبين سلاطين دولتى المماليك البحرية والجراكسة :ـــ

أ ـ فى عهد المؤيد داود الرسولى :ـــ

تدهورت العلاقات اليمنية المصرية بعد وفاة المنصور قلاوون ، إلى حد أن السلطـان الأشرف خليـــل بادر بالرحيـل الى قوص في أوائل سـنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م ، قبل إرسال خطـاب التهديد إلى المظفر الرسـولى ، وأمر بتجهيز حملة لغزو اليمن (٢) . والظاهر أن العلاقات لم يطرأ عليها أى تحسن فى عهد الأشرف بن المظفر ، ذلك أن السلطـان المملوكى المنصور حسـام الدين لاجين أمر هو الآخر بتجهيز حـلة فى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م لفتح اليمن ، ولـكن قدر لها ألا تتم (٣) كسابقتها لعـدم امتداد سلطنة كل من الأشرف

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٥٦ ص ٨١ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ٢٧٢ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٩٦ .

خليـــل ولاجين ، والحقيقة فإن إحساس سلطان اليمن بضعف السلطنة المملوكية بعد قلاوون ، وانشغال المماليك بالتنافس على السلطنة ، كان دافعاً للسلطان الرسولي على التوقف عن ارسال هداياه إلى هؤلاء السلاطين الضعاف.

وعلى الرغم من احتمال استمرار العـــلاقات العدائية بين اليمن ومصر إلى بداية سلطنة المؤيد داود الرسولي ، فإن هذه العلاقات كانت تبدو وكأنها آخذت في التحسن منذ سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثـانية ، سيما بعد أن أثبت مقدرته بالانتصار على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٣م فلما وصل رسل الناصر محمد بالبشرى إلى اليمن ، استقبلهم السلطان المؤيد الرسولي وأعيان دولته استقبالا حافلا ، ودقت الطبول تعبيراً عن الفرحة والسرور بهذا النصر ، وتبارى الشعراء في التغنى به وبالغ السلطان في إكرام السفراء والإنعام عليهم ، وأرسل معهم كتابا يهنىء فيه السلطان المملوكي (١).

ونستدل من الأحداث أن بني رسول كانوا يعملون على إظهار ولائهم للسلطان الممـــلوكي ويخطبون وده طالما كان قويا ، ولكن علاقاتهم بمصر لاتلبث أن يسودها الفتور في عهود السلاطين الضعاف ، فطوال عصر المظفر يوسف في اليمن إلى نهاية حكم المنصور قلاوون في مصر ، سادت العـلاقات الودية بين البلدين ، ولكنها لم تلبث أن تأزمت بعـد وفاة قلاوون لضعف مركز سلاطين المماليك إلى نهاية القرن الثامن الهجرى ، ونشوب الصراع حول السلطنة ، التي أصبحت مطمعا لكثير من أمراء المماليك منذ أيام سلطنة

---

(١) الخزرجي : العقود جـ ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ ، العسجد ص ٣٤٧ -٣٤٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨٦ ب - ٩٨٧ أ .

الناصر محمد الأولى، ولهذا استخف المؤيد الرسولى به وقطع عنه الهدايا التى اعتاد سلاطين بنى رسول إرسالها بصفة دورية إلى مصر ، ولم يكتف بذلك بل أساء إلى التجار المصريين الذين اتفق وجودهم بعدن ، وترتب على ذلك أن توجهت رسل الناصر بن قلاوون بكتب التهديد والوعيد إلى السلطان المؤيد الرسولى [١] ، كما قام الخليفة المستكفى العباسى (٧٠١ - ٧٤٠ هـ / ١٣٠٢ - ١٣٣٩ م) بإرسال خطاب له يستنكر عليه فيه تصرفاته ، ويلومه عليها ، ويأمره بإرسال الهدايا المقررة [٢] .

وتشير المصادر اليمنية إلى أن المؤيد أعد سفارة إلى مصر فى سنة ٧٠٤ ، ولكنه أجل إرسالها عندما بلغته أخبار بسيطرة المماليك على سلطانهم وعبثهم به [٣] . غير أنه لم يلبث أن أرسل الهدايا فى نفس العام . وبلغ من كثرة ما اشتملت عليه من أصناف أن نقلها استوعب مركبين ، كما أن مثل تلك الهدية كان يتم إرسالها كل عامين أو ثلاثة [٤] ، وأن ذلك كان له أعمق الأثر فى نفس السلطان المملوكى الذى تشير المصادر اليمنية إلى اغتباطه البالغ وتكريمه لرسل صاحب اليمن [٥] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ١٥٢ - ١٥٨ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٦ ص ٤٢١ - ٤٢٦ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) الخزرجى : العسجد ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٣٦٧ ، العسجد ص ٣٥٢ .

ولكن يبدو أن المصادر اليمنية قد بالغت كثيرا فى تقييم تلك الهدايا ، فالمصادر المصرية تشير إلى أن الهدية التى وصلت إلى مصر سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م ، كانت دون المعتاد ، وأنها لم تحظ بقبول السلطان الناصر [١] ، وأثارت غضبه فأعاد رسل اليمن بغير جواب [٢] . ولم يلبث أن أرسل رسله إلى المؤيد بالتهديد بغزو بلاده ، إذا لم يقم بإرسال الهدية المقررة كالمعتاد [٣] . ولكن المؤيد الرسولى لم يعبأ بذلك « ولا أجاب عن الكتاب بشىء » [٤] . ولم يكتف بذلك بل بالغ فى تحديه للسلطان الناصر محمد [٥] ، فقام بتحريض شريف مكة على العصيان ، وعمل على كسب وده عن طريق إرسال الأموال إليه ليقدم اسمه فى الخطبة قبل سلطان مصر [٦] ، كما قام بمنع الكارم [٧] .

وأمام موقف المؤيد وتحديه ، أمر السلطان الناصر سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧م

---

(١) النويرى : نهاية الأرب حـ ٣٠ ص ١١٥ ، الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ٨٠ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٠ - ٢١ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٢١٧ .

(٢) النويرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، الفيومى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١ .

(٥) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٦ .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٢ - ٣٣ .

(٧) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٣٧٤ ، العسجد ص ٣٠٦ .

بتجهيز حملة لغـــزو بلاد اليمن ، وبدأت الاستعدادات لتلك الحملة بإنشاء المراكب تجهيزها ، ولكن العلماء والقضاة وذوى المصلحـة من التجار ... أقنعوا السلطان بضرورة الكتابة للمؤيد أولا (١) ، وتأجيل الحملة انتظارا لما تأتى به الرسل من أخبار (٢) . وهكذا فلم يكتب لتلك الحملة أن تخرج من مصر (٣) وخاصة نتيجة لاضطراب الأحوال الداخلية فى البلاد (٤) وتنازل الناصر محمد عن السلطنة للمرة الثانية لصالح بيبرس الجاشنكير في شوال سنة ٧٠٨هـ (٥)/مارس ١٣٠٩م . ويذكر العينى أن الناصر محمد بن قلاوون أرسل رسولا آخر إلى اليمن سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م وذلك فى بداية سلطنته الثالثة ، فى محاولة لعودة العلاقات مع اليمن إلى سابق عهدها ، ولكن الرسول توفى عقب

---

(١) القلقشندى : نفس المصدر حـ ٩ ص ٤٢٢ ـ ٤٣٦ .

(٢) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ١٧٠ ، النيـــومى : نفس المصدر والجزء ص ٨١ ب ـ ٨٣ أ ، المقـــريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٣) أبو الفـــدا : المختصر حـ ٤ ص ٥٤ ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى حـ ٢ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ١ ص ٣٧٣ ، المسجد ص ٣٥٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٢٦٦ ، ابن الديبع : قرة ص ٨٧ أ .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة حـ ٩ ص ١٢٣ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٣٣ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٣٣ .

(٥) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٤٤ وما بعدها .

وصوله إلى قوص ، في طريق عودته إلى القاهرة (١) .

وهكذا كان للصراع بين أمراء المماليك وتحكمهم في الناصر محمد ، واعتزاله السلطنة مرتين ، أثره في تشجيع المؤيد الرسولي على انتهاج تلك السياسة ، والدليل على ذلك أنه ما أن عاد الناصر محمد إلى العرش للمرة الثالثة (٢) ، وتمكن من إقرار الأوضاع ، حتى توافدت رسل صاحب اليمن سنة ٧١١هـ/١٣١١م إلى القاهرة بالهدايا والتقادم، فقبلها الناصر وأكرم الرسل وأنعم عليهم بالخلع المناسبة (٣) ، ووزع تلك الهدية على الأمراء ، الأكابر والأصاغر ، (٤) ، وتوالت الهدايا اليمنية على الناصر محمد في سنة ٧١٢ هـ (٥) ، كما وصلت هدية أخرى سنة ٧١٥هـ (٦)/١٣١٥م، وجهز الناصر بدوره الرسل بما جرت به العادة من الهدايا (٧) . وفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م وصلت هدية أخرى عن طريق عيذاب ، ولكن عربان المنطقة قطعوا الطريق على الرسل وانتهبوا ما معهم (٨) ، الأمر الذي دعا الناصر إلى تجهيز حملة لتأديب عرب

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ٥٨ ص ٢٠٢ .

(٢) المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ٧٢ .

(٣) النويري : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٢٥٦ .

(٤) المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ١٠٧ و ١١١ .

(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٩٢ تاريخ تيمور ـ ص ١١٥ .

(٦) العيني : عقد الجمان جـ ٦٠ ص ٥٦ .

(٧) النويري : نفس المصدر والجزء ص ٣١٤ .

(٨) الفيومي : نثر الجمان ج ٣ ص ١١٤ ب .

عيذاب والانتقام منهم ، والعمل على استرداد ما استولوا عليه [١] . ويشير العيني[٢] إلى خبر وصول سفارة أخرى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، ولكن السلطان المملوكي أمر بردها فغرقت المركب التي استقلها السفير اليمني ، ولكنه تمكن من النجاة لاستخدامه قاربا كان على سطح المركب [٣] . ولم يزودنا العيني بتفسير للأسباب التي دعت الناصر إلى رد المركب بالهدية ، وقد يكون ذلك لعدم عودة الاستقرار في منطقة عيذاب .

أما آخر تلك الهدايا التي بعث المؤيد الرسولي بها إلى مصر فكانت سنة ٧٢٠هـ[٤]/١٣٢٠م ، ولم يعمر المؤيد بعدها طويلا إذ توفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م . وبوفاته انتهت مرحلة تذبذبت فيها العلاقات اليمنية المصرية ما بين العداء وما صحبه من تهديد صاحب مصر واستعداده لغزو اليمن، إلى تحسن نسبي في تلك العلاقات ، اقتصر في معظمه على إرسال الهدايا إلى مصر بصفة غير منتظمة .

٢ ـ في عهد المجاهد الرسولي :

اتسمت سلطنة المجاهد علي بن المؤيد داود على اليمن منذ بدايتها بكثرة

---

(١) النويري : نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ ـ ٣٣٨ ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ١٤٥ و ١٦٢ .

(٢) العيني : نفس المصدر والمجلد ص ١٤٧ .

(٣) العيني : نفس المصدر والمجلد ص ١٤٧ .

(٤) الفيومي : نفس المصدر والجزء ص ١٣٥ أ ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٧ .

الاضطرابات الداخلية (١) ، ولذلك تعتبر فترة حكمه من أسوأ الفترات التى مرت بها بلاد اليمن ، فقد نازعه عمه المنصور أيوب بن الأشرف السلطنة واعتقله واستولى عليها منه ، ولكن المجـاهد لم يلبث أن تمكن من استعادة ملكه وقام بدوره باعتقال عمه . ولكن الظاهر عبد الله ابن عمه المنصور أيوب عمد إلى التحصن فى حصن الدملوة المنيع وواصل ما عجز عنه أبوه المنصور ، واستطاع السيطرة على معظم البلاد حتى لم يبق للمجاهد سوى حصن تعز الذى أصبح محصورا فيه (٢) . فلما عجز المجاهد عن استعادة السيطرة على البـلاد ، ولم يجد أمامه من مخلصه لجأ إلى مراسلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ووفدت رسله إلى البـلاط المملوكى فى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م ليستنصر بصاحب مصر (٣) ، ويطلب معونته العسكرية لتثبيت سلطنته

(١) انظر ، الجندى : السلوك ص ٤٥٧ وما بعدها : النـويرى : نهاية الأرب حـ ٣١ ص ١٧٧ وما بعدها ، أبو الفدا : المختصر حـ ٤ ص ٩٤ وما بعدها ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ١١٦ وما بعـدها ، ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيـات حـ ١ ص ٢١٥ ، السبكى : طبقات الشافعية حـ ٦ ص ١٠٣ ، الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٢ وما بعدها ، العسجد ص ٢٨٧ وما بعدها ، العقد الفاخر حـ ٢ ص ٣٩ وما بعـدها ، المقريزى السلوك حـ ٢ ص ٢٣٤ و ٢٣٨ ، العينى : عقد الجمان مج ٦١ ص ٣٥٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٢٥٤ ، المنهل حـ ٣ ص ١٧٠ ، حوادث الدهور ص ٣٧٥ ، الأهـدل : تحفة الزمن ص ١٥٢ ب وما بعدها ، ابن الديبـع : قرة العيون ص ٨٩ وما بعدها ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٢٩ وما بعدها ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٢٢٢ ،

Playfair : A History of Arabia Felix or Yemen , pp . 90 – 91 .

(٢) أنظر ماسبق ص ٨٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٥٤ .

وإقرار الأوضاع الداخلية في بلاده [1]. واشترط على نفسه نظير ذلك شروطا منها، أن يذكر اسم السلطان الناصر في الخطبة على منابر اليمن [2]. ولكن السلطان الناصر اعتذر لرسول المجاهد عن عدم إمكان تلبية طلبه [3]؛ بسبب تفرق عساكر مصر في الشام والنوبة، ولكنه وعد بتقديم المساعدة عندما تسمح الظروف بذلك [4]، والظاهر أنه لم يستجب لطلبه لبعد بلاد اليمن، وكثرة النفقات التي تستلزمها الحملة إليها. أو أنه رأى أن استمرار تلك الأوضاع المضطربة في اليمن من شأنها إضعاف دولة بني رسول داخليا، وفي ذلك ضمان لكف سلاطينها عن التدخل في شئون الحجاز، وما يتبع ذلك من التوقف عن تأليب أشراف مكة على السلطنة المملوكية؛ بالإضافة إلى ضمان عدم زيادة نفوذ اليمن التجاري. وربما أحجم عن الدخول في تلك المغامرة لعدم تأكده من جدية الطلب أو عدم الحاجة إلى تلك المعاونة العسكرية.

ومهما يكن من أمر فقد عاود المجاهد الاستنجاد بمصر سنة ٧٢٥ هـ/ [5]

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١١ ص ٩٤، المنهل جـ ٤ ص ١٠١، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢.

(٢) العينى : عقد الجمان مج ٦٣ ص ٤٣٠.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) العينى: نفس المصدر والمجلد ص ٤٣١.

(٥) النيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٤ ب، الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ، المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٢٥٩ - ٢٦٠، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٢.

١٣٢٥ م ، وعمل هذه المرة على إغراء السلطان المملوكي وترغيبه بكثرة أموال اليمن (١) ، وأمام هذا الإلحاح وما صحبه من شروط والتزامات قطعها المجاهد الرسولي على نفسه ، استجاب الناصر محمـــد رغبة في كسب ولاء السلطان الرسولي لسلاطين مصر ، وتبين له أن الحملة بتجهيزاتها ستكون - بعد وصولها لليمن وإقرار الأوضاع فيها - دليلا على قوة مصر وعظم إمكاناتها ، وقدرتها على ضرب أي محاولة يقوم بها سلطان اليمن للخروج عن الطاعة والولاء لمصر ولهذا أصدر السلطان الناصر أوامره بإعداد الحملة (٢) بقيادة الأمير بيبرس الحاجب . وكانت الحملة تتكون من ألف فارس (٣) وألف راحلة (٤) ، هذا إلى جانب مازودهم السلطان به من الأموال والأزواد والعتاد وغير ذلك مما يستلزم حمله على اثنين وعشرين ألف جمل (٥) . وغادر بيبرس ورفاقه من كبار الأمراء والعشروات والمقدمين وأعيان الحلقة والمماليك السلطانية (٦) القاهرة

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٨٧ ، ابن خلدون : العـــبر جـ ٥ ص ٤٢١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٧٨ .

(٢) الفيومي : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٤ ب ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١١٧ ، المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم جـ ٩ ص ٧٨ (وذكر الفيومي ، أن عدتهم ألف وخمسة وسبعون فارسا) نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٥ ب . (أما الخزرجي فقد ذكر أنهم كانوا ألفين بالإضافة إلى ماذكره صاحب النجوم من الفرسان) انظر العسجد ص ٤٠٧ .

(٤) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٢ .

(٥) الخزرجي : العسجد ص ٤٠٧ .

(٦) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٩ ص ٢٥٠ ، المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

فى ربيع الآخر سنة ٧٢٥ ﻫ / مارس ١٣٢٥ م ومعه عدة تشاريف لملك اليمن وأمراء الحجاز وغيرهم من مشايخ العربان [١] بالإضافة إلى ماحمله من الرسائل لأمراء الحجاز لتسهيل مهمته والقيام بخدمة الحملة ، فلما وصل إلى مكه دخلها معتمرا فى جمادى الأولى [٢] (ابريل) ، وأقام بمكة حتى وصلته مراكب الغلال من مصر إلى جدة [٣] ، وأرسل كتب الأمان إلى العربان وأهل مدينة حلى بنى يعقوب ، وأشراف المخلاف السليمانى ، موضحا فيها التزامه بما أوصاه السلطان به من حسن معاملتهم وعدم التعرض لهم ولأموالهم [٤] . ولم يبق بيبرس فى مكة طويلا إذ غادرها بعد عشرة أيام من وصوله إليها [٥] فى طريقه إلى اليمن فوصل إلى مدينة حلى [٦] ومنها سار إلى حرض . وكان بيبرس قد بعث بكتاب إلى المجاهد عن طريق البحر [٧] حمله إليه رسوله

(١) ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٧٩ ، المنهل حـ ٤ ص ١٠١ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ .

(٥) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ ـ ب (لما وصلت الحملة إلى حلى دهش أهلها عندما شاهدوا العساكر وقد طلبت ولبست السلاح ـ وهم الأهالى بالفرار ولم يطمئنوا حتى أكدوا الأمان لهم ، وأن العسكر لن يقربوا شيئا من بضائعهم إلا بثمنه . ومما يذكر أنهم حملوا إلى بيبرس مائة رأس من الغنم وخمسمائة إردب من الذرة على سبيل الهدية فردها إليهم ولم يقبلها منهم) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٧) الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ أ .

كافور الشبلى الذى عاد من مصر صحبة الحملة (١) . وكانت الأخبار قد وردت إلى بيبرس بخوف أهل زبيد من التعرض لبطش عسكر مصر وأنهم لذلك عادوا إلى طاعة المجاهد ، كما بلغه أن المجاهد موجود فيها (٢) . أما السلطان المجاهد ، فقد استشعر بنذر الخطر عندما بلغه عظم القوة المملوكية القادمة وضخامتها ، وقد ظهر ذلك جليا فى رده على الرسالة التى بعثها إلى بيبرس .

ولكن بيبرس أعاد الكتابة إليه يطمئن قلبه (٣) . وتم وصول الحملة إلى زبيد فى رجب ٧٢٥ (٤) هـ/ يونيه ١٢٧٥ م ، فخرج السلطان المجاهد فى أعيان دولته وعسكره لاستقبالها (٥) ، فترجل له أمراء الحملة وساروا فى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان جـ٣ ص١٨٦ ب، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٩ص٨٥ .

(٣) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٦ ب . النويرى : نهاية الأرب جـ ٣١ ص ١٨٧ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٧ .

(٥) الفيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٧أ (يتفق كل من المقريزى وابن تغرى بردى على أنه لما وصل المجاهد بجنده لاستقبال الحملة ، سخر العسكر المصرى من عسكره لكونهم عراة ، سلاحهم الجريد والخشب ، وسيوفهم على أذرعهم مشدودة ، ويقاد للأمير منهم فرس واحد . وقد بلغ من سوء حالة السلطان أن شوهد وعلى رأسه عصابة ملونة فوق العمامة ، وقد رعب المجاهد عندما شاهد العسكر المصرى بآلة الحرب ، حتى أنه هم أن يترجل لأمراء الحملة فمنعه قائدها ، وترجل له ومن معه من الأمراء المصريين واصطف العسكر الواصل صفين وسار الأمراء فى خدمة السلطان وأكرموه وأركبوه فى الوسط) . السلوك جـ ٢ =

مقدمته إلى خيمة فخمة نصبوها له ، وألبسوه خلعة فاخرة[١] وكلفتاه (٢) مزركش وحياصة ذهب (٣) أرسلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون إليه ، بالإضافة إلى عمامة بعذبتين (٤) .

= ص ٢٦٦ ، النجوم حـ ٩ ص ٨٠ (وليس من شك فى أن سوء أحوال العسكر اليمنى إنما يرجع إلى حالة الفوضى والاضطراب التى انتشرت فى بلاد اليمن وقتئذ).

(١) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٧ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ .

(٢) الكلفتاه أو الكلفتة أو الكلفة أو الكلوته ، نوع من غطاء الرأس ، استحدثه الأيوبيون بمصر وكانت من الجوخ الأصفر ، وتلبس بغير عمامة . فلما كان عصر السلطان قلاوون أضاف لبس الشاش عليها ، وفى عهد الأشرف خليل بن قلاوون استحدث الكلوته الزركش أو المزركشة (السلوك حـ ١ ص ٤٩٢ ، ص ٨٣٠ هامش رقم ١ فى كل ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠) .
Dozy : Suppl . , T . 2 , P. 453

(٣) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٨٥ . (والحياصة ، هى المنطقة أو الحزام ، تشد فوق الأقبية ، وكانت معظمها من الفضه المطلية بالذهب فى هـــذا العصر وربما جعلت من الذهب الخالص ، وقد ترصع باليشم ، ولا ترصع بالجواهر إلا فى خلع السلطان لأكابر أمراء المئين (القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٤ ص ٤٠) .
Dozy : op . cit . p . 618

(٤) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٧ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب . =

وبينما يؤكد كل من المقريزى وابن تغرى بردى دخول المجاهد بالحملة إلى زبيد وسط مظاهر الفرحة بوصولها [١] ، يذكر المؤرخ اليمنى الخزرجى أنه الحملة عسكرت تجاه باب الشبارق خارج المدينة من الشرقية . وتميل إلى ترجيح رواية الخزرجى ، ذلك أن القول ببقاء القوات المملوكية خارج مدنية زبيد ، يتفق مع موقف المجاهد وتصرفاته التى كان يحكمها تخوفه المفاجىء من وجود تلك القوات الكبيرة فى بلاده، وخشيته من الأهداف البعيدة التى قد تستهدفها الحملة، كالاستيلاء على البلاد، والإطاحة بعرشه ، ويؤيد ذلك الخطاب الذى أرسله المجاهد لبيبرس واعترف له فيه بأنه « سقط فى يده وندم على طلب العسكر وخاف على نفسه»[٢] . ويضاف إلى ذلك أن المجاهد لم يكد يستقبل الحملة حتى سارع بالتوجه إلى تعز تاركا الحملة فى معسكرها، معتذرا عن عدم إمكان استصحاب الحملة معه، بأن الطريق لا يسعهم إذا ما توجهوا معه دفعة واحدة [٣] . هذا إلى جانب كثير من المواقف الأخرى التى قصد بها المجاهد وضع العراقيل أمام الحملة لإرغامها على العودة، فهو لم يقم ـ بعد استقبال الحملة ـ ببحث الخطوات التى ينبغى اتخاذها لتؤدى مهمتها التى قدمت ـ بناء على طلبه ـ

= (والعذبة، هى طرف الشال الذى يحيط بغطاء الرأس وتتدلى منه (الفيروزأبادى: القاموس المحيط) .

(١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٩ ص ٨٥ .

(٢) الفيومى : نثر الجمان حـ ٣ ص ١٨٦ ب — ١٨٧ أ .

(٣) الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢ ب .

من أجلها، كما أنه لم يوفر لعسكرها ما يلزم من الإقامات رغم احتجاج بيبرس، وذلك بحجة خراب البلاد(١) . وفي نفس الوقت منع أهل زبيد العسكر من دخول المدينة أو امدادهم بالأقوات والعلوفات اللازمة (٢) ، ثم أن نائب تعز قام بحجز الرسل الذين بعثهم بيبرس ــ بناء على موافقة المجاهد ــ إلى الظاهر عبد الله المنافس للسلطان (٣) . وبالإضافة إلي ما سبق ، أنه لما توجهت القوات بعد ذلك إلى تعز ، لم يسمح المجاهد لهم بدخول المدينة (٤) .

وقد كان لموقف المجاهد أثره في اعتزام قائد الحملة على سرعة انجاز مهمته ، وبادر بإرسال الرسل إلى الظاهر عبد الله المتحصن بقلعة الدملوة ، يحملون إليه كتاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى يحذره فيه من عواقب خروجه عن الطاعة ، ويأمره بالامتثال له (٥) . وصحبهم الشريف عطيفة أمير مكة عينا للمجاهد يبلغه بحقيقة الموقف ، وما إذا كان الهدف من ذلك الاتفاق مع الظاهر عبد الله ضد المجاهد . ومع أن هذا الإتصال تم بعلم المجاهد بدليل أنه أرسل هو الآخر كتابا مع الرسل إلى الظاهر يحثه فيه على الطاعة (٦) ،

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

(٣) الفيومى : نثر الجمان ص ١٨٧ أ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ٢ ص٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ٩ ص٨٦ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٤٠٨ ، الفيومى : نفس المصدر والجزء ص ١٨٧ ب .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

إلا أن ما أشيع عن قيام الظاهر بإقناع الرسل بأحقيته فى السلطنة وطلب مساعدتهم ، وأنه أمدهم بكثير من الأموال وأغراهم بالقبض على المجاهد[١]، زاد من تخوف المجاهد ، وجعله يتمادى فى وضع العقبات أمام الحملة، ويسعى لإخراجهم من اليمن . فبموافقته وتدبيره وتواطئه ، أقدم أهل جبل صبر - المطل على تعز - على قطع المياه عن الحملة ، وأغاروا على معسكرهم ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم . فلما قام العسكر المملوكى بمطاردتهم ، حاول المجاهد منعهم فلم يستجيبوا له ، ولكنهم اضطروا للعودة إلى معسكرهم بعد أن بلغهم ما يدبره المجاهد لإحراق المعسكر ونهبه[٢] .

كان ذلك موقف المجاهد من الحملة التى أعدت بناء على طلبه ، ونتيجة إلحاحه ، لمعاونته وتثبيت ملكه ، وهو موقف ساقه إليه سوء تقديره ، وخوفه من استيلاء الحملة على بلاده ، وقد يكون هذا الموقف المتحرج جاء نتيجة تدبير خصوم المجاهد الذين يظهرون له إخلاصهم ، فى الوقت الذى يعملون فيه على التخلص منه بزجه فى صراع مباشر مع قادة الحملة والسلطان المملوكى ، ذلك أن تخوف المجاهد لم يكن له ما يبرره ، فقد كان عليه أن يقوم أولا بالوفاء بما التزم به وقرره على نفسه من النفقة على الحملة وتوفير القوت الضرورى لأفرادها ، والعلوفات اللازمة للدواب[٣]، فلما أخل بذلك واشتكى

---

(١) الخزرجى : العقود ج ٢ ص ٣٢ ، العسجد ص ٤٠٨ ، ابن تغرى بردى : المنهل ج ٤ ص ١٠٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٢ ب .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٨٦ .

(٣) الفيومى : نثر الجمان ج ٣ ص ١٨٧ ب ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٩٧ .

قائد الحملة من قلة المؤن اعتذر المجاهد له ووعد بتدبيرها (١) . ثم عاود قائد الحملة مطالبة المجاهد بتدبير الأقوات بعد أن تعرض جنده للجوع والدواب للموت، فلما اعتذر كالعادة طلب إليه أن يأمر الناس بأن تبيع للجند مايحتاجون إليه، ولكن المجاهد قال: «ماعندى إلا ماتأخذونه بسيوفكم» (٢). وإذا ما سلمنا بأن المجاهد قد سلك هذا المسلك تجاه الحملة ، ليدفعها إلى الجلاء عن بلاده ، حفاظا على استقلالها ، فإن هذا التحدى السافر لم يكن له ما يبرره ، ذلك أن قائد الحملة لم يكن مزودا بتعليمات من سلطانه بالقبض على المجاهد أو نهب بلاده أو العمل للاستيلاء عليها (٣) . إلا أن قائد الحملة اضطر إلى توفير الاحتياجات الضرورية لعسكره ولو استلزم ذلك استخدام القوة ، بعد أن تعرض الجند للجوع ، والخيل للهلاك . فلما توجه بعض العسكر لشراء احتياجاتهم ، وامتنع الناس عن البيع لهم واعتدوا عليهم ، عمد الجند إلى عقر المزروعات الممتدة حول تعز . ومع ذلك ، فقد كانوا يجنحون إلى السلم ، فكلما وجدوا من يبيعهم الطعام اشتروه منه مقابل دفع الثمن (٤) . وبهذه السياسة أحبط قادة الحملة المملوكية خطة المجاهد فى حملهم على العودة قبل أن ينفذوا مهمتهم . ولم يجد المجاهد أمامه سوى إيجاد ذريعة يتعلل بها لاجلاء العسكر

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ١٨٧ ب .

(٣) الفيومى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الخزرجى : العقود ج ٣ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٣٩٢ .

المملوكي . أو تدبير مكيدة يتخلص بهما من الحملة بأكملها ، فطلب تقسيم العسكر إلى مجموعات وتوزيعهم على المناطق المختلفة في عدن ولحج وأبين وصبيا وبخلاف جعفر ومواضع أخرى متفرقة(١)، وكان طبيعيا ألا يقبل قائد الحملة هذا الطلب لما يتوفر فيه من سوء النية، هذا إلى جانب أن توزيع فرق الحملة على هذا النحو يمزق قوتها ويفتت وحدتها ويعرض العسكر إلى أشلاء يمكن إبادتها بسهولة . فلما أعلن رفضه كتب المجاهد إليه يطلب مغادرة البلاد لانتهاء مهمتهم ، وأنه لم تعد هناك حاجة لبقائهم(٢)، وقال : «إن كان السلطان [الناصر] قد رسم لكم بالإقامة فالأمر إليه، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتي فارجعوا إلى أبواب السلطان (٣) . وامتنع تماما عن الوفاء للحملة بما كان قد التزم به في كتابه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقت أن طلب مساعدته ، واعتذر بأن جميع أموال بلاده محفوظة في حصن الدملوة الذي يسيطر عليه منافسه الظاهر عبد الله ، فأشهد بيبرس قضاة تعز على هذا الموقف ، وبأن المجاهد طلب إليه العودة بالحملة إلى مصر (٤) .

وفي شعبان سنة ٧٢٥ هـ / يوليه ١٣٢٥ غادرت القوات المملوكية تعز (٥)

---

(١) الفيومي : نفس المصدر والجزء ص ١٨٨ أ .

(٢) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٣ ، العسجد ص ٤٠٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٣ أ .

(٣) الفيومي : نفس المصدر والجزء ص ١٨٨ ب .

(٤) الفيومي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٢٩٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٧ .

(٥) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٤ ، العسجد ص ٤٠٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٠ أ .

فى طريقهـا للعودة ، فكان وصول القوات إلى القاهرة فى ذى القعدة من نفس العام (١) ، فاستقبلهم السلطان الناصر فى القلعة وخلع عليهم. ولكنه لم يلبث أن غضب على بيبرس وسجنه لاتهـامه ـ بغير دليل ـ بالاستيلاء على أموال من صاحب اليمن وغيره ، ولتقاعسه ـ أمام تصرفات المجاهد ـ فى الاستيلاء على اليمن (٢) .

أما السلطان المجاهد الرسولى ، فيبدو أنه خشى انتقام السلطان المملوكى ، فعمد الى إزالة ما ترسب فى نفس السلطان من عوامل الاستيـاء من تصرفاته نحو عسكره، فأعد ـ فى نفس العام ـ هدية نفيسة بعث بها فى ذى القعدة إلى مصر (٣) . ووصلت إلى البـلاط المملوكى فى ربيع الأول سنة ٧٢٦ هـ / فبراير ١٣٢٦ م ، فأنعم السلطان على الرسول كسابق عادته (٤) ، وكانت عودة تلك السفارة إلى اليمن فى ذى القعدة ٧٢٦هـ / سبتمبر ١٣٢٦ م ، أى بعد مضى عام كامل ، بهدية من ثلاثين مملوكا (٥) . ومن العجب أن المصادر المصرية لم تشر

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢١ ص ١٨٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٥٠ ، المقريزى : نفس المصـدر والجزء والصفحة ، ابن تغـرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٧ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٨ و ٦٣٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٨٧ ، جـ ١٠ ص ١٠١ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٦ ، العقد الفـــاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ ، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٤) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ٢٠٦ أ

(٥) الخزرجى : العقـود جـ ٢ ص ٣٦ ، العقـد الفاخر جـ ٢ ص ٣٩ أ ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٤٤ .

إلى رد الفعل لدى الناصر محمد بن قلاوون من مسلك المجاهد الرسولى إزاء الحملة ، ولا نشك فى أن الناصر استاء من موقف المجاهد،ولكنه لم يكشف عن استيائه ، واكتفى بمعاقبة قائد حملته لتقاعسه عن واجبه فى احتلال اليمن ردا على تحديات السلطان الرسولى ، وتأديبا له على موقفه السيء من الحملة التى كانت تستهدف مساعدته .

وتتوقف المصادر عن إمدادنا بالمعلومات عن العلاقات اليمنية المصرية إلى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠م،ففى شوال من تلك السنة (يوليه) وصلت هدية المجاهد الرسولى إلى مصر ، ومن بينها فيلين،ولكن السلطان الناصر لم يحسن استقبال الرسل ، وعنفهم وأمر بسجنهم لتعرض سلطانهم لسفارة هندية [1] كانت فى طريقها إلى مصر واستيلائه على الهدية ، وإقدامه على قتل الرسول الهندى [2] ، مما أدى إلى وصول سفارة هندية أخرى عن طريق بغداد سنة ٧٣١ هـ [3] / ١٣٣١ م .

---

(١) يذكر أن هدية صاحب الهند كانت « هدية عظيمة لم يرسل مثلها الملك قبله ، وأنها لما وصلت الى ثغر عدن قتل الرسول الواصل بها باتفاق من الملك المجاهد (وتم الاستيلاء) على تلك الهدية بكمالها وأن الذى أهداه المجاهد ... هو شيء يسير من جملتها » (نشر الجمان جـ ٣ ص ٢٥٥ ب ، ٢٦٢ ب .)

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ١٠١ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٢٢ ، الشوكانى : البدر الطالع جـ ٢ ص ٨٠ . (كان ملك الهند المقصود هو غياث الدين أولوغ خان محمد بن جنان بن طغلق (٧٢٥ - ٧٥٢ هـ) السلوك جـ ٢ ص ٣٢٢ حاشية ١ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٣٣٣ (.zettresteen (K.W =

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الزيدى انتهز فرصة تدهور العلاقات بين السلطان المجاهد الرسولى والسلطان المملوكي الناصر محمد ، وأرسل سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢ م رسولا إلى مصر(١) ، ويشكو من المجاهد ، ويعدد مثالبه ، ويطالب إمداده بقوة عسكرية للقضاء على بنى رسول ، وفى مقابل ذلك وعد بتقديم بعض مايتم الاستيلاء عليه إلى السلطان المملوكى ، ولكن الناصر أجاب بقوله أنه «لارغبة لنا فى السلب وأن النصرة تكون لله خالصة»(٢).

وتوضح الرسالة التى بعثها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون مدى تدهور العلاقات المصرية اليمنية وقتئذ ، إذ أرسل إلى المجاهد يتهكم عليه ويستهزىء به ، ويهدده بإرسال الجيوش إلى بلاد اليمن «لتقويم أودها ، وتمكين شدها ، وإقامة أمر الملك فيها ، وحسم مادة الفساد عن نواحيها ، وتطمين البلاد ، وإنامة الرعايا من الأمن فى أوطاد مهاد ؛ ... فإن اليمن وغيره فى يمينه ، وهى محسوبة من اعداد ممالكنا المحروسة ، ... ولا بد من النظر فى أمرها ، وإعمال الفكر فى ازاحه ضررها ، وتجريد العساكر المنصورة ، ...فإن المملكة المذكورة توالت عليها المدد ، ومضى عليها الأبد ، وهمة من فيها إلى اللهو مصروفة ، وعلى اللذات موقوفة ، وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة ، حتى كأن الجهاد ... على غير وجب ، وكأن ماأعد الله من الأجر عليه إنما

= Beitrage zur Geschichte der Mamluken Sultane (Leiden, 1919), p.183, Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p.310.

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٥٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٣٧ وما بعدها .

أريد به الذين يكنزون الذهب .. وتفرقت الأموال وما جند الله فيما احتووا عليه من ذلك سهم ولا نصيب ، . . . وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة ... وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربى عن الحصر والحد ، ويزيد عن الاحصاء والعد ، لا ينفق منها شيء فى الجهاد ، ولا يعد منها مصروف إلا عما لا تحمد عاقبته فى المعاد ، قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرا وجهرا ويستنزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسرا وقهرا ، وأبيحت لمن تأبى الجهاد جانبا ، ورضي باللهو صاحبا ، واقتنى السلاح لغير يوم البأس ، واعتنى بارتباط الجياد بطرا ورياء الناس .... (١).

وظل التوتر يسود العلاقات بين مصر واليمن ، ولم يطرأ أى تحسن على تلك العلاقات ، لاطمئنان المجاهد بعد أن قضى على منافسه ابن عمه الظاهر عبدالله(٢)، واستقر له الأمر فى اليمن دون منافس وتصوره أنه ليس فى مقدور مصر المملوكية غزو اليمن ، لانشغال سلطانها بالحروب ضد التتار الذين عرف عددهم وجلدهم ، والفرنج الذين طال وكثر فى عداوة الإسلام أبدهم ومددهم ، والأرمن الذين هم أكثر الطائفتين - فى الظاهر وفاقا - وأشد الشتين فى الباطن نفرا ونفاقا (٣) . وإذا اطمأن المجاهد إلى ذلك توقف عن إرسال الهدايا التى أعتاد سلاطين بنى رسول ارسالها إلى مصر ، وعمل فى نفس الوقت

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٢) الفيومى : نثر الجمان جـ ٣ ص ٢٨٥ ب ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٠٦ ،

Pluyfair : A History of Arabia, p, 9. .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٥١ .

على توثيق العلاقات مع أشراف مكة ، وأغدق الأموال عليهم إلى حد أن اسمه أصبح يذكر فى الخطبة بمكة بعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون [(١)] بدلا من السلطان أبى سعيد ملك العراق [(٢)] . وعلى هذا النحو سادت العلاقات الودية بين المجاهد وبين الشريف رميثة أمير مكة الذى لم يتردد فى أن يعهد إلى ابنه الشريف ثقبة بأن يكون فى صحبته عندما عزم على أداء فريضة الحج فى سنة ٧٤٢ هـ [(٣)] / ١٣٤٢ م ، كما خرج الشريف رميثة وأكابر أهل مكة لاستقبال المجاهد عند مشارف مكة ، فخلع السلطان الرسولى عليهم وأجزل لهم العطاء [(٤)] . ومن الجدير بالذكر أنه عمر مدرسة بمكة فى الجانب الجنوبى من الحرم [(٥)] وخلع على أميرى الركب المصرى والشامى ، وأبدى رغبته فى أن يكسو الكعبة ، ولكن أشراف مكة لم يمكنوه من ذلك ، خوفا من انتقام السلطان المملوكي . وسخر أشراف مكة أنفسهم لخدمة المجاهد ولم يدخروا وسعا لتوفير حمايته خشية أن يتعرض له المصريون بسوء [(٦)] .

وفى سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥١ م توجه المجاهد الرسولى للحجاز لتأدية فريضة

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة حـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة حـ ١ ص ١٥٢ ، العينى : عقد الجمان مجـ ٣ ص ٢١٠ .

(٣) الخزرجى : المسجد ص ٤٣٤ .

(٤) الخزرجى : العقود حـ ١ ص ٧٠ ، المسجد ص ٤٣٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ١١ ص ٩١ ، المنهل حـ ... ص ١٠٤ .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٤٧ .

الحج للمرة الثانية (١) ، وبرفقته الشريف ثقبة بن رميثة (٢) ـ وكان لاجئاً عند المجاهد لانفراد أخيه عجلان بإمرة مكة ـ فلما اقترب موكب المجاهد من مكة أشيع أنه ينوى الاستيلاء على مكة ، والقبض على الشريف عجــلان وتنصيب أخيه ثقبة مكانه ، والقيام بكسوة الكعبة بعد انتهـاء موسم الحج وعودة ركب الحاج المصرى (٣) ، فأسرع الشريف عجلان وأبلغ أمير الحج بالأمر (٤) . ولهذا السبب لم يسمح المصريون للمجـاهد أو سلاح داريته بالسير بسلاحهم فى مكة ، ولم يمكنوه من حمل الغاشية (٥) . واتفق الشريف عجلان مع أمير الحاج المصرى على رصد تحركات المجاهد تمهيداً لاعتقـاله ، ثم سنحت الفرصة للقوات المملوكية فى منى فتمكنوا من هزيمة العسكر اليمنى (٦)

---

(١) المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١٤ ، ١١٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ أ .

(٢) الخزرجى : العقد الفاخر ح ٢ ص ٤٠ ب ، بامخرمة : ثغر عـدن ح ٢ ص ١٤٧ ، زبارة أئمة اليمن ح ١ ص ٢٤٩ .

(٣) الخزرجى : العقود ح ٢ ص ٨٣ – ٨٤ ، العسجد ص ٤٤٤ ، ابن تغرى بردى : المنهل ح ٤ ص ١٠٤ ، القلقشندى : صبح الاعشى ح ٥ ص ٣٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ح ١٠ ص ٢٢٦ .

(٥) المقريزى : السلوك ح ٢ ص ٨٣١ .

(٦) الفاسى : شفاء الغرام ح ٢ ص ٢٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ح ١٠ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ،

De, Gaury : Rulers of Mecca,, p. 101 .

ولم يجد المجاهد بداً من طلب الأمان والاستسلام (١) حقناً للدماء ومراعاة لحرمة المكان والزمان (٢) واشترط عليهم عدم التعرض لأحد من الناس بسوء، وسلم نفسه إليهم فأكرموه وسار معهم وسط مظاهر التبجيل والتعظيم، راكبا بغلة إلى محلتهم، وهم مترجلين بين يديه حتى أنزلوه في خيمة أقيمت خصيصا له، وسمح له باصطحاب وزيره الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي (٣)، وتحفظوا على المجاهد وتوجهوا به معتقلا إلى مصر (٤)، فوصلها في العشرين من المحرم سنة ٧٥٢ هـ / ١٨ مارس ١٣٥١ م، وسلطانها يومئذ الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون (٧٤٨-٧٥٢ هـ / ١٣٤٧-١٣٥١). فلما مثل المجاهد بين يديه قبل الأرض ثلاث مرات، وكان الأمراء قد قيدوه عندما هموا بالدخول به على السلطان، فأمر بفك قيده وأكرمه (٥) وأحسن إليه وأجرى

---

(١) المقريزي : السلوك حـ ٢ ص ٨٣٢، ابن تغري بردي . النجوم حـ ١٠ ص ٢١٧ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) الخزرجي . العقود حـ ٢ ص ٨٥، المسجد ص ٤٤٣، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٧ أ، ب .

(٤) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ أ، ابن تغري بردي : المنهل حـ ٤ ص ١٠٢، العيني : عقد الجمان مجـ ٦٣ ص ٩٠، بامخرمة : ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٨،

De Gaury : op. cit. p. 101 .

(٥) الخزرجي : العقد الفاخر حـ ٢ ص ٤٠ أ، الفاسي : نفس المصدر والجزء ص ٢٤٨، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

له الرواتب السنية ، وأنزله بالأشرفية بالقلعة (١) وخصص له من يتولى خدمته (٢) . وقد استجاب الناصر حسن لشفاعة بعض كبار أمراء المماليك ووافق على الإفراج عن المجاهد مقابل ٠٠ : ألف دينار ، يتولى دفعها فديه له أو ربما كان هذا المبلغ لتغطية نفقات الحملة التي سبق أن جردها الناصر محمد بن قلاوون بناء على طلبه ولمساعدته في القضاء على منافسه ، أو تعويضا عن الهدايا التي كان قد توقف عن إرسالها إلى مصر ، أو التي كان قد بعث بها صاحب الهند وسطا عليها أتباعه . وكان في إمكان السلطان المجاهد اقتراض هذا المبلغ من تجار الكارم (٣) ، على أن يتم تسديدها لهم بعد عودته . ولكن الأمراء توسطوا لدى السلطان حتى أعفاه من المال ، وأذن له بالعودة إلى بلاده عن طريق الحجاز (٤) بعد أن التزم بإرسال المقررات السنوية التي التزم

---

(١) الأشرفية ، هي الإيوان المعروف بدار العدل بقلعة الجبل ، أنشأها المنصور قلاوون ، وجددها ابنه الأشرف خليل ، وعرفت باسمه . ثم أعاد الناصر محمد بناءها ، وزاد فيها قبة جليلة وأعمدة عظيمة ورخمها ونصب فيها سرير الملك ، وصنعه من العاج والأبنوس ، ورفع سمك الإيوان وجعل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة ، وجعل بالإيوان بابا سريا من داخل القصر " (انظر المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٦ ، وجـ ٣ ص ٣٤٠ ، وما بعدها ، السلوك جـ ٢ ص ٥٨٩ حاشية ٥ ، ابن تغري بردي : النجوم جـ ٩ ص ٣٦ حاشية رقم ٢ ، عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار - القاهرة ١٩٧١ - ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٨٣٦ - ٨٣٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم جـ ١٠ ص ٢٢٩ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢٠٨ ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٧ - ٨٣٨ .

بنو رسول بإرسالها إلى مصر (١) ، تعبيرا عن ولائه وطاعته . وأكرم السلطان حسن وفادته ، وخلع عليه وأجزل له العطاء ، كما أمده أمراء المماليك بكثير من الأموال ، واقترض من تجار الكارم (٢) واشترى عددا من المماليك وكثيرا من الخيل والجمال (٣) .

فلما تجهز المجاهد للسفر عهد السلطان حسن للأمير قشتمر شاد الدواوين بمصاحبته فى سفره ، ومراقبة تصرفاته والإبلاغ عن المريب منها (٤) . وخرج المجاهد من القاهرة فى صفر ٧٥٢ هـ / ابريل ١٣٥١ م ، فلما وصل الدهناء من وادى ينبع ، وظن أنه أصبح بعيدا عن دائرة نفوذ السلطان المملوكى ، تطاول عليه ، واتسمت تصرفاته بالإساءة إليه (٥) . فصدرت الأوامر بالتوجه به إلى الشام واعتقاله بحصن الكرك (٦) ، فظل مقيما فيه إلى أن شفع له نائب

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٩ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٣٩ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٠ ص ٢٦٤ .

(٦) الخزرجى : العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ أ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٧٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ١٤٨ .

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 101 .

القلمة (١) لدى السلطان الصالح بن محمد بن قلاوون ، الذى كان قد اعتلى دست السلطنة فى جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ هـ(٢) / أغسطس ١٣٥١ م . فغادر المجاهد حصن الكرك وزار القدس والخليل (٣) فى طريقه إلى القاهرة فوصلها فى شعبان من نفس السنة فخلع السلطان الصالح عليه ، كما أرسل له الأمراء بتقادم كثيرة ، وتوجه إلى بلاده عن طريق عيذاب (٤) ، فوصل إلى اليمن فى ذى الحجة سنة ٧٥٢ هـ / يناير ١٣٥٢ م حيث استقبل استقبالا عظيما ، وأقيمت بمناسبة عودته الاحتفالات والزينات (٥) .

وبمجرد وصول المجاهد بادر بالكتابة إلى السلطان المملوكى يبلغه بتجهيز التقدمات لإرسالها ، وأنه قام بسداد ما كان قد اقترضه من التجار ، وقدم عددا من التسهيلات للمراكب التجارية (٦) غير أنه منعها من الإرساء فى جدة انتقاما من أمراء مكة (٧) . أما الهدية التى أشار إليها فى كتابه ، فقد أرسلها صحبة

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ١٠٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٤٣ .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٤٨ ،

De Gaury : op. cit. P. 101 .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ٢ ص ٤٠ أ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٠ ص ٤٦٤ ، المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٨٥٢ ،

De Gaury : op. cit. p. 101 .

(٥) الخزرجى : العقود اللؤلؤية حـ ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ، المسجد ص ٤٤٩ - ٤٥٠ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ أ ، ابن تغرى بردى : المنهل حـ ٤ ص ٣ ٠١ ، بامخرمه : تاريخ ثغر عدن حـ ٢ ص ١٤٨ .

(٦) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٨٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٥ ص ٢٩٥ .

(٧) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٨٦٧ و ٨٨٨ ، الفاسى : شفاء الغرام حـ ٢ ص ٢٤٨ ، الطبرى : الأرج المسكى ص ٤٩ .

ابنه الناصر أحمد (١)، فلما وصلت الهدية إلى عيذاب أرسل متـولى قوص لإبلاغ السلطان، واتخذت الاجراءات لاستقبال السفارة (٢)، وبلغ مقدار ماصرف على الوافدين منذ وصولهم إلى عيذاب حتى دخولهم القاهرة فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٥٤ هـ / ٢٦ مايو ١٣٥٣ م مايقرب من مائتى ألف درهم (٣)، حاشا الخلع وخمسمائة درهم يوميا، عدا الضيافات التى أقامها أمراء المماليك لهم (٤). غير أن الهدية لم تحظ بالقبول عند استعراضها، إذ كانت هدية المؤيد داود للناصر محمد بن قلاوون تضم حوالى ألفى شاش (٥). وعاد

---

(١) أرسل المجاهد صحبة ابنه الناصر كل من القاضى فتح الدين عمر بن محمد ابن الخطباء والأمير شمس الدين على بن حاتم والطواشى نظام الدين خضر الذى توفى فى عيذاب، فأرسل المجاهد بدله الطواشى صفى الدين الرضوانى، ولكنه لم يدركهم إلا بعد دخولهم مصر. (الخزرجى : العقود حـ ٢ ص ٩٣، العسجد ص ٤٥١، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٨ أ).

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٨٦.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٨٩٣،

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) عرضت الهدية فى بداية الأمر على الأمير طاز بالميدان، ثم مثل الرسل بهديتهم بين يدى السلطان وكانت تضم ستين رأســا من الرقيق ـ كانوا فى الأصل ثلاثمائة، مات الباقون فى أثناء الطريق ـ ومائتى شـاش، وأربعمائة قطعة صينى، ومائة وخمسين نافجة مسك (وعاء من الجلد) وقرن زباد (مكحلة بها الزباد وهو نوع من الطيب لمداواة الزكام) وعدة تفاصيل، وخمسين قنطارا من الفلفل، وغير ذلك من الأصناف كالزنجبيل والعنبر والأفاوية، بالإضافة إلى فيل واحد. كما أرسل هدايا أخرى لبعض كبار أمراء المماليك (المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٨٩٢ - ٨٩٣).

الناصر بن المجاهد بعد أربعة أشهر إلى بلاده (١) .

وفي سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م أرسل المجاهد هدية أخرى إلى مصر صحبة الطواشي صفي الدين جوهر الرضواني ، ولكن تلك الهدية لم يقدر لها الوصول لغرق السفينة بفعل الشعاب المرجانية في البحر الأحمر (٢) . ويستدل مما ذكره الخزرجي أن سفارة أخرى أرسلها المجاهد في عام ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م أو العام السابق عليه ، ذلك أن الرسل عادوا إلى اليمن في ربيع الآخر ٧٦٣ هـ / فبراير ١٣٦٢ م ، وبصحبتهم بعض أمراء المماليك ، فأحسن المجاهد مقابلتهم (٣) . وهذا يدل على عودة العلاقات الطيبة بين اليمن ومصر ، ويغلب على الظن أن المجاهد حرص — إلى نهاية عهده — على مداراة مصر (٤) .

واستمرت العلاقات الودية سائدة بين اليمن ومصر في عهد الأفضل عباس

---

(١) ذكر المقريزي أن الناصر أحمد أخذ معه عند عودته « كثيرا من الصناع والخايلين (المتخصصين في لعبة خيال الظل) والمشعبذين (أي أصحاب المقدرة على إظهار الأشياء على غير أشكالها) والمساخر وأرباب الملاهي ، وشيئا عديدة قامت عليه بأموال جزيلة . وأنعم عليه السلطان والأمراء بغير نوع من الهدايا والتحف السنية ، وألبسوه الخلع الجليلة ، وبالغوا في إكرامه وجهزوا له ما يحتاج إليه من المراكب ، وكتب إلى ولاة الأعمال بإكرامه ، فسار في البحر » (المقريزي : السلوك جـ ٢ ص ٩١٦ — ٩١٧) .

(٢) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٠١ ، العسجد ص ٤٥٦ .

(٣) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٢١ ، العسجد ص ٤٦٧ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢ .

الرسولى ، وكان على عرش مصر آنذاك السلطان الملك الأشرف شعبـــان ، فأرسل السلطان الرسولى إليه سفارة فى سنة ٧٦٧ هـ (١) / ١٣٦٦ م ، وصلت إلى مصر مزودة بالهدايا والتحف ، فاستقبلها السلطان الأشرف وأنعم على الرسل (٢) وأعادهم إلى بلادهـــم حاملين الهدايا إلى سلطانهم (٣) وأشار المقريزى إلى هدية يمنية أخرى توجه أحد الأمراء لاستقبالها سنة ٧٧١ هـ (٤)/ ١٣٧٠ م كما وصلت هدية أخرى سنة ٧٧٥ هـ (٥) / ١٣٧٤ م وبقى أعضاء تلك السفــارة إلى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٦ م وعادوا إلى اليمن محملـــين بالهدايا والتحف(٦).

٣ ـ العلاقات اليمنية المصرية بين بنى رسول وسلاطين المماليك الجراكسة :

عاصر السلطان اليمنى الأشرف الثانى اسماعيل بن الأفضل الرسولى قيـام دولة المماليك الجراكسة فى مصر. وجاء قيـــام تلك الدولة فى وقت كانت العلاقات اليمنية المصرية فيه يسودها الوئام والود . وكانت مصر فى تلك الظروف تحرص على تنمية العلاقات الطيبة من أجل تسهيل تجارة العبور فى البحر

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٤ ، العسجد ص ٤٧٦ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٢٧ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٧ .

(٤) المقريزى نفس المصدر والجزء ص ١٨٧ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٥٢ ، العسجد ص ٤٩١ ، المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٢٢٢ .

(٦) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٥٤ ، العسجد ص ٤٩١ .

الأحمر (١) . وقد عمل السلطان الأشرف الثاني على توطيد أواصر الصداقة والمودة مع السلطان المملوكي الظاهر برقوق ، وتبادل معه الرسل والهدايا تعبيرا عن الصلات الحسنة التي ترتبط بها الدولتان (٢) . فبعث السلطان

(1) Pilote (E.):L' Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle, p. 42 .

(٢) أرسل السلطان برقوق إلى السلطان الأشرف الثاني الرسولي هدية في سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م . (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٨٢ ، العسجد ص ٥١١) وأتبعها في العام التالي بهدية أخرى برفقة عدد من صناع الحرير السكندريين للعمل في اليمن .(الخزرجي: العقود جـ٢ ص ١٨٦ ، العسجد ص ٥٢١) وثالثة في العام التالي (الخزرجي : العقود جـ ٢ص ١٩٣، العسجد ص ٥٢٨) ورابعة سنة ٧٩٠ هـ /١٣٨٨ م «فيها من أصناف المأكول والمشروب والملبوس والمشموم ، ومن التحف شيء كثير . ومن الخيل والبغال وكلاب الصيد وسباع الطير مايستحسن ويستطرف شيء كثير » (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ١٩٨ ، العسجد ٥٢١) . وفي سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٩ م وصلت هديتان من مصر إلى اليمن كانت الأولى في صفر ، استقبلها السلطان الأشرف الثاني بنفسه في مدينة زبيد ، فكان يوم وصولها يوما مشهودا . وتضمنت الهدية ثلاثين مملوكا واثني عشر رأسا من الخيل « بسروج مغرقة وآلة جسنة » وعدة جوار من الروميات والأرمينيات ، وطبيب ماهر من يهود مصر . ومن الملبوس والمشموم والمطعوم شيء كثير لايدخل تحت الحصر الخزرجي : العقود جـ٢ ص٢٩٤ — ٢٩٥ ، العسجد ص ٥٦٦) أما الهدية الثانية فكانت في ذي الحجة سنة ٨٠٠ /أغسطس ١٣٩٨ م(الخزرجي :العقود جـ ٢ ص٥٦٩)، وفي سنة ٨٠١ هـ وصلت هدية أخرى: الخزرجي العقود جـ٢ص ٣٠٢ ، العسجد ص ٥٧٠) ، أما آخر تلك الهدايا فوصلت إلى اليمن سنة ٨٠٢ هـ (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٠٧ ، العسجد ص ٥٧٤) وكان السلطان برقوق قد أرسلها قبل وفاته في شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية سنة ١٣٩٩ .

الأشرف بالنفيس من الهدايا إلى السلطان الظاهر برقوق [١]. وتشير المصادر إلى حرص السلطان برقوق على تأكيد الروابط الودية مع السلطان الرسولي، فكانت هداياه تصل سنويا إلى اليمن منذ عام ٧٨٧ هـ [٢]/ ١٣٨٥ م حتى هدية سنة ٨٠٢ هـ [٣] ١٤٠٠ م، التي أرسلها السلطان برقوق قبل وفاته سنة ٨٠١ هـ ومما يذكر أن هدايا الظاهر برقوق وردت إلى اليمن سنة ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٩ م مرتين [٤]. وكان السلطان الأشرف يوالي بدوره مهاداة السلطان المملوكي ويتبادل معه الهدايا [٥] وقد بلغ من مكانة السلطان برقوق لدى

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشي جـ ٨ ص ٧٢ — ٧٦ .

(٢) انظر الصفحة السابقة ، هامش ٢ .

(٣) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٣٠٧ ، العسجد ص ٥٧٤ .

(٤) الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، ٩٩٩ ، العسجد ص ٥٦٦ ، ٥٦٩ .

(٥) أرسل السلطان الأشرف هدية جليلة إلى الظاهر برقوق في ٧٩٨ هـ/١٣٩٦م (الخزرجي : العقود جـ ٢ ص ٢٨٣ ، العسجد ص ٥٦٢) وكان وصولها إلى مصر سنة ٧٩٩ هـ صحبة التاجر الكارمي برهان الدين المحلي الذي تردد بالهدايا بين الجانبين عدة مرات ، واشتملت الهدية على عدد من العبيد والطواشية والجواري ، وسيف محلى بالذهب ومرصع بالعقيق ، وحياصة (حزام) بعواميد عقيق مكللة بفصوص كبيرة من اللؤلؤ ، ووجه فرس من العقيق ، ومرآة هندية محلاة بالفضة ومرصعة بالعقيق ، وعشرة براشم (براقع) للخيل ، وعدد من الرماح ، وشطرنج من العقيق الأبيض والأحمر ، ومراوح مصفحة بالذهب ، ومن المسك ألف مثقال ، ومثله من العنبر الخام ، وسبعين أوقيه زباد ، وغير ذلك من العود والصندل ، وبراني من الشمع (نوع من الرياحين) ، =

السلطان الرسولى أنه لما وصل الخبر لليمن بوفاته فى المحرم سنة ٨٠٢ هـ / سبتمبر ١٣٩٩ م (كانت وفاة الظاهر برقوق فى شوال سنة ٨٠١ هـ / يونية ١٣٩٩ م) أقيمت صلاة الغائب على روحه بجامع زبيد يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة ٨٠٢ هـ ، وأمر السلطان الأشرف بقراءة القرآن على روحه لمدة سبعة أيام فى كل من زبيد وتعز وعدن (١) .

وتستمر العلاقات الحسنة بين اليمن ومصر بعد برقوق ، ويتبادل سلطان كل منهما الهدايا مع الآخر . ففى سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م أرسل السلطان الناصر أحمد بن الأشرف الرسولى هدية تحتوى على الكثير من الشاشات الأرز والملابس الحريرية ، وغير ذلك من الحرير والصينى والعود واللبان والصندل وسروج الخيل من العقيق بأطراف ذهبية ، وقطاط الزباد فلما عرضت تلك الهدية على السلطان المؤيد شيخ وقرىء له كتاب صاحب اليمن أنعم على الرسل كجارى العادة(٢) ، وأعاد الرسل مكرمين إلى اليمن ، حاملين معهم هديته إلى سلطانهم (٣) . وتكررت الهدايا بين الجانبين فى عامى ٨٢٠ هـ (٤) / ١٤١٧ م ، و٨٢٢ هـ (٥) / ١٤١٩ م .

= ومن الحرير الخام والبهار والأنطاع والصينى وتحف اليمن الشىء الكثير . (ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ١٨ ص ٩٧ أ - ب ، المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٨٧٤ - ٨٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٦٦-٦٧) .

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٣٠٦ ، العسجد ص ٥٧٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٤٥ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٦٧ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٩٥ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٧٩ .

رابعا - العلاقات اليمنية مع الدول التجارية الآسيوية وساحل افريقية الشرقى ، وأثرها فى انتعاش تجارة عدن والبحر الأحمر :-

كان للجهود التى بذلها سلاطين المماليك فى مصر ، وخاصة الظاهر بيبرس ، لتأمين الملاحة فى البحر الأحمر ، وما قام به السلطان المظفر يوسف الرسولى سلطان اليمن للقضاء على القرصنة فى المحيط الهندى ، وتأمين وصول السفن التجارية إلى عدن ، أعظم الأثر فى ازدهار حركة التجارة العالمية فى عدن والبحر الأحمر .

وقد واصل سلاطين بنى رسول اهتمامهم بتنشيط حركة التجارة، وعملوا على توطيد العلاقات مع الدول ذات المصالح التجارية فى آسيا وإفريقية . وإحساسا بأهمية بلاد اليمن ، وموقعها الهام على طريق التجارة العالمية ، وضمانا لسلامة التجار ، لجأت الدول التجارية إلى الارتباط بعلاقات الود مع البلاط الرسولى ، وتوافدت رسلهم بالهدايا النفيسة إلى اليمن ، حتى أصبحت عدن قبلة الوافدين وملتقى السفارات (١) ، من الصين والهند وسيلان وقاليقوط (٢) وفارس وعمان والبحرين والحبشه ودول الطراز الاسلامى (٣)

---

(١) Lewis (Bernard) : Egypt and Syria (The Cambridge History of Islam, 1970). Vol I, p 223.

(٢) قاليقوط ، ميناء ومركز تجارى هام لتجارة التوابل والأحجار الكريمة وغيرها ، وتقع على ساحل ملابار على الشاطىء الغربى للهند ، وسلطانها يعرف بالسامرى ، ويقصدها كثير من الجاليات من مصريين ويمنيين وأحباش وأتراك وفرس وبحرانيين وصينيين وغيرهم (ابن بطوطه : تحفة النظار جـ ٢ ص ١١٥ - ١١٦)

(٣) انظر ما يلى ص ٣٨، وما بعدها.

بساحل إفريقية الشرقى وغيرها .

١ - مع الدول الأسيوية :-

أ - مع الصين :-

وفى سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م وفدت رسل الصين بالهدايا إلى السلطان المظفر يوسف الرسولى(١) . وتوطدت العلاقات بين البلدين حتى أن السلطان المظفر عندما علم بامتناع ملك الصين عن السماح بختان أبناء المسلمين فى بلاده أرسل إليه هدية وكتب إليه يسأله السماح لهم وعدم الاعتراض على عملية الختان، فاستجاب له(٢) . وعلى الرغم من أن المصادر لم تزودنا بمعلومات كافية عن أخبار العلاقات مع الصين ، إلا أن استمرار حركة التجارة ينهض - فى حد ذاته - دليلا على استمرار تلك العلاقات الطيبة . ففى سنة ٨٢٣ هـ / ١٠٢٠ م وصل رسول الصين إلى السلطان الناصر أحمد الرسولى وقدم إليه كميات من الهـــدايا والتحف بلغت من الكثرة أنها وصلت على ثلاث مراكب كبيرة ، وقد قدرت قيمتها بعشرين لكا(٣) من الذهب ، أى ما يوازى مليونى دينار. فاستقبل السلطان الناصر السفير ورحب به وبالغ فى إكرامه ، وأرسل صحبته كتابا وهدية جليلة لملك الصين، ويذكر مؤرخو اليمن أنه لما دخل رسول ملك الصين على السلطان الرسولى لمقابلته « لم يقبل الأرض بين يديه ، بل قال له ،

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢١٣ ، العسجد ص ١٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٩ أ . (ويشير الدكتور أحمد دراج إلى أن السنة التى وفدت فيها السفارة لم تعرف على وجه التحديد) إيضاحات جديدة ص ١٩٢ .

(٢) الخزرجى . العقود جـ ١ ص ٢٧٩ ، العسجد ص ٣١٤ .

(٣) اللك - كما هو وارد فى المعجم الوسيط - يساوى مائة ألف دينار .

سيدك صاحب الصين يسلم و يوصيك بالعدل فى الرعيـه » فقال له السلطان :
« مرحبا بك و نعم المجىء جئت (١) .

و يبدو أن تلك السفارة الصينية كانت تستهدف أن يعدل سلطان اليمن من سياسته تجاه التجار فيحسن إليهم و يخفف من حملته عليهم ، إذ أنه كان قــد أجحف بالتجار و جار عليهم و تعسف معهم (٢) ، الأمر الذى دعا الكثيرين منهم إلى مقاطعة عدن (٣) .

ب - مع الهند : -

أما الهند ، فقد توافدت رسلها بالهدايا الجليلة فى سنوات متفرقة ، ففى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م جاء رسول صاحب الهند إلى السلطان نور الدين عمر ابن رسول ، قبل وفاته بعدة أيام و تنبأ بدنو أجله (٤) ، كما وصلت رسل الهند مرة أخرى فى سنة ٦٧٨ هـ/١٢٧٩ م بعد أن فتح السلطان المظفر الرسولى بلاد ظفار (٥) ، و تكرر مجىء هؤلاء الرسل فى عهد المؤيد فى سنوات ٧٩٨ هـ (٦) ،

---

(١) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٥ - ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ ، بغية المستفيد ص ٧٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٥ .

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٢ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى - محاضرات الجمعية التاريخية ١٩٦٨ - ص ١٩٣ .

(٣) يحيى ابن الحسين : غاية الامانى ص ٥٦٥ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٨٣ ، العسجد ص ٢٤١ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ١ ص ٢١٣ ، العسجد ص ٢٩٥ .

(٦) الخزرجى . العقود جـ ٢ ص ٢٨٥ ، العسجد ص ٥٦٢ .

٨٠٠ هـ[1] ، ٨٠٢ هـ[2]. (١٣٩٦ ، ١٣٩٨ ، ١٤٠٠ م). تعبيرا عن العلاقات الودية التى كانت تربط الهند باليمن . غير أن الأمور لم تلبث أن تدهورت فى عهد المجاهد نتيجة اعتراضه لاحدى السفارات الهندية المتجهة إلى مصر ، واستيلائه على الهدايا وإقدامه على قتل الرسل [3] .

وفى عهد الأفضل بن المجاهد وصل رسل صاحب كنباية والسند فى سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧ م محملين بالتحف والهدايا التى اشتملت شتل شجر الفل الاحمر والأصفر والأزرق [4] .

كذلك عمل صاحب سيلان على تدعيم علاقاته مع اليمن فأرسل فى سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م هدية إلى السلطان الأشرف بن الأفضل ، وتضمن كتابه وهو عبارة عن ورقة من الذهب الخالص ـ بيانات الهدية التى كان من جملتها الفيلة والتحف وشتل الأشجار ، فأنعم الأشرف على الرسول السيلانى بخمسة من جياد الخيل ، وكسوة فاخرة [5] .

ج ـ مع قاليقوط : ـ

أما قاليقوط فقد أرسل صاحبها سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩ م إلى السلطان

---

(١) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٢٩٧ ، العسجد ص ٥٦٨ .

(٢) الخزرجى . العقود جـ ٢ ص ٣١٠ ، العسجد ص ٥٧٦ .

(٣) انظر ما يلى ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٥ ، العسجد ص ٤٧٧ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٠ ب .

(٥) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٩٧ ، العسجد ص ٥٦٨ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٨ ب .

الأفضل بن المجاهد هدية تحتوى على الكثير من غرائب الأشجار والطيور [١].
كما أرسل تجار قاليقوط هدايا وكتابا إلى السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولى
سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م يعلنون ولاءهم له ويستأذنونه فى السماح لهم بالخطبة
له على منابر بلادهم . وكانت الخطبة لديهم قبل ذلك لصاحبي دلهى وهرمز
معا . فوافق الأشرف على مطلبهم ، وأنعم على الرسل وأكرمهم [٢].

كما توافدت سفارات أخرى من كل من فارس [٣] وعمان والبحرين
وغيرها من دول آسيا [٤] .

٢ - مع سواحل العدوة الافريقية :-

ارتبطت بلاد اليمن مع الحبشة وساحل إفريقية الشرقى بعلاقات سياسية
وحضارية موغلة فى القدم لا مجال هنا للتعرض لجذورها ، ولا يهمنا هنا سوى
ما يتعلق بالفترة التاريخية الواقعة فى نطاق هذه الدراسة . فقد اتخذ العرب من
الساحل الشرقى لافريقيـة مجالا للهجرة والتجارة ، واستقرت أعداد هائلة
منهم ، وتكاثرت فى المنطقة الساحلية ، وبمرور الزمن انتظمت تلك الجماعات

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٩ ، العسجد ص ٤٨٠ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ١٠٠ ب .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٧ ، العسجد ص ٥٤٥ .

(٣) ابن حاتم : السمط ص ١٠٠ أ - ب ، الخزرجى : العقود جـ ١
ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، العسجد ص ٢٩٠ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٧٨ أ .

(٤) الخزرجى : العقود : جـ ١ ص ٢١٣ ، العسجد ص ٢٩٥ ، ابن الديبع :
قرة العيون ص ٧٩ ا .

فى إمارات عرفت باسم « الطراز الاسلامى » وهى تسمية أطلقت عليها بحكم امتدادها على الشريط الساحلى، فكانت بمثابة الطراز [١] الفاصل بين البحر الأحمر والمناطق الداخلية .

ويضم إقليم الطراز سبع ممالك على رأس كل منها ملك ، ولكل منها جيوشها الخاصة بها [٢] وهذه الممالك هى : —

١ ــ أوفات أو جبرت ، ومن مدنها زيلع [٣]

٢ ــ دوارو ، وتقع الى الجنوب من أوفات [٤]

٣ ــ أرابينى ، وتقع الى الشمال الشرقى من بحيرة صانا [٥]

٤ ــ شرحا ، وتقع إلى الغرب من أوفات [٦] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٤ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ــ مخطوط بدار الكتب رقم ٨ معارف عامة م ــ جـ ٥ ص ١٠٣ أ .

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار جـ ٥ ص ١٠١ أ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار جـ ٥ ص ١٠٢ أ ، القلقشندى صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ .

(٥) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢ ب ، القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ .

(٦) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار جـ ٥ ص ١٠٢ ب .

٥ ـ هدية ، وتقع جنوبي أوفات ، وملكها أقـــوى مـلوك الدويلات الإسلامية السبعة [١] .

٦ ـ بالى ، وهى لاتقل قوة عن أوفات [٢] .

٧ ـ دارة ، وتقع إلى الجنوب الغربى من بحيرة صانا ، وهى أضعف ممالك الطراز [٣] .

وكان ملوك دويلات الطراز السبعة ، يدينون بالولاء والطاعة لملك الحبشة ويحملون إليه مقررات سنوية محـددة [٤] . وكان من جمـلة اختصاصه إقامة الملوك وتنصيبهم ، فإذا اتفق أن مات أحد ملوك الطراز أو غيرهم ، لايجوز أن يخلفه أحد من أهله بغير موافقة الحطى واختياره لأنهم كانو كالنواب له[٥] وأمرهم راجع إليه [٦] . وكان ملوك الحبشة يضطهدون شعوب الممالك الإسلامية الخاضعة لهم ، ويحاربونهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وقد نشط

---

(١) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ أ .

(٣) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء والصفحة ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٩ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن فضل الله العمرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٣ أ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢ .

المسلمون فى الحبشة ابتداء من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) عندما استشعروا ضعف ملك الحبشة وازدياد قوتهم [١] .

وكانت الحبشة — فى الفترة التى نحن بصدد دراستها — قد اتجهت بثقلها إلى مصر لارتباطها كنسيا ببطاركة الاسكندرية ، وذلك أن بطريق القبط بمصر كان يتولى مسئولية تعيين مطران الحبشة من بين طائفة الأقباط اليعاقبة . وكان لهذا المطران حق الاشراف على الشئون الدينيــة فى الحبشة، كما أنه لم تكن تصبح ولاية ملك الحبشة الا بتنصيب المطران له [٢] .

وعلى الرغم من الصلات الحبشية المصرية المباشرة ، إلا أن نجاشى الحبشة كان يضطر فى بعض الأحيان إلى التــودد إلى سلطان اليمن ومهــاداته كلما تأزمت الأمور بينــه وبين سلطان مصر ، وليتوسط السلطان الرسولى له لدى السلطان المملوكى ، ففى سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م وفد سفراء الحبشة على البلاط اليمنى برسالة من ملك الحبشة يكونو أملاك يطلب إلى السلطان المظفر الرسولى التوسط له عند السلطان الظاهر بيبرس لارسال مطـران من مصر . وفى سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م أرسل النجاشي سيف أرعد بالهـدايا والتحف إلى السلطان الأفضل بن المجاهد الرسولى [٣] ، ولم توضح المصادر الهدف من إرسال هذه السفارة . علما بأن العلاقات الحبشية المصرية كانت متوترة آنذاك ، كما كان ملك الحبشة قد اشتدت وطأته على مسلمى الطراز الإسلامى فى ذلك الوقت .

---

(١) Budge : A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia (London, 1928) vol. I, p: 288 .

(٢) المقريزى : الالمام ص ٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٠٨ .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٣٩ .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج أن هذه السفارة كانت تستهدف . أولا : ضمان عدم تدخل اليمن فى الصراع الدائر مع مسلمى الطراز ، وثانيا : ضمان استمرار التبادل التجارى المباشر مع اليمن .

غير أن ماتعرض له المسلمون بممالك الطراز من قتل وتشريد وتخريب ديار نتيجة لاشتداد أعمال العنف والحملات التى شنها عليهم ملك الحبشة [١] ، أدى إلى فرار الكثيرين منهم إلى اليمن احتماء بها أوطلبا لنجدات سلاطين بنى رسول . ففى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م توجه ابنا سعدالدين أبى البركات محمد بن صبر الدين - من ملوك دويلات الطـــراز الإسلامى - إلى اليمن للاستنجاد بالسلطان الرسولى الناصر أحمد ، فأكرمهما ووعدهما بمد يدالعون لهما [٢] . ولكن الظروف التى كانت تمر بها اليمن لم تمكن الناصر من بذل العون العسكرى لهما . ويذكر المقريزى أنه أعطاهما ستة خيول عادا بها إلى بلدهما [٣] ، وقاما بإعادة تنظيم صفوف أتباعهما لمحاربة ملك الحبشة . وفى سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م عادا مرة أخرى مهزومين إلى الناصر أحمد فأكرمهما [٤] ، وأمدهما بمائتى فـرس بفرسانهم ، وما يلزمهم من آلات الحروب ، وتابعهم بالإمدادت حتى قويت شوكتهم [٥] .

---

(١) Budge : A History of Ethiopia, vol. p. I, p. 285

(٢) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١٠ ، بغية المستفيد ص ٧٧ .

(٣) المقريزى : الألمام ص ٢٣ .

(٤) يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٥) الخزرجى : العسجد ص ٥٨٦ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١١١ أ - ب ، بغية المستفيد ص ٧٩ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٠١ .

ونستدل مما سبق أن اليمن عملت على مـــد يد المساعدة لمسلمى الطراز الإسلامى ، مما كان له أثره فى تأمين التجارة مع ساحل افريقية الشرقى ، حيث كانت ترد إلى موانيها متاجر الهند وغيرها ، أو تصدر منهامنتجات المنطقة [١]. والحقيقة أن دول الطراز كانت تسيطر بفضل موانيها زيلع وتاجورة ومصوع وغيرها فى البحر الأحمر على حركة التجارة فى شرق إفريقية ، وتحكمت فى الطرق المؤدية إلى الداخل [٢] بحيث كانت لا تصل التجارة إلى الحبشة أو تخرج منها إلى الساحل إلا عن طريقهم .

٣ ـ مظاهر اهتمام سلاطين بنى رسول بثغر عدن والتجارة البحرية مع الهند :ـ

وإذا كان سلاطين بنى رسول قد حرصوا على توطيد العلاقات مع العديد من الدول على النحو الذى أوضحناه ، فإنهم قد عملوا من ناحية أخرى على تشجيع التجار للوصول إلى عدن . فقام المظفر الرسولي بإرسال الشوانى فى المحيط الهندى للقضاء على القراصنة وتأمين الملاحة فى طريق السفن المتجهة إلى عدن . ونهج خلفاؤه نهجه فى الاهتمام بأمر هذا الثغر ، زاره المؤيد داود الرسولى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م ، واستقبله التجار فى عدن استقبالا حافلا، وتباروا فى تقديم الهدايا والتحف له ، ولكنه شكرهم وأعاد إليهم ماقدموه ه

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia (London, 1952) p. 32

(٢) سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ـ المجلة التاريخية جـ ١٤ سنة ١٩٦٨ ـ ص ٥ .

James : Routenis of Abyssia, pp. 2 - 10.

وخلع عليهم ، وأجرى على نواخيذ الهند على جارى عادتهم وأمر بإكرام النواخيذ والتجار المترددين إلى الثغر »[1] .

ومع بداية عهد المجاهد بن المؤيد الرسولي مرت بلاد اليمن بحالة من الفوضي والاضطراب لم تشهد لها مثيلا من قبل[2] ، فكان لتلك الحقبة أثرها الكبير على عدن وتجارتها ، فقد استبد النواب بالمدينة أثناء الصراع الدائر بين المجاهد وابن عمه الظاهر عبد الله ، وحوصرت عدن من كل من الجانبين المتنافسين عدة مرات[3] باعتبارها مصدر الدخل الكبير الذى يمكن الاعتماد عليه لتغذية الصراع ماديا . وظل الأمر كذلك حتى استقر الأمر أخيرا فيها للمجاهد الرسولى[4] . ولهذا كان اهتمام المجاهد كبيرا بثغر عدن ، فتردد عليه لإقرار الأوضاع فيه[5] . وبلغ من اهتمامه به وكثرة تردده عليه أن توفى فى عدن

---

(١) الخزرجى : العقود جـ١ ص ٣١٩-٣٢١ ، المسجد ص ٣٣٢ - ٣٣٤ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٧٦ ، احمد دراج : إيضاحات جديدة ص ١٩١ .

(٢) انظر ماسبق ص ١٨٥ وما بعدها .

(٣) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ١٣ و ١٩ و ٢٣ و ٢٥ و ٣٤ -٣٥ و ٤٠- ٤٣ و ٤٤ و ٤٧ و ٤٩ ، المسجد ص ٣٩٦ ، ص ٣٩٨ و ٤٠١ و ٤١٠ و ٤١١- ٤١٣ و ٤١٥ - ٤١٧ ، العقد الفاخر جـ٢ ص ٣٨ ب ، ٣٩ أ-ب ، ابن الديبع : قرة العيون ص ٩٣ أ- ، ٩٤ أ-ب ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٤٦ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٥٢ ، المسجد ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٥) الخزرجى : العقود جـ٢ ص ٧٨ و ٨١ ، المسجد ص ٤٢٠ : ٤٢٢ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٤٧ .

أثناء إحدى زياراته لها سنة ٧٦٤ هـ [١] / ١٠٦٣ م .

ولم يفتر عزم الأفضل بن المجاهد من بعده فى الاهتمام بتنشيط حركة التجارة فى عدن ففى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م توجه إلى عدن ، وتفقد أحوال التجار فيها ، ونشر العدل ، وأنعم على النواخيذ ، وأبطل كثيرا مما أحدثه العمال ، وصار التجار تذكره بالجميل ونائله الجزيل إلى كل ناحية فى البر والبحر ، [٢] .

وهذا السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولى حذو أبيه وجده ، فتوجه إلى عدن سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م ، ، وأبطل من المكوس المحدثة شيئا كثيرا ،[٣] . كما زارها مرة أخرى فى سنة ٧٩٣ هـ [٤] / ١٣٩١ م .

وهكذا استطاع سلاطين بنى رسول المحافظة على مكانة عدن التجارية ، فقدموا الكثير من التسهيلات للتجار ، وعملوا على تخليصهم من المظالم التى أنزلها بهم نوابهم فى عدن . كما كان لعلاقاتهم بالدول التجارية أثرها فى استمرار الحركة التجارية فى عدن والبحر الأحمر .

---

(١) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٢٣ ، العسجد ص ٤٦٨ ، العقد الفاخر جـ ٢ ص ٤٠ ب ، بامخرمة : ثغر عدن ص ١٤٩ .

(٢) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٤٤ ، العسجد ص ٤٩٢ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٠٣ ب .

(٣) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ١٧٠ ، العسجد ص ٥٠٣ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ٢ ص ٢١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة ص ١٩٢ .

(٤) الخزرجى : العقود جـ ٢ ص ٢٢١ ، العسجد ص ٥٢٣ .

خامسا : تجارة العبور وموقف مصر واليمن منها :

١ - جهود مصر فى المحافظة على تجارة البحر الاحمر :

كان لتدهور العلاقات بين مصر واليمن ، وخاصة منذ أيام المؤيد الرسولى وما تبع ذلك من الإجحاف بمصالح التجار فى ميناء عدن أثره فى استثارة السلطان المملوكى . وقد تجاوز الموقف مجرد استنكار تلك الأعمال ، وأرسال الاحتجاجات شديدة اللهجة ، إلى التلويح باستخدام القوة وإعداد الحملات العسكرية لوضع الأمور فى نصابها ، والعمل على تأمين التجارة ، وإلزام السلطان الرسولى بالانتظام فى إرسال المقررات التى التزم بها أسلافه لسلطان مصر [١] . غير أن بنى رسول ازدادوا تسلطا على التجار ، واعترضوا السفارات المارة بعدن فى طريقها إلى مصر ، مما أغضب حكومات دول تلك السفارات ، فاضطرت إلى إرسال رسلها عن طريق الخليج الفارسى تجنبا المرور بعدن .

ففى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أرسل حاكم سيلان سفراءه إلى مصر عن طريق الخليج ، وأوضح فى كتابه رفضه التعامل مع سلطان اليمن ، وأوضح للسلطان قلاوون المنتجات التى تشتهر بها بلاده من محاصيل وصناعات وتحف وغيرها ، وعرض عليه الارتباط المباشر مع مصر تجاريا [٢] ، واستعداده

---

(١) انظر ماسبق ص ٤٠٠ وما بعدها .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة حـ ٩ ص ١٤٢ ب - ١٤٣ أ ،

Heyd (W.) : Histoire du commerce du levant au Moyen age, T. I, pp. 424 - 4 6; Lane - Pool : A History of Egypt. p. 281 .

لإرسال عشرين مركبا سنويا ، ولكنه ضمانا لسلامة تلك الشحنات طلب أن يرسل السلطان رسولا إليه [1] ، وأن يبعث بآخر إلى عدن ، خوفا من أن يتعرض اليمنيون فيها لتلك السفن [2] .

وإذا كانت المصادر لم تشر إلى موقف السلطان المملوكي من ذلك العرض ، إلا أنه يمكن القول أن السلطان قلاوون أصدر عدة أوامر تستهدف تأمين التجارة وحسن معاملة التجار ، مع منح تسهيلات كبيرة لترغيب التجار الوصول إلى الموانى المملوكية ، وبدأ بإصدار تعليماته إلى نظار الثغور يأمرهم بعدم الإجحاف بالتجار وحسن معاملتهم والعمل على تسهيل الأمور لهم [3] . ثم أتبع ذلك بمنشور أمان أصدره عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨ م وسيره مع التجار لينشروه في كافة البلاد التي يصلون إليها [4] . ويهدف هذا المنشور إلى ترغيب تجار الصين والهند والسند واليمن والعراق والعجم والروم وغيرهم للتوجه ببضائعهم إلى الديار المصرية والشامية ، مؤكدا لهم استعداده لتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، ضامنا لهم حسن المعاملة والعدل ورعاية مصالحهم [5] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧١٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٧٧ - ٧٨ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٤٢ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر المماليك البحرية ص ٢١٠ .

Lewis (Bernard): Egypt and Syria, p. 223 .

ووعدهم بتقديم كافة التسهيلات ، مع إتاحة الفرصة لمن يرغب فى الإقامة منهم فى تحقيق الراحة ورغد العيش ، وطلب منهم الاستكثار من جلب المماليك الصغار (١) .

ويبدو أن هذه التجارة - تجارة المماليك - قد تأثرت بسيطرة المغول على الطريقين الآسيويين ، طريق الخليج والطريق البرى عبر آسيا ، مما جعل السلطان المملوكى يركز الاهتمام على جلب المماليك باعتبار ذلك مطلبا أساسيا وملحا تفرضه حاجة السلطنة المملوكية لزيادة عدد الجيش وتقويته بالعناصر الجديدة ، توطيدا لدعائم السلطنة وضمانا لاستمرار احتفاظها بقوتها .

لم تهتم المصادر ببيان رد الفعل الذى أحدثه هذا المنشور ، كما أنه ليس لدينا احصائيات عن الرسوم المتحصلة من التجارة قبل إصدار المنشور أو بعده حتى يمكن أن نتبين منها مدى نجاح تلك السياسة . غير أنه من المرجح أن النجاح كان ضئيلا وغير ملموس لاعتبارات أخرى معاصرة يمكن إجمالها فى النقاط الثلاثة الرئيسية الآتية :

أولاها ، تتعلق بالجهود التى بذلها المغول لانعاش الطريقين التجاريين الآسيويين .

وثانيها ، تختص بتعاون الفرنج مع المغول لاتفاق مصالحهما فى القضاء على تجارة البحر الأحمر .

وثالثها ، ترتبط بسياسة المماليك تجاه التجار ، وخاصة الفرنج ، وإرهاقهم بالرسوم الجمركية .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

فابتداء من أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بدأ النشاط يدب فى الطريق البرى الآسيوى ، وازدهرت الحركة التجارية فيه نتيجة لقيام أباطرة المغول بتأمينه ، بحيث أصبح السالك فى هذا الطريق مطمئنا على نفسه وماله . كما قام المغول بمنح تسهيلات كبيرة للتجار ، وأقيمت لهم الفنادق على الطريق للراحة ، وخففت عنهم أعباء الرسوم الجمركية ، وسمح للتجار ـ ومنهم الفرنج ـ بالتنقل داخل الامبراطورية ، وفى الموانى إلى هرمز وقاليقوط وكولم وموانى الصين نفسها . وهو أمر لم يكن سلاطين مصر يسمحون به لغير المسلمين . أما تجار الفرنج فكان المماليك يحددون تحركاتهم فى إطار محدود لدواعى الأمن ، ومنعا من تحقيق الاتصال التجارى المباشر بينهم وبين أسواق التجارة الشرقية . زد على ذلك أنه لم يكن لهم وللمسيحيين عامة حق الإبحار فى النيل أو البحر الأحمر (٢) . تأمينا للمقدسات الاسلامية فى الحجاز كما اقتصر السماح للسفن العربية ـ كسفن مصر واليمن والأقاليم الاسلامية على الساحل الشرقى لإفريقية ـ بالملاحة فى البحر الأحمر (٢) .

فلما تمكن المغول من تأمين الطرق المارة بالمناطق التى يسيطرون عليها ، عملوا على تنشيط حركة التجارة فيها ، كما عمل إيلخانات فارس على استعادة مكانة طريق الخليج الذى كانت حركة الملاحة فيه قد تأثرت بسبب ازدياد

---

(١) Thenaud (J) : Le voyage d' Outre Mer de Jean thenaud, p. 4 .

(٢) Neibuhr: Voyage en Arabie et en d' autres pays, T. I, pp, 208 - 212 .

خطر القراصنة (١) . فبعد أن تمكن الإيلخانات من تطهير الخليج من القرصنة وتأمين الملاحة فيه ، اتبعـــوا سياسة جمركية مغرية (٢) ، وأعفوا بعض الأصناف من تلك الرسوم (٣) .

وقد وجد الصليبيون — في التعامل التجارى مع المغول عبر الطريقين المشار إليهما — فرصة لفرض الحصار الاقتصادى على مصر تنفيذا للقرارات البابويه (٤) التى تجددت بعـــد سقوط عكا فى أيدى المماليك سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م (٥) ، وعجز القوى الصليبية عن استعادتها . ومن ثم تحـولوا إلى التعاون مع القوى المغولية للقضاء على تجارة البحر الأحمر (٦) . وهكذا تطورت الحروب الصليبية إلى حرب اقتصادية بمقاطعة الموانى المملوكية ، وتعاون الفرنج — وخاصة الجنويين — مع الخان أرغون لتحويل التجارة إلى الخليج الفارسى ، وذلك بإرسال بعض السفن فى سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م عبر

---

(١) أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر ص ١٨٧ — ١٨٨ ،

Wilson : The Persian Gulf , pp. 82 - 87 .

(٢) Heyd : Histore, de Commerece T. 2, p. 118 .

(٣) Heyd : op . cit., p. 132 .

(٤) Thenaud : Le voyage; p. 4 .

(٥) أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥ وما بعدها ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢٤٢ . سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٧٤ ، الأيوبيون والمماليك ص ٢٦٣ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٣ .

(٦) Heyd : op. eit. T. 2, p. 35 .

الخليج الفارسي – بالاشتراك مع الجنويين – إلى المحيط الهندي لفرض الحصار على عدن ، واعتراض السفن التجارية المتجهة إليها ، وإجبارها على الدخول فى الخليج ، وبذلك يتم قطع الطريق المصري إلى الهند عبر البحر الأحمر(١) .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، وإنما امتد التفكير إلى إنشاء عدد من السفن لاستخدامها فى نقل البضائع الشرقية من مصادرها رأسا إلى الخليج الفارسى ، مع منع السفن الأخرى من التوجه إلى عدن . وتنشيطا للحركة التجارية فى الخليج عمل الإيلخان المغولي على إنشاء ميناء جديد بدلا من هرمز لمقابلة الزيادة فى الحركة التجارية (٢) .

والواقع أن السياسة الجمركية التى اتبعها المماليك كان لها أبعد الأثر فى إضعاف أهمية البحر الأحمر ، وساعد على انعاش الطريق التجارى عبر الخليج ، لتفضيل التجار ، وخاصة الفرنج ، استخدامه والتعامل مع المغول ، خاصة بعد استيلاء المماليك على عكا ، وارتفاع الرسوم الجمركية فى الموانى المملوكية بحيث بلغ ما يسدده تجار الفرنج من رسوم ما يصل مقداره ثلثى قيمة البضائع

---

(١) Ferrand (G.) Une Navigation Eurppéene dans l' Oceen Irdien au 14 eme siecle (J. Asiat. 1922, T. 20) p. 309, Bratianu (G.I.) : Recherches sur le Commerce Genois dans la Mer Noire au 13 eme Siecle (paris 1929) p. 188, Lewis (Bernard) : Egypt and Syria. (Camb. Hist. of Islam) vol. I, p. 223 .

(٢) Heyd : op. cit. T.2, p. III .

أحياناً [١] ، مما كان مثار احتجاج هؤلاء التجار ودافعا لهم علي ترك التعامل مع الموانى المملوكية ، والتوجه إلى الطرق التجارية التابعة للمغول لما يلاقونه من تسهيلات كبيرة لديهم .

وأمام خطر انهيار التجارة الشرقية فى البحر الأحمر ، اضطر السلطان المملوكى إلى تعديل سياسته بهدف استعادة النشاط التجارى مرة أخرى . فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإغراء التجار الفرنج والبنادقة بوجه خاص على العودة إلى التعامل مع الموانى المملوكية [٢] ، فكان للتسهيلات التى منحها لهم وللجنويين أثرها فى كسر الحصار الاقتصادى الذى فرضته البابوية على مصر [٣] .

أما مغول فارس ، فقد عمل الناصر محمد على توجيه ضربة لهم والانتقام منهم ، لموقفهم العدائى من المماليك ، وتحالفهم مع الصليبيين لضرب مصر اقتصاديا . فحاربهم السلطان الناصر وانتصر عليهم بالقرب من حمص فى سنة ٦٨١هـ [٤] / ١٢٨٢ م .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان محمد بن طغلق [٥] ، انتهز فرصة العداء القائم بين المماليك ومغول فارس وأرسل سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م سفارة سرية

(١) Heyd : op. cit., T. 2, p 25 .

(٢) Heyd : op. cit., T.2 p. 40 Wiet : L' Egypte Arabe, p. 501 .

(٤) Heyd: op. cit , T. 2 p 49 .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة حـ ٩ ص ١١٣ ب ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٦٣ .

(٥) هو السلطان غياث الدين أولوغ خان محمد جنا بن طغلق (٧٢٥ - ٧٥٢هـ) النويرى : نهاية الأرب حـ ٣١ ص ٥ ١ .

إلى الناصر محمد بن قلاوون ، عن طريق الخليج الفارسى [١] ، تفاديا لاعتراض السلطات اليمنية لها [٢] . ورغم أن المصادر لم تشر إلى أسباب تلك السفارة وما أسفرت عنه من نتائج ، إلا أنها قد تكون من أجل التحالف مع المماليك ضد إيلخانات فارس ، والقيام بعمل عسكرى مشترك للقضاء على دولتهم [٣] غير أن ذلك جاء فى فترة كانت العلاقات فيها بين المماليك والدولة الإيلخانية قد تحسنت ، وخاصة فى عهـــد الإيلخان بوسعيد [٤] . أضف إلى ذلك أن اشتراك المماليك فى مثل هذا العمل من شأنه أن يؤدى — بعد القضاء على دولة الإيلخانات — إلى زيادة نشاط التجـارة فى طريق الخليج ، وهذا لا يتفق ومصلحة السلطنة المملوكية ، التى كانت تعمل على زيادة النشـاط التجارى بالبحر الأحمر على حساب الطرق التجارية الأخرى ، وهو ما بدت بشـائره فى الظهور بعد وفاة الإيلخان بوسعيد سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٥م. واضطراب الأحوال الداخلية فى بلادة من بعده ، وفشل خلفائه فى إستعادة الأمن لهذا الطريق [٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) انظر ماسبق ص ٤٣٧ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ١٤٠ - ١٤١ .

Lane - Poole : A History of Egypt, p. 310 .

(٤) انظر المقريزى : السلوك حـ٢ ص ٢٠٩ و ٢١٢ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٤ - ٤٠٦ ، محمد جمال الدين سرور . نفس المرجع ص ٢١٢ - ٢١٣ ،

Howorth : A History of Mangols, vol III, pp. 634 - 640.

Browne : A Literary History of persia, vol : III, pp. 57 - 58 .

٢ - تدهور ميناء عدن واحلال ميناء جدة مكانته في حركة التجارة العالمية :-

ليس من شك في أن سلاطين بني رسول بتأمينهم لحركة الملاحة في المحيط الهندي ، وارتباطهم مع الدول التجارية في آسيا بعلاقات ودية كان تدعيماً لحركة التجارة في عدن فأسهموا من ناحيتهم في انتعاش تجارة البحر الأحمر العالمية . على أن تدهور علاقاتهم بسلاطين مصر ابتداء من عهد المؤيد بن المظفر ، وإجحافهم بمصالح التجار وإرهاقهم لهم بالضرائب ، وتحديهم للسلطنة المملوكية باعتراض السفارات الواصلة إلى عدن في طريقها إلى مصر ، وإقدامهم على انتهاب الهدايا وقتل الرسل ، وقيامهم بتحريض أشراف مكة على الخروج عن طاعة السلطنة المملوكية ، ومنعهم للسفن من التوجه إلى جدة ، أو شحن المراكب التجارية بالمقاتلة بحجة حمايتها من طغيان أشراف مكة [١] ، كل ذلك كان من شأنه أن يهدد أمن التجارة في البحر الأحمر ، ويتناقض مع ما كان يبذله سلاطين المماليك من جهود لتأمين حركة التجارة ، والاحتفاظ بازدهار هذا الطريق وتنشيط حركة للتجارة العالمية فيه ، والقضاء على منافسة الطرق التجارية الأخرى .

وقد واصل سلاطين اليمن اصطناع سياستهم التعسفية مع التجار ، وهي سياسة ازدادت حدتها مع بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، فقد أساء السلطان الناصر أحمد الرسولي إلى التجار حتى أرغمهم على الفرار من عدن ، والالتجاء إلى جدة والهند ومليبار ، تخلصاً من المظالم التي كانوا يتعرضون

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ١٧١ .

لها . فانتقم الناصر الرسولى منهم باستصفاء ما لهم من أموال وأملاك فى عدن [١] .
وأيا ما كان الأمر ، فقد تأثر مركز عدن التجارى بسبب تلك الإجراءات ،
وتدهورت أحوال تلك المدينة وانقطعت المراكب الواصلة إليها من الهند وغيرها [٢] .
ويمكن القول بأن سفارة ملك الصين التى وصلت فى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م
إلى اليمن ، كانت تستهدف إقناع الناصر أحمد بحسن معاملة التجار [٣] .

على أن تمادى السلطان الرسولى فى سياسته كان دافعا لأحد تجار قاليقوط
ويدعى الخواجا ابراهيم ، وكان من كبار التجار الذين يترددون بمراكبهم
على عدن ، بالقيام بمحاولة جريئة تعتبر بداية لمرحلة هامة فى تاريخ تجارة
البحر الأحمر ، وكان هذا التاجر قد حصل عليه بجور فى ولاية عبد الرحمن
ابن جميع على عدن ، وذلك آخر أيام الناصر بن الأشرف» [٤] ، ولهذا قرر
عدم التوجه إلى عدن ، وواصل سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م تقدمه إلى باب المندب ،
متجاوزا عدن ، وتوجه رأسا إلى جدة ، فلما أرسى بمراكبه فيها ، قام شريف
مكة حسن بن عجلان بمصادرة ما معه من بضائع [٥] ، وباعها لصالحه
وبالأسعار التى حددها للتجار [٦] . ولكن ما حدث لم يفت فى عضد التاجر

---

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ١٢ ، قلادة النحر جـ٣ ص ١١١٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٥٦١ .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٣٥ – ٤٣٧ .

(٤) بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٣ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦٨١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة ص ١٨٧ .

(٦) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 573.

الهندى ، وصمم على الاستمرار فى بذل محاولاته ، وعاد فى العام التالى ، ولكنه فى هذه المرة توجه إلى سواكن ودهلك غير أنه لم يكن أسعد حالا من المرة السابقة ، ولقد نفس المصير (١) . ورغم كل ذلك فقد كرر التاجر ابراهيم محاولته للمرة الثالثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣م ، وأراد تجربة التعامل مع ميناء ينبع ، ولكن الأمير قرقماس الشعبانى ـ أحد أمراء الألوف ـ أقنعه بالرسو فى جدة ، فتوجه إليها فى مركبين ، فعومل معاملة حسنة رغبته فى العودة إليها مرة أخرى فى العام التالى بأربعة عشر مركبا (٢) .

وكانت محاولات التاجر ابراهيم فرصة سانحة استغلها السلطان المملوكي برسباى ، للتعامل مباشرة مع تجار الشرق ، وهو نفس التخطيط الذى سبق أن عرضه حاكم سيلان على السلطان برقوق سنة ٦٨٢ هـ ، وما أعقبه من قيام هذا السلطان باصدار منشوره المعروف سنة ٦٨٧ هـ ، لترغيب التجار فى الوصول إلى الموانى المملوكية (٣) وهو ما تحقق على يد التاجر ابراهيم بعد قرن ونصف قرن من الزمان .

ومهما يكن من شىء فقد أدرك برسباى أهمية وصول السفن الهندية إلى ميناء جدة ، وعمل على تحصيل الرسوم المستحقة على تلك البضائع لخزانته ، وخشية أن يتعرض شريف مكة لتلك الرسوم ، أرسل برسباى قوة مملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٦٨١ ، أحمد دراج : ايضاحات جديدة ص ١٨٧ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) أنظر ما سبق ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨ .

يرافقها سعد الدين بن المرة لتحصيل المكوس المستحقة على تلك السفن (١).

وكان نجاح التاجر الهندى ابراهيم فى محاولاته للتعامل مع ميناء جدة ، حافزا له للوصول إليها بأعداد أكثر من السفن ، فقام بتشجيع تجار الهند على عدم التعامل مع عدن وجمع نحو سبعة وعشرين مركبا وصل بهم عام ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٦ م إلى جدة (٢) ، كما اقتدى بـه تجار هرمز وغيرهم بحيث بلغت عدة المراكب التجارية التى وصلت إلى جدة فى ذلك العام أربعين مركبا (٣) . فازدهرت جدة وأصبحت بندرا عظيما (٤) ، كما أصبح « نظر جدة وظيفة سلطانية ، يخلع على متوليها ، (٥) ، ويختص هذا الناظر بتحصيل الرسوم الجمركية ، والعودة بها بعد الموسم إلى القاهرة ، وقد بلغ مقدار تلك المكوس أكثر من سبعين الف دينار ، سوى مالم يحمل » (٦) .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٣ .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام جـ ٢ ص ٢١٠ ، المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٧٠٧ - ٧٠٨ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨١ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص ٨٨٦ ، ٨٨٨ .

Wiet : op. cit. pp. 574 - 76, Lane - Poole : op. cit. p. 340

(٥) الجزرى . درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة - مخطوط رقم ٣٧ م بدار الكتب - ص ٢٩٢ .

(٦) المقريزى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٧٠٧ - ٧٠٨ ، وذكر ابن شاهين أن متحصلها مائتا ألف دينار (زبدة كشف الممالك ص ١٤) .

أما عدن فقد بطل أمرها « إلا قليلا » (١) ، وفى محاولة لاستعادة مكانة عدن التجارية ، قام المنصور عبد الله الرسولي بإزالة المظالم ، والعمل على التخفيف عن كاهل التجار ، ولكن تلك المحاولة لم تؤد إلى عودة السفن للتعامل مع عدن (٢) . وبلغ من ضعف تلك المدينة أن توجهت إليها سفينتان صينيتان فى سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م فلم يتيسر تصريف حمولتها من البضائع ، مما اضطر قائد السفينتين إلى مراسلة ناظر جدة — سعد الدين بن المرة — فأذن له فى التقدم إلى جدة ، بعد أن وافق السلطان برسباى على ذلك (٣) . فكانت تلك هى المرة الأولى التى وصلت فيها السفن الصينية (الجنوك) إلى البحر الأحمر ، وبداية التعامل المباشر مع الصين (٤) .

ويرجع سبب اقبال السفن على جدة إلى تلك المحاولة التى بذلها السلطان الرسولى الظاهر يحيى لاستعادة مكانة عدن التجارية ، إذ أصدر أوامره إلى نائب عدن بتجهيز السفن وشحنها بالمقاتلة والسلاح لرصد المراكب الهندية عند باب المندب ، ومنعها من مواصلة الإبحار إلى جدة واجبارها على التوجه إلى عدن ، فلما ظفروا ببعضها دخلوا بها عدن تحت التهديد وقامت السلطات

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨١ .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٠٣ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ٤ ص ٨٧٢ — ٨٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٤ ص ٣٦٢ .

(٤) De La Roncière (ch.) : Le decouverte de l'Afrique au Moyen Age, T.II, p. 118, Lewis (B.) Egypt and Syria, p. 224.

اليمنية بمصادرة حمولتها من البضائع (١) . وقد أثار هذا التصرف السلطان برسباى الذى وجد فى إرغام السفن على استخدام ميناء عدن ضياعا للمبالغ الطائلة التى تدفقت على خزائنه نتيجة وصول مراكب الشرق مباشرة إلى جدة، ومن ناحية أخرى اعتبر هذا التصرف من السلطان الرسولى تحديا شخصيا له ، ولذلك سارع بتهديد السلطان الرسولى باحتلال بلاده ، فلما أحس الظاهر الرسولى باستعدادات السلطان المملوكي لاستخدام القوة (٢) ، أسرع بالتخلى عن محاولاته ، وتعهد بعدم التعرض للسفن مرة أخرى تاركا لها حرية الرسو فى الموانى التى تختارها (٣) .

ومن أجل الحفاظ على المركز التجارى الجديد لميناء جدة ، فرض السلطان برسباى حصاراً اقتصاديا على عدن ، بما يضمن عدم رسو السفن فيها أو التعامل التجارى مع اليمن ، فقد أصدر سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٥ م مرسوما يقضي بمصادرة البضائع اليمنية المصدرة من عدن إلى جدة مع تجار يمنيين ، ومضاعفة العشور على تلك البضائع إذا وردت عن طريق اليمن مع التجار الشاميين أو المصريين (٤) .

وهكذا أقفرت عدن وانخفضت متحصلات سلطانها من الرسوم الجمركية(٥)، ذلك أنه كلما قلت أهمية عدن زادت معها أهمية جدة التى أصبحت من أهم موانى التجارة العالمية ، فى حين أهملت عدن وتعرضت للخراب خاصة بعد

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٠٥ .

(٢) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣٧ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٩٢٩ .

(٤) Heyd: op, cit T.2, p. 445.

(٥) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .

احتراقها فى سنة ٨٤١ هـ [1] / ١٤٣٧ م – ٣٨ ، ففقد بنو رسول بذلك موردا هاما طالما أعانهم على مواجهة المشكلات الاقتصادية والعسكرية التى اعترضتهم طوال حكمهم ، فكان لانهيار اقتصاد بنى رسول أثـــره الكبير فى ضعف دولتهم [2] وسقوطها سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢٢ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١١٥٣ .

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية في عصر بني طاهر

استطاع بنو طاهر ـ بحكم كونهم نوابا لبنى رسول ـ استغلال الظروف السيئة التى كانت تمر بها دولة بنى رسول ، وتمكنوا من الاستيلاء على حكم اليمن من بعدهم . أما فيما يتعلق بالعلاقات اليمنية الخارجية فى عهدهم ، فقد انتهج سلاطين تلك الدولة سياسة انطوائية تجنبا للدخول فى صراعات خارجية ، فى وقت كانوا يحتاجون فيه إلى مضاعفة الجهود والتركيز لتوطيد دعائم دولتهم وتحقيق سيطرتهم الكاملة على اليمن .

اولا :ـ العلاقات بين اليمن والحجاز :

ساءت العلاقات بين اليمن والحجاز فى أواخر عهد دولة بنى رسول بسبب إقدام أشراف مكة على نهب التجار والحجاج اليمنيين [1] . ولذلك عمد تجار اليمن إلى التوجه بسفنهم إلى ميناء ينبع تفاديا للأضرار التى كانوا يتعرضون لها فى ميناء جدة [2] . ولما كان تحول السفن من جدة إلى ينبع من شأنه أن يفقد الشريف حسن بن عجلان أمير مكة قدرا كبيرا من الرسوم الجمركية،لذلك لم يتردد هذا الشريف فى بذل قصارى جهده لتأمين التجار ، كما تعهد بحسن معاملتهم . والظاهر أنه نجح فى ذلك ، فلم يلبث أن عاد هؤلاء

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ٣ ص ٣٢ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، ٤٤٠ ـ ٤٤٢ ، جـ ٤ ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ ٢ ص ٤٦٦ .

التجار إلى استخدام ميناء جدة من جديد (١) . غير أن تلك السياسة لم يتح لها أن تستمر ، فقد توترت العلاقات مرة أخرى نتيجة لاستيلاء الشريف حسن ابن عجلان على أموال تجار اليمن ، وتعسف عماله معهم . مما أغضب السلطان الرسولي الناصر أحمد ، فعاد إلى منع السفن اليمنية من استخدام ثغر جدة ، كما أمر بقطع هدية الحبوب التي كانت ترسل سنويا إلى مكة ، وشجع الصراع على إمرة مكة ، واستقدم الشريف رميثة بن محمد بن عجلان وبالغ في إكرامه وزوده بالأموال وأعانه في صراعه ضد عمه الشريف حسن بن عجلان بهدف انتزاع مكة منه (٢) .

وعلى الرغم من ذلك فيبدو أن حالة من التحسن النسبي قد طرأت على العلاقات (٣) اليمنية المكية نتيجة لتلك الاجراءات التأديبية ، إلا أن نجاح السفن الهندية والصينية في التوجه رأسا إلى جدة ومقاطعة ثغر عدن ، أدى إلى توتر العلاقات من جديد بين سلاطين اليمن وأشراف مكة . ومنذ أن استبد الضعف بدولة بني رسول أخذت مناطق كثيرة من الأطراف تنسلخ عنها وتشق عصا الطاعة عليها ، لاسيما المنطقة الشمالية من تهامة المتاخمة للحدود الجنوبية للحجاز التي استقل بها حكامها . وقد استفاد اشراف مكة من ذلك ، واتخذوا من تلك المنطقة اليمنية ملجأ يفرون إليه إذا مانشب خلاف بينهم وبين السلطان المملوكي وطاردتهم قواته ، مثلما حدث للشريف حسن بن عجلان الذى التجأ في ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م إلى حلي بن يعقوب . ومن ناحية

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥ ٢٠٠ ، ٢٦٧ ، ٤٦٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٥١٢ .

أخرى فقد ساعد ضعف بني رسول على دفع أشراف مكة إلى اقتطاع أجزاء من اليمن ، ففي أواخر ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م استولى الشريف بركات بن حسن بن عجلان على مدينة حلي وأناب فيها ولده [١] .

ومنذ أن ظفر بنو طاهر بالسلطنة وتمكنوا من تأسيس دولتهم ، أخذوا ينتهجون سياسة انعزاليه هدفها التفرغ للشئون الداخلية ، والانصراف ولو إلى حين من الاهتمام بالأمور الخارجية من أجل تأكيد نفوذهم في البلاد وإقرار الأوضاع الداخلية في اليمن ، ولولا حركة التبادل التجاري التي نشطت نسبيا في عهدهم لعاشت بلاد اليمن - في فترة قيام دولتهم - في عزلة تامة ، ومن المعروف أن ازدياد حركة التجارة البحرية في جدة ، لم يعرقل حركة الملاحة التجارية في ثغر عدن ، ويرجع الفضل إلى السياسة التي انتهجها بنو طاهر في تنشيط الحركة التجارية بهذا الثغر من جديد ، مما أدى إلي عودة بعض السفن التجارية للتعامل معه ، ومن الجدير بالذكر أن بني طاهر صرفوا جانبا كبيرا من اهتمامهم على التجاره [٢] ، وكان تجار اليمن يخشون من النتائج التي يمكن أن تترتب على انتزاعهم البلاد من بني رسول ، إذ أنه لو تحقق ذلك لأمكنهم أيضا أن يستولوا على التجارة لأنفسهم وأن يجعلوا عدن « زريبة للقوة ، لأنهم نشأوا على التكسب والتجارة ، وعرفوا فيها من المصالح ، فلا يتركوا ذلك . والسلطان إذا تعلق بالمتجر أبطل متجر التجار وتعطل عليهم الكسب » [٣] .

---

(١) ابن تغري بردى : حوادث الدهور ص ١٣٧ ، السخاوى : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، نشر أحمد زكي ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٣٩٤ .

(٢) با مخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٢ .

(٣) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١١١ .

وأيا ما كان الأمر فإن اهتمام بنى طاهر بالتجارة كان عظيما ، إذ عملوا على زيادة النشاط التجارى فى عدن لارتباط ذلك بتدعيم دولتهم الناشئة ، فكلما زاد إقبال السفن على عدن ، كلما حقق ذلك عائدا أكبر ، يمكنهم استخدامه فى تثبيت دعائم تلك الدولة الناشئة . ولهذا تردد سلاطين بنى طاهر على عدن لتفقد حركة التجارة فيها ، وأولوها رعايتهم [١] ، وتنافس التجار والنواخيذ فى التقرب إليهم بالهدايا النفيسة ، وكان السلاطين يجيزونهم الجوائز السنية لتشجيعهم على العودة [٢] . وأدى اهتمام بنى طاهر بتنمية تجارة عدن إلى عودة التبادل التجارى بينها وبين جدة ، فقد أخذ تجار اليمن يقصدونها بسفنهم ، ولم تلبث العلاقات الطبيعية بين اليمن والحجاز أن استؤنفت من جديد . ففى ٨٦٨ هـ / ١٤٦٤ م أرسل الشريف محمد بن بركات أمير مكة ابن عمه الشريف إدريس بن قاسم بن حسن بن عجلان فى سفارة إلى اليمن ، فاستقبله والي زبيد استقبالا حسنا وأكرم وفادته [٣] ، وأعطاه من الذهب والفضة والثياب والخيل جملة مستكثرة ، [٤] ، ثم توجه إلى السلطان الظافر عامر الأول ، ففعل معه أكثر من ذلك . [٥]

ومما هو جدير بالذكر أن ثورات قبائل المعاربة والقرشية وبنى حفيص

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٥٩ ، قرة العيون ص ١٣١ ب ،
با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٦٨ ، ص ١١٧١ .

(٢) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٨٩ .

(٣) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨ .

(٤) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٠٥ ، قرة العيون ص ١٢٣ (أ) .

(٥) با مخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٢٨ .

شمالى زبيد ، جعل تلك القبائل تشكل حاجزا بين زبيد ومناطق تهامة الشمالية، ولهذا لم يتمكن سلاطين بنى طاهر من السيطرة على تلك المناطق ، فاستقل ولاتهـا بحكمها مثل مدينة جازان التى كانت تحت حكم الشريف أبو الفوايد أحمد بن دريب بن خالد ، ثم انتزعهـا منه الشريف محمـد بن بركات ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م ومدينة حلى بن يعقوب التى وقعت تحت سيطرة شريف مكة منذ أن استولى عليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م .

أما عن الأسباب التى دفعت الشريف محمد بن بركات للاغارة على جازان والاستيلاء عليها ، فترجع إلى ما كان قائما بينه وبين ابن أخيه ابراهـيم من خلاف ومنافرة ، دفعت إبراهـيم إلى قصد السلطان الملك الأشرف قايتبـاى وعرض الأمر عليه . وعلى الرغم من تحـرز الشريف محمد بن بركات لذلك ، واتخاذه كل وسائل الحيطة لمنعه من تنفيذ خطته فإن الشريف ابراهـيم استطاع الوصول إلى جازان وهناك ساعده صاحبها ابن دريب فى الوصول إلى سواكن ومنها إلى مصر (١) . فكان لذلك أثره فى اغضـــابه الشريف محـمد بن بركات أمير مكة ، فجهز حمـــلة أغارت على جازان (٢) ورغم المحاولات التى بذلت للصلح إلا أن شريف مكة أصر على الحرب فكانت بين الجانبين موقعـــة كبـيرة (٣) انتهت بهزيمة صاحب جازان ومقتل عدد كبير من عسكره ، واستيلاء الشريف محمد بن

---

(١) باعخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٤١ .

(٢) وذكر De Gaury (أن هذه الغزوة كانت لسبب غير معروف)
(Rulers of Mecca , p . 109)

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، قرة العيون ص ١٢٧ ب ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٠٩ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٢٥ .

بركات على بلاده فقام رجاله بنهب مدينة جازان وأشعلوا فيها النيران [١] ، وهدموا سور المدينة وخربوا دور صاحبها [٢] . وكان صاحب جازان قد تمكن من الفرار ، وأرسل ابنه إلى السلطان الطاهرى المجاهد على فى عدن لبذل الطاعة له ، وطلب معاونته فى استعادة بلاده ، فأنعم عليه المجاهد وأمده بمال كثير [٣] .

وفى نفس الوقت خشي السلطان المجاهد أن تكون هزيمة صاحب جازان دافعاللشريف محمد بن بركات على مواصلة التوغل جنوبا ، مستغلا فى ذلك تمرد القبائل الطامعة فى الاستيلاء على زبيد ، ولما كان يفتقد القدرة على مواجهةهذا الموقف بحكم ظروفه الدقيقة التى تمر بها دولته فقد رأى أن يخاطب قايتباى سلطان مصر الذى كانت له الكلمة على شريف مكة.ولهذا السبب قرر أن

---

(١) كادت المعركة تنتهى لصالح صاحب جازان ، فلما رأى الشريف محمد بن بركات ذلك ، وكان معه كمية من الدراهم كان قد طلاها بالذهب بحيث لا يشك من يراها أنها دنانير ذهب ، وخاصة العرب ، الذين لا يميزون بين وزن الذهب وخفة الفضة » فقام يبث هذه الدراهم فى عسكر صاحب جازان حتى أفسدهم عليه فتخاذلوا عنه (بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤١) فلما انتصر الشريف محمد بن بركات أباح انتهاك الحرمات فى جازان « وانكشفت بها العورات وجرى على نساء صاحب جازان من الذل والاهانة وكشف الحجاب ما لم يكن لأحد فى حساب » (ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، بامخرمه: قلادة النحر حـ ٣ ص ١١٤١) .

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٢ ، قرة العيون ص ١٢٧ ب

De Gaury : Rulers of Mecca, p. 109;

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢٣ .

يودّه ويخطب وده فأرسل إليه هدية سنية وكتب إليه متشفعا فى الشريف أبى الفوارس أحمد بن دريب ، ورجاه أن يمنع شريف مكة من العودة إلى مهاجمة جازان . فاستجاب له السلطان المملوكى وأرسل إلى الشريف محمد بن بركات يأمره بعدم العودة إلى الاغارة عليها ، وكتب إليه يقول : إن « جازان بلدنا ، وإنا تصدقنا على الشريف أحمد بن دريب ، فلا لك إليه اعتراض بعد هذا »(١).

وهكذا كان لموقف السلطان قايتباى أثره فى توقف نشاط الشريف محمد بن بركات ، وكف يده عن القيام بأعمال معادية لليمن ، ويتضح ذلك من موقفه هذا الشريف من الصراع الذى نشأ على عرش السلطنة بين السلطان المنصور عبد الوهاب وبين أبناء عمه ، ففى ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م توجه يوسف بن عامر إلى مكة وطلب معاونة الشريف محمد بن بركات ضد السلطان المنصور عبد الوهاب ولكن شريف مكة اعتذر بعدم إمكانه بذل المساعدة(٢).
واستمرت العلاقات الطيبة تسود البلدين الشقيقين فى عهد السلطان الظاهرى الظافر عامر الثانى ، ففى صفر ٨٩٧ هـ / ديسمبر ١٤٩١ م وفد الشريف رميثة بن بركات - أخو الشريف محمد بن بركات - إلى زبيد فاستقبله واليها استقبالا حسنا وأكرم وفادته ، ثم أرسله لمقابلة السلطان الظافر عامر الثانى الذى بالغ فى إكرامه والترحيب به وأنعم عليه (٣) .

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٤١ .

(٢) انظر الفصل الثالث ص ٢٧١ - ٢٧٤

(٣) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٦٢ ؛ بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٧٣ .

ثانيا ـ العلاقات مع الحبشة :

جرى ملوك الحبشة على اتباع سياسة قوامها معاداة للعناصر الاسلامية ، ويتجلى ذلك بوضوح فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، عندما دخل ملوكها فى مجال الصراع الصليبى ، فاشتدت وطأتهم على المسلمين فى بلادهم من جهة كما بدأت اتصالاتهم بالفرنج لضرب مصر ، قاعدة المفضلات ، وحامية حمى الاسلام والمسلمين من جهة ثانية .

لم يكتف ملك الحبشة اسحاق بن داود (١٤١٤ ـ ١٤٢٩ م) باضطهاد المسلمين فى بلاده والتنكيل بهم ، بل قام بمراسلة ملوك الفرنج للتحالف معهم ضد المسلمين ، واعداد حملة صليبية مشتركة ضد مصر ، بحيث تقوم جيوش الفرنج بمهاجمتها من الشمال ، وتتولى جيوشه مهمة الإطباق عليها من الجنوب[1] . ولما كان هذا الاتفاق مجرد مشروع لم يدخل بعد فى حيز التنفيذ ، فقد تبنى الملك زرع يعقوب (١٤٣٤ ـ ١٤٦٨ م) هذه السياسة وتوسع فى تنفيذها ، وعاود مراسلة ملوك الفرنج ، وخاصة الفونسو الخامس (١٤٤٦ ـ ١٤٥٨ م) ملك أرغونة المشهور بتعصبه وعدائه للمسلمين . ولم يكتف زرع يعقوب بذلك بل أراد الخروج عن الكنيسة المصرية والارتباط بكنيسة روما ، وفى سبيل هذه الغاية أرسل راهبين لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣٩ م الخاص بالنظر فى

---

(١) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٨ ، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٨ ، ص ٣٣ .

توحيد الكنيستين الغربية والشرقية (١) . كما سمح البابا باقامة دير حبشى فى روما (٢) .

ولما كان زرع يعقوب حريصا على سرية تحركاته فقد تظاهر بتمسكه الشديد بالعلاقات الطيبة مع مصر قاصدا بذلك التمويه على سلطانها . ففى عام ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م أرسل ملك الحبشة هدية إلى السلطان جقمق يطلب إليه حسن معاملة نصارى مصر ولم يخل كتاب ملك الحبشة من اتهامات عن سوء معاملة النصارى فى مصر ، والتهديد بتحويل مجرى النيل ، ومنع المياه من الوصول الى مصر . وعلى الرغم من عبارات الاتهام والتهديد التى وردت فى كتابه ، فإن السلطان جقمق كان معتدلا فى مسلكه مع رسل زرع يعقوب ، وجهز معهم أحد رجاله هو يحيى بن أحمد بن شاد بك ، برسالة وهدية ردا على سفارة ملك الحبشة ، ولكن رسالة جقمق لم ترق لملك الحبشة ، لذلك أساء معاملة قاصده ولم يسمح له بالعودة واحتجزه وتهدده ، وكانت قواته قد أغارت على إمارة عدل الاسلامية وظفر عسكره بأميرها شهاب الدين بن سعد الدين وقتلوه ، فألزم زرع يعقوب رسول جقمق بتحمل مشاق السفر أياما ليرى ابن سعد الدين قتيلا ، وليشهد ما صنعه بأتباعه « ليكون أنكى للمسلمين » ، ولم يسمح بعودته الى مصر

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٥٠ ،

Budge : BHistory of Ethiopia and Nubia, London 1928, Vol. I, P. 334. Kammerer: La Mer Rouge, T.I, P. 305 et Suiv.

(٢) Budge: op. cit, Vol. I, P. 311, Trimingham : Islam in Ethiopia, Oxford 1952, P. 67.

إلا بعد مضي أربعة أعوام (١) . وتمادى زرع يعقوب في تعصبه وعدائه للمسلمين ، ووصلت الأخبار إلى مصر أنه قام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م بإعداد أسطول ضخم للاغارة به على بلاد الحجاز وانتهاك حرمة المقدسات الاسلامية (٢) .

تلك الصورة البشعة القاتمة كانت تمثل السمات المميزة لموقف الحبشة العدائي للاسلام ، وجرت العادة أن يتوجه مسلمو الحبشة بصريخهم إلى مصر واليمن كلما تعرضوا لاضطهاد ملك الحبشة المسيحى ، وكان ملوك اليمن بحكم قرب بلادهم من أرض الحبشة لايترددون في المبادرة بإرسال النجدات حسب إمكاناتهم المتاحة . وفي عهد بني طاهر تكرر إرسال المساعدات إلى بني سعد الدين أمراء منطقة عدل الذين أخذوا على عاتقهم مهمة مقاومة اضطهاد ملوك الحبشة للمسلمين ، واقتصرت تلك المساعدات على الخيول وأدوات القتال (٣) . ففي شعبان ٨٧٩ هـ / ديسمبر ١٤٧٤ م أرسل السلطان المجاهد علي بن طاهر مائة وخمسة من الخيول العربية مع كمية ضخمة من السيوف والدروع والرماح لمعاونة ابن سعد الدين على الجهاد (٤) . وفي جمادى الأولى ٨٨١ هـ / أغسطس ١٤٧٦ م أرسل السلطان الطاهرى المجاهد على مجموعة أخرى من الخيول

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧ - ٧٢ ، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٨٣ - ١٨٥ ، دراج : المماليك والفرنج ص ٥٢ - ٥٤ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠٩ ، احمد دراج : المماليك والفرنج ص ٦٥ ، سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة ص ٤٠ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٠٨٣ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٢٦ ب ، بغية المستفيد ص ١٩٨ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٣٢ .

تنيف عن خمسين فرسا (١) كما تكرر ذلك فى عصر السلطان المنصور عبد الوهاب ابن داود (٢) . ومما يذكر أن عبد الباقى بن محمد بن طاهر أحد أمراء بنى طاهر ، كان قد دخل فى دوامة الصراع الأسرى حول عرش السلطنة ، وأرغمه السلطان الظافر عامر الثانى إلى أن يلوذ بالفرار إلى ساحل الحبشة ، واتفق أثناء مقـــامه لدى بنى سعد الدين أن أغار ملك الحبشة على بلادهم ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م فاشترك عبد الباقى فى شرف الجهـاد معهم وقام بدور كبير فى هـذه المعركة وأظهر شجاعة نادرة وبأسا شديدا أثار إعجـاب ابن سعد الدين به فزاد فى تكريمه واكباره (٣) .

ومع ذلك فإن موقف اليمن من سياسة الأحبـاش التعسفية مـع المسلمين لم يكن حاسما كما أن مساندتها لمسلمى الطراز الإسلامى ضد اضطهاد وتنكيل نجاشي الحبشة بهم لم يكن ذا أثر ، فالمساعدات كانت تتم على فترات متباعدة ، وفى معظم الأحيـان كانت تقتصر على عدد من الخيول وأدوات القتـال . والمعتقد أن السبب الحقيقى من الاقتصار على تلك المساعدات المحدودة المتباعدة التى كان يبذلهـا الطـاهريون وعدم إقدامهم على إمـداد المسلمين فى الحبشة بالرجال والسلاح يكمن فى ضعف امكانياتهم وقدراتهم العسكرية فى مواجهات دولية من جهة وفى انشغالهم بتثبيت دعائم ملكهم ، وتركيز طاقتهم للقضاء على

---

(١) ابن الديبع : بغية المستفيد ص ١٢١ ، بامخرمة : قلادة النحـر جـ ٣ ص ١١٤٠ .

(٢) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٨٣ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٧٢ .

حركات العصيان التي انتشرت في أنحاء متفرقة من اليمن، ولهذا كانت مساعداتهم المادية لمسلمي الحبشة بسيطة، إكتفاء بالمساعدات المعنوية.

ثالثا: الكشوف البرتغالية: أهدافها الصليبية وأثرها على الاقتصاد اليمني والمصري:

١ - دور الكشوف البرتغالية في تحقيق المطامع الصليبية:

استهدفت الجهود البرتغالية - في الكشف عن طريق حول القارة الافريقية - للتوصل إلى تحقيق التعاون مع الحبشة للقيام بحرب صليبية في البحر الأحمر يكون من أهدافها الرئيسية تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز وضرب مصر اقتصاديا والسيطرة عليها من ناحية الجنوب، بعد أن فشلت المحاولات الصليبية السابقة في تحقيق ذلك من ناحية البحر المتوسط شمالا. فقد كانت مصر مصدر القوة في المنطقة، وهي التي حملت لواء الجهاد ضد قوى الصليبيين، منذ قيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين، إلى أن تم إجلاؤهم عن آخر معاقلهم في الشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م (١).

وكان لسقوط المستوطنات الصليبية في الشام، وفشل محاولاتهم المتكررة لإستعادتها، أثره في التركيز على مصر باعتبارها الصخرة التي تحطمت عليها آمالهم. ووجدت البابوية أن محاربة مصر اقتصاديا من شأنه أن يؤثر على قوتها الحربية، لذلك أعلنت الحرب الاقتصادية ضد مصر، وحرمت على

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨، ١٠.

Stevenson: The Crusaders in the east, pp. 354 - 355.

الأوربيين التعامل معها تجاريا ، وحثهم على انعاش الطرق التجارية الأخرى ، للاضرار بالاقتصاد المصرى . ومن المعروف ان مصر كانت تعتمد بوجه خاص على عائدات التجارة الشرقية التى كانت أوربا سوقاها . ولا شك فى أن نجاح هذا المخطط كان من شأنه أن يؤدى إلى اضعاف مصر سياسيا واقتصاديا ويمهد السبيل للقضاء على قوتها الذاتية تمهيدا للسيطرة عليها عسكريا (١) ، ويساعد بالتالى على استعادة المناطق التى أرغمهم المصريون على التخلى عنها فى الشام . إلا أن تلك السياسة لم يكتب لهـــا النجاح لعدم التزام الجمهوريات الايطالية بتنفيذها ، لتعارضها مع مصالحها التجارية (٢) ولهذا بدأ نوع جديد من النشاط الموجه ضد مصر ، فقد تعهد القبارصة والكتلان وفرسان الاسبتارية بالقيام بأعمال القرصنة فى البحر المتوسط والاغارة على سواحل مصر والشام . وعلى الرغم من نجاح السلطان برسباى فى الاستيلاء على قبرص (٣)، ومحاولات جقمق الثلاثة للاستيلاء على رودس (٤) ، إلا أن ذلك لم يخفف من حدة غارات

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٧ .

(٢) Heyd : Histoire du Commerce, T. II, P. 25 ff.

(٣) عن فتح قبرص ، انظر ، السيوطى : غـــزوات قبرص ورودس (فينيا ١٨٨٤) ، سعيد عاشور قبرص: والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص٥٩ وما بعدها.

Hill, (G.): A History of Gyprus (Camb. 1948), Alastres, (D): Cyprus in History, London, 1955, Darrage: L'Egypte sous Le régne de Barsbay, Chap. VII

(٤) عن محاولات جقمق لفتح رودس ، انظر ، السيوطى: المصدر السابق، محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن =

القراصنة فى البحر أو على الموانى المصرية والشامية [1] . وكان لنجاح حركة القرصنة أثرها فى زيادة المطامع الصليبية ضد مصر المملوكية [2] ، والتفكير فى توسيع نطاق الحرب ضدها بادخال الحبشة فى المعركة الصليبية ، والتحالف معها للقيام بحملة مشتركة لغزو مصر من الشمال والجنوب فى آن واحد ، مما يساعد على انتزاع بيت المقدس وبقية المناطق الساحلية من جديد . إلا أن هذا الحلف لم يقدر له الدخول فى مرحلة التنفيذ ، لتسرب أنبائه إلى المماليك ، فتشددوا فى منع أى اتصال بين الفرنج والحبشة ، التى عادت إلى التمسك مرة

= سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى ، مجلة الجيش ١٩٤٩ ، ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسه ص ١٠٥ وما بعدها ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ .

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامي ، الاسكندرية سنة ١٩٦١ ، ص ٨٥ وما بعدها ، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٥١ وما بعدها ، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٧٢ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٩ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٢١ .

(٢) كان سلاطين المماليك يلجأون ــ كلما اشتدت هجمات القراصنة ــ إلى اعتقال قناصل الفرنج وتجارهم فى مصر والشام ، كما كانوا يلقون القبض فى بعض الأحيان على رهبان دير صهيون بالقدس ، مع التهديد بإغلاق كنيسة القيامة فى وجه حجاج الفرنج . كل ذلك كان يقوم به السلطان المملوكي لتخفيف حدة هجمات القراصنة . (أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٠٦) .

أخرى بالارتباط بالكنيسة المصرية (١) .

وحقيقة الأمر أن القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) شهد اشتداد روح التعصب الصليبى ضد المسلمين ، وبلغ التعصب ذروته فى الأندلس بقيام الممالك المسيحية بأسبانيا بتصفية الوجود الاسلامى نهائيا من آخر معاقله غرناطة التى سقطت سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م (٢) ، وأجبر المسلمون فيها على التخلص عن دينهم واعتناق المسيحية تجنبا للتعذيب والقتل (٣) .

أما البرتغال فقد تجسدت فيها الروح الصليبية وعملت على تطويق العالم الاسلامى (٤) ، وما أن تمكن ملكها خوان الأول من الاستيلاء على سبتة سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م (٥) حتى أقطعها لابنه الأمير هنرى الشهير بالملاح والمعروف بحقده وكراهيته المتناهية للاسلام والمسلمين .

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٩ .
Kammerer ; La Mer Rouge, T.I, pp 59 - 62, Atiya : The Crusede, p. 278

(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ ، جـ ٤ ص ١٠٣ — ١٠٤ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٦٨ .

(٣) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠ ، ٧٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٤ .
Kammerer : op. cit. T. II p. 144.

(٤) Macro (Eric) : Yemen and the Western World Since 1571, London 1968 p. 1.

(٥) السلاوى : الاستقصا جـ ٤ ص ٩٢ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٥٥ وما بعدها .

وقد اهتم هنرى الملاح بدراسة امكانية الوصول بحرا إلى المحيط الهندى لتنفيذ أهدافه الصليبية ، ولهذا الغرض أحاط نفسه بمجموعة من العلماء ، وكان الأمير هنرى قد تمكن من اكتساب ثقة البابا مارتن الخامس الذى بارك جهود فى حروبه ضد المسلمين مما شجعه على ارسال أولى حملاته البحرية الاستكشافية لساحل إفريقية الغربى فى ١٤١٨ [١] .

وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية بالإضافة إلى المكاسب الدينية . ذلك أن نجاح حركة الكشوف من شأنها أن تحقق السيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها من مصر والبندقية ، ومن ثم تصبح اشبونة المركز الرئيسى لها [٢] ، كما يتيح الفرصة للكشف عن مناطق مجهولة — قد يكون من بينها بلاد مسيحية — كان عدم معرفتها حائلا للوصول إليها والإتجار معها . هذا إلى جانب التعرف على قوة المسلمين فى إفريقية ، والبحث عن مملكة القديس يوحنا — التى انتشرت الأساطير عنها فى أوربا — وتحقيق التعاون معها للقضاء على المسلمين وتحقيق الأحلام الصليبية ، مع الاهتمام بالبعثات التبشيرية لنشر المسيحية بين أهالى المناطق المكتشفة ، وحمل السكان على اعتناقها [٣] .

---

(١) سونيا هاو : فى طلب التوابل (مجموعة الألف كتاب ، الكتاب رقم ٩٨) ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٤ — ٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى حـ ١ ص ٥٩٠ ،

Kamerer; op. cit, T. II, p. 9,

(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ١٠٣ .

وكان الفشل الذى منيت به حركة الكشوف ـ فى سنواتها الأولى ـ كافيا لإقناع الأمير هنرى الملاح بالتوقف ، نظرا للتكاليف الباهظة التى كانت تتكلفها الحملات ، بالإضافة إلى المصاعب العديدة والأهوال التى كان يتعرض لها البحارة . وعلى الرغم من ذلك واصل بجهوده دون كلل فى توجيه الحملات الاستكشافية ، بغية الوصول إلى الهند والتعاون مع مملكة القديس يوحنا للقضاء على المسلمين (١) . وحتى لا تنشغل قواته بحروب جانبية تعوقها عن الاستمرار فى الكشوف ، أصدر أوامره للاحيه بحسن معاملة أهالى المناطق التى يمرون بها ، وعدم التعرض لهم كسبا لقلوبهم وتجنبا لمقاومتهم (٢) .

ولما كانت حركة الكشوف تعتبر امتدادا للحروب الصليبية (٣) ، فقد قام البابوات يوجين الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧م) ، ونيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥ م) ، وكالكستس الثالث (١٤٥٥ ـ ٥٨ ١ م) على التوالى باصدار قرارات بمباركة الجهود البرتغالية ، والاعتراف بحق البرتغال الكامل فى ملكية المناطق المكتشفة ، وتأييد جهودها التبشيرية وحروبها ضد المسلمين ، وغفران خطايا من يلقى حتفه من المشتركين فى حركة الكشوف ، شأنهم فى ذلك شأن رجال الحروب الصليبية (٤) . فكان لتلك القرارات أثرها فى دفع حركة

---

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٠٠ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٢٦ .

(٢) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٠٢ ـ ٣ ـ ١٠٦ .

(٣) Serjeant (R.B.) : The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 196., p. 2.

(٤) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ١٠٧ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٢٧ ـ ٢٨ .

Depping , (G.B.) Histoire du Commerce Entre La Lavant, Paris, 1830, T. II, p. 261

الكشوف ونجاح الملاح البرتغالى بارثلميوودياز فى الوصول سنة ١٤٨٧ م إلى أقصي الطرف الجنوبي لإفريقية ، واكتشاف رأس الرجاء الصالح [١] . ثم تمكن فاسكودى جاما من الطواف حول افريقية ، والوصول إلى الشواطىء الغربية الهندية ، والرسو بسفنه فى ميناء قاليقوط سنة ١٤٩٨ م [٢] .

أحدث نجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق جديد إلى الهند ثورة فى تجارة الشرق ، وحقق للبرتغال مجداً عظيما إلى درجة أدت إلى تلقب ملوكها بسادة الفتح والملاحة والتجارة فى الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس ، وسرعان ما أيد البابا هذا اللقب [٣] . وهكذا قويت عزائم البرتغاليين فى إحتكار التجارة ، وتوجيه الضربات ضد المسلمين ، والتبشير بالمسيحية [٤] .

عمل فاسكودى جاما — منذ وصوله إلي قالقوط — على دراسة الموقف فى الهند ، وأزعجه كثرة العرب ، وسيطرتهم على التجارة ، وتمتعهم بثقة الهنود [٥]

---

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ص ١٣١ — ١٣٢ ، بانيكار : نفس المرجع ص ٢٩ ، Kammerer : op. cit, T. 11, p. 9.

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٤٥ ، بانيكار : نفس المرجع ص ١٩ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٣) لوريمر : دليل الخليج ترجم وطبع على نفقة حاكم قطر — الدوحة ١٩٦٧ ج ١ ص ٥ .

(٤) بانيكار : أسيا والسيطرة الغربية ص ٣٠ ، Kammerer : op. cit : T: II, P . VI

(٥) نفس المرجع ص ٣٨ .

وكان سلطان قاليقوط عاصمة مليبار الملقب بالزامورين (Zamorin) [(١)] ، أو السامري ـ كما يسميه ابن بطوطه ـ [(٢)] ، قد أدرك بفضل تحذيرات العرب له، مدى الخطر الذي يتهدد بلاده نتيجة لوصول البرتغاليين إلى الهند [(٣)] . ولما كان كل مايهم قائد الأسطول البرتغالي في تلك المرحلة هو الحصول بأي وسيلة على كمية من البهار لتكون دليلا على نجاحه في الوصول إلي مصادرها ، فإنه قبل شراء ماعرضه السامري عليه من الأنواع الرديئة ، وبالأسعار التي حددها له ، حتى ينفى عن نفسه صفة الجاسوسية التي ركز تجـــار العرب على إقناع صاحب قاليقوط بها [(٤)] . والظاهر أنه أدرك مدى الخطر الذي يحيط به ، ولذلك فما أن حصل على كمية التوابل حتى أسرع بمغادرة ميناء قاليقوط في طريقه إلي كناور حيث قابله ملكها المعادى لصاحب قاليقوط بحفاوة بالغة ، وتبادل معه الهدايا رمزاً للصداقة [(٥)] .

ولما كان موعد وصول الأساطيل التجارية العربية قد حان ، فقد بادر فاسكودى جاما بمغــادرة الشواطىء الهندية في العشرين من نوفمبر ١٤٩٨ ، وأقفل عائداً إلي بلاده . ومن الجدير بالذكر أن دى جاما كان حريصاً في تلك

---

(١) Kammerer : Ibid , T. II ; p . 22 .

(٢) رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ١١٥ .

(٣) بانيكار : المرجع السابق ص٣٧ . Kammerer . Ibid . T. II , p.87.

(٤) سونيا هاو : في طلب التوابل ص ٢٠٠ ، Moreland , W.H. : A Short History of India, London , 1944 , p 183.

(٥) نفس المرجع ، ص٢٠١ ، Kammerer : op. cit . T.II ,pp 87f.

الرحلة الكشفية على عدم إثارة المشاعر ضد البرتغاليين ، حتى لا تتعرض حماته للخطر ، أو تتنبه القوى المعادية لهم فتستعد للتصدى لسفن البرتغال ، مما يهدد بالقضاء على آمال دولته ، لذلك رفض تنفيذ ما أشـــار به بعض أتباعه بالإستيلاء على شحنات السفن التى يصادفونها فى طريقهم . وواصل تقدمه إلى مالندى على شاطىء إفريقيا الشرقى ، ثم غادرها فى العشرين من يناير سنة ١٤٩٩ ، بعد تبادل الهدايا مع حاكمها ، وتمكنت إحدى سفنه بقيادة نيكولاو كويلها من الوصول إلى أشـــبونه فى العشرين من يوليو سنة ١٤٩٩ ، أما فاسكودى جاما فقد تأخر شهرين ، وكان وصوله فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٤٩٩ ، بعد سته عشر شهراً استغرقتها رحلته ، التى فقد أثنائها ثلثى ماكان معه من الرجال ، من بينهم أخيه باولودى جاما ، الذى كان قد إشتدت به العلة أثناء رحلة العودة ، وتوفى بجزر الآزور ، وكان السبب فى تأخر وصول دى جاما بعد نيكولا وكويلها (١) .

وكـان لنجاح فاسكودى جاما فى الوصول إلى الهند عن طريق الطوافه حول إفريقية وتوصله إلى مصادر التوابل أثره فى تشجيع الملك البرتغالى مانويل على مواصلة إعداد الحملات وإرسالها إلى الهند ، لتأكيد السيطرة البرتغالية على البحار الشرقية ، وتنفيذ الأهداف البعيده التى قامت حركة الـــكشوف من أجلها . فبعد ستة أشهر من عودة دى جاما ، وفى التاسع من مارس سنة ١٥٠٠ أرسل الملك مانويل أسطولا آخر ، شحنه بأنواع السلع

---

(١) سونيا هاو : فى طلب التوابل ص ٢٠٢ – ٢٠٥ .

لمبادلتها بالتوابل [1] وأسند قيادة هذا الأسطول إلى بدرو الفاريز كابرال وزوده بمجموعة من الفنيين والعمال والقسس ، وأمره بالإهتمام بتشييد الحصون والعمل على نشر المسيحية ، ولو بقوة السلاح [2] . ولشدة العواصف عند رأس الرجاء الصالح تعرضت أربع من سفنه للغرق ، كان بارثلميو دياز يقود إحداها ، فغرق في المنطقة التي يرجع اليه الفضل في اكتشافها [3] ، وتمكن كابرال من مواصلة الإبحار بما تبقى من أسطوله بحذاء ساحل إفريقية الشرقي حتى وصل إلى سفالة في أواخر يولية سنة ١٥٠٠ [4] ، ومنها إلى رأس جاردىفوى (القرن الافريقي) ؛ ومنها إلى بربرة [5] ، ثم إتخذ طريقه إلي الهند فوصل إلى قاليقوط في ١٣ سبتمبر سنة ١٥٠٠ [6] .

ويبدو أن صاحب قاليقوط قد راعه قوة هذا الأسطول ، ولم يشأ أن يخاطر بمحاربته ، ولذلك أبدى ترحيبه بكبرال واستقبله إستقبالا حافلا وتبادل معه الهدايا . ورغم موافقة السامرى على منح البرتغاليين مركزاً لتجارتهم في قاليقوط ، إلا أن الأمور لم تلبث أن تأزمت نتيجة استخدام

---

(١) Kammerer : La Mer Rouge, T. *II*, p. 93.

(٢) سونيا هاو : ص٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣) إنفصلت إحدى سفن الأسطول بقيادة دياجو دياز بفعل الرياح عن الأسطول ، فتمكن من اكتشاف جزيرة قمر ، وأطلق عليها إسم سان لورنزو (سونياهاو : المرجع السابق ص١٠٢)

(٤) Kammerer : Ibid. T. II, p. 92.

(٥) سونيا هاو : المرجع السابق نفس الصفحة

(٦) Kammerer : Ibid. T. II, p. 93.

البرتغاليين القوة معه (١) ، ولإصرار كبرال على المطالبة بمنع التجار العرب من الإقامة في قاليقوط .مما اضطر القائد البرتغالي إلى الانسحاب من قاليقوط بعد أن قصفها بمدافعه ، وتوجه إلى كوشين وكنانور فقوبل فيهما بترحيب حار وتوصل إلى عقد إتفاقيات تجارية معهما (٢) ، ولم يلبث كبرال أن استعد لرحلة العودة فوصل أشبونة في آخر يولية سنة ١٥٠٩ محملا بكميات هائله من التوابل (٣) .

وهكذا أمكن لأشبونة بفضل عامل القوة للحصول بأرخص الأسعار على كميات كبيرة من التوابل وجنت البرتغال بفضل ذلك أرباحا فاحشة عوضت ما أنفق على الحملات ، مع تحقيق فائض من الأرباح كبير . أضف إلى ذلك أن أسعار البيع في أشبونة كان أقل بكثير من الأسعار التي كانت تبيع بها البندقية ، بل أقل مما كانت البندقية تشترى به من أسواق الاسكندرية نفسها ، مما أدى إلى رواج أسواق أشبونة ، ومنافستها للبندقية والقضاء على احتكارها لتجارة التوابل ، وأضر ذلك ضرراً بالغاً بمصر واليمن ، إذ توقفت الحركة التجارية إلى حد استحال فيه تصريفها ، وخاصة بعد أن تتمكن البرتغال من احكام السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص٣٩ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٣) زين الدين المعبرى المليباري : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين ، لشبونة١٨٩٨ ، ص ٣٧ – ٣٨ ،

Heyd : Histoire du Commerce, T. *II*, p. 512, Kammerer: op. cit. T. *II*, p. 94.

ثم تتابعت الحملات البرتغالية ، وانتظم وصولها سنويا إلى الهند ، ففى أواخر يناير ١٥٠١ أبحر فينسنت سودريه على رأس أسطول إلى الهند (١) ، كما جهزت مجموعة أخرى من السفن بقيادة جين دى نوفا ، أبحرت من البرتغال فى منتصف مارس ١٥٠١ ، وكان هدفها الانتقام من قاليقوط ودعم الصلات مع كنانور وكوشين . واشتبك دى نوفا فى معركة بحرية مع أسطـــول قاليقوط (٢) إنتصر فيها بفضل استخدام المدفعية (٣) ، وأغرقت خلال تلك المعركة مجموعة من السفن التجارية العربية ، نذكر منها سفينة للسلطان المملوكى كانت قد تهيأت للإقلاع إلى جدة (٤)

وتشتد وطأة البرتغاليين لضرب التجارة العربية ، واستخدام أعنف الأساليب ضد التجار والحجاج العزل ، ففى الثالث من مارس ١٥٠٢ غادر فاسكودى جاما البرتغال مرة أخرى على رأس أسطول كبير إلى الهند ، فوصل أولا إلى ساحل إفريقية الشرقى ، حيث أقام مراكز للتوابل فى كل من سفالة وموزمبيق وكلوة . كما استولى على بعض الســـفن العربية التى اتفق وجودها بميناء مالندى ، وفى أول أكتوبر ١٥٠٢ استولى كذلك على سفينة كبيرة للسلطان الغورى كانت محملة بالتوابل عليها مجموعة من الحجاج الهنود

---

(١) Kammerer : La Mer Rouge, T. *II*, p. 94.

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص٣٨ .

(٣) Heyd ; op. cit. T. *II*, p. 513, Kammerer: T. *II*, p. 95.

(٤) زين الدين : نفس المرجع والصفحة ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٢ .

Wiet: L'Egypte Arabe, pp. 616 f.

كانوا فى طريقهم إلى البحر الأحمر [١]. وفى الهند توصل دى جاما إلى عقد حلف مع ملك كنانور ضد قاليقوط ، كما عقد اتفاقيات أخرى مع كوشين وكولم [٢]. واستغل فاسكودى جاما فرصة العداء بين بعض القوى الهندية ، وعمل على توسيع هوة الخلاف فيما بينها ، وضرب بعضها ببعض ، كما توسع فى سياسة القرصنة والعنف ، واتبع أساليبا غير إنسانية ، فكان يقطع الطريق على السفن دون أى تحذير ، ويقوم بأسرها ، وينهب ماعليها من بضائع ، ثم إغراقها أو إحراقها بمن عليها من تجار وبحارة وحجاج وغيرهم [٣]. ولم يكن يكتفى بذلك بل كان يعمد إلى تعذيب من يقع فى يده من المسلمين كاستئصال أنوفهم وآذانهم وأصابعهم ، أو القضاء عليهم بقطع رؤسهم [٤].

كان للأعمال الإنتقامية الشنيعة التى لجأ إليها فاسكودى جاما أثرها السيىء فى قاليقوط ، لذلك استعد صاحبها بأسطوله واشتبك فى معركة بحرية عنيفة مع الأسطول البرتغالى تجاه ساحل كوشين ، وإذا كانت مدفعية الأسطول البرتغالى قد تمكنت من إلحاق بعض الأضرار بأسطول قاليقوط ، إلا أن خفة تلك السفن وسرعتها مكنتها من المناورة لتفادى نيران المدفعية ، ولولا

( ) Kammerer : op. cit, T. II p 97.

(٢) زين الدين : نفس المرجع والصفحة

Kammerer : Ibid pp. 97 f

(٣) ديل ، شارل : البندقية ص ١٤٩ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٠ .

(٤) Kammerer : op. cit.; T. II, p. 98, Wilson: The persian Gulf, London, 1945, p. 114.

انسحاب دى جاما ، لتمكن أسطول قاليقوط من إيقاع الهزيمة بالأسطول البرتغالى (١) .

وكان على فاسكودى جاما - تنفيذا لأوامر حكومته - أن يقوم بإغلاق البحر الأحمر والخليج الفارسى لمنع وصول تجارة الشرق إلى مصر ، وضمان عدم وصول السفن - خاصة الحربية - إلى الهند ، حتى تتمكن الأساطيل البرتغالية من تحقيق السيطرة على الهند ، والقضاء على تجارة عدن ومصر ، تمهيداً لتوجيه ضربة مباشرة فى البحر الأحمر ، ولذلك أمر دى جاما - بعد أن استقر عزمه على العودة إلى بلاده - بترك جزء من أسطوله بالقرب من باب المندب لإغلاق البحر الأحمر ، ومنع وصول السفن اليه أو خروجها منه (٢) ، كما ترك مجموعة أخرى عندجزر كوريامورياللقيام بأعمال القرصنة ضد السفن العربية (٣) ، وبعـــد أن تم له ذلك ، أقفل عائداً إلى بلاده ، حاملا معه كميات هائلة من التوابل والسلع التى حصل على معظمها عن طريق الســـلب والنهب ، فكان وصوله إلى البرتغال فى سبتمبر ١٥٠٣ (٤) .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) ديل ، شارل : البندقية ص١٤٩ ،

Macro : Yemen and Western World; p. 1

(٣) Kammerer: Ibid, p, 98, Sarjeant: The portuguese, p. 41.

(٤) ديل : المرجع السابق ص١٤٦ ، أحمددراج : المماليك والفرنج ص١٣٢ ،

Kammerer Ibid, T. *II*, p, 98.

وفى الوقت الذى كان دى جاما يستعد فيه لرحلة العودة كانت حملة بحرية أخرى قد أبحرت من البرتغال فى السادس من ابريل ١٥٠٣ بقيادة ثلاثة من كبار القادة أبرزهم الفونسود البوكيرك وأخوه فرنسسكو وأنطوان دى سالدانها(١) . وكان صاحب قاليقوط قد تمكن من التغلب على صاحب كوشين بعد عودة فاسكودى جاما (٢)، وأحرق مدينته، وقضى على الحامية البرتغالية فيها . ولهذا كان أول أهداف دالبوكيرك عند وصوله الانتقام من صاحب قاليقوط، وقد تم له ذلك وأجبره على الموافقة على إقامة قلعة برتغالية فى بلاده. كما فرض عليه غرما عينياً كبيراً، وأرغمه على منع تصدير التجارة للبحر الأحمر . وفى نفس الوقت عمل على تمكين مركز البرتغال فى كوشين، واهتم بتدعيم الحامية البرتغالية فيها وزودها بالأسلحة والعتاد، ثم ترك زميليه فى مجموعتين من السفن، وعاد الى البرتغال بكميات أكثر من البضائع الشرقية، فوصل الى أشبونه فى أواخر يوليه ١٥٠٤ (٣)

وهكذا انتشرت السفن الحربية البرتغالية فى المياه الهندية، بعد أن ترك كل من دى جاما ودالبوكيرك جزءا من أسطوليهما فيها، كما تعددت القلاع البرتغالية فى ساحل أفريقية الشرقى والهند كوسيلة لتأمين الوجود البرتغالى فى تلك المناطق، مما ساعد على مهاجمة السفن التجارية المتجهة إلى البحر الأحمر،

---

(١) Kammerer : Ibid,, T. II, p. 103.

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٨.

(٣) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٣٩ ،

Kammerer; op. cit. T. II, p. 105

ومنع وصـولها إليه أو خروجها منه ، وترتب على ذلك أن احتلت أشبونة مركز الصـدارة فى التجارة الشرقية بدلا من البندقية ، نتيجة لحرمان دولة المماليك من تجـارة العبور التى كانت تجنى من ورائها أرباحا طائلة ، هذا إلى جانب المحاولات البرتغـالية لتحقيق التحالف مع الحبشة(١)، تمهيدا للاغارة على المقدسات الإسلامية فى الحجاز وتطويق مصر من الجنوب(٢) . ولهذا استمر تدفق الأسـاطيل إلى الهند ، ففى ربيع سنة ١٥٠٤ م أبحر أسطول آخر إلى الهند بقيادة لوبو سواريز دالبير جاريا لتحقيق هذا الغرض ، فأوقع بمجموعة من السفن العربية القادمة من جدة فى كمين ، وبدد شملها . وواصـل تطبيق سياسة الانتقام ضد السفن القادمة من البحر الأحمر ، وفعـل نفس الشىء مع سفن قاليقوط ، وتمكن ـ بمعـــاونة ملك كوشين ـ من مفاجأة قاليقوط وتدمير مجموعة من سفنها (٣) ، وبعد أن أحرز انتصاره على ماسكها (٤) عاد إلى بلاده حاملا أسلابا قدرت بأربعة وعشرين ألف قنطار من التوابل (٥) .

وفى سنة ١٥٠٥ تبدأ مرحلة جديدة ، فقد استقر رأى ملك البرتغال على تعيين نائب له يقـيم فى الهند بصفة دائمة ، ليتولى توجيه السفن القادمة من البرتغال بما يحقق الأهداف البرتغالية فكان فرانسسكو دالميدا أول نائب لملك البرتغال فى المستعمرات البرتغـالية فى الشرق فأبحر من البرتغال فى ٢٣ مارس

---

(١) Macro ; Yemen and the Western World, p. 1!

(٢) أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٦٦ .

(٣) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٢ .

(٤) Kammerer ; op. cit; T. II, p. 106.

(٥) Heyd ; op. cit. , T II p. 529, Kammerer; op. cit., pp. 106 - 107 , 144.

سنة ١٥٠٥ م على رأس أسطول كبير ضم إلى جانب السفن الحربية أخرى تجارية ، كما استصحب معه عددا من الجنويين والبنادقة والألمان . وكان من بين ضباطه ماجـــلان (١) . وفى طريقه إلى الهند عمل على تدعيم القواعد البرتغالية فى شرق إفريقية ، فأقام فى أغسطس سنة ١٥٠٥ قلعتين فى منبسة ، كما أبدى صاحب كاوة مشاعر الود والتعاون مع الحملة (٢) ، وعمل دالميدا على تثبيت قواعد الوجود البرتغـــالى فى الهند ، فجعل فى كوشين مقـر لقيادته (٣) .

وحرص ملك البرتغال على تدعيم دالميدا ، وسارع بامداده بحملة بحرية كبيرة أبحرت من البرتغال فى الخامس من ابريل سنة ١٥٠٦ بقيادة ترستان داكونهـا ، ضمت إلى جانب السفن الحربية سفنا أخـرى تجارية ، وكان الفونسو دالبوكيرك مسئولا عن الناحية العسكرية لتلك الحمـلة التى عززت بأسطولين آخرين فى سنة ١٥٠٨ . ووجه داكونها ودالبوكيرك اهتمامها إلى إقامة القلاع على الشاطىء الإفريقى ، كما عملا على إحـكام إغلاق البحر الأحمر فى وجه التجارة الهندية (٤) ، ولهذا استولى داكنها سنة ١٥٠٦ على

(١) Heyd ; op. cit., T. II, p. 529, Kammerer : op. cit ; II, pp. 107 f.

(٢) تمكن لوريتزودالميدا من الوصول إلى سيلان .

(Kammerer : T. II, p. 108)

(٣) لوريمر : دليل الخليج جـ ١ ص ٦٠ .

Allen : The Cambridge Shorter History of India, London, 1924, p. 487.

(٤) Kammerer : op cit T. II p. 109.

جزيرة سوقطرة الواقعة إلى الجنوب الشرقى من عدن ، والتى تتحكم فى الطريق البحرى المؤدى إلى البحر الأحمر ، واتخذها قاعدة بحرية لشن الغارات على سواحل حضرموت وعمان وهرمز [١] ، وفرض الحصار على تجارة البحر الأحمر [٢] . وهكذا تركزت جهود دالبوكيرك على إغلاق جميع الممرات والسيطرة على الموانى الاستراتيجية كهرمز فى مدخل الخليج ، وعدن بالنسبة للبحر الأحمر . ودعم دالبوكيرك ذلك بإرسال مجموعة من السفن لإغلاق باب المندب [٣] . كما سعى إلى الاتصال بالحبشة ، فأرسل إليها بعثة سنة ١٥٠٨ لتحقيق التعاون معها فى مشروع صليبى مشترك للقضاء على مصر [٤] . وتواترت الأخبار إلى مصر بتزايد الخطر البرتغالى ، وأن أكثر من عشرين سفينة برتغالية قد توغلت فى البحر الأحمر [٥] .

وهكذا تمكن البرتغـــاليون بحملاتهم البحرية الضخمة المتواصلة ، وباستخدامهم الأسلحة النارية — التى لم يكن للمناطق الواقعة على المحيط الهندى عهداً بها — وباتباعهم أعنف أساليب القرصنة ، من الاستيلاء على عدد كبير من الموانى والجزر فى المحيط الهندى . وفرض الحصار على تجارة البحر

---

(١) لوريمر : دليل الخليج جـ ١ ص ٦ .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ ، ديل، شارل : البندقية ص ١٤٩ .

Heyd ; op. cit, T. II p. 535, Serjeant ; Portogues, p. 41.

(٣) Kammerer : op. cit., T. II, pp. 116 – 117.

(٤) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ — ٤٥ .

Kammerer; p. 137.

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٩٦ .

الأحمر والخليج الفارسي [1] ، واحتكار تجارة التوابل بالقوة، مما أصاب مناطق التصدير ، والموانى الواقعة على الطريق التقليدى للتجارة ، كهرمز وعدن وجدة بأضرار بالغة وأفقدها أهميتها ، كما عرض الإقتصاد المصرى والبندقى لكارثة محققة . وكان البرتغاليون فى وضع يسمح لهم بتعزيز قواتهم على الدوام ، ويمكنهم من شن الهجمات على الموانى والسفن التجارية دون أن تجرأ أى من القوى الموجودة فى المنطقة من التصدى لهم أو البدء بمهاجمتهم.

٢ ـ أثر الكشوف البرتغالية على حركة التجارة اليمنية :ـ

أما فيما يتعلق باليمن فقد كان طبيعيا أن تتأثر حركة التجارة فى ميناء عدن وتنخفض تبعا لذلك حصيلة الرسوم الجمركية بدرجة هائلة، اضطر معها السلطان اليمنى الظافر عامر الثانى إلى الاستيلاء على نصف متحصلات الأوقاف ليستعين بها فى مواجهة النقص فى إيراداته ، مما أثار سخط الفقهاء عليه (٢) . ومع اشتداد الحصار المفروض على التجارة لم يعد دخل عدن كافيا لسد احتياجات المدينة فقط مما أدى إلى استيلاء الأمير مرجان ـ والى عدن ـ على خراج لحج [3] لسد النقص الناجم عن عجز ايراداته لمواجهة متطلبات الدفاع عن مدينته .

وإذا أخذنا فى الاعتبار الأطماع البرتغالية للاستيلاء على عدن وغيرها من

Lewis (B.) ; The Camb. Hist. of Islam, vol. I, p. 229( )

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٩ ،

Kammerer op cit.; T. II p. 230

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢١٠ .

الموانى اليمنية فى وقت زادت فيه الحركات الداخلية المضادة للطاهريين ،
فإن انشغال السلطان الظافر عامر الثانى وقواته فى القضاء على تلك الثورات
والعمل على إقرار الأوضاع الداخلية ، كان يعوق قدرته على مواجهة الخطر
البرتغالى . لذلك بادر السلطان الطاهرى بالاستنجاد بالسلطان الغورى لتخليص
اليمن من هذا الخطر الداهم (١) ولم يكن السلطان اليمنى وحده هو الذى
استنجد بالسلطان المملوكى ، فقد أرسل كل من السامرى صاحب قاليقوط(٢)
ومظفر شاه بن محمود شاه سلطان كجرات (٣) رسلهما للاستنجاد به . ومن
الجدير بالذكر أنه لما نشطت القرصنة البرتغالية وتعرضت السفن للنهب ،
وركابها من البحارة والتجـــار والحجيج للأسر أو القتل (٤) ، اضطر
السلطان الظافر إلى إعداد حملة بحرية من أربعة عشر مركبا ، اشترك فيها
ستمائة من المحاربين بينهم جماعة من طلبة العلم للجهاد ، وقد أبحر هذا الأسطول
من عدن فى ٢٧ شوال ٩١٢ هـ (٥) / ١٢ مارس ١٥٠٧ . ويغلب على الظن

---

(١) الشبلى اليمنى : السناالباهر ص ٨ ، ٢٠١ ، النهروالى : البرق اليمانى
فى الفتح العثمانى ـ الرياض سنة ١٩٦٧ ـ ١٩ ،

Kammerer ; Ibid T. Ii p. 230

(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ ، بانيكار : آسياوالسيطرة الغربية
ص٤٢ .

(٣) النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩

Kammerer ; Ibid. II p. 153

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٦ ب ، الفضل المزيد ص ٣٨ ب ،
بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١١٩ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٦٣ .

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٣ أ .

أن هذا الأسطول عجز عن الصمود ، وأن البرتغاليين تغلبوا عليه ، ذلك أن المصدر اليمنى الذى انفرد بذكر تلك الجملة لم يزودنا بشيء عن أخبارها ، وما إذا كانت قد تمكنت ـ كلها أو بعضها ـ من العودة الى عدن .

٣ ـ موقف مصر من الخطر البرتغالى :

كان لنجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق بحرى جديد إلى الهند ، وسيطرتهم على تجارة التوابل ، وتحكمهم فى المياه الهندية، وفرض الحصار على البحر الأحمر أثره الكبير فى تخفيض كميات التوابل الواصلة إلى مصر، مما عرض دولتى المماليك والبندقية لانهيار اقتصادى خطير [1] . فقد بلغ من نقص كميات التوابل المعروضة فى أسواق الاسكندرية سنة ١٥٠٢ ، أن سفينتين فقط من بين خمسة من سفن البندقية استطاعتا ـ بمشقة بالغة ـ الحصول على حمولتيهما [2] وأن سفنهم عادت خاوية تماما سنة ١٥٠٤ [3] . أضف إلى ذلك أن قلة الواردات من التوابل أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا فى مصر وبالتالى البندقية ، فى الوقت الذى تألقت فيه أشبونة كسوق رئيسي لتجارة التوابل ومركز هام لنفائس الشرق ، ولم تلبث أن احتلت مكانة البندقية ، وذلك بما توفر فى أسواقها من هذه السلع والتحف ، واجتذبت اليها تجار أوربا لرخص

---

(١) Heyd:: op. cit., T. II, pp. 521 - 522.

(٢) ديل: البندقية ص ١٥١ ـــ ١٥٢ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٢ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٧١ .

(٣) ديل نفس المرجع ص ١٥٢ .

أسعارها (١) .

وكان لزاما على مصر أن تدافع عن كيانها الاقتصادى وحمايته من الانهيار. كما لم يكن من السهل أن تتخلى الجمهوريات الإيطالية ، وخاصة البندقية عن مصادر ثروتها(٢) ، لذلك أخذت سفارات البندقية تتوافد على البلاط المملوكى ابتداء من عام ١٥٠٢ ، لتدارك الأمور قبل استفحال الكارثة، وعمل سفراؤها على اقناع السلطان الغورى بمراسلة سلاطين الهند لحثهم على مقاطعة البرتغاليين، وأن يعمل على إرسال بعض السفن الحربية لحماية السفن التجارية ، مع جلب كميات كبيرة من التوابل وتخفيض أسعارها حتى تتمكن البندقية من غمر أسواق أوربا بالتوابل وبيعها بأسعار رخيصة لمنافسة السوق البرتغالية وعرقلتهم فى تصريف ما لديهم من بضائع . كذلك تضمنت مطالب البندقية، أن يعد الغورى أسطولا قويا لمحاربة البرتغاليين فى المياه الهندية، وتوجيه ضربة قاضية لهم وتدمير مشروعاتهم فى الهند (٣) .

وقد استغل الغورى الأضرار التى تعرضت لها البندقية بسبب منافسة البرتغال.

---

(١) ديل: نفس المرجع ص ١٤٩ ،
Heyd: Ibid: p. 516, Kammerer : p. 139.

(٢) هاو سونيا : فى طلب التوابل ص ٢١٦ :

(٣) ديل : نفس المرجع ص ١٤٧—١٤٨و ١٥٠ و ١٥٢ ، أحمد دراج : نفس المرجع ص ١٣٢ و ١٥١ ، عــدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى وعصره — رسالة ماجستير بكلية الآداب باسكندرية سنة ١٩٧٠ ص ٢٠٢ ،
Heyd : Ibid. T. II, pp. 519, 521 - 524.
Kammerer : Ibid, T. II, pp. 141, 144.

لتجارتها، فطالبها بإمداده بالأسلحة والأخشاب لبناء السفن التي يعتزم إرسالها لمحاربة البرتغاليين[١]. إلا أن البندقية اعتذرت عن عدم إمكان تقديم الأخشاب والأسلحة المطلوبة حتى لا تتهم لدى البابا بمساعدة المسلمين ضد المسيحيين. ولم يتردد الغوري في القيام ببعض الجهود الدبلوماسية حتى يتهيأ له إعداد أسطوله في البحر الأحمر، ففي سنة ١٥٠٤ أرسل مبعوثيه إلى البابا يوليوس الثاني، وإلى ملوك أوربا مهددا بإغلاق كنيسة القيامة والكنائس الكاثوليكية الأخرى، وقتل الفرنج الموجودين في بلاده، إذا لم تتوقف البرتغال عن أعمالها العدوانية ضد المصالح المصرية في الهند، فكان لهذه التهديدات أثرها في إزعاج البابا الذي بادر بالكتابة لعمانويل ملك البرتغال. إلا أن الملك البرتغالي لم يكن مستعدا للتنازل عما حققه لبلاده من نجاح هائل في احتكار تجارة الشرق، وتحقيق أحلام البابوية في حرمان دولة المماليك من مصدر قوتها وثرائها، مما يساعد على توجيه حملة صليبية للاجهاز عليها، وانتزاع المقدسات المسيحية في الشام. لهذا أرسل عمانويل إلى البابا يطمئنه بأن السلطان الغوري لن يقدم على تنفيذ تهديداته، وأن البرتغال قادرة على مهاجمة المقدسات الاسلامية في الحجاز إذا ما حاول الغوري تنفيذ تهديداته[٢].

---

(١) أحمد دراج: نفس المرجع ص ١٣٠، نعيم زكي: نفس المرجع ص ٧٨ — ٨٥،

Kammerer : Ibid. T. II, p. 145.

(٢) احمد دراج: المماليك والفرنج ص ١٣٤ — ١٣٦، عدلي فريد: السلطان قنصوه الغوري وعصره ص ٢٠٣ — ٤٠٤،

Heyd : op cit., T. II, pp. 520 - 522, Kammerer : op. cit., T. II, p. 144, Lane - poole : The Hist. of Egypt, p. 532.

وعلى هذا النحو لم تنجح مساعى الغورى فى الحصول على مساعدات حربية من البندقية ، كما لم تفلح تهديداته للبابا فى وقف الاعتداءات البرتغالية على التجارة المصرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فقد كان من المحال أن ينتظر من البابا أو ملوك أوربا مناصرته على أبناء ملتهم [١] . بل على العكس من ذلك فقد نشط قراصنة الفرنج وعلى رأسهم فرسان الاسبتارية بجزيرة رودس فى الإغارة على السواحل المملوكية ، ومهاجمة السفن المصرية فى البحر المتوسط [٢] .

لم يجد الغورى بدا من محاربة البرتغاليين فى المياه الهندية ، ولهذا بدأ فى إعداد السفن الحربية[٣] ، وتم بالفعل إنشاء خمسين سفينة [٤] ، جهزت بالمدافع والأسلحة النارية [٥] وأسند أمر قيادتها إلى الأمير حسين الكردى ، الذى جعله السلطان نائبا عنه على جدة ، وأبحر الأسطول من ميناء السويس فى ٩١١هـ [٦] / ١٥٠٥م . وبدأ حسين الكردى فى تحصين جدة وبناء الأبراج

---

(١) Kammerer : op. cit., T. II, p 145.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩١ — ١٩٢ ، ابن طولون الصالحى : مفاكهة الخلان ج١ ص ٢٤٥ أحمد دراج: المماليك والفرنج ص ١٢٨— ١٢٩ ، عدلى فريد : نفس المرجع ص ١٢٨ .

(٣) Lewis, (B.) : The Camb. Hist. of Islam, vol. I. p. 229.

(٤) زبارة: أئمة اليمن ج ١ ص٣٩٣ .

(٥) النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج٤ ص ٨٢ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٦ .

لحمايتها (١) ، كما عمـل على تأمين البحر الأحمر ، وبدأ بالاستيلاء على سواكن بغير حرب (٢) .

وفي أوائل المحرم سنة ٩١٣ هـ / مايو ١٥٠٧ م وصلت طلائع الأسطول المصرى إلى ميناء جازان للتموين ، ثم توجهت إلى جزيرة كمران (٣) ، وتبعها الأمير حسين في ربيـع الآخـر سنة ٩١٣ هـ / أغسطس ١٥٠٧ م في مجمـوعة أخـرى (٤) . فلما وصل إلى عـدن أرسل قاصدا من قبله إلى واليها الأمير مرجان الظافرى يستأذنه في الدخول إلى الميناء، فأذن له ودخل بسفنه « بأدب واحتشام وتعفف واحترام» (٥) . وأرسل إليه الأمير مرجان رسوا ين فأكرمها وأعادها محملين بهداياه ، وأوصاها بقوله : « بلغا الأمير منى السلام ، وعرفاه لولا أنى مأخوذ على من قبل السلطان قانصوه أن لا أدخل عدن لدخلت إليه

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر ص ٨٤ ،
Heyd : op. cit., T. II, p. 521.

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ص ٩٥ — ٩٦ ، عـدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ١٢٦ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٣ ب ، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٣٥ — ٦٣٦ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٢ ،
Kammerer : op. cit., T. II, p. 154.

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ج٣ ص١٩٢ ، زبارة : أئمة اليمن ج١ ص٣٧٣ ،
Kammerer : Ibid, T. II. p. 230.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

ومثلت بين يديه »⁽¹⁾ . ولم يتردد الأمير مرجان ازاء ذلك فى تزويده بكل ما يحتاج إليه من الماء والمؤن وغيرها [٢] . ثم أبحر الأمير حسين الكردى بأسطوله إلى الهند[٣] . وما أن وصل إلى كجرات – الواقعة فى شمال الساحل الغربى للهند — حتى رحب به سلطانها مظفر شاه بن محمود شاه [٤] وأمده بالأموال [٥] . وتعاونت معه الأساطيل الهندية المتحالفة ، وتمكن بفضل هذا العون من التغلب على أسطول برتغالى فى موقعة شول ٩١٣ هـ / ١٥٠٨م[٦] ، التى سقط فيها قائد الأسطول البرتغالى لورنزو دالميدا صريعا[٧] .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٤أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص٤٤أ ، عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتوح — مخطوط مصور ضمن مجموعة رقم ١١ تاريخ م بدار الكتب — جـ ١ ص ٥٨ ب .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤٨ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٣ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٤) Kammerer : Ibid, p. 155.

(٥) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٤٢ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢١٧ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٧ ، Kammerer : Ibid p. 155.

(٧) زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٠ — ٤١ ، بانيكار : آسيا والسيطرة =

وأحـدث انتصار الأسطول المصرى فى شول دويا هائلا فى مصر ، وأمر السلطان الغورى بإقامة الاحتفالات فى البلاد بهذه المناسبة لمدة ثلاثة أيام. وكان الأمير حسين الكردى قد أرسل فى طلب الإمدادات ليتمكن من مواصلة الحرب ضد البرتغاليين (١) ، فبدأ الغورى فى المحرم سنة ٩١٥هـ / مايو ١٥٠٩م بتجهيز عدد من السفن لإرسالها إليه إلى الهنـد (٢) . غير أن ذلك جاء متأخرا ، إذ استطاع الأسطول البرتغالى بقيادة فرنسسكو دالميدا نائب الملك — بعد وصول سفن ومعدات برتغالية لتعزيز قواته — أن يفاجىء الأسطول المملوكى فى ديو وينزل به هزيمة ساحقة فى الثالث من فبراير ١٥٠٩م ، ويرغم الأمير حسين على الانسحاب بما سلم من سفنه إلى جده (٣) .

= الغربية ص ٤٣ ، عدلى فريد : قانصوه الغورى ص ١٢٧ ،

Heyd : op. cit., T. II, p. 536.

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٢ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٦ ، زين الدين : تحفـــة المجاهدين ص ٤١ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ص ٢٦٧ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٧٨ — ١٧٩ ، أحمـد دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٧ ، نعيم زكى : طرق التجارة ص ٣٠ — ٣١ ، ٩١ ،

Depping : Histoire du Commerce, Paris, 1830, T. II, p. 269, Heyd : op. cit., T. II, p. 536, Kammerer : op. cit., T. II, p. 157, 174, Lane-poole : Mediaeval India under Mohammedan Rule, London, 1925, pp. 176 - 177.

والواقع أن إبطاء السلطان المملوكي في القيام بعمل حربي مباشر ضد البرتغاليين في المياه الهندية عقب نجاح طلائعهم في الوصول إلى الهند، أدى إلى تمكين البرتغال من المبادرة بتعزيز قواتها ، بحيث أصبح من اليسير على تلك القوات التعجيل بتوجيه هجوم شامل على الأسطول المصرى انتهى بتدمير معظمه في ديو .

وكان لانتصار البرتغاليين في ديو أثره في قيام دالبوكيرك بشن حرب صليبية لا هوادة فيها ضد المسلمين ، فقد انتهز فرصة قيام عادل شاه حاكم جوا بإيواء الفارين من بطش البرتغاليين ، وإمدادهم بالمؤنات والأسلحة للصمود في محاربة البرتغاليين، وبادر بمهاجمة مدينة جوا سنة ١٥١٠م واستولى عليها واتخذها قاعدة برتغالية في الهند[1] ، وأرسل إلى ملك البرتغال يبلغه بأنه قتل جميع من وجدهم من العرب فيها، وأنه، حينما أمكنه العثور على عربي، كان إفلاته من يده من المحال ، وأنه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار »[2] . ثم أنه عمد إلى بث الحماس في نفوس رجاله قبيل اعتزامه الاستيلاء على ملقه سنة ١٥١٧[3] ، وخطب فيهم بقوله ، إن « الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع

---

(١) زين الدين : نفس المصدر ٤٤ ،

Kammerer : op. cit., T II, p. 164.

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٦ .

(٣) أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٩٧ ، أحمد دراج: المماليك والفرنج ص ١٣٨ .

Kammerer : Ibid, T. II, p. VIII.

لهـا هبا بعد ذلك لهيب » ومزج بين المطـامع الاقتصاديـة والتعصب الديني بقوله « وذلك لأنى على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقة هذه من أيديهم (أى من المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ، ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك» [١] .

وهكذا فقد كان لانتصار البرتغاليين في ديو أثره في توطيد دعائمهم في الهند، فاستولوا على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها ، واشتدت وطأتهم على المسلمين ، وتمكنوا من إحكام الحصار على الخليج الفارسى والبحر الأحمر وعدن ، وترصدت أساطيلهم سفن الأسطول المصرى وغيرها من السفن العربية وتمكنوا فى سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م من الظفر ببعض السفن اليمنية الخاصة بسلطان اليمن الظافر عامر الثانى واستولوا عليها ولم يسلم منها إلا مركب واحد وزورقين [٢] . ولم تستطع السلطات اليمنية أو الهندية القيام بأى عمل مضاد للبرتغاليين الذين أصبحت لهم السيطرة الكاملة بغير منازع . ونتيجـة لذلك أسرع السلطان الظافر عامر الثانى إلى الاستنجاد من جديد بالسلطان الغورى وحثه على تدارك الخطر البرتغالى [٣] . وتبادل السلطان الغورى مع

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٨ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٤١ ب ، الفضل المزيد ص ٤٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٧ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٢ .

Kammerer : op. cit., T. II, pp. 157, 230.

(٣) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٨ ، ٢٠١ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ١٩ .

السفارات (١)، ومنها سفارة الطواشي بشير الذى غادر القاهرة فى ربيع الأول ٩١٦ (٢) هـ / يونيو ١٥١٠ م فى طريقه إلى اليمن ، فوصلها فى جمادى الآخرة من نفس العام ، وقام بإبلاغ رسالة السلطان الغورى إلى السلطان الظاهرى ، وأطلعه على حقيقة الموقف وما يتم من استعدادات لمواجهة البرتغاليين ، ثم قفل الطواشي بشير عائدا إلى مصر محملا بالهدايا فوصلها فى المحرم سنة ٩١٧ هـ (٣) / أبريل ١٥١١ م .

كذلك وفد إلى مصر فى سنة ٩١٦ هـ / مايو ١٥١٠ م قصاد الملك محمود شاه صاحب كنباية ، وغيره من ملوك الهند لمطالبة الغورى بالإسراع فى إرسال الحملات لمعاونتهم ضد البرتغاليين الذين كثر عبثهم منذ انتصارهم فى ديو (٤) . فقام السلطان الغورى بإرسال مبعوث إلى ملوك الهند فى ربيع الأول ٩١٦ هـ يونيو ١٥١٠ م يطالبهم بمساندته فى قتاله ضد البرتغاليين (٥) .

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، ص ٦٣٧ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٢ ، Kammerer : Ibid, T. II, pp. 158, 231.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٨٨ ، زين الدين : تحفة المجاهدين ص ٤٨

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٩ ، ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٤٧ أ ، Kammerer : Ibid, T. II, p. 232.

(٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٨٢ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ٢٠٨ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٨٥ .

وفى نفس الوقت عاود السلطان الغورى مطالبة البندقية بالإمدادات العسكرية ليتمكن من مواصلة القتال ضد البرتغاليين فى الهند . ولكن البنادقة كعادتهم تعللوا بحرجهم من مواجهة البابا والدول المسيحية الأوربية ، ونصحوه بالتوجـــه بطلباته إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى الذى بادر بتزويد الغورى بالأخشاب والأسلحة على سبيل الهدية إسهاما منه فى حماية المقدسات الاسلامية فى الحجاز (١) .

أما الأمير حسين الكردى فقد اهتم بعد عودته من ديو بإعادة تحصين جدة وبناء سور ضخم حولها (٢) ـ وكان سلطان كجرات قد أمده بالأموال لهذا الغرض (٣) ـ واستغرق بناء هذا السور عامين ، ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين أقاموا وبدورهم حصنا لهم فى قاليقوط ، وكان صاحبها قـد اعتزم الإسهام فى أعمال التحصينات التى يتولاها الأمير حسين الكـردى فى جدة فأعد سفينة حملها بالتوابل ، وتحايل حتى حصل على اذن من السلطات البرتغالية

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ابن طولون الصالحى : مفاكهة الخلان ج ١ ص ٣٤٥ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٨ ، Heyd : op. cit., T. II, pp. 537—39, Kammerer: op. cit., T. II, p. 146, Inalcik, (Halil) : The Ottoman Empire, London, 1973, p. 33.

(٢) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ـ مخطوط بالجمعية الآسيوية فى كلكتا رقم ١٢٨١ ، مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٣١٤٣ ـ ص ٥٤ أ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ .

بضمان عدم تعرض الأسطول البرتغالي لها ، وتمكنت تلك الشحنة من الوصول إلى جدة بفضل ملاح عربي يدعى خليفة ، وقام هذا الملاح بابلاغ الأمير حسين بالأمر وأطلعه على أحوال البرتغاليين ، إلا أن الأمير حسين شك في أمر ذلك الملاح واعتقد أنه يعمل لحساب البرتغاليين ، وأنه إنما جاء للتجسس والتعرف على معلومات ليستفيد منها البرتغاليون . ولهذا احتجزه وأرغمه وبحارته على الاشتراك في بناء السور [١] .

وأيا ما كان الأمر ، فإنه ما أن انتهى الأمير حسين الكردي من تحصينات جدة حتى بادر بالعودة إلى مصر ، فوصلها في آخر رمضان سنة ٩١٨ هـ / ديسمبر ١٥١٢ م ، وبصحبته رسول من ملك كنباية جاء للحصول على تقليده من الخليفة العباسي لسيده [٢] ، وكان قد وصل إلى القاهرة أيضا – في بداية ذلك الشهر – رسول آخر من الهند محملا بالهدايا للسلطان الغوري [٣] ، ولم تفصح المصادر عن مضمون مهمته ، ولكن يبدو أنها كانت تهدف إلى حث السلطان على إرسال الإمدادات المصرية إلى الهند .

٤ – محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن والسيطرة على البحر الأحمر :-

على الرغم من الحصار الذي فرضه البرتغاليون على عدن ، الا أن أساطيلهم لم تكن تجروء على المخاطرة بمهاجمتها بسبب تحصيناتها الطبيعية القوية . ولكن دالبوكيرك كان يحـــرص على الاستيلاء عليها لأهميتها ، وليتخذها قاعدة

---

(١) Depping : Histoire du Commerce, T. II p. : 219.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٤ ص ٢٨٦ – ٢٨٧.

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ٢٨٤ .

بحرية لأسطوله والعمل على السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على الأسطول المصرى ، حتى يفقد حكام الهند كل أمل فى وصول الإمدادات الحربية من مصر إليهم ، ومن ثم تفتر مقاومتهم ، ويتخلص البرتغاليون من المخاطر التى تعترضهم فى حالة وصول أسطول مصرى إلى المياه الهندية ، وبذلك يتحقق الاستقرار للبرتغاليين فى الهند [1] .

ولهذا السبب تجهز دالبوكيرك للاستيلاء على عدن ، فغادر جوا فى ٨ فبراير سنة ١٥١٣ [2] فى أسطول يتألف من عشرين سفينة [3] ، فوصل عدن فى ١٧ محرم سنة ٩١٩ هـ [4] / ٢٤ مارس ١٥١٣ ، ولكن أخبار حملته سبقته ، مما فوت عنصر المفاجأة التى كان البرتغاليون يهدفون إليها ، وعلى الرغم من انزعاج والى عدن من تلك الأخبار ، إلا أنه اتخذ للأمر عدته وكان قد قام — بناء على أوامر سلطانه — بتحصين المدينة والتأهب للقتال دون أن يكون البادئ

---

(١) Wilson : The Persian Guf, p. 118.

(٢) Kammerer : op. cit T. II, p. 178.

(٣) Kammerer : op. cit., T. II, p. 178. Wilson ; op. cit., pp 75 – 76

(وتذكر المصادر اليمنية أن الأسطول البرتغالى كان مكونا من ١٨ سفينة) ، ابن الديبع : قرة العيون ، ص ١٥١ ب ، الفضل المزيد ص ١٥١ أ ، بامخرمة ، قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٤ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٠–٣٨١ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ أ ، زبارة أئمة اليمن جـ ١ ص ٨٠ ، Kammerer : op. cit. T. II, p. 185.

به (١) . واتفق وقت وصول الأسطول البرتغالي إلى عدن أن كانت مجموعة من المراكب راسية في مينائها ، فاضطر أصحابها إلى تركها والاحتماء في المدينة ، ولما تأكد البرتغاليون من خلو تلك المراكب من الحراسة ، تقدموا إلى الميناء ، واستولوا على دار البندر (٢) . ثم قصفوا المدينة بالمدافع (٣) . وحاول الأمير مرجان – حاكم عدن – أن يهادنهم ، ويهاديهم تجنبا لما قد يصيب مدينته من كوارث محتومة إذا ما تصدى لهم ، فأرسل إليهم مجموعة من الكباش وكمية من الفواكه على سبيل الضيافة ، ولكنهم أعادوها إليه ، وطالبوه بتسليم المدينة ، وهددوه بالاستيلاء عليها قهرا وحددوا مهلة لليوم التالي (٤) . فلما لم يستجب حاكم عدن لطلباتهم ، هاجموا المدينة ونصبوا عددا من السلالم على أقصر جانب من سورها (٥) وتمكن بعضهم من النزول بداخلها (٦) . فكان لذلك أثره السيء على حاكمها الذي هم بالتسليم ، ولكنه عدل عن ذلك ، عندما رأى استماتة أهل المدينة في الدفاع عنها واستبسالهم في المقاومة رغم قلة ما لديهم من

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ، بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٤ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٠ .

(٢) تقع دار البندر على جبل صيرة المقابل لعدن والمشرف على مينائها . (بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ١٢ – ١٣ ، ١٧ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٦ ، قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٤ .

(٤) بامخرمة : قلادة النحر ، نفس الجزء والصفحة .

(٥) *Kammerer* : op. cit. T. *II*, p. 186.

(٦) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ، الفضل المزيد ص ٥١ أ .

إمكانيات ، فقد تجمع عدد منهم واستخدموا الحجارة فى محاربة البرتغاليين المسلحين بالأسلحة النارية . وشجع هذا الموقف البطولى من الأهالى حاكم عدن ، وقوى عزيمته ، وحط بمن معه كالبواشق على من نزل من البرتغاليين فى المدينة . وتغلب عليهم وأرغمهم على اللوذ بالفرار ، وحوصر الباقون وأشعلت النيران فى الأحراش التى اختبأوا فيها ، مما اضطرهم إلى إلقاء أنفسهم من الأسوار ، ولجأت قوات الأسطول إلى قصف المدينة بالمدفعية لتغطية انسحابهم (١) .

وهكذا أسفرت تلك المعركة عن فشل البرتغاليين فى الاستيلاء على عدن (٢) ، وسقوط بعض القتلى منهم (٣) ، وأسر أربعة آخرين (٤) . إشباعا لانتقامهم ، قام البرتغاليون — عند انسحابهم — بإشعال النيران فى المراكب الراسية فى الميناء (٥) ، ثم اتخذ دالبوكيرك طريقة إلى باب المندب ، حيث توجه شمالا فى البحر الأحمر بحذاء ساحله الشرقى ، فمر بالقرب من الموانى اليمنية دون أن يتوقف فى أى منها إلى أن وصل إلى جزيرة كمران فى أوائل

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ؛

Macro : Yemen and the Western World, p. 1.

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥١ أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨١ .

(٥) زبارة : نفس المرجع والصفحة ؛

*K*ammerer : *Ibid* T. *II* p. 186.

صفر سنة ٩١٩هـ/ابريل ١٥١٣م ، فاستولى عليها ونهبهـا رجاله (١) ، ودمروا بعض مبانيها (٢) وقتلوا من وجدوه فيها من اليمنيين (٣) . وأقام دالبوكيرك في كمران حتى منتصف جمـادى الأولى سنة ٩١٩هـ /يوليو ١٥١٣م (٤) ، دون أن يتحرك السلطان اليمنى لمقاومتهم « والناس يأكل بعضها بعضا من الغيـــظ ، يريدون من السلطان المصروف والاذن في قتالهم ، فلم يساعد على ذلك » (٥) .

وعلى الرغم من نجاح الأسطول البرتغـالي في التوغل في البحر الأحمر ، والوصول إلى كمران واحتلالها بغير مقاومة ، إلا أنه فشل في الوصول إلى جدة ، بسبب الدياح التي سخرت لتشتيت قطع الأسطول ، وقضت عـلى أحلام دالبوكيرك في العبث بالمقدسات الإسلامية ، وتدمير قبر الرسول (٦) .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥١ أ ، قرة العيـــون ص ١٥٢ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ ، أحمد دراج : المماليـك والفرنـج ص ١٥٥ .

(٢) Kammerer ; Ibid. T. II, p. 192.

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٠ ، زبارة : نفس المرجع والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٢ أ ؛

Kammerer ; Ibid, T. II, p. 193.

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ .

(٦) Kammerer ; op. cit., T. II p. 193, Serjeant The Portuguse p. 169.

ولهذا توجه إلى مصوع (١)، وأغارت بعض سفنه على زيلع ، وأحرقت ما كان راسيا فى مينائها من مراكب (٢) . كما هاجم سواكن (٣) وجزائر دهلك ، واضطر أخيرا إلى العودة إلى عدن حيث فشلت محاولته الثانية فى الاستيلاء عليها، فتركها فى أول جمادى الآخرة سنة ٩١٩هـ/٤ أغسطس ١٥١٣م إلى الهند (٤) بعد أن قصفها بمدفعيته ، وأحرق رجاله ماكان راسيا فى مينائها من المراكب (٥) .

وأحدث دخول الأسطول البرتغالى إلى البحر الأحمر، ومحاولته الوصول إلى جدة رد فعل عنيف ، فى الحجاز خشى الشريف بركات أمير مكة أن يتمكن البرتغاليون من النزول فى جدة، فى غيبة حسين الكردى قائد الأسطول المملوكى ، الذى كان موجودا وقتها فى مصر، ولذلك أسرع الشريف بركات بالتوجه إلى جدة بمن معه من المجاورين لتعضيد الحامية المملوكية فيها. وكان الشريف قد أرسل إلى السلطان الغورى يبلغه بخطورة الموقف (٦) ، فأصدر

---

(١) Kamme er ; Ibid T. II pp. 1X, 197.

(٢) ابن الديبع . قرة العيون ص ١٥٢ أ ، الفضل المزيد ص ٥١ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٤٠.

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٠٧ ، أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٥٥ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٢ أ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٢ أ - ب ، بامخرمة : قلادة النحر ص ١١٩٥ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٠ ؛

Kammerer Ibid. pp. 205:

(٦) ابن اياس : نفس المصدر والصفحة .

السلطان أوامره إلى الأمير حسين الكردى لسرعة العودة إلى جدة ، وأرسل معه أحد الأمراء ليتولى مهمة الكشف عن أخبار البرتغاليين [١] . وفى نفس الوقت تضاعفت الجهود من أجل تجهيز السفن الجارى إنشاؤها فى السويس ، وتزويد الحملة بالزردكاشية والنجارين والحدادين ورماة البندق والنفطية [٢] وتوجه السلطان إلى السويس فى شهر صفر ٩٢٠هـ/مارس ١٥١٤م للاشراف بنفسه على إنزال السفن العشرين التى تم إنشاؤها إلى البحر الأحمر [٣]. وتابع الغورى إرسال الإمدادات ، ففى جمادى الأولى ٩٢٠هـ/ يونيو ١٥١٤ م جهز تجريدة إلى الأمير حسين الكردى [٤] ، كما أرسل أسطولا آخر من عشرين سفينة فى جمادى الأولى سنة ٩٢١هـ/يونيو ١٥١٥ م ، أسند قيادتها إلى الريس سلمان العثمانى [٥] ، الذى توجه إلى جدة للانضمام إلى الأمير حسين الكردى والاشتراك معه فى قيادة الأسطول المملوكى ضد البرتغاليين [٦] .

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٠٨ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٦٢ - ٣٦٦ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر ص ٤٥٨ و ٤٦٠ و ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٦) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب ، ٥٩ أ ،

Kammerer ; *Ibid*, T. *II* p. 231 - 232.

رابعا ـ تطور العلاقات اليمنية المصرية حتى سقوط دولة بنى طاهر :

١ ـ موقف السلطات الطاهرية من الجريدة المملوكية ضد البرتغاليين:

لم يؤثر نجاح البرتغاليين فى السيطرة على الطريق إلى الهند ، على الممالك الهندية أو دولة المماليك والبندقية فحسب ، وإنما شمل بالضرورة بلاد اليمن بحكم موقعها وأهمية عدن . وعلى الرغم من السياسة الانعزالية التى اتبعها سلاطين اليمن الطاهريين ، إلا أنها كانت أكثر البلاد تأثرا بما يدور حولها ، فقد تأثرت حركة التجارة فى موانيها تأثرا بالغا وخاصة عدن ، وكان نجاح البرتغاليين فى السيطرة على موانى شرق إفريقيـة ، وخاصة فى المنطقة الواقعة جنوبى رأس جردفوى (القرن الافريقى) ، واحتلالهم لسوقطرة ، إلى الجنوب الشرقى من عدن ـ وسيطرتهم على سواحل عمان وهرمز ، وانتشار أساطيلهم لإغلاق الخليـج الفارسي والبحر الأحمر ، كلها مقـدمات للهجوم الذي شنه دالبوكيوك سنة ١٥١٣ م على عـدن ، فى محاولة للاستيلاء عليها ، لموقعها الاستراتيجى الممتاز ، ولكونها من أصلح الموانى التى يطمع البرتغاليـون فى استخدامها كقاعدة رئيسية لأسطولهم ، ولعملياتهم الحربية فى البحر الأحمر ، مما يساعد على الاتصال بالحبشة ، وتحقيق المطـامع الصليبية بضرب مصر والاستيلاء على الحجاز .

وكان موقف السلطات الطاهرية فى عدن بادىء ذى بدء مشرفا عند مرور الأسطول المملوكى بقيادة الأمـير حسين الكردى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م فى طريقه إلى الهند ، إذ تبادل الأمير مرجان معه الهدايا ، وأمـده باحتياجاته وعامله معاملة الخلفاء [١] . ولكن هذا الموقف لم يلبث أن تغير بعـد أن بدأ

---

(١) انظر ، ابن الديبع : قـرة العيون ص ١٤٨ ب ، بامخـرمة : قلادة

البرتغاليون حملاتهم على عدن والبحر الأحمر فى أعقـــاب انتصارهم على الأسطول المصرى فى ديو سنة ١٥٠٩م ، فقد وقف حاكم عدن موقفا سلبيـا من الهجوم البرتغالي الأول علي عـــدن سنة ١٥١٣ م ، وعمل على مهادنة البرتغاليين وموادعتهم ، وأمدهم بالمؤن مما يعد دليلا على جنوحه إلى مسالمتهم، ولكنهم أصروا على تسلم المدينة . ونظرا لتخاذل مرجان الظافرى حاكم عدن الظاهرى فقد تمكنت بعض القوات البرتغالية من تسلق أسوار المدينة والنزول فيها ، ولولا تصدى الأهالى لهم ، واشتباكهم معهم فى معركة انتصرت فيها حجارة الأهالي على الأسلحة النارية البرتغالية ، لسقطت عدن فى أيدى البرتغاليين (١) .

ولم يكن هذا هو موقف مرجان الظافرى وحـده ، بل كانت سياسة استنها السلطان الظاهرى الظافر عامر الثـانى بدليل أنه لم يتصـد للأسطول البرتغالى فى البحر الأحمر، مما سهل للبرتغاليين الاستيلاء على جـزيرة كمـران اليمنية بغير حرب ، كما أنه لم يحاول استرداد تلك الجزيرة رغم حماس أهل اليمن للجهاد، بل ترك البرتغاليين يحتلونها أكثر من شهرين دون أن يلقوا منه أية مقاومة (٢) . فكان لهذا الموقف أثره فى تطلع البرتغاليين للاستيلاء على جدة ؛ ولولا مقاومة الرياح لهم لأمكنهم تحقيق ذلك ، وما يمكن أن يترتب على ذلك

النحر جـ ٣ ص ١١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٣٦ ،

Kammerer ; op. cit., T *II*, p 231

(١) انظر ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥١ ب ، باخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١١٩٤ – ١١٩٥، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٠ .

(٢) باخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٥ .

من الاعتداء على المقدسات الاسلامية ، وانفتاح الطريق أمامهم لتوجيه ضرباتهم المباشرة لمصر .

ولما قام السلطان الغوري بإعداد أسطول آخر بقيادة الأمير حسين الكردي والريس سلمان العثماني ، وبدأ هذا الأسطول في الإبحار جنوبا في طريقه إلى الهند ، صدم قادة هذا الأسطول بالموقف العدائي الصارخ الذي وقفته السلطات الطاهرية في اليمن . وكان الأمير حسين حريصا - كعادته - على عدم المساس بالسيادة اليمنية ، فما أن وصل إلى جازان حتى أرسل رسولا من قبله إلى السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني ، يخبره بأمر الحملة البحرية ، ويطلب سرعة العمل على تزويده بالمؤن والأموال تنفيذا لما تعهد به في مكاتباته للسلطان الغوري [1] ، وذلك حتى يمكنه مواصلة الإبحار إلى الهند لمقابلة البرتغاليين هناك ، ولكن هذا الطلب أزعج السلطان اليمني ولم يستجب له [2]. وكان الأمير حسين الكردي قد واصل تقدمه فوصل إلى جزيرة كمران في السابع من ذي القعدة سنة ٩٢١ هـ [3] / ديسمبر ١٥١٥ م ، وعندئذ أرسل رسله بالهدايا إلى والي زبيد الأمير عبد الوهاب ابن السلطان الظافر عامر الثاني ، فكتب عبد الوهاب إلى والده يخبره بوصول الأسطول المصري إلى كمران ، ومطالبة قائده بالمؤن والأموال لمعاونتهم على الجهاد [4]. ويقال ان السلطان

---

(١) الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠١ ، النهروالي : البرق اليماني ص ٢٠ هـ
Kammerer : Ibid, T. II, p. 231.

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٩٧ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ .

(٤) بامخرمة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٢ .

كان ميالا لتقديم المساعدات المطلوبة اتقاء لشرهم ، ولكن وزيره أقنعه بعدم الاستجابة (١) حتى لايكون فى ذلك التزام بتقديمها سنويا (٢) . ولهذا أعرض السلطان عن رسل الأمير حسين الكردى ، وامتنع عن تزويده بالمعلومات التى كان قد اشتراطها على نفسه ، وكتب إلي ابنه فى زبيد يحذره من التعاون معهم ، وأمره بعدم إرسال المؤن المعتادة إلى كمران والحجاز حتى لا يستولوا عليها(٣) .

كان لتخاذل السلطان الظافر عامر وعدم وفائه بما التزم به ، وتحوله إلى هذا الموقف العدائى من الحملة ، أثره فى تخويف الأمير حسين الكردى ، الذى كان حريصا على عدم انتهاك حرمة الأراضى اليمنية ، وتأمين سلامتها وحمايتها من الخطر البرتغالى ، مما يفرض على اليمن تقديم المساعدات المطلوبة ، كما كان التعاون اليمنى أمرا ضروريا ولازما لإنجاح مهمة الأسطول المملوكى ، وذلك بالسماح له باستخدام بعض الموانى اليمنية ، مما يساعد على حماية السواحل وتأمين البحر الأحمر ، فى وقت عجز فيه السلطان الظافر الطاهرى عن مقاومة البرتغاليين لانشغاله فى القضاء على الثورات الداخلية ، وهكذا اضطر الأمير حسين الكردى بحكم موقف السلطان اليمنى منه إلى قبول التعاون مع بعض القبائل

---

(١) باغخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٨ ،

Kammerer : Ibid, T. II, p. 233.

(٢) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، باغخرمة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٤ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

اليمنية التي عرضت عليه استخدام القواعد البحرية اللازمة للأسطول في الأراضي اليمنية ، ولهذا تحولت جهوده للاستيلاء على تهامة والدخول في صراع مع بني طاهر ، مما أدى سقوط دولتهم في نهاية الأمر [(١)] .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترك الأمير حسين الكردي مجموعة كبيرة من جنده في تهامة تعاونها القبائل اليمنية للاستيلاء على اليمن ، وتوجه هو في أواخر جمادى الآخرة سنه ٩٢٢ هـ / يوليو ١٥١٦م ومعه الريس سليمان العثماني إلى زيلع [(٢)] لاصلاح السفن والتزود بالمؤن والمياه وغيرها [(٣)] . ثم رحلا من هناك إلى عدن فوصلاها في رجب ٩٠٢ هـ [(٤)] / أغسطس ١٥١٦م ، فلما رأى أهل عدن السفن المملوكية ـ وكان قد بلغهم غزو الجراكسة لتهامة ـ صرفوا ما كان في الميناء من مراكب خوفا من أن يستولي المماليك عليها [(٥)] ، وقد شغل الريس سلمان العثماني بمطاردتها [(٦)] . أما الأمير حسين الكردي فقد

---

(١) عن الصراع بين الجراكسة وبني طاهر ، انظر ، ما يلي ص ٥٢٦ وما بعدها .

(٢) الشبلي : السنا الباهر ص ٢٠٣ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٠ ، يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٧ .

(٤) النهروالي : البرق اليماني ص ٢٣ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٧ .

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٠ ،

Kammerer : op. cit., T. II, P. 235.

(٦) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ أ ، النهروالي : البرق اليماني ص ٢٣ ، يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٨ .

الأسطول بمقاومة عنيفة ، واضطر إلى قصف المدينة بالمدفعية ، وتمكن من انزال بعض قواته إلى البر ، حيث دارت معركة حامية بينها و بين عسكر المدينة ، قتل فيها جمع من الفريقين وانتهت بانسحاب حسين الكردى من ميناء عدن (١) . ولكنه لم يكد يبتعد عنها كثيرا حتى لحقه زميله سلمان ، الذى لامه على ترك حصار المدينة ، وأعاده معه إليها فى شعبان ٩٢٢ هـ / سبتمبر ١٥١٦م لمحاصرتها مرة أخرى . واتفق عند عودة الأسطول ، أن كان القائمون بالحراسة على حصن صيرة — المقابل لعدن والمشرف على مينائها — قد تركوا مواقعهم ونزلوا إلى المدينة ، ظنا منهم بزوال الخطر ، مما سهل على القوات المملوكية سرعة الاستيلاء على هذا الحصن ، واستخدامه فى ضرب المدينة بالمدفعية . ثم تحول سلمان إلى تصويب مدفعيته إلى سور المدينة ، وتمكن من هدم جانب كبير منه . وحاولت القوات الجركسية اقتحام تلك الثغرة ، ولكن حامية المدينة تمكنت — بعضيد الأهالى — من الصمود (٢) ، ثم قويت عزيمتهم بوصول الإمدادات من السلطان الظافر عامر الثانى ، مما اضطر القوات الجركسية على الانسحاب إلى سفنها ومغادرة عدن (٣) فى رجب سنة ٩٢٢ هـ (٤) / أغسطس ١٥١٦م .

---

(١) ابن الديبع : نفس المصدر ص ٥٥ ب ، بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٣٠١ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع والصفحة ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٦ ، عدلى فريد : السلطان قانصوه الغورى ص ١٣٥ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٣٠١ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ أ .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ، نفس الصفحة ، عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ ١ ص ٦١ ب . النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٤ .

ومن الجدير بالذكر أن الريس سلمان العثماني توجه بسفنه إلى قرية رباك (١) للتزود بالمياه، وكان اليمنيون قد رتبوا حامية فيها لمنع الأسطول المصري من الحصول على الماء، فوقع سلمان ومن توجه إليها معه في كمين(٢) أعد لهم، واستطاعت حامية القرية محاصرتهم، ولكن ما كادت قواته تطلق بنادقها حتى يسقط بعض رجال الحامية اليمنية حتى فر الباقون، وتمكن سلمان من العودة بمن معه إلى سفنه (٣).

وبدلا من أن يواصل الأسطول المصري رحلته إلى الهند لانجاز المهمة الرئيسية التي أسندت إليه، عاد إلى البحر الأحمر. وكان قد حدث خلاف بين الأمير سلمان والأمير حسين الكردي فتوجه الأول إلى زيلع للتزود بالمؤن، ومنها توجه إلي جدة. في حين عاد الأمير حسين إلى جدة مارا بالموانى اليمنية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر (٤).

وعلى هذا النحو لم يتمكن الأسطول المصري من مواصلة التقدم من عدن إلى الهند لتنفيذ المهمة الأساسية التي جهز لها، وهي محاربة البرتغاليين في المياه الهندية. وعلى الرغم من أن المصادر لم توضح أسباب عودة الأسطول المفاجئة إلي جدة، إلا أنه يمكن القول بأن هناك عدة أسباب هامة لهذا التصرف منها:

---

(١) رباك، قرية بالقرب من عدن، تقصدها السفن المتجهة إلى البحر الأحمر للتزود بالماء، (بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٢٠ - ٢١).

(٢) ابن الديبع: الفضل المزيد، نفس الصفحة.

(٣) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٢١.

(٤) بامخرمة: قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٢.

أولا — امتناع السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى عن الوفاء بعهده للغورى بتقديم المساعدات إلى الأسطول المملوكى، أو السماح باتخاذ قواعد له فى اليمن، وقيامه باحتجاز السفن الواردة بالمؤن، ومنعها من الوصول إلى الأسطول الذى كانت وحداته راسية فى جزيرة كمران.

ثانيا — كان تأمين البحر الأحمر من الخطر البرتغالى من بين المهام الرئيسية للأسطول، لضمان حماية المقدسات الإسلامية، وتأمين مصر واليمن، ومنع اتصال البرتغاليين بالحبشة. وهى أمور كان البرتغاليون يسعون إلى تحقيقها لضمان سيطرتهم على التجارة الشرقية. وكان على قادة الأسطول المملوكى إيجاد قواعد لهذا الأسطول فى موانى البحر الأحمر، تلجأ إليها السفن للاصلاح أو المرابطة والتموين. إلا أن موقف السلطان الطاهرى المعادى، ألزم قادة الأسطول للعمل على تحقيق ذلك عن طريق القوة وقد استلزم ذلك توجيه جزء من القوات المعدة أساسا لمحاربة البرتغاليين للقيام بالمرابطة فى بعض الموانى اليمنية، ثم تطورت الأمور إلى غزو لليمن لضرب الطاهريين الذين تسببوا بموقفهم فى عرقلة وتعطيل الأسطول المملوكى عن مواصلة القيام بمهمته الأساسية فى محاربة البرتغاليين بالمياه الهندية.

ثالثا — كانت عدن بموقعها الاستراتيجى الهام نقطة ارتكاز أساسية لتأمين الأسطول المملوكى فى المحيط الهندى، ولم يكن فى إمكان قادة الأسطول التوجه إلى الهند دون ضمان الاعتماد عليها وتحقيق الرسو فى مينائها، حتى لا يخلفهم البرتغاليون عليها، ومن ثم يقطعون خط الرجعة عليهم ويصبح الأسطول المملوكى فريسة سهلة لهم، ولهذا كان على حسين الكردى أن يؤمن عودته من هذه المغامرة، خاصة وأن الأمير مرجان حاكم عدن كان يسعى إلى

مهادنة البرتغاليين عند قيامهم بالهجوم على عـدن فى سنة ١٥١٣ ، ولم يلجأ الى مقاومتهم إلا تحت ضغط الأهالي . ولهذا لم يكن مستبعدا أن يتحالف هـذا الأمير مع البرتغاليين ، بحجة تخليص اليمن من أطماع الجراكسة. وهذا ما أكدته الأحداث بعد ذلك فى سنة ١٥١٧ .

ولهذه الأسباب لم يتمكن قادة الأسطول المملوكى من المجازفة بالتوجه لمحاربة البرتغاليين الذين كانوا قد دعموا مراكزهم فى الهند ومدخل الخليج وهرمز وسوقطرة ، وأحكموا الحصار على الساحل الجنوبى لبلاد العرب ، وامتدت سيطرتهم ، على الساحل الشرقى لافريقية ، وأقاموا القلاع والتحصينات فى المناطق التى يسيطرون عليها ، وأصبح لديهم من القوة الحربية والبحرية ما يجعل الأمير حسين عاجزا عن مواجهتهم ، خاصة إذا لم يكن مسيطرا على عدن والموانى اليمنية فى البحر الأحمر ، حتى يضمن سلامة وصول الإمدادات وتأمين عودته . وإلا فإن هزيمته ستصبح أمرا محققا . وإذا أخذنا فى الاعتبار الخلاف الناشب بين الأمير حسين الكردى وزميله سلمان العثمانى ، لرأينا أن عودة الأسطول المصرى إلى البحر الأحمر كان تصرفا صائبا ، وذلك إلى أن يتم الاستعداد لجولة أخرى متكافئة . ولكن ما لبثت الأوضاع أن تغيرت فجأة ، واستولى العثمانيون على مصر ، وخلفوا المماليك فى تحمل عبء الكفاح ضد البرتغاليين .

٢ ـ تعاون حاكم عدن مع البرتغاليين للسيطرة على البحر الاحمر :ـ

على الرغم من فشل دالبوكيرك فى الاستيلاء على عدن سنة ١٥١٣ ، إلا أن فكرة السيطرة عليها ظلت تراود البرتغاليين الذين كانوا يعتبرونها ضرورة ملحة للسيطرة على البحر الأحمر ، وقطع أى اتصال بين مصر والهند ، وتثبيت

الوجود البرتغالى بتوجيه ضربة مباشرة لمصالح مصر الاقتصادية، ولاشك فى توصل البرتغاليين إلى معرفة بعض الأخبار المتعلقة بالصراع الناشب بين قوات الأسطول المملوكي وبنى طاهر، واستيلاء حسين الكردى على بعض الموانى اليمنية فى البحر الأحمر، وتوغل قواته لاستكمال غـزو اليمن، فاستغل البرتغاليون ذلك الصراع للقيام بحملة أخرى فى البحر الأحمر وتحقيق الاتصال بالحبشة، والتعاون معها ضد مصر والحجاز والعبث بالمقدسات الإسلامية [١].

ففى ٨ فبراير ١٥١٧ غادر أسطول برتغالى قوامه أربعون سفينة [٢] ميناء جوا بقيادة لوبو سواريز، وتمكن من الوصول إلى سوقطرة بعد ثلاثة أسابيع، ولم يلبث أن أبحر منها إلى عدن فوصلها فى الخامس من مارس [٣]. وبدأ على الفور فى مراسلة الأمير مرجان حاكم عدن موضحا له أن هدفه لا يعدو مجرد تقديم العون له ضد المماليك الذين انتهكوا حرمة بلاده، والعمل على طردهم منها [٤]، ومبالغة من لوبو سواريز فى التظاهر بحسن نواياه لم يقم بأى عمل عدائى ضد السفن الراسية فى الميناء، ويبدو أن حاكم عدن انخدع بهذا الأسلوب الودى الناعم، أو وجدها فرصة سانحة للقضاء على الأسطول المملوكي والقوات

---

(١) Kammerer: op. cit., T. II, p. 265, Wilson: The Persian Gul', p. 120.

(٢) Kammerer : Ibid., p. 265. (ويذكر بامخرمه أن عدة أسطوله ثلاثون سفينة) قلادة النحر ج ٢ ص ١٢٠٥.

(٣) Kammerer : Ibid., p. 266.

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٨، زبارة : أئمة اليمن ج ١ ص ٣٩١.

الجركسية ، وتخليص بلادة من سيطرتهم ، فاجتمع فى موضع من ميناء عدن بجماعة من البرتغاليين للاتفاق معهم ، ورحب بهم ، « وقدم لهم الضيافة العظيمة إلى مراكبهم ، وطلبوا ربابين تسير بهم إلى جدة ، فدفع إليهم الأمير جماعة من أهل الشام بالكره من الربابين لذلك ، بعـد أن أخيفوا وتجوروا ، فلم يعذرهم الأمير في ذلك كفاية لشر الفرنج» (١) . ولم يتردد الأمير مرجان فى تلبية جميع طلبات البرتغاليين ، حتى أنه عرض عليهم مفاتيح المدينة . وقـد أرجع لوبو سواريز موقف حاكم عدن إلى قوة الأسطول البرتغالي وتفوقه على الأسطول المملوكي فى القوة ، ممـا حدا بالأمير مرجان — خوفا على تخريب عـدن — إلى الانصياع البرتغـاليين والوقوف موقف المحالف لهم ، وأيا كان الأمر ، فقد آثر القائد البرتغالى التظاهر بالموافقة على عقدهذا الحلف ، حتى يتمكن من مواصلة رحلته إلى البحر الأحمر تنفيذاً لخططه ، وأرجأ التصرف فى أمر عدن إلى حين عودتة من تلك المهمة (٢) .

وهكذا لم يقـدر مرجان الظافرى خطورة ما أقـدم عليه ، من الترحيب بالبرتغاليين والتعاون معهم ، وإمدادهم بأربعة من أكفأ مرشديه (٣) لمساعدتهم فى الوصول إلى جـدة ، وهو أمر لو قدر للبرتغاليين تحقيقه ، لما ترددوا فى تدمير المقدسات الإسلامية ، ولكن الله خـذلهم وحمى مقدساته . فقد غادر لوبو سواريز عدن بمن أجبر على العمل معه من المرشدين ، وعبر باب المندب

---

(١) بامخرمة . نفس المصدر والصفحة .

(٢) Kammerer : La Mer Ronge, T. Ii pp. 266 f.

(٣) Kammerer : Ibid, p. 267.

بأسطوله فى السابع عشر من مارس ١٥١٧، وبفضل مساعدة الربابنة المسلمين، نجح لوبو سواريز فى الوصول إلى مشارف جـدة مع حلول فصل الربيع ، حيث تهب الرياح الشمالية ، ولكنه لم يستطع الوصول إلى جـــدة بسبب شدة الرياح [١] التى عصفت بسفنه ، وفشل البرتغاليون للمرة الثـانية فى الاستيلاء عليها [٢] .

ومن الجدير بالذكر أن تلك الحملة البرتغالية البحرية أقلعت وفقا لتخطيط دقيق يتفق مع ظروف مواتية للبرتغاليين ، فقد كان العثمانيون قد استولوا على مصر وقضوا عـلى دولة الجراكسة . وكان سلمان العثمانى قـد انفرد بقيادة الأسطول المرابط فى جدة ، بعد أن نفذ أوامر السلطان سليم ، بالقبض على حسين الكردى وإغراقه فى مياه البحر الأحمر أمام جدة[٣] .

وأياما كان الأمر فقد أربكت الرياح حركة الأسطول البرتغالي، وأسهمت مع مدفعية سلمان فى إحداث بعض الأضرار بالسفن البرتغالية [٤] ، مما شجع سلمان على مطاردتهم، وتمكنت مدفعيته من إصابة سفينتين أو ثلاثة من سفنهم ، ويصف بامخرمة : الموقف والمعركة بقوله « ثم أن المدافعى طرح فى الباروت شيئا حتى تفـير المدفع ، وأحرقت النار بعض الغراب الذى فيه سلمـان . ويقـــال أن المدافعى كان نصرانيا ، يخدم مع الأمير سلمان فاحتز على أهل

---

(١) Kammerer : Ibid; pp. 267 - 269.

(٢) Macro : Yemen and the Western World, p. 1:

(٣) النهروالى : الاعـلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٢٨ ، البرق اليمانى ص ٢٦ — ٢٧ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب — ٥٩ أ .

(٤) Kammerer : Ibid; p: 269.

دينه » (١) وقد أدى هـذا العمل الذى قام به المـدافعى إلى إصابة المركب، واشتعال النيران فى جانب منها ، ولكن سلمان تمكن من العودة بها سالما إلى جدة، وانتقم من هذا الرجل وقتله فى حين أخذت بعض سفن سلمن فى مطاردة سفن البرتغاليين ، حتى تمكنت من أسر إحداها بالقرب من ميناء اللحية اليمنى وعادت بها وبمن عليها إلى جدة (٢) .

أما القائد البرتغالى لوبو سواريز، فقد نجح فى الوصول بمجموعة من سفنه إلى كمران، فى حين ضلت مجموعة أخرى طريقها، ولعبت الرياح بها، وحولتها إلى الشاطئ الافريقى عند جزيرة ظنوها سواكن ، فنزل بها بعض البحارة بحثا عن الماء ، ولكنهم لم يجدوا إلا مياه ملحة ، فأقلعوا منها إلى دهلك ، ووصلوها فى حالة من الإعياء والسوء بسبب نفاذ المياه وهلاك عـدد كبير منهم عطشا ، ولاضطرارهم إلى شرب الماء الملح ، فكان لما لقوه من أهوال أثره فى وقوع حركة تمرد فى صفوفهم (٣) ، وأسرعت سفنهم إلى مصوع ، فوقعت قواتهم فى كمائن نصبت لهم فيها ، وراح ضحيتها عدد منهم (٤) .

أما السفن البرتغـالية التى رست فى كمران ، فقد هاجم بحريوها الحصن

---

(١) باخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٥ .

(٢) باخرمـة : نفس المصدر والصفحة ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٨ ،

Serjeant : The portuguese, p. 170.

(٣) Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p, 269.

(٤) Kammerer : Ibid, T. II, p. 272.

ودمروا التحصينات التي كان الأمير حسين الكردى قد أنشأها فيها، وأشعلوا النيران فى نخيل الجزيرة ، ثم غادروها فى ١٢ يونيو ١٥١٧ [١] . وكان القائد البرتغالى لوبو سواريز حريصا على تحقيق نصر رخيص ، فأبحر إلى زيلع ووصلها فى يوليو ١٥١٧ وقتل عددا كبيرا من أهلها ، ومضى إلى عدن فى طريقه إلى المياه الهندية [٢] ، بعد أن فشلت حملته فشلا ذريعا ، ومنيت قواته بخسائر جسيمة ، بفعل الرياح ونقص المياه ، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من أفراد قواته [٣] ، وفشل محاولاته فى الاتصال بالحبشة . ومن الجدير بالذكر أن لوبو سواريز ، عندما وقف بأسطوله أمام عدن ، أقام خمسة أيام مترددا فى مهاجمتها ، لعظم ما تكبده من خسائر وكثرة من فقده من قواته ، وتفشى المرض فيمن بقى منهم ، وندم على ترك عدن عندما عرض عليه حاكمها مفاتيح المدينة .

وهكذا اضطر لوبو سواريز إلى التخلى عن فكرة الهجوم على عدن ، وقفل عائدا إلى قواعده مرورا بالساحل الصومالى للوصول الى بربرة ، ثم توجه منها إلى هرمز ومنها إلى الهند [٤] . ويذكر المؤرخون اليمنيون أنه أنه لما عاد إلى عدن لم يلبث إلا أياما زوده حاكم عدن خلالها بما يحتاجه [٦] .

---

(١) Kammerer. Ibid, T. II, p. 273.

(٢) Kammerer. Ibid, T. II, pp. 273 f.

(٣) Macro: Yemen and the Western World, p. 1.

(٤) Kammerer: Ibid, p. 275, Macro : Ibid, p.1

(٥) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٥ — ١٢٠٦ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٨ .

ويبدو أن عمانويل ملك البرتغال قد استبد به الغضب على لوبو سواريز ، وعزا إليه الفشل الذى أصاب الحملة والخسائر الفادحة التى منيت بها ، فلم يلبث أن عزله وأرسل بدله دييجو لوبز دى اسكويرا سنة ١٥١٨ ونصبه حاكما على الهند ، واضطر سواريز إلى مغادرة الهند فى ٢٠ ديسمبر ١٥١٨ عائدا إلى بلاده (١) .

ويتبين لنا مما سبق عرضه، أنه فى الوقت الذى وقفت فيه السلطات الطاهرية موقفا معاديا من الأسطول المملوكى ،وعرقلت جهوده فى حماية السواحل المطلة على البحر الأحمر أو التأهب لصد الخطر البرتغالى ، كانت تلك السلطات تبذل العون للبرتغاليين ، وتدفعهم إلى تدمير القوات المملوكية المرابطة فى جدة . ولم تقتصر معونات حاكم عدن للبرتغاليين على مجرد تقديم الضيافات أو إمدادهم بالمؤن والمياه ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تقديم مفاتيح المدينة إليهم ، ولحسن طالع الاسلام أنهم لم يقبلوها، أملا فى تحقيق انتصارات أعظم، يضاف إلى ذلك أن الحاكم الطاهرى لعدن أجاب المطالب البرتغالية وأمدهم بعدد من المرشدين، أجبرهم — تحت التهديد — على قيادة الأسطول البرتغالى إلى جدة ،وكان ذلك كفيلا — لو تم تحقيقه — لإحداث كارثة محققة للأمة الاسلامية جمعاء ، وهى تدمير المقدسات الإسلامية ، والقضاء على قوة مصر البحرية ، وتحقيق تحالف مع الحبشة، من الممكن أن تنعكس أولى نتائجه على اليمن نفسها ، وهى أمور لابد أن يكون الأمير مرجان حاكم عدن مدركا مدى خطورتها . وعلى الرغم من اندحار الحملة البرتغالية فإن الأمير مرجان لم يعدل عن سياسته ،

---

(١) Kammerer. Ibid, T. II, p. 276.

واستمر فى كرمه لهم ، وقدم إليهم المؤن والمياه بعد عودتهم وهم فى حالة انهيار تام .

ومن الجدير بالذكر أن حاكم عدن أحس بخطورة ما قام به ، ذلك أنه ما أن علم بسقوط دولة المماليك الجراكسة وانتقال السيادة على مصر إلى العثمانيين الذين امتد نفوذهم إلى الحجاز والبحر الأحمر ، والمناطق التى احتلها الجراكسة من اليمن ، حتى خشي عاقبة مساعدته للبرتغاليين ، واحتمال انتقام السلطات العثمانية منه ، فبادر بالكتابة إلي السلطان سليم على لسان السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى ، مع أن هذا السلطان كان قد لقى مصرعه قبل ذلك فى إحدى المعارك التى خاضها ضد الجراكسة حول صنعاء ، وضمن كتابه الشكوى من الأمير حسين الكردى وزميله سلمان ، وما قاما به من سفك للدماء ونهب للأموال ، كذلك ضمن كتابه « الاعتذار من فعله مع الفرنج من المسالمة ، ودفع الربابين إليهم » (١) . وأخذ على هذا الخطاب توقيعات جماعة من أعيان عدن وفقهائها وتجارها ، وأرسله مع رسولين إلى الحجاز وزودهما بهدايا لأمير مكة الشريف بركات وللسلطان سليم . فقام شريف مكة بتوجيههما الى مصر ومنها إلى البلاط العثمانى فى القسطنطينية ، حيث قاما بتسليم الكتاب والهدايا . ومات أحد رسوليه هناك ، وعاد الثانى بهدية من السلطان سليم ، ولكن هذا الرسول لم يكد يصل بالقرب من سواكن فى طريقه الى اليمن ، حتى خرج عليه جماعة من جزيرة دهلك ، واستولوا على ما كان معه (٢) .

---

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٦ .

(٢) بامخرمة : نفس المصدر والجزء والصفحة .

٣ ـ غزو الجراكسة لليمن :

رأينا أن غزو الجراكسة لبلاد اليمن جاء كرد فعل لموقف سلطانها الظاهرى الذى كان قد ألح فى طلب حملة مملوكية للقضاء على الخطر البرتغالى المحدق ببلاده ، بعد أن تعهد بتقديم كافة المساعدات من مؤن وأموال وقواعد للأسطول . وإذا كان السلطان الظاهرى قد وفى بالتزاماته حيال الحملة البحرية الأولى ، إلا أن الأمر اختلف بالنسبة للحملة الثانية . إذ لم يكد الأسطول المملوكي يصل إلى السواحل اليمنية حتى امتنع هذا السلطان عن الوفاء بما التزم به ، واتخذ موقفا عدائيا سافرا من تلك الحملة التى كانت موجهة لتحقيق عدة أهداف هامة من بينها أمرين هامين ، أحدهما ، تدمير القوة البرتغالية فى المياه الهندية ، والثانى ، تدعيم الدفاع عن السواحل اليمنية الجنوبية والجنوبية الغربية . ولم تكتف السلطات الطاهرية بمجرد الامتناع عن تقديم ما التزمت به ، بل تجاوزت ذلك إلى الكف عن ارسال المؤن المعتادة إلى جزيرة كمران والحجاز ، حتى لاتقع فى أيدى القوات المملوكية (١) . ومما زاد من غضب الأمير حسين الكردى ، إقدام صاحب الحديدة ـ تنفيذا لأوامر سلطانه ـ على حجز ثلاثة من السفن كانت قد وصلت من زيلع مشحونة بالمؤن لإمداد الأسطول المملوكى ، ومنعها من مواصلة التقدم إلى كمران (٢) ، واستولى على

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٧ ـ ١١٩٨ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٦٢ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٣ .

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٤
Kammerer : La Mer Rouge, T. II, P. 234 .

حمولتها ، رغم مراسلة الأمير حسين الكردى له ، وتهديده بتخريب مدينته إذا أصر على منعها من الوصول (١) . واستمرت محاولات الأمير حسين السلمية فأرسل فى ذى الحجة ٩٢١ هـ / يناير ١٥١٦ م بعض أتباعه فى ثلاثة أغربة لمحاولة التوصل إلى حل والحصول على المؤن ، ولكن لم يكد هؤلاء يصلون إلى الحديدة حتى خافهم أهلها ، وأرسلوا إلى والى زبيد يبلغونه بالأمر ، فأمدهم بتجريدة . ولكن أهل الحديدة أرهقهم تحمل نفقات أفراد التجريدة فتركوا المدينة لهم بحجة الخوف من المماليك ، وكان رجال الأمير حسين الكردى فى أغربتهم الراسية عند الميناء ، فلما علموا بإخلاء المدينة نزلوا إليها واستولوا على أبواب دورها وماوجدوه هناك من أخشاب وعادوا بها إلى كمران (٢) .

ولقد كان فى امكان السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى تدارك الموقف والقضاء على أسباب الخلاف قبل أن تتعقد الأمور ويستفحل النزاع ، ولكنه كان محاطا بمستشارين إما خونة لم يخلصوا النصيحة له ، أو جهلة لم يكونوا على دراية كافية بخطورة مايدور حولهم ، ذلك أن السلطان كان قد اتخذ مدينة المقرانة - بمخلاف رداع فى منطقة الجبال - مقرا له ، بعيدا عن مسرح الأحداث ولهذا لم يقدر هؤلاء خطورة الموقف ، فكان وزيره سببا فى اقناعه بعدم الوفاء بما التزم به . فلما تطورت الأمور وأغارت بعض قوات الأمير

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ أ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٥ ب ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، بامخرمة : نفس المصدر ص ١١٩٨ ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٤ - ٦٤٥ ، زبارة : نفس المرجع ص ٣٨٣ .

حسين الكردى على مدينة الحديدة ، أحس السلطان بالخطر ، وبدلا من أن يعمل على اصلاح الأمور ، عهد إلى أحد كبار خواصه ــ وهو الفقيه عبدالحق ابن محمد النظارى ــ بحشد الرجال ، والاستعداد لمحاربة القوات الجركسية وهو أمر لم يتحرك السلطان للقيام به ضد البرتغاليين ، فغادر الفقيه عبد الحق زبيد فى آخر ذى الحجة سنة ٩٢١ هـ / فبراير ١٥١٦ م متوجها إلى منطقة جبال اليمن ، وعاد فى منتصف صفر ٩٢٢ هـ / مارس ١٥١٦ م إلى زبيد بجمع كبير ، معظمهم من الضعفاء وعديمى الخبرة وكبار السن . وبينما قدم بعض القادرين من هؤلاء قدرا من المال نظير إعفائهم من الاشتراك فى الحرب ، بقى الضعفاء الذين لا خبرة لديهم بالحرب ولا قدرة لهم على القتال (١) .

ولم يكن غريبا فى الوقت الذى وقف فيه السلطان الطاهرى موقفه العدائى من الجراكسة دون سبب ظاهر ، أن يحظى الأمير حسين الكردى بتأييد كبير من القبائل والعناصر اليمنية الساخطة على بنى طاهر ، إذ توافدت جموعهم للانضمام إلى قواته ومساعدته فى الانتقام من بنى طاهر والقضاء عليهم ، فقد بدأ صاحب جازان بالترحيب بالأمير حسين الكردى ، وأمده بابنه الشريف عز الدين بن أحمد بن دريب ، الذى توجه معه فى جموع أتباعه إلى كمران (٢) وفى نفس الوقت قام الإمام الزيدى يحيى شرف الدين بمراسلته عندما علم بوصوله إلى كمران ، وطلب معاونته فى محاربة السلطان الظافر عامر الثانى ، وأحسن

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ٥٥ ب الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، بامخرمة قلادة النحر جـ ٢ ص ١١٩٨ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٤ .

(٢) الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٢ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢١ ، Kammerer , La Mer Rouge, T. II p 231.

الأمير حسين استقبال رسول الإمام وبالغ في اكرامه ، ولكنه لم يتسرع في الرد وانتظر حتى عادت رسله كاشفة عن موقف السلطان الظافر العدائي ، وعندئذ رد على الإمام « بجواب يشفى الأوام ، وأجاز رسوله وأحسن قفوله »[١].

كذلك كان الفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعي صاحب اللحية — الواقعة إلى الشمال من كمران في نهاية وادى مور — ميالا للجراكسه[٢] ، فتوجه إلى كمران وأمدهم بالمؤن والأموال[٣] وعرض عليهم أن يتخذوا ميناء اللحية قاعدة لأسطولهم ، ولم يتردد الأمير حسين في تلبية طلبه لمعاونته في محاربة الطاهريين ، وأمده بغراب ومائة مملوك مسلحين بالبنادق[٤] ، وخلع عليه وأكرمه وطلب منه الخطبة ببلده للسلطان الغورى فوافق[٥] ، وعلى اثر ذلك عاد الفقيه ابن المقبول بمن معه إلى مدينته ، وخرج منها شرقا عبر وادى مور لغزو البلاد الواقعة فيه ، فتصدت له القوات الطاهرية في المنطقة بقيادة الأمير محمد بن جياش السنبلي . ومن الجدير بالذكر أن الأسلحة النارية لم تكن

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٢ — ٦٤٣ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ، زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ص ٣٨٣ .

(٢) الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٣٠٢ ،

Kammerer : op. cit , p. 234 .

(٣) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢١ ، الكبسى : اللطائف ص ٢٣٥ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٤ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٤ .

(٥) ابن الديبع : قرة العيون ص ٥٥ ب ، الفضل المزيد ص ٥٤ أ ، بامخرمة قلادة النحر ، حـ ٣ ص ١١٩٨ .

معروفة في اليمن (١) ، أو أنها كانت معروفة بالسماع والوصف ، وكانت لها هيبة ورهبة تذهل القلوب (٢) . لذلك فما أن استخدم المماليك بنادقهم في المعركة ، وسقط الأمير محمد بن جياش السنبلي قتيلا في عدد من أتباعه ، حتى انهزمت قواته ، ولم تتمكن من الصمود وولت الأدبار واستولي الزيلعي والقوات المملوكية على منطقة مور (٣) .

وتتابعت العناصر الساخطة على بني طاهر معلنة انضمامها إلى الجراكسة ، ومن بين تلك العناصر قبائل بني حفيص (٤) عرب مدينة الزيدية الواقعة إلى الشرق من جزيرة كمران ، فقد وفد جماعة من رؤسائهم على الأمير حسين الكردي ،

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون نفس الصفحة ، الفضل المزيد ص ٥٤ ب زبارة : أئمة اليمن حـ ١ ، ص ٣٨٤ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٣٠ . (ويذكر ابن الديبع ، أن البنادق « شيء عجيب ، لايكاد أحد يقاتل صاحبها إلا غلب . وهو شيء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه وأدق ، مجوف يجعل في جوفه قطعة رصاص كحبة البندق وتحشي من البارود ، ويدفع بنار في فتيلة من أسفل البندق . فلا تصيب أحدا إلا هلك . وربما أصابت البندقة شخصا ونفذت منه في آخر فقتلتها » . الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، قرة العيون ص ١٥٦ ب .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ ، الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ، حـ ٢ ص ١١٩٨ ، يحيي بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٤) عن بني حفيص وحملات بني طاهر المتواصلة ضدهم ، انظر ، ماسبق ص ٢٩٧ وما بعدها .

مستقوعين بما ذاقوه من عسف سلاطين بني طاهر ووجد أن الفرصة قد سنحت للانتقام منهم ، فبايعوا الأمير حسين الكردي على الطاعة والمناصرة ضد بني طاهر ، وطلبوا بدورهم إمدادهم بجموعة من الجند تكفلوا بجوامكهم ومؤنهم مع الالتزام بتسليم خراج بلادهم للأمير حسين الكردي ، فأمدهم بمائتي مملوك [١] . وتوجهوا بهم لمحاربة القوات الطاهرية المتمركزة عند قرية الضحي القريبة من مدينة الزيدية ، وتمكن بنو حفيص بمساعدة القوات المملوكية المسلحة بالبنادق ، من هزيمة جموع القوات الطاهرية ، وارغامها على الفرار مخلفة ورائها الكثير من القتلى ، ونهب بنو حفيص قرية الضحي ، وأضرموا فيها النيران [٢] .

وكان بنو حفيص بحكم تمركز معظمهم في مدينة الزيدية التهامية ، قد نسبوا للمدينة وعرفوا بالزيدية ، ومع أنهم سنيين ، إلا أن بعض المؤرخين اختلط عليهم الأمر واعتبروهم من أهل الجبال أتباع المذهب الزيدي [٣] ، وفسروا حملتهم المشتركة مع الجراكسة على أنها تمت بمساعدة أتباع الامام الزيدي يحي شرف الدين ، الذي على الرغم من مكاتبته للأمير حسين الكردي ، إلا أنه لم يثبت اشتراك أتباعه مع الجراكسة ضد بني طاهر .

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ٢٥٦ أ ، الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ، جـ ٣ ص ١١٩٨ يحي بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٥ ، الكبسي : اللطائف السنية ص ٢٢٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٠٤ .

(٣) النهروالي : البرق اليماني ص ٢٠ .

إزداد قلق السلطان الظافر عامر الثانى على اثر تخريب مدينة الحديدة وهزيمة قواته فى وادى مور وفى نواحى قرية الضحى ، لهذا أرسل قوة عسكرية بقيادة أخيه عبدالملك بن عبدالوهاب الى زبيد ، فلماوصلها فى الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ (١) / ابريل ١٥١٦ م ، ونظم أموره بها توجه بقواته شمالا فى السابع من ربيع الآخر ٩٢٢هـ / مايو ١٥١٦ م للتصدى للقوات الجركسية (٢) . فلما علم الأمير حسين الكردى بذلك ، أسرع من كمران لملاقاته فى ألف من جنده المزودين بالبنادق (٣) ، وانضم إليه الشريف عزالدين ابن أحمد بن دريب بن صاحب جازان (٤) ، والفقيه أبو بكر بن المقبول الزيلعى صاحب اللحية (٥) بقواتهما ؛ كما انضوت تحت لوائه جموع قبائل المنطقة وعلى رأسها قبائل المعازبة (٦) . ووقعت بين الجانبين معركة عنيفة ، قاتلت فيها القوات الطاهرية بقيادة عبدالملك بن عبدالوهاب قتالا عظيما ، استبسل فيها وأظهر من

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٨ - ١١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٥ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٤ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٩

(٥) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٥ .

(٦) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، بامخرمة جـ ٣ ص ١١٩٩

الشجاعة والإقدام ما جعله يؤخـــر الهزيمة المحتومة ، ولكنــه اضطر إلى الانسحاب إلى زبيد [١] ، فوصلها فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ / [٢] يونيو ١٥١٦ م ، بعد أن فقد فى المعركة جماعة من شجعان جنده [٣] ، كما قتل من الجراكسة عدد آخر ، احتز عبد الملك منهم أربعة عشر رأسا عاد بها إلى زبيد [٤] .

وحرص بعض رؤساء القبائل الملازمين للجراكسة على الإجهاز على بنى طاهر ، فأقنعوا الأمير حسين الكردى بمتابعة فلولهم المنسحبة إلى زبيد ، وانتزاعها منهم ، فتوجه الأمير حسين برا على رأس جيش كبير من الجـراكسة ، ومن انضم إليه من عرب تهامة كالمعازبة والقرشيين وبنى حفيص وأهل جازان وغيرهم ، تعضده بحرا بعض قطع الأسطول المشحونة بالجند والأثقال بقيادة الريس سلمان العثمانى . فلما وصلت تلك القوات إلى زبيد فى التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩٢٢ هـ [٥] / يونيو ١٥١٦ م اشتبكت مع القوات الطاهرية

(١) الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٦ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١١٩٩ .

(٣) بامخرمة : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٦ ب ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٥ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٤ .

(٥) ابن الديبع : الفضل المـــزيد ص ٥٤ ب ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٥ .

بقيادة عبد الملك بن عبد الوهاب وابن أخيه - والي زبيد - عبد الوهاب ابن الظافر عامر في معركة عنيفة وقعت خارج زبيد ، ورغم استبسالهما إلا أنهما لم يتمكنا من الصمود ، نتيجة لتخاذل القوات الطاهرية ، واشتداد وطأة الجراكسة وحلفائهم مما أدى إلى هزيمة الطاهريين هزيمة نكراء ، وأسرع عبد الوهاب بن الظافر عامر بالدخول إلى زبيد بعد إصابته برصاصة ، ولحقه عمه عبد الملك وأخرجه من المدينة ، وتوجها بمن تبقى من عسكرهما إلى مدينة تعز [1] ، حيث مات عبد الوهاب متأثرا بجراحه [2] في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٢٢ [3] / يوليو ١٥١٦ م .

أما الأمير حسين الكردي ، فقد استولى قهرا على زبيد وانتهزت القبائل الفرصة واعتبرتها دار حرب ، فانتهت المدينة نهبا شنيعا ، وسفكت فيها الدماء وانتهكت المحارم ، واستمر نهب المدينة ثلاثة أيام ، بالرغم من صدور أوامر الأمير حسين بالكف عن ذلك [4] . وليس من شك في أن أعمال العنف للقوى

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٤ ب ، قرة العيون ص١٥٧ أ - ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١١٩٩ - ١٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص٦٤٦ .

(٢) الكبسي : اللطائف السنية ص٢٣٦ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٣٨٥ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٧ ب ، الفضل المزيد ص ٥٥ أ .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص١٥٧ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٠ ، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٤٦ - ٦٤٧ زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص٣٨٥ .

مارسها المتمصرون ضد أهل زبيد إنما تعـــزى فى حقيقة الأمر إلى القبائل المشتركة مع الأمير حسين الكردى ، والتى كانت ترى فى الانتقام من زبيد وأهلها إنتقاما من بنى طاهر لحملاتهم المتواصلة ضدهم من قبل ، هذا بالاضافة إلى ميل القبائل الطبيعى إلى هذه الأساليب .

ولم يبق الأمير حسين الكردى فى زبيد طويلا ، وروى عن أسباب إسراعه فى مغادرتها ، أنه كان قد وعد جنده بأن يمنح كل منهم مائة أشرفى إذا ما تحقق له الاستيلاء على زبيد ، فلما سقطت المدينة فى يده أخذ يماطلهم فى منحته ، فثاروا عليه وهموا بقتله ، ولكنه استمهلهم حتى يستحضر لهم الأموال من سفنه ، وبهذه الحجة استناب عنه الأمير برسباى أحد رجاله من الجراكسة (١) على زبيد ، ودعمه بالشريف عز الدين بن دريب ، وبادر بالرحيل إلى ميناء القمة اليمنى حيث لقيه هناك الريس سلمان العثمانى (٢) وتوجها معا فى أسطولهما إلى زيلع ، ومن هناك أبحرا إلى عدن حيث قوبلا من حاميتها بمقاومة عنيفة ، واضطر إلى العودة إلى جدة بدلا من مواصلة التوجه شرقا إلى الهند لمحاربة البرتغاليين (٣) .

أما برسباى ، فقد أعلن الأمان لأهل زبيد (٤) ، وانتهج سياسة حكيمة

---

(١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ .

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, T. II, p 234.

(٣) انظر ما سبق ص ٥١٥ وما بعدها

(٤) ابن الديبع . قرة العيون ص ١٥٨ أ ، بامخرمة قلادة النحـــر جـ ٣ ص ١٢٠٠ ، يحى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٧ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٦ .

« فأنه لما استقر بزبيد قرر أحوال الناس ، وأظهر حسن السياسة والتدبير ، ومشي بالناس مشيا حسنا » (١) . ثم بدأ يستعد للزحف بقواته برا إلي عدن لمعاونة الأمير حسين الكردى أثناء حصاره لها ، غير أنه لم يكد يصل إلي مدينه حيس جنوبى زبيد ، حتى علم بإقلاع الأمير حسين من عدن ، ووصوله إلى ميناء المخا ، فتقدم برسباى إليه واجتمع به ، ثم زحف إلى مدينة موزع (٢) الواقعه إلى الشرق من ميناء المخا ، فقامت قواته بنهبها ، ثم قفل عائدا إلى زبيد ، فوصلها في رمضان سنة ٩٢٢ ﻫ (٣) / أكتوبر ١٥١٦ م .

وهكذا ازدادت الأمور تأزما بين الجراكسة وبنى طاهر ، وعلى الرغم من عجز السلطان الطاهرى عن مواجهة القوة الجركسية المدعمة بالأسلحة الحديثة ، ومن انضم إليها من العناصر اليمنية الساخطة علي الطاهريين ، مما يهدد بزوال الحكم الطاهرى ، إلا أن السلطان الظافر عامر الثانى لم يحاول تسوية الخلافات لإنهاء حالة الحرب ، والتفرغ لإقرار الأوضاع الداخلية في بلاده ، وإتاحة الفرصة للجراكسة لمواصلة القيام بمهمتهم الأساسية في محاربة البرتغاليين ، واستمر يتحداهم رغم شعوره بالعجز عن مواجهتهم ، وأصر على الانتقام منهم لغزوهم منطقة تهامة ، واستيلائهم على زبيد وتسببهم في قتل ابنه عبد الوهاب ، فخرج على رأس حملة من المقرانة في طريقه إلى زبيد لمحاربتهم .

---

(١) بامخرمة : نفس المصدر والجزء ص ١٢٠٢ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٤٨ ، الكبسى : الطائف السنية ص ٢٣٧ .

Kammerer : Ibid, p 235

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، بامخرمة : قلادة النحر ج ٣ ص ١٢٠٢ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٢ .

وتذكر المصادر اليمنية أن الجراكسة بادروا ـ عندما علموا بأمر الحملة ـ إلى مراسلته ، وعرضوا عليه الصلح (١) ، وتسليم ما بأيديهم من البلاد ، مقابل مبلغ حددوه ، مع تأمين خروجهم بما معهم ، ما عدا الخيل والسلاح . وكانت فرصة مواتية لم يحسن السلطان الظافر الثانى اغتنامها . وعلى الرغم من ميله إلى الموافقة إلا أن بعض كبار حاشيته أقنعوه مرة أخرى برفض هذا العرض ، بحجة أن هذا الصلح قناع زائف يخفى وراءه حقيقة المطامع الجركسية . فتراجع السلطان عن رأيه ، وأعرض عن الرسل وأعادهم بغير جواب ، (٢) دون أن يعمل شيئا للتأكد من مدى صدق هذا العرض وحسن نواياهم . وواصل السلطان تقدمه ، إلى أن اصدمت قواته بالجراكسة فى معركة طاحنة بالقرب من زبيد فى التاسع من شوال سنة ٩٢٢هـ / نوفمبر ١٥١٦م ، استمرت يومين. ومن الجدير بالذكر أن الجراكسة عادوا إلى زبيد فى نهاية اليوم الأول من المعركة للراحة والاستعداد للقتال فى اليوم التالى ، فى حين « أمسى أصحاب السلطان ما بين جريح ومن الجوع طريح » (٣) . ثم استؤنف القتال فى اليوم

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٢ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٧ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٦ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٨ ب ، الفضل المزيد ص ٥٥ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، يحيى بن الحسين . غاية الأمانى ص ٦٤٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٧ .

(٣) ذكر بامخرمة ، أنه كان صحبة السلطان الظافر كميات كبيرة من =

الثانى ، واشتدت هجمات الجراكسة ، وعلى الرغم من ثبات السلطان الظافر ، فقد تخاذل عنه معظم عسكره ، وانتهت المعركة بانتصار الأمير برسباى ، وفرار السلطان إلى تعز . ولولا انشغال القوات الجركسية فى نهب محطة الظاهريين ، لكان فى مقدورهم أسر السلطان أو قتله (١) .

عاد برسباى منتصرا إلى زبيد ، وأعلن الأمان لأهلها ولمن كان قد انضم إلى السلطان ضده ، وأقام فيها إلى أواخر المحرم ٩٢٣هـ/ فبراير ١٥١٧م لإقرار أحوال أهلها ، ثم سار بقواته ومن انضم إليه من اليمنيين لمحاربة السلطان الظافر عامر الثانى في تعز . وما أن وصلت طلائع قواته إلى مشارف تعز فى السادس عشر من صفر ٩٢٣ هـ / مارس ١٥١٧ م حتى تفرقت القوات الطاهرية ، وتوجهت كل مجموعة منها إلى مضارب قبائلها ، وأصبح فى المتعذر على السلطان الصمود أمام الجراكسة بمن تبقى معه من الجند ، ولذلك اضطر إلى الانسحاب إلى منطقة إب الواقعة إلى الشمال الشرقى من تعز ، فاستولى الجراكسة على تعز وقلعتها بغير قتال (٢) ، وأعلنت الخطبة فيها للسلطان

= الدقيق والزبيب، وقد أشار عليه بعض قادته بتوزيع شىء منهما على الجند ليتقووا بها ، ويتمكنوا من الاستمرار فى القتال فى اليوم التالى ولكنه بخل عليهم بها . (قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٢ – ١٢٠٣) .

(١) ابن الديبع :قرة العيون ص ١٥٩ أ ، الفضل المزيد ص ٥٦ أ، باشرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٤ ، يحيى ابن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٤٩ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٨ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ص ٥٦ أ قرة العيون ص ١٥٩ أ ، الشبلى اليمنى :السنا الباهر ص ٢٠٤ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٨ ، يحيى بن =

الغوري [١] .

ولم يضيع الأمير برسباي وقته ، فقد تجهز خلال أسبوع من وصوله إلى تعز ، وأناب فيها الأمير أقباي [٢] ، ثم تقـــدم بقواته إلى مدينة المقرانة ، عاصمة الطاهريين ، ولكن السلطان الطاهري كان قد أسرع إليها قبله لاستنقاذ مافيها من أموال وحريم بني طاهر ، ونجح في مغادرتها قبيل وصول برسباي إليها [٣] . وفي المقرانة ، وفد بعض مشايخ آل عمـار وبايعوا برسباي على الطاعة ، وعرضوا تسليم بلادهم – الواقعة في نواحي رداع – إليه ، فتـوجه برسباي معهم في قلة من أتبـاعه ، ولـكن آل عمار لم يكونوا صادقين في مبايعتهم ، ذلك أنهم كانوا قد أعدوا كمينا له في الطريق ووثبوا عليه وقتلوه هو [٤] ومن معه من أتباعه ، ولم ينج منهم إلا المخبر عنهم ، [٥] .

= الحسين: غاية الأماني ص ٦٥٠ ، الكبسي: اللطائف السنية ص ٢٣٨ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٦ ،

Kammerer : La Mer Rouge, T II, p. 235

(١) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ أ ، النهروالي : البرق اليماني ص ٢٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٥٠ .

(٣) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ أ ، بامخرمة قلادة النحـر جـ ٣ ص ١٠٢٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٥٠ .

(٤) Kammerer : Ibid. T. II, p. 235.

(٥) ابن الديبع قرة العيـون ص ١٥٩ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ .

تأثر الجراكسة لمقتل أميرهم برسباى ، وأجمعوا على اختيار اسكندر بن محمد ليخلفه فى الامارة عليهم . فلما تمت مبايعته ، أمر عسكره بتخريب مدينة المنرانة ، ونهب أموالها وذخائرها ، ثم غادرها فى طريقه إلى صنعاء للاستيلاء عليها ، ومن الجدير بالذكر أن بعض القبائل اعترضت طريقه إليها ، وأغارت على قواته ، ولم ينج منهم إلا بصعوبة (١) .

أما السلطان الظافر عامر ، فقد أخذ يحدوه الأمل فى النصر عندما بلغه نبأ مقتل برسباى وإغارة القبائل على قوات الأمير اسكندر واستهانتهم به، واعتقد أن بمقدوره إيقاع الهزيمة بالجراكسة والانتقام منهم . فخرج على رأس حملة كبيرة للتصدى لهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على صنعاء (٢) . ويقال أن أخاه عبد الملك بن عبد الوهاب حذره من التوجه إلى صنعاء ، وقال له : « أنت تعرف عداوة الزيدية،فتقع بين عدوين المصرى والزيدى » فلم يصغ إلا كلامه ونسبه إلى الجبن والذل (٣) ، ثم وصلت القوات الطاهرية إلى صنعاء أثناء قيام الجراكسة بمحاصرتها . ورأى الأمير اسكندر ألا يدع للسلطان وقواته

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ ب ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٣ـ١٢٠٤ ، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى ص ٦٥٠ ـ ٦٥١ ، الكبسى: اللطائف ص ٢٣٨ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٧ .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٥٩ ب ، الفضل المزيد ص ٥٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١٢٠٤، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص١٢٠٤ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥١ .

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٤ .

فرصة للراحة ، وقام بمهاجمته بمجرد وصوله (١) ، وقبل أن يتمكن من حط أثقاله وترتيب قواته ، ونجح في إحراز نصر سريع وحاسم علي الطاهريين في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ/مايو ١٥١٧م، وقتل في المعركة عدد كبير من القوات الطاهرية على رأسهم عبد الملك بن عبد الوهاب (٢) ، وتم أسر الكثيرين من بينهم أبي بكر بن الظافر ، وعامر بن عبد الوهاب(٣) . أما السلطان ، فقد أصابته الهزيمة بالذهول ، وهام على وجهه ، وتعقبه بعض الجراكسة حتى أدركوه وهو في حالة مزرية ، لدرجة أنهم لم يتعرفوا عليه ، وحسبوه من جنده الفارين وقتلوه ، ثم تحققوا من شخصيته (٤) ، وقيل إنه رآه أحد اليمنيين فأسره وقدمه إلى الجراكسة فاحتزوا رأسه (٥) . فكان لتلك الهزيمة النكراء التي لحقت بالطاهريين ، وأسقطت دولتهم بمقتل آخر

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ص ٦٥١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٧ .

(٢) الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ٥٨ ،

Kammerer : op. cit. T. II, p. 236.

(٣) ابن الديبع :قرة العيون ص ١٥٩ب - ١٦٠ أ،الفضل المزيد ص٦٤أ، بامخرمة : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن الديبع : قرة العيون ص١٦٠أ، بامخرمة:نفس المصدر والصفحة، الشبلي اليمني : السنا الباهر ص ٤ ٢ ، الكبسي : اللطائف ص٢٣٩ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الإماني ص ٦٥١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٧ .

Kammerer : Ibid. T. II, p, 236.

سلاطينهم[1]، أثرها فى طلب والى صنعاء الطاهرى الأمير علي بن محمد البعدانى الأمان من الجراكسة ، فتسلموا مدينته وغنموا منها أموالا كثيرة لانقع تحت حصر ، وكان فى المدينة عدد كبير من آل عمار - قتلة برسباى - فاستأصلهم الأمير اسكندر عن آخرهم [2] .

أصبح الجراكسة باستيلائهم على صنعاء وجها لوجه أمام القوى الزيدية ، وكان الإمام الزيدى يحيي شرف الدين قد عمل على الاتصال بالقوات الجركسية عند بداية وصولهم إلى كمران ، وطلب معاونتهم ضد الطاهريين . وإذا كان الاتصال ينهض دليلا على رضاء الإمام الزيدى بالوجود الجركسى فى اليمن ، إلا أنه ليس لدينا ما يدل على قيام تعاون من جانب الإمام معهم أو قيامه بتقديم المساعدات لهم . ويهمنا أن نشير إلى أن القوى الزيدية بدأت تنشط منذ أن تمكن الجراكسة من الانتصار على الطاهريين ، والقضاء على دولتهم، وقد يكون مرجع ذلك إلى أن تخلصهم من الطاهريين قد بعث الأمل فى نفوسهم للاستيلاء على اليمن والاستقلال بحكمه . أو أنهم كانوا يخشون امتداد النفوذ الجركسى شمالا، مما يهددهم تهديدا مباشرا . لذلك لم يضيع الامام وقتا وزحف بقواته إلى مدينة ثلا الواقعة إلى الشمال الغربى من صنعاء ، وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ/ مايو ١٥١٧م ، فسلمها له حاكمها الطاهرى وتعاون

---

(١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٨ ب .

(٢) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ ٣ ص ١٢٠٥ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٢ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٩ .

معه . وبدأ الامام فى الاستعداد لمواجهـــة صنعاء ونصرة أهلها (١) . فلما علم الأمير اسكندر بذلك أرسل حملة إلا ثلا للقضاء على أحلام الامام ، وتمكنت القوات الجركسية من محاصرة الامام وأتباعه فى ثلا (٢) وترددت الرسل بين الجانبين فى محـاولة للصلح ، وعرض الجراكسة موافقتهم على أن تكون ثلا للامام ، وأن يحتفظوا هم بصنعاء ، وتعهدوا بعدم التعرض له . وكان الإمام ميالا للموافقة ، إلا أن بعض أتباعه شككه فى نواياهم ، فاختار الحرب (٣). وبدأت الإمدادات الجركسية تنهال على ثلا لإحكام الحصار عليهـا . ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان ، إذ وردت الأنباء المؤكدة للأمير اسكندر بن محمد بهزيمة السلطـان الغورى ومقتله فى مرج دابق ، وسقوط دولة الجراكسة ، واستيلاء السلطان سليم على الشام ومصر ، فكتم الأمير هـذا الخبر ، وبدأ فى فتح باب الصلح مع الامام مرة أخرى . وقد لقى هـذا العرض ترحيبـا من الإمام حتى يتمكن من التخلص من الحصار الذى أقامه الجراكسة عليه ، فلما تم الانفاق عاد الجراكسة إلى صنعاء (٤) .

أما الأمـير اسكندر فقد خشي أن تتعرض قواته لأخطار من الداخل والخارج بعـد استيلاء العثمانيين على مصر ، ولذلك وجد أنه من الحكمة أن

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٣ .

(٢) Kammerer ; op. cit.. T. II, p. 238.

(٣) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٥٤ الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٣٩ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٣٨٨ .

(٤) يحيى بن الحسين: نفس المرجع ص ٦٥٤ – ٦٥٦، زبارة : أئمة اليمن جـ ١ ص ٣٨٩ .

يعلن ولاءه للعثمانيين ويجعل الخطبة فى صنعاء باسم السلطان سليم (١) ثم قرر الانتقال إلى زبيد حتى يتمكن من متابعة الأحداث ، ولهذا استخلف أحد أتباعه فى صنعاء ، وغادرها ـ فى معظم قواته ـ فى الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٢٣هـ/يوليو١٥١٧م فى طريقه إلى زبيد (٢) ولكن خبر سقوط دولة الجراكسة أثار استخفاف القبائل اليمنية بالأمير اسكندر وقواته ، فخرجت عليه قبائل بنى حبيش ومن والاها عند مروره ببلادهم وتمكنت تلك القبائل من التغلب عليه ، وفتكت بعدد كبير من اتباعه ، واستولت على كثير مما كان قد حصل عليه من أموال بنى طاهر وذخائرهم (٣) ، وخلص الأمير اسكندر ببقية أصحابه بصعوبة (٤) . وتمكن من الوصول إلى زبيد

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ ١ ص ٦٣ أ ، زبارة : أئمة نفس الصفحة .

Inalcik : The Ottoman Empire, p 34

(٢) يحيى بن الحسين : نفس المرجع ص ٦٥٦ ؛ زبارة : أئمة اليمن نفس الصفحة .

(٣) يقال أن قبائل بنى حبيش قد استولت على ثمانية آلاف جمل محملة بالذخائر والجواهر والنقود والذهب والفضة وأنواع المصاغ والقماش والعدد والسلاح وغير ذلك (ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠ أ الفضل المزيد ص ٥٦ أ ، بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٥ ، النهروالى : البرق اليمانى ص ٣٣) .

(٤) يحيي بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٦، والكبسى : اللطائف السنية ص ٢٤٠ – ٢٤١ ، زبارة : أئمة اليمن جـ ص٣٨٩ .

ليلة التاسع من جمادى الآخرة ٩٢٣هـ(١) /يوليو ١٥١٧م .

وهكذا يتضح أن موقف اليمن كان مؤثرا ومتأثرا بمجريات الأحداث الدولية وقتئذ ، فقد أدى موقف السلطان الظافر عامر المعادى للحملة المملوكية إلى تحولها عن هدفها الأساسى إلى غزو اليمن ، وقيام الأمير مرجان الظافرى والى عدن بالتعاون مع البرتغاليين، وهو أمر لا يمكن حدوثه دون موافقة السلطان نفسه ، ولكن القوات الطاهرية لم تتمكن من الصمود أمام أسلحة الجراكسة النارية ، وانتهى الأمر بمقتل السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى وسقوط دولته ، ولولا سقوط دولة الجراكسة فى الوقت نفسه لأمكن لتلك القوات استكمال السيطرة على اليمن .

والحقيقة أن الفتح العثمانى لمصر قلب الأوضاع رأسا على عقب ، ففى الحجاز ، أسرع الشريف بركات بإعلان الخطبة للسلطان سليم ، وأرسل ابنه أبا نمى إلى الفاتح العثمانى بالقاهرة لإعلان ولائه ، فاحتفى السلطان بمقدمه ، وأقر أباه على ولايته (٢) . وفى اليمن أعلنت القوات الجركسية كما ذكرنا اعترافها بالسيادة العثمانية ، وأصبحت المناطق الخاضعة لنفوذهم فى اليمن ،

---

(١) ابن الديبع : قرة العيون ص ١٦٠أ ، الفضل المزيد ص ٥٦أ ، باخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص ١٢٠٠ ، الشبلى اليمنى : السنا الباهر ص ٢٠٥ ، الكبسى : اللطائف السنية ص ٢٤١ .

(٢) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٤ – ٢٥ و ٢٦ ، ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية – مخطوط مصور رقم ٢٦٤٢١ بمكتبة جامعة القاهرة – جـ١ ص ٥٠أ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٥ ،
Inalcik : op. cit., pp 33 f.

تابعة تلقائيا للعثمانيين ، وأصدر السلطان العثمانى أوامره بإقرار الأمير اسكندر ابن محمد — الذى عرف بالمخضرم لمعاصرته لعهدين — نيابة عنه فى حكم اليمن[1].

وهكذا استكمل العثمانيون — بعد استيلائهم على مصر — السيطرة على المناطق التى كانت تابعة للمماليك بغير عناء . وأغناهم ذلك عن القيام بالحملات لتحقيق السيطرة على الحجاز واليمن ، إلا أن انشغال العثمانيين فى إقرار الأوضاع فى إمبراطوريتهم الكبيرة ، وتحولهم إلى غزو أوربا الشرقية ، وتجدد النزاع بينهم وبين الفرس ، ساعد على تدهور الأوضاع فى اليمن وانتشار الفوضى والاضطرابات هناك ، ونشوب القتال الدامى بين بقايا الطاهريين والقوى الزيدية والقوات الجركسية ، كل يريد السيطرة على البلاد . ولكن الزيدية الذين كانوا قد ادخروا قوتهم ، تجمعوا حول الإمام يحيى شرف الدين ، واستطاعوا السيطرة على صنعاء [2] ، وامتد نفوذهم على معظم المناطق اليمنية .

وليس من شك فى أن سيطرة العثمانيين على مصر قد ألقى على عاتقهم مسئولية التصدى للقوى البرتغالية ، إلا أنهم ادخروا قوتهم لفتوحات جديدة ، واكتفوا بالأسطول المملوكى الموجود فى جدة — والذى انفرد

(١) النهروالى : البرق اليمانى ص ٢٣ ، ابن داعر : الفتوحات المرادية جـ ١ ص١٦٩ أ ، Kammerer : op. cit., T. II, p. 238

(٢) العصامى : سمط النجوم العوالى جـ٤ ص٤٢٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ٦٥٧ ، الكبسى : اللطائف ص٢٤١ — ٢٤٢ ، زبارة : أئمة اليمن جـ١ ص ٣٩٠ ، Kammerer : p. 232

بقيادته سلمان العثماني بعد أن أعلن ولاءه للعثمانيين ـ للتصدى للبرتغاليين الذين هاجموا جدة سنة ١٥١٧ (١) . وعلى الرغم من مثول هـذا الخطر ، إلا أن السلطات العثمانية لم تتحرك لمواجهة البرتغاليين في الهند ، مما شجعهم على مواصلة حملاتهم وتركيزها على جدة ، ففي عام ١٥٢٠ توجه الأسطول البرتغالي بقيادة ديجو لوبيز دى سكويرا لمهاجمة جـدة ، ولكن الرياح تصدت لهم للمرة الثالثة ، وكانت كفيلة وحدها لإعاقة تقدم البرتغاليين وتشتيت شملهم وفشل الحملة (٢)، ومع استمرار الحملات البرتغالية على البحر الأحمر كانت أساطيلهم تلقى كالمعتاد معاونة ومساعدة حاكم عدن (٣) . واستمر الوضـع كذلك إلى أن تمكن العثمانيون من إعداد أسطول ضخم في سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا الخادم لمحاربة البرتغاليين في الميـاه الهندية (٤) . وما أن وصل إلى عدن حتى خرج إليه حاكمها عامر بن داود آخر الطاهريين لاستقباله والترحيب به ، وانتهز سليمان باشا تلك الفرصة وأمر بالقبض عليـه وشنقه ، واستولى على عدن في ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ / أغسطس ١٥٣٨م (٥) . فكان لغـدر

---

(١) انظر ما سبق ص ٥١٠ وما بعدها .

(٢) Serjeaut The Portuguese, pp. 170F,. Macro :Yemen and the Western World, P.2.

(٣) بامخرمة : قلادة النحر جـ٣ ص١٢٠٩ ــ ١٢١٠ ،

Kammerer , pp. 283-88.

(٤) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٧٦ب ، لوريمر : دليـــل الخليج جـ ١ ص ١٠ .

(٥) النهروالى : البرق اليماني ص٨٠ ، زبارة : أئمة اليمن ص ٤١٧ ،

Serjeant ; op. cit., p. 98; Macro; op. cit., P. 4.

سليمان باشا بالحاكم الطاهرى أثره الكبير فى فشل حملته ، إذ تخوف سلاطين الهند من التعامل معه ، وامتنعوا عن معاونته أو تموينه ، مما اضطره للعودة إلى بلاد اليمن لاستكمال السيطرة العثمانية عليها (١) .

وأيا ما كان الأمر فإنه إذا كان استيلاء العثمانيين على مصر قد أدى إلى تعطيل المشروعات المملوكية ضد البرتغاليين فى البحر الأحمر ، فإن العثمانيين قد فشلوا فيما كان المماليك يستعدون له ، وانحصرت جهودهم ـ تقريبا ـ فى الدفاع عن البحر الأحمر .

---

(١) عن العثمانيين فى اليمن ، انظر . السيد مصطفى سالم . الفتح العثمانى الأول لليمن ــ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩ .

الخاتمة

تهيأت الظروف لنور الدين عمر بن علي بن رسول لإعلان استقلاله بملك اليمن . ولما كان حريصا على حماية دولته من انتقام الأيوبيين فقد عمد إلى إرسال الحملات إلى بلاد الحجاز للتصدى لما قد يجهزه الأيوبيون من قوات لاستعادة السيطرة على اليمن . وبهذا تحول الأمر إلى منافسة الأيوبيين نفوذهم فى بلاد الحجاز ، وجعلها خط دفاع أمامى لإعاقة تقدم الحملات الأيوبية ، ووقف تقدمها جنوبا لتهديد دولته الناشئة . وقد أدى تدفق الحملات بين الجانبين إلى الاسهام فى زيادة ضعف الدولة الأيوبية، والتمهيد بالتالى لاستيلاء المماليك على دولتهم فى مصر والشام .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من انسلاخ اليمن عن الدولة الأيوبية فقد واصل بنو رسول السير على نفس السياسة ، واستمروا يحكمون اليمن وفقا لما ورثوه من نظمها ، بل واعتمدوا فى تطوير تلك النظم على مصر ، يستقصون أخبارها فى موسم الحج ، ومن التجار المصريين الذين يصلون إلى عدن . أما فى حالة تحسن العلاقات ، فقد كانت رسلهم يحيطونهم علما بتطوراتها . ولهذا اتفقت تلك النظم فى معظمها ـ بين مصر واليمن ـ فى كثير من الأحيان . وفى اطار العلاقات ، كان الخبراء العسكريون يصلون من مصر إلى اليمن ، لإعادة تنظيم الجيش اليمنى ، كما تدفقت العناصر المملوكية على اليمن ، عن طريق الشراء أو ضمن الهدايا التى كان يرسلها سلاطين المماليك لتدعيم القوات اليمنية . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى ارسال الأطباء لمواجهة الأوبئة والطواعين ، أو عمال طراز لصناعة النسيج ، أو

عرفاء معماريون أو صناع لفنون النجارة والزخرفة ، إسهاما من مصر في بناء
الحضارة اليمنية . وكان سلاطين بني رسول يشجعون قاصديهم من العلماء
وأرباب الصناعات والتجار وغيرهم ، ويغرونهم بالمال ويقربونهم إليهم ليواصلوا
العمل في خدمتهم . وهكذا فقد بدأ الأيوبيون في اليمن تلك الحركة الحضارية
التي بلغت أوج عظمتها في عصر بني رسول ، اعتمادا على الخبرة المصرية .
ولاتزال بقايا كثير من المباني كالمساجد وغيرها قائمة إلى اليوم ، إلا أن
الدراسة الأثرية لها تحتاج إلى جهود شاقة ومضنية للكشف عن زخارفها
ونظمها المعمارية ، بسبب طمس معالمها تحت طلاء سميك من النورة ، كسيت
به في أوائل هذا القرن ، بتأثير من التوجيهات الدينية . ولهذا فإن الاعتماد
فقط على ماورد متناثرا في المصادر ، لايساعد على القيام بدراسة حضارية
متكاملة لهذا التراث .

وفيما يتعلق بالتاريخ السياسي للفترة موضوع الدراسة ، فقد أسفرت
المناقشة لكثير من النقاط ، عن آراء جديدة ، منها مايتعلق بمحاولات إسباغ
صفة الشرعية على حكم بني رسول ، سواء ما كان متعلقا بادعاء نسبهم إلى أصل
يمني ، أو التنبؤ بقيام دولتهم ، أو ماذكره بعض المؤرخين عن تنازل المسعود
يوسف بن الملك الكامل آخر الأيوبيين في اليمن لنور الدين . وأثبتت المناقشة
عدم صحة ماذهب إليه هؤلاء المؤرخين في هذا الصدد . وتوصل البحث إلى
تأكيد نسبتهم إلى التركمان ، وأن ماذكر من التنبؤ إنما هو محض أساطير ، كما
أنه لاأساس لما قيل عن تنازل المسعود لمؤسس الدولة الرسولية . وتأكيدا
لما انتهت إليه الدراسة في هذا المجال ، فقد تم تتبع الجذور التاريخية لبني رسول
وما نسجته المصادر اليمنية حولهم ، والتوصل إلى معرفة بداية وصولهم إلى
اليمن صحبة السلطان الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، وبروزهم

تدريجيا على مسرح الأحداث اليمنية إلى أن واتت نور الدين الفــرصة ، واستقل بملك اليمن .

كما تعرضت الدراسة لما ذكره المؤرخون عن انتساب بني طاهر للأمويين وتطور ظهورهم في خدمة بني رسول واستغلالهم الفرص لاقامة دولتهم على انقاض دولة بني رسول .

وبالنسبة لأحوال اليمن الداخلية ، فقد كان الاضطراب وعدم الاستقرار والقلاقل الداخلية المناهضة للسلطة المركزية تمثل السمات المميزة لها في كثير من الأحيان . ولم يكن ذلك كله وليد ظروف طارئة ، وإنمـا يرجع في معظمه إلى جذور تاريخية تتمثل في الصراع حول الخلافة الاسلامية ، وفرار كثير من المضطهدين كالشيعة ، والتجاؤهم إلى بلاد اليمن للاحتماء بهـا . ذلك أن تلك البلاد بطبيعتها الجبلية وحصونها الشاهقة المنيعة وصعوبة مسالكها وبعدها عن عاصمة الخلافة ، كانت من أنسب المناطق التي يتوفر فيها الأمن والطمأنينة لتلك المجموعات المضطهدة . ومع مرور الزمن نجحت تلك العنـــاصر ، من إسماعيليه وزيدية في دعوتها ، وظهرت كل منها على مسرح الأحـداث اليمنية ولم يقتصر دورها على مناوأة القوى السنية الحاكمة فحسب ، وإنما اتخذ الموقف شكل صراع عسكري ثلاثي متشابك يسعى كل جانب منه إلى تقويض الآخر وتحقيق الهدف السياسي بالسيطرة على البلاد والانفراد بحكمها . فكان لهذا الصراع أثره في اختلال الأوضاع الداخلية ، وتفتيت البلاد إلى أشلاء ممزقة وفقدان الوحدة السياسية في كثير من الأحيان . ومما يذكر أن الأوضـــاع كانت أكثر استقـراراً في عهد الأيوبيين لاستمرار الإمدادات من مصر ، مما حقق وحدة اليمن السياسيه خلال فترة طويلة من حكمهم .

أما بالنسبة للفترة موضوع هذه الدراسة ، فان الدارس قد يتوه فى دوامات الحروب الداخلية التى لا تكاد تنتهى حتى تعود أشد ضراوة ، لعدة أسباب منها ، ضعف السلطات الحاكمة أو انشغال السلطان القائم وقتئذ بالدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه من أمراء البيت المالك ، وما يستتبع ذلك من انقسام الجند بين المعسكرات المتناحرة ، وهى ظاهرة تفشت خلال حكم هاتين الدولتين ـ الرسوليه والطاهرية ـ مما كان دافعا للقوى الزيدية للعمل على تحقيق سيطرتها على المناطق التى تنتشر فيها جموعهم فيما بين صعدة شمالا وصنعاء وذمار جنوبا . وقد أدى الصراع الدائر بين السلطة الحاكمة والقوى الزيدية إلى إتاحة الفرصة لكثير من القبائل لإعلان تمردها . وهكذا كان لكل تلك الحركات أثرها فى صرف جهد الدولة لتجهيز الحملات ، ودفعها لخوض سلسلة من الحروب الداخلية المستمرة ، التى استنزفت جانبا كبيرا من الدخل ، وكان من الممكن توجيه تلك الجهود لما هو أجدى وأنفع للشعب اليمنى . والخلاصة فقد أثرت تلك الصراعات فى الكيان الداخلى لدولتى بنى رسول وبنى طاهر ، وانعكس أثر ذلك على المجال الخارجى ، وكانت من أهم أسباب سقوط هاتين الدولتين .

وفيما يتعلق بالعلاقات الخارجية ، فان انفصال اليمن عن الدولة الأيوبيه ؛ واستقلال نور الدين عمر بن رسول بحكمها ، مؤسسا دولة بنى رسول ، حدد مسار العلاقات اليمنية بمصر الأيوبية ، ولم يكن متوقعا من الملك الكامل أن يسلم بالأمر الواقع ، فكان لابد من اتخاذ الاجراءات الكفيلة بإعادة اليمن إلى حظيرة الدولة الأيوبية . وفى نفس الوقت ، كان نور الدين يعلم ذلك جيدا ويتوقع سرعه تحرك الملك الكامل للمحافظة على الدولة كيان دولته . ومن أجل الحفاظ على الدولة الناشئـــة ، بادر نور الدين بالاستعداد لذلك الصراع المرير ، وتفـــاديا للمخاطر التى قد تترتب على وصول

الحملات الأيوبية إلى اليمن ، فقد استقر رأيه على نقل مسرح المعارك إلى بلاد الحجاز – التى كانت لاتزال تابعة للأيوبيين – وجعلها بمثابة خط دفاع أمامى لليمن ضد القوات الأيوبية ، وتوالت الحملات من الجانبين – الرسولى والأيوبى – كل يعمل على تثبيت سيطرته على الحجاز ، حتى تمكن نور الدين فى نهاية الأمر – نتيجة لضعف الدولة الأيوبية – من تحقيق تبعيتها لليمن ، وهو ماكان يسعى جاهدا لتحقيقه من أجل اكتساب احترام العالم الإسلامى وتقديره له باعتباره حامى حمى الحرمين الشريفين .

وقد سار المظفر يوسف على سياسة أبيه ، فعمل بعد تثبيت قواعد حكمه على تثبيت النفوذ اليمنى فى الحجاز . ولكن ماكادت الدولة الأيوبية تسقط ويتمكن المماليك من توطيد دعائم دولتهم ، وتتوالى انتصاراتهم ، ويشرعون فى تحقيق السيطرة على البحر الأحمر ، حتى تغيرت السياسة اليمنية وتحول المظفر إلى مسالمة دولة المماليك البحرية بمصر والشام ، وتبادل مع سلاطينها السفارات والهدايا درءا لشرهم . ومن ثم بدأ دور جديد مثمر من التعاون بين اليمن من ورائه الكارمية ، وذلك لقيام المماليك بتأمين البحر الأحمر ، وانصراف السفن اليمنية من جانب آخر للقضاء على القرصنة فى المحيط الهندى ، ممـا أدى إلى زيادة نشاط تجارة العبور عن طريق البحر الأحمر ، وتدفق السفن التجارية على عدن لاعادة تصدير ماتحمله من بضائع إلى الموانى الهندية أو المصرية .

وقد بلغ من ارتفاع مكانة سلطان اليمن – فى تلك المرحلة – لدى السلطان المملوكى أن لجأ ملك الحبشة « يكونو أملاك » إلى إرسال رسله إلى السلطان المظفر يوسف ليصلح ذات البين بينه وبين السلطان المملوكى الظاهر بيبرس .

ولم يكتف البحث بدراسة العلاقات اليمنية مع بلدان حوض البحر الأحمر كمصر والحجاز والحبشة ودول الطراز الاسلامى هناك . وانما تعرض لدراسة العلاقات الاقتصادية والسياسية مع آسيا . فقد توافد سفراء بعض الدولة الآسيوية بالهدايا على البلاط اليمنى لخطب ود سلطانها من بنى رسول ، وتسهيل تجارتهم ، والإحسان إلى تجارهم ، وقد بولغ فى كسب قلوب سلاطين اليمن إلى حد قيام سلطان قاليقوط بالخطبة لسلطان اليمن فى بلاده ، فقد كان لموقع اليمن الهام على الطريق التجارى الرئيسى أثره فى أن تحتل ميناء عدن مكانة عالمية وقتئذ ، وقامت بدور بارز فى التجارة العالمية التى كانت مصر تمتلك ناصيتها . وهكذا فقد كان لرعاية اليمن للتجارة أثرها فى زيادة نشاطها . كما أخذت مصر على عاتقها مهمة التصدى للمحاولات الموجهة إليها أو إلى اليمن حتى لو لم تتحرك السلطات اليمنية للدفاع عن مصالحها . فمع قيام الدولة الايلخانية المعادية لمصر وتحول البابوية إلى فرض الحصار الاقتصادى على دولة المماليك وتحريم التبادل التجارى فى موانيها . فقد اتفقت المصالح الايلخانية فى عهد الخان أرغون مع الصليبيين ، فتحالف معهم ضد مصر المملوكية ، وعملوا على توجيه ضربة إلى تجارة مصر بتحويل النشاط التجارى إلى الخليج الفارسى ، والحيلولة دون وصول السفن المحملة بتجارة الشرق إلى عدن ، وذلك بانزال بعض السفن إلى مياه الخليج لتتولى نقل البضائع من مصادرها ، وفرض حصار بحرى على عدن . وهكذا كانت عدن ، وبالتالى اليمن تشكل هدفاً صليبيا لمكانتها التجارية بين الشرق والبحر الأحمر ، ولما تقدمه من معونات لمسلمى الطراز ضد الحبشة المسيحية . ومهما كان الأمر ، فقد فشلت هذه المحاولات لتصدى مصر لها ، بتوجيه الضربات للدولة الايلخانية ،واجتذاب التجار الفرنج التعامل مع الموانى المملوكية .

أما مايتعلق بتعسف سلاطين اليمن مع التجار في عدن ، فلم يكن في إمكان مصر المملوكية أن تقف مكتوفة الأيدي دون الدفاع عن مصالحها التجارية والعمل علي وضع حد للمظالم التي كان يتعرض لها التجار من سلاطين اليمن وعمالهم . وكنتيجة لتعنت هؤلاء السلاطين مع التجار ، وتكرار شكوى دولهم لسلاطين المماليك ، فقد تحملت اليمن أضرارا كثيرة أثرت على اقتصادها ، خاصة بعد أن رحب السلطان برسباي بمحاولة السفن الهندية في الوصول رأسا إلي جدة ، مما أدى إلى احتلالها المكانة التجارية الأولى كميناء هام ، واضمحلال ميناء عدن نتيجة لهجرة السفن التجارية له ، وللحظر الذى فرضه برسباى على التجار ومنعهم من التعامل مع ميناء عدن .

وإذا كانت الأحداث التاريخية قد أثبتت أنه كان في مقدور مصر وحدها القيام دائما بدور طليعى متحملة ـ بامكاناتها الذاتية ـ المسئولية كاملة في التصدى للأخطار الخارجية وحماية العالم العربى ، فقد كان من الطبيعى أن يكون لتعاون بعض الأقطار العربية الأخرى وتحمل نصيبها في الجهاد أثره البالغ في زيادة فاعلية هذا الدور . غير أن تلك الأحداث تبين أيضا أن الضغط الذى قد يصيب مصر كان ينعكس أثره على العالم العربى ، فمع نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) وخاصة بعد عهد السلطان المملوكى قايتباى ، برزت عوامل متعددة أثرت على قوة مصر ، منها انتشار الأوبئة والقحط وماترتب عليها من غلاء فاحش ، ومبالغة في الضرائب والمظالم ، وعدم استقرار الأوضاع نتيجة الخلافات والمنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وتولى خمسة من السلاطين خلال السنوات الخمس التى أعقبت وفاة قايتباى ، مما جعل فترة حكم سادسهم

وهو السلطان الغورى فترة تنذر بنهاية محققة ، ليس فقط نتيجة للأحوال الداخلية السيئة ، وإنما لتضافر الظروف الدولية على ازدياد ضعف دولة المماليك ، وجعلها لقمة سائغة فى نهاية الأمر للعثمانيين . فقد نجحت الحركة الصليبية فى تصفية آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس والقضاء على العناصر الإسلاميه فيها ، كما نشطت حركة القرصنة الصليبية الموجهة للموانى والسفن المملوكية ، وفى نفس الوقت استمر الصراع فى المشرق بين العثمانيين والصفويين مؤكدا قيام المنتصر بمهاجمة الحدود الشرقيه لدولة المماليك .

وفى تلك الظروف المعقدة كانت الجهود البرتغالية قد أثمرت اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند سنة ١٤٩٨ . ولا شك أن الجهود البرتغالية كانت حلقة من حلقات الصراع الصليبي وامتدادا لها ، وكانت أشد خطرا على الاسلام والمسلمين من سابقاتها ، كما كانت نتيجة طبيعية للجهود الصليبية السابقة ، بعد فشل المحاولات المستمرة لاستعادة السيطرة على الممالك الصليبية التى كانوا قد أسسوها فى بلاد الشام . وعدم جدوى القرارات البابوية بتحريم التعامل التجارى مع الموانى المملوكية .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تشر إلى المراحل التى أسفرت عن كشف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، أو وصولهم إلى الهند عند نجاحهم فى ذلك ، وانما اكتفى بالإشارة فى حوليات متأخرة إلى الوجود البرتغالى فى المياه الهندية وليس ذلك بالتأكيد اغفالا من المؤرخين لتلك الأحداث ، وإنما قد يكون ذلك لتأخر علمهم بها ، أو أن الأحوال الداخلية بمصر كانت من السوء بحيث طغت على ما عداها ، ولم يكن متوقعا أن يزداد خطر البرتغاليين إلى هذا الحد الذى هدد

البلاد تهديدا مباشرا من الخلف. وقد يؤيد ذلك أن الأساطيل البرتغالية لم تلجأ في بداية الأمر إلى استعمال العنف ، ولكنها انتهجت أسلوب المسالمة تفاديا للتصادم ، في وقت كانت حريصة فيه على تثبيت مركزهـا ، ولم تتمكن من القيام بأعمال يكون من شأنها التعرض لمقاومة جماعية . ولكن ما أن اتضحت حقيقة المطامع البرتغالية الصليبية ـ التي تعرض البحث لها ـ وزاد الخطـــر البرتغالي في الميـاه الهندية حتى أسرع سلاطين الهند واليمن إلى الاستنجاد بالسلطان الغوري ، الذي قام رغم ظروفه الداخلية والخارجية الصعبة بإعـداد أسطول لمحاربة البرتغاليين والعمل على القضاء عليهم .

وبالنسبة لليمن ، فقد تميزت فترة ماقبل ديو بتعاون السلطات الطاهرية ووفائها بما التزمت به . ولكن الموقف لم يلبث – بعد هزيمة الأسطول المملوكي في ديو ـ أن تحول إلى عداء سافر للقوى المملوكية . في حين تعاون الطاهريون مع البرتغاليين إلى حد التحالف معهم من أجل إيقـــاع الهزيمة بالمماليك وتحقيق الأهداف البرتغالية الصليبية في البحر الأحمر . وهكذا يتضح أن موقف سلطان اليمن كان مؤثرا ومتأثرا بمجريات الأحداث الدولية وقتذاك ، ذلك أن تغير موقف السلطان الطاهري ، وامتناعه عن الوفاء بتعهداته الخاصة بتقديم مساعدات للحملة البحرية المملوكية الثانية ، أدى إلى تخوف الأمير حسين الكردي قائد الأسطول المصري خاصة وأن السلطات اليمنية لم تسمح له باستخدام قواعد لأسطوله بالموانئ اليمنية ، ومن ثم يصبح خروج هذا الأسطول من البحر الأحمر أو العودة إليه محفوفا بالكثير من المخاطر . وهكذا ، اضطر الأمير حسين الكردي بعد أن أخفقت محاولاته لاقناع السلطان الطاهري الظافر عامر الثاني ، إلى استخدام القوة للسيطرة على بعض المناطق الساحلية لتأمين أسطوله وضمان سلامة وصول الامدادات إليه . ولاستكمال المهمة الأساسية التي جهز

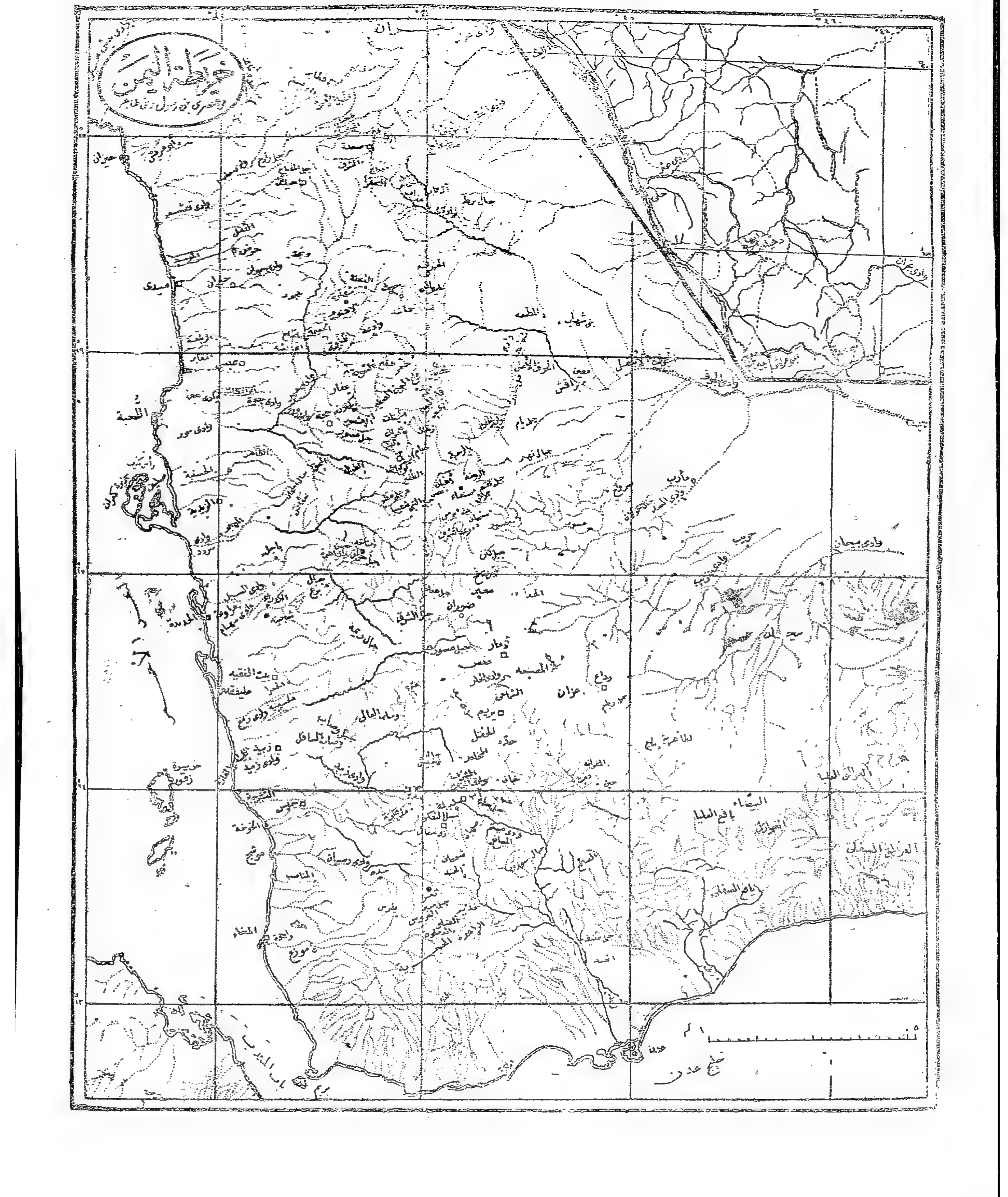
الأسطول للقيام بها ، ترك الأمير حسين الكردى بعض قواته لحماية ما تم للسيطرة عليه من المناطق ، وتوجه فى بعض قطعه البحرية إلى عدن ، علّه يستطيع أن يتخذ منها قاعدة لتأمين سلامة البحر الأحمر ، وضمان عدم التعرض للاخطار عند عودته من الهند . إلا أن فشل حسين الكردى فى الاستيلاء على عدن لحصانتها الطبيعية ومقاومة حاكمها له ، اضطره إلى تفضيل العودة إلى البحر الأحمر ، وتركيز قوته فيه والاكتفاء بالعمل على تأمينه . وهكذا تحول هدف الحملة - نتيجة لموقف السلطات الطاهرية - من التوجه لمجابهة البرتغاليين فى المياه الهنديه ، إلى مجرد الدفاع عن البحر الأحمر .

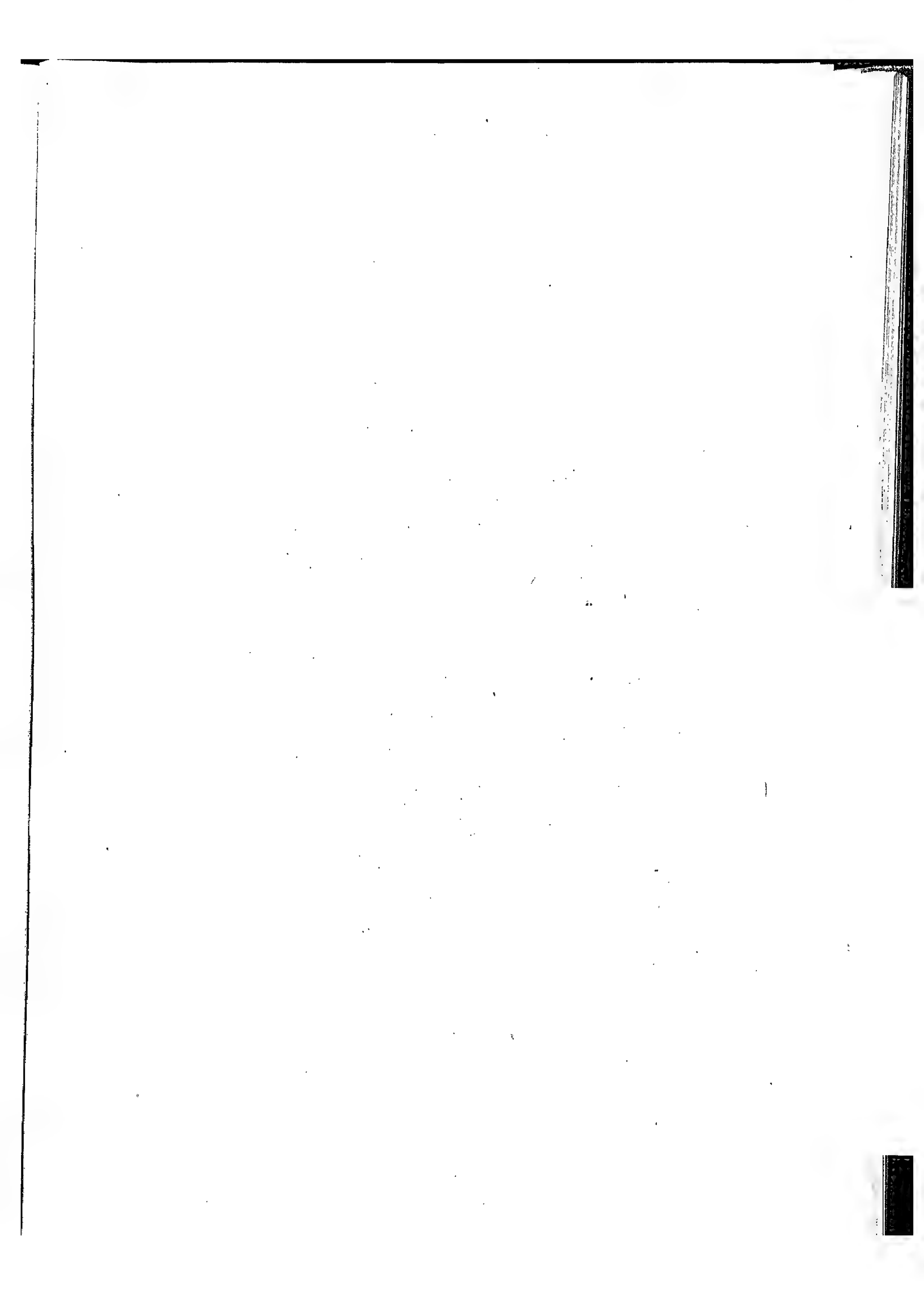
وعلى الرغم من الاضرار التى تعرضت لهـا بلاد اليمن نتيجة لسيطرة البرتغاليين على التجارة ومحاولتهم للاستيلاء على عدن ، إلا أن السلطان الطاهرى الظافر عامر الثانى لم يكتف بما اتخذه من مواقف معادية للجراكسة ، الذين كان من بين أهدافهم حماية اليمن نفسها من الخطر البرتغالى ، إذ تعاون نائبه على عدن - الامير مرجان - مع البرتغاليين ، وأمدهم بالمرشدين لتسهيل وصولهم إلى جدة لضرب الأسطول المملوكى فيها ، وهو أمر لابد وأن يكون قد تم بموافقة السلطان الظافر الثانى شخصيا ، رغم النتائج الخطيرة التى كانت سوف تترتب على نجاح البرتغاليين فى تحطيم الأسطول المملوكى فى جـدة . من الاستيلاء على الحجاز ، وتعريض المقدسات الاسلامية للدمار ، وتحقيق الاتصال بالحبشة والتعاون معها لتوجيه ضربة مباشرة ضد مصر ، باعتبارها مصدر القوة فى العالم الاسلامى ، وما قد يتبع ذلك من تسهيل مهمة البرتغاليين فى تنفيذ كافة الأهداف التى قامت حركة الكشوف الجغرافيه من أجلها .

والحقيقه لقد كان لموقف السلطان الطاهرى أثره فى إعاقة الأسطـول

المملوكي عن مهمته ، مما أدى إلى تحول قوات ذلك الأسطول إلى مقابلة تحديات السلطان الطاهري والتفرغ لغزو اليمن . ومن العجب أن السلطان الظافر لم يتزحزح عن موقفه رغم عجز قواته عن الصمود أمام الأسلحة النارية الحديثة التي كانت تستعملها القوات الجركسية ، مما أدى في النهاية إلى مقتل هذا السلطان ، وسقوط دولته واستيلاء الجراكسة عليها . ولولا استيلاء العثمانيين على مصر والشام وسقوط دولة الجراكسة لاستمرت قوات المماليك في العمل على استكمال السيطرة على بقية المناطق الأخرى من اليمن ، كمقدمة للتفرغ لمواجهة البرتغاليين .

ويمكن القول بأنه إذا كان السلطان الطاهري قد أسهم بموقفه هذا في نسف الجهود التي بذلها الغوري ضد البرتغاليين ، وساعد الأسطول البرتغالي على اقتحام البحر الأحمر ، وتعاون حاكم عدن معهم لتنفيذ أهدافهم ، فقد أسهم العثمانيون بتقاعسهم ، في ترسيخ الوجود البرتغالي في المياه الهندية وذلك لانشغالهم بالفتوحات في مناطق أخرى ، مما ساعد البرتغاليين على إحكام السيطرة على تجارة الشرق ، وتوطيد نفوذهم وتفاقم خطرهم في المنطقة .


خريطة اليمن
خليج عدن
باب المندب
اللحية
زبيد
ذمار



المصادر والمراجع

أولا - مصادر مخطوطة

أدريس عماد الدين بن الحسن القرشي (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) .

— نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار ، (جزءان) مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز اليمن .

الأهدل ، أبو عبد الرحمن الحسين بن عبد الرحمن بن محمد الحسيني (ت ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م) .

— تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن ، مخطوط بمكتبة خدابخش بتنه رقم ٢٤٨٥ مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٨٨ .

ابن ايبك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) .

— درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ، (٤ مجلدات) مخطوط بمكتبة أحمد خان بالآستانة ، مصور بدار الكتب برقم ٤٤٠٩ تاريخ .

— كنز الدرر وجامع الغرر ، (٩ أجزاء) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٧٨ تاريخ .

بيبرس الدوادار ، ركن الدين المنصوري (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) .

— زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، (جـ ٩) مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٣٣٢٥ إضافات ، مصور بالفوتوستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨ .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

— المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، (٥ مجلدات) مخطـوط بدار الكتب رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور .
— الدليل الشافي على المنهل الصافي ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١٨٨٩ ح .
الجزيري ، زين الدين عبد القادر بن محمد الحنبلي (ت ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م) .
— درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٧ م .
الجنداري ، صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨ م) .
— الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولى التبريز ، مخطوط بمكتبه الجامع الكبير بصنعاء .
الجندي ، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١ م) .
— السلوك في طبقات العلماء والملوك ، (٣ مجـلدات) مخطوط بمـكتبة كوبريلي رقم ١٠٠٧ مصور بدار الكتب برقم ٩٩٦ تاريخ .
ابن حاتم ، بدر الدين محمد (كان موجودا سنة ٧٠٢ هـ) .
— السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمـن ، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٢٧٥٤١ إضافات .
ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .
— درة الأسلاك في دولة الأتراك ، (٤ جـ) مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٦١٧٠ ح .
ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) .
— إنباء الغمر بأنباء العمر ، (جـــزءان) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤٧٦ تاريخ .
الحنبلي ، أحمد بن ابراهيم بن نصر الله (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) .

— شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ٧٣١١ إضافات مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم ٣ .

الخزرجي ، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) .

— طراز الزمن في طبقات أعيان اليمن ، (جـزءان) مخطـوط بدار الكتب رقم ١٢٦٥٧ تاريخ .

— العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، مخطـوط بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٦٥ ب .

— العقد الفاخر الحسن في طبقات أعيان اليمن ، مخطوط بالمتحف البريطاني 72 Kings Collage مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية رقم ٣٣٦ .

ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود بن علي (كان موجـودا سنة ١٠١٠ هـ) .

— الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية ، نسخة المؤلف وبخطه ، بمكتبة راغب باشا باستانبول ، وتوجد نسخة منهـا مصورة بالفوتستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٩٤٢ ، وأخرى بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم ٩٣٣ تاريخ .

ابن دقماق ، صـارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) .

— الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٩٢ تاريخ تيمور .

ابن الديبع ، أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي الشيباني الشافعي (ت ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م) .

— بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مخطـوط بدار الكتب رقم ٦٠٧ تاريخ تيمور ، وأخرى رقم ١١ م تاريخ .

— الفضل المزيد على بغية المستفيد ، مخطوط مصور بدار الكتب رقم ٩٠٨٧ ح تاريخ عن الدار رقم ٢١ م تاريخ .

— قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٥٥ تاريخ .

الذهبى ، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز (ت ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م) .

— تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، (٣٢ مجلد) مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ .

— سير أعلام النبلاء ، (١٣ جزءا) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١٩٥ تاريخ .

الرازى ، أبو العباس احمد بن عبد الله بن محمد الصنعانى (ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م) .

— تاريخ صنعاء ، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٢٩٠٣ ، مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٥٧ .

الرسولى ، السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل عباس (ت ٨٠٣ هـ ١٤٠٠ م) .

— فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفتن فى أخبار من ملك اليمن ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور .

الرسولى ، السلطان الملك الأفضل عباس بن المجاهد على بن داود (ت ٧٧٨ هـ ١٣٧٦ م) .

— العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية ، مخطوط بدار الكتب برقم ٣٥١ تاريخ .

— نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥١ تاريخ .

الرشيدى ، أحمد .

— حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج ، مخطوط بدار الكتب رقم ٨٧، تاريخ .

الشلى اليمنى ، جمال الدين محمد بن أبى بكر الحسنى (ت ١٠٩٣ هـ/١٦٨٢م).

— السنا الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٣٢ تاريخ تيمور .

الشرفى ، أحمد بن محمد بن صلاح (ت ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م) .

— اللآلى المضيئة فى أخبار أئمة الزيدية ، (٣ أجزاء) مخطوط بمكتبة الجامع الكبير برقم ١٠٧ — ١٠٩ .

الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .

— الوافى بالوفيات ، (٧ أجزاء فى ١٧ مجلد) مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ .

الصعدى ، بدر الدين محمد بن يوسف (ق ١٠ هـ) .

— مآثر الأبرار فى تفصيل مجملات جواهر الأخبار ، مخطوط ملك الباحث .

الطبرى ، محمد بن على بن فضل (ق ١٢ هـ) .

— إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ، مخطوط بالجمعية الآسيوية فى كلكتا رقم ١٢٨١ ، منه نسخة بالميكروفيلم بالجامعة العربية برقم ٣١٤٣ .

الطبرى ، على بن محيى الدين عبد القادر (ت ١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠ م) .

— كتاب الأرج المسكى فى التاريخ المكى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٠٥ تاريخ تيمور .

العامرى ، أبو زكريا يحيى بن أبى بكر الحرضى (٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م) .

— غربال الزمان في وفيات الأعيان ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقى القرشى (ت ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م) .

— بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٧٧ عربى .

العصامى ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) .

— سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ، (٥ أجزاء) مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ .

عيسى بن لطف الله بن المطهر (١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨م) .

— روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط بدار الكتب رقم ١١ تاريخ م .

العينى ، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) .

— عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، (٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلد) مخطوط مصور بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ عن نسخة الآستانة .

الفاسى ، تقى الدين أبى الطيب محمد بن أحمد بن على الحسنى (٨٣٢ هـ/١٤٢٩م) .

— تحفة الكرام ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٨١٣ ح مصور عن نسخة الدار رقم ١٦٤٦ تاريخ .

— العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، (٤مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور .

ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على (ت٨٠٧ هـ / ١٤٠٤م) .

— تاريخ الدول والملوك ، (١٨ مجلدا) مخطوط بدار الكتب رقم ٣١٩٧ تاريخ مصور عن نسخة فيينا .

ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م).

— مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، (الجزء الخامس) مخطوط بدار الكتب رقم ٨ معارف عامة م .

الفيومى ، أحمد بن محمد بن على المقرى (ت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٤ م) .

— نثر الجمان فى تراجم الأعيان ، (٣ مجلدات) مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ .

ابن القاسم ، صارم الدين ابراهيم بن القاسم بن المؤيد (النصف الأول من ق ١٢ هـ).

— طبقات العلماء الزيدية ، مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

الكبسي ، محمد بن اسماعيل بن محمد بن يحيى (ت ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م) .

— اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٧٢٤ تاريخ تيمور ونسخة أخرى رقم ٤١٦٣ تاريخ .

المحلى ، حسام الدين أبى عبد الله حميد بن احمد (ت ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) .

— الحدائق الوردية فى مناقب الأئمة الزيدية ، مخطوط بدار الكتب رقم ٤٨٧٥ تاريخ .

بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) .

— قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، (٣ أجزاء) مخطوط بمكتبة ينى جامع بالآستانه رقم ٨٨ مصور بدار الكتب برقم ١٦٧ تاريخ .

ابن مظفر ، محمد بن أحمد بن يحيى (ت حوالي ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م) .

— كتاب الترجمان المفتح لثمرات كمائم البستان ، مخطوط بمكتبة القاضي حسين بن أحمد السياغى من علماء صنعاء .

النويرى ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .

— نهاية الأرب في فنون الأدب ، (٣١جزءا) مخطوط بمكتبة كوبريلي بالآستانة ، مصور بدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة ، وأخرى برقم ٥٥١ معارف عامة .

يحيي بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) .

— أنباء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٧ تاريخ .

ثانيا ـ مصادر مطبوعة

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) .
— الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .
الأهدل ، محمد بن على .
— نثر الدر المكنون من فضائل اليمن الميمون ، القاهرة ١٩٣١ .
ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) .
— بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ ــ ٥ تحقيق محمد مصطفى ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣ .
ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن الله بن محمد اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) .
— تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان) القاهرة ١٩٣٨ .
ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، (١٦ جزءا) القاهرة ١٩٣٠ ــ ١٩٧٢ .
— المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، (الجزء الأول) تحقيق أحمد يوسف نجاتى ، القاهرة ١٩٥٦ .
— منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور .
Ed. William Popper, California, 1930 - 1931.
ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) .
— رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .
الجندى ، أبو عبد الله بهاء الدين يوسف بن يعقوب (٧٣٢هـ/١٦٥٦م) .

— أخبار القرامطة باليمن ، منقول من كتاب السلوك فى طبقات العلماء والملوك) ، نشره هنرى كاى ، ضمن كتـاب تاريخ اليمن لعمارة ، لندن ١٨٩٢ .

حاجى خليفه ، مصطفى كاتب شلبى (ت ١٠٦٧ هـ /١٦٥٦م) .

— كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، والآستانة ١٩٤١ .

ابن حجر ، شهاب الدين احمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٣ هـ/١٤٤٩م).

— الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، (٤ أجزاء) حيدر أباد ، الهند (١٣٤٨ – ١٣٥٠ هـ) .

الحمادى ، ، محمـد بن مالك بن أبى الفضائل اليمانى (أواسط القرن الخامس الهجرى).

— كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

حمزة بن الحسن الأصفهانى (٣٦٠ هـ / ٩٧٠م) .

— تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ١٣٤٠هـ .

الخزرجى ، أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩م) .

— العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، (جزءان) تحقيق محمـد بسيونى عسل،من مطبوعات Gibb Memorial Series القاهرة ١٩١١ .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤هـ .

— تاريخ اليمن ، منقول من كتاب العبر،نشره كاى ملحقا بكتاب تاريخ اليمن لعمارة ، لندن ١٨٩٢ .

ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر الشافعى (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (٦ أجزاء) نشر محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .

الدمشقي ، محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٨ م) .

— كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣ .

الذهبي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عثمان بن قيماز (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م) .

— دول الاسلام ، (جزءان) ، حيدر أباد ، الهند ١٣٣٣هـ - ١٣٣٧ هـ .

الرسولي ، السلطان الملك الأشرف عمر بن المظفر يوسف (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م).

— طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق سترستين ، نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .

زين الدين المعبري المليباري (٩٨٥ هـ ١٥٧٩ م) .

تحفة المجاهدين في أحوال البرتكاليين ، لشبونة ١٨٩٨ .

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قز أوغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م) .

— مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، (ج ٨) حيدر أباد ، الهند ١٩٥١ .

السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م) .

— طبقات الشافعية الكبرى ، (٦ أجزاء) القاهرة ١٣٢٤ هـ .

السخاوي ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) .

— التبر المسبوك في ذيل السلوك ، نشر أحمد زكي ، القاهرة ١٨٩٦ .

— الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (١٢ جزءا) القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ .

ابن سمرة ، أبو حفص بن علي (ق ٦ هـ) .

— طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧ .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ/ ١٥٠٥ م) .

— غزوات قبرص ورودس ، فيينا ١٨٨٤ .

ابن شاكر الكتبي ، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م).

— فوات الوفيات ، (جزءان) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ١٩٥١ .

أبو شامه ، شهاب الدين أبي محمد بن عبد الرحمن الرحمن ابن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م) .

— الروضتين في أخبار الدولتين . (جزءان) القاهرة ١٢٧٨ – ١٢٨٨هـ.

— الذيل على الروضتين . نشره السيد عزت العطار . القاهرة ١٩٤٧ .

ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) .

— كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤ .

ابن الشحنة ، محب الدين أبي الوليد محمد بن كمال الدين الحلبي (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) .

— روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب (الكامل) لابن الأثير . القاهرة ١٢٩٠ هـ .

الشرجي ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨م).

— طبقات الخواص أهل الصدق والاخلاص ، مصر ١٣٢١ هـ .

ابن طباطبا ، محمد بن علي (ت بعد ٧٠١هـ/١٣٠١م) .

— الفخري في الآداب السلطانية ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

ابن طولون الصالحي ، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦ م) .

— مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، (جزءان) تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جار الله بن محمد بن أبى بكر (٩٦٠هـ/١٥٥٢م) .

— الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

ابن عبد الحق ، صفى الدين عبد المؤمن (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨م) .

— مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع ، القاهرة ١٩٥٤ .

ابن عبد الظاهر ، محيي الدين أبى الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

— تشريف الأيام والعصور فى سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق د. مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ .

العلوى ، على بن محمد بن عبد الله العباسي (من علماء الزيدية في أواخر القرن الثالث الهجرى) .

— سيرة الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، تحقق د. سهيل زكار بيروت ١٩٧٢ .

ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) .

— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، (٨ أجزاء) القاهرة ١٣٥١ هـ .

عمارة اليمنى ، أبو محمد نجم الدين بن أبى الحسن على بن زيدان الحكمى (ت ٥٦٩هـ / ١١٧٤م) .

— تاريخ اليمن ، تحقيق هنرى كاى ، لندن ١٨٩٢ .

— النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

Ed. Hartwig Derenbourg, Paris, 1897-1902.

العيدروسى ، محيي الدين عبد القادر بن عبد الله العلوى (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) .

— النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، بغداد ١٩٣٤ .

الفاسي ، تقي الدين أبي الطيب محمد بن احمد الحسني (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) .

— شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، (جزءان) القاهرة ١٩٥٦ .

أبو الفدا ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م) .

— كتاب تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .

— المختصر في أخبار البشر ، (٤ أجزاء) الآستانة ١٢٨٦ هـ .

ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨ م) .

— التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هـ .

ابن الفوطي ، كمال الدين أبي الفضل عبد الرازق البغدادي (ت٧٢٢هـ/١٢٣٢م) .

— الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، نشره د. مصطفى جواد بغداد ١٣٥١ .

الفيروز أبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤ م) .

— القاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) .

— صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،(١٤جزءا) ، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ .

— قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، نشره ابراهيم الابياري ١٩٦٣ م .

ابن كثير ، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) .

— البداية والنهاية ، (١٤ جزءا) ، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٣٥٨ هـ .

ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الدمشقي (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) .

— صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ويسمى تاريخ المستبصر ،

Ed.,O. Loefgren, 2 vol. Leiden, 1951-1954.

مجمع اللغة العربية .

— المعجم الوسيط ، قام بإخراجه نخبة من العلماء ، القاهرة ١٩٦٠ .

بامخرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠م) .

— تاريخ ثغر عدن ، (جزءان)

Ed:, O. Loefgren Leiden, 1936 – 1950.

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الشافعي (ت ٣٤٦هـ/١٩٥٦م).

— مروج الذهب ومعادن الجوهر ، (٤ أجزاء) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ .

المقدسي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن أبي بكر البشاري (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ م) .

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،

Ed., De Goeje, Leiden, 1906.

المقري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

— نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، (١٠ أجزاء) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

المقريزى ، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد القـادر (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) .

ـــ الإلمام بأخبارمن بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، Patavia, 1890.

ـــ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق فستنفيلد ، جوتنجن ١٨٧٤ .

ـــ الذهـب المسبوك فى ذكر من حـج من الخلـفاء والملـوك ، نشر الشيال ١٩٥٥ .

ـــ السلوك لمعرفة دول الملوك .

حـ١ ، ٢ تحقيق د. زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

حـ٣ ، ٤ تحقيق د . سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .

ـــ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، (٤ أجزاء) القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ .

مؤلف مجهول .

ـــ أخبار مجموع فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، نشره دون لافونتى الكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

نشوان بن سعيد الحميرى (ت ٥٧٣ هـ/١١٧٧ م) .

ـــ الحور العين، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ١٩٤٨ .

ـــ منتخبات من أخبـار اليمن من كتاب شمس العلوم ، تحقيق عظيم الدين أحمد . لندن ١٩١٦.

النهروالى ، قطب الدين محمد بن أحمد المكى (ت ٩٩٠ هـ/ ١٥٨٢ م) .

ـــ البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٧ .

— الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، تحقيق بروك هوس، ليبزج ١٨٥٧ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م) .

— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (١٨ جزءا) طبعة دار الكتب ١٩٢٣ـ ١٩٥٦ .

الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمـــد بن يعقوب بن يوسف (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م) .

— الأكليل ، (جـ ١٠) تحقيق محب الدين الخطيب . القـاهرة ١٣٦٨ هـ .

— صفة جزيرة العرب ، ليدن سنة ١٨٩١ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ١٢٩٧ م) .

— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

(الأجزاء من ١ ــ ٣) تحقيق د. الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٦١ .

(جـ ٤ ــ ٥) تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ .

ابن الوردى ، زين الدين أبو حفص عمـر بن المظفر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .

— تاريخ ابن الوردى (جزءان) ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .

— خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩ هـ .

ياقوت، شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) .

— معجم البلدان ، (١٢ جزءا) ، القاهرة ١٩٠٦ .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) .

— أنباء الزمن فى أخبـار اليمن ، القسم الأول من ٢٨٠ إلى ٣٢٢ هـ ،

تحقيق د . محمد عبد الله ماضى ، برلين ١٩٣٦ .

— غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٨ .

اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) .

— تاريخ اليعقوبى ، (جزءان) نشر هوتسما ، ١٨٨٣ .

ثالثا ـ مراجع عربية حديثة

إبراهيم على طرخان (الدكتور) .

ـــ مصر فى عصر المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٥٩ .

أحمد حسين شرف الدين .

ـــ اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣ .

أحمد دراج (الدكتور) .

ـــ المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى ، القاهرة ١٩٦١ .

ـــ ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، محاضرات الجمعية التاريخية المصرية ، ١٩٦٨ .

أحمد مختار العبادى (الدكتور) .

ـــ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ .

ـــ قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .

ـــ تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، القسم الثانى ، بيروت ١٩٧٢ .

ـــ فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ١٩٧٢ .

بانيكار ، ك . م .

ـــ آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ .

بروكلمان ، كارل .

ـــ تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ١٩٥٣ .

الجرافى ، عبد الله بن عبد الكريم .

ـــ المقتطف من تاريخ اليمن ، القاهرة ١٩٥١ .

جمال الدين الشيال (الدكتور) .

ـــ تاريخ مصر الإسلامية ، (جزءان) ١٩٦٧ .

حسن ابراهيم حسن (الدكتور) .

ـــ تاريخ الإســـلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الطبعة الخامسة ١٩٦٠ .

حسن ابراهيم حسن وطه شرف .

ـــ عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

حسن أحمد محمود (الدكتور) .

ـــ الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، (الجزء الأول) القاهرة ١٩٥٨ .

ـــ دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب افريقية ـ المجلة التاريخية ـــ ١٩٦٨ .

ـــ قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

حسن سليمان محمود (الدكتور) .

ـــ تاريخ اليمن السياسى فى العصر الاسلامى ، بغداد ١٩٦٩ .

ـــ الصليحيون وعلاقاتهم بالفاطميين ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة .

ـــ علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية ، القاهرة بدون تاريخ .

ـــ الملكة أروى سيدة ملوك اليمن ، القاهرة بدون تاريخ .

حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود (الدكتوران) .

ـــ الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، القاهره ١٩٥٥ .

حمزه على ابراهيم لقمان .

ـــ تاريخ عدن وجنوب الجزيره العربية ، القاهره ١٩٦٠ .

دائرة المعارف الإسلامية ، (الترجمة العربية) .

دار الكتب المصرية .

— فهارس الكتب العربية ، (٨ أجزاء) القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٢ .

— فهرست المخطوطات ، (٣ أقسام) تصنيف فؤاد سيد .القاهره ١٩٦١.

— قائمة بالكتب والمراجع عن الجزيره العربية .

— قائمة المخطوطات العربية المصوره بالميكروفيلم من الجمهورية العربية اليمنية ١٩٦٧ .

دیل ، شارل .

— البندقية جمهورية ارستقراطية، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبدالكريم وتوفيق اسكندر ، القاهره ١٩٤٧ .

زامباور .

— معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن أحمد محمود وآخرين ، القاهره ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

زبارة ، محمد بن محمد بن يحيى الحسنى الصنعانى .

— أئمة اليمن ، (الجزء الأول) تعز ١٣٧٢ هـ .

— إتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ، ومن قام باليمن الميمون من قراء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين ، صنعاء ١٣٤٣ هـ .

زترستين .

— تاريخ سلاطين المماليك ، (من ٦٩٠ إلى ٧٤١ هـ) ، ليدن ١٩١٩ .

زينى دحلان (ت ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦م) .

— خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ، ١٣٠٥ هـ .

سركيس ، يوسف اليان .

— معجم المطبوعات العربية والمعربة ، (مجلدان) القاهرة ١٩٢٨–١٩٣٠ .

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) .

— الترك والمجتمعات التركية عند العرب وغيرهم ، مجلة كلية آداب اسكندرية ، ١٩٥٦ .

— فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٥ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) .

— الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٣ .

— أوربا فى العصور الوسطى ، (جزءان) ، القاهرة ١٩٦٤ .

— الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠ .

— بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية سنة ١٩٦٨ .

— الحركة الصليبية ، (جزءان) القاهرة ١٩٦٣ .

— قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

— مصر فى عصر المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

سعيد عوض باوزير .

— صفحات من التاريخ الحضرمى ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) .

— الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، (٩ أجزاء) الدار البيضاء ١٩٥٦ .

السيد الباز العرينى (الدكتور) .

— مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) .
— تاريخ الاسكندرية وحضارتهـا فى العصر الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦١ .
— تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ـ القسم الأول ـ بيروت ١٩٧٢ .
— تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، بيروت ١٩٧٠ .
— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ .
— دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ، بيروت ١٩٧٠ .
— طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الإسكندرية ١٩٦٧ .
السيد مصطفى سالم (الدكتور) .
— الفتح العثمانى الأول لليمن ، مطبوعات معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٩ .
الشوكانى ، محمد بن على (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) .
— البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، (جزءان) القاهرة ١٣٤٨ هـ .
صلاح البكرى .
— تاريخ حضرموت السياسى ، (جزءان) القاهره ١٩٥٦ .
— فى جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٤٩ .
عبد الرحمن زكى (الدكتور) .
— قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ، القاهره ١٩٧١ .
العبدلى ، أحمد فضل بن على بن محسن .
— هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، القاهره ١٣٥١ هـ .

عبد المجيد عابدين (الدكتور) .

— بين الحبشة والعرب ، مصر ١٩٤٧ .

عبد المنعم ماجد (الدكتور) .

— التاريخ السياسى للدولة العربية ، (جزءان) ١٩٦٥ .

عدلى أحمد فريد (الدكتور) .

— السلطان قانصوه الغورى وعصره ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٧٠ .

العرشى ، حسين بن أحمد الزيدى (ت ١٣٢٩هـ/١٩١١م) .

— بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، تحقيق الكرملى ، ١٩٣٩ .

العقيلى ، محمد بن أحمد عيسى .

— تاريخ المخلاف السليمانى ، أو الجنوب العربى فى التاريخ ، (جزءان)، الرياض ١٣٧٨ ، والقاهره ١٣٨٠ .

عمر رضا كحالة .

— معجم المؤلفين ، دمشق ١٩٥٧ .

فييت ، جاستون .

— المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، نشرها محمد وهبى مترجمة فى كتاب (فى مصر الإسلامية) ١٩٣٧ .

لوريمر .

— دليل الخليج ـ القسم التاريخى ، ٧ أجزاء ـ ترجم وطبع على نفقة حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

— المجلة التاريخية .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور) .

ـــ دولة بنى قلاوون فى مصر ، الحالة السياسة والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـــ قيام الدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .

ـــ النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ .

محمد حسن .

ـــ قلب اليمن ، بغداد ١٩٤٧ .

محمد حسين هيكل (الدكتور) .

ـــ فى منزل الوحى ، القاهرة ١٩٧٠ .

محمد عبد العال أحمد .

ـــ دولة بنى أيوب فى اليمن، رسالة ماجستير بكلية الآداب بالاسكندرية، ١٩٦٨ .

محمد عبد الله ماضي (الدكتور) .

ـــ دولة اليمن الزيدية ، المجلة التاريخية ، مايو ١٩٥٠ .

محمد مختار .

ـــ التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية ، بولاق ١٣١١ هـ .

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) .

ـــ بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية آداب القاهرة ، ١٩٣٦ .

ـــ المحاولات الحربية الاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن ١٥ م ، مجلة الجيش ١٩٤٩ .

— نهاية سلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية ١٩٥١ .
محمد بن هاشم العلوى .
— تاريخ الدولة الكثيرية ، القاهرة ١٩٠٨ .
معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية .
— فهرس المخطوطات المصورة ، (الجزء الثاني - التاريخ - ، أقسام) القاهرة ١٩٥٦ .
— مجلة معهد المخطوطات .
مكتبة البلدية بالاسكندرية .
— فهرس التاريخ ، تصنيف أحمد أبو على ، ١٩٢٥ .
نظير حسان سعداوى (الدكتور) .
— التاريخ الحربي المصرى فى عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ .
نعيم زكى فهمى (الدكتور)
— طرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ .
نلدكه ، تيودور .
— أمراء غسان ، ترجمة د. بندلي جوزى ، ود. قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣ .
هاو ، سونيا . ى .
— فى طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت ، ومراجعة د. محمود النحاس ، القاهرة ١٩٥٧ .
الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى اليمانى :
— تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن ، فى حوادث وتاريخ

اليمن ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـــ البدر المزيل للحزن في فضائل اليمن ومحـــاسن صنعاء ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

الويسى ، حسين بن علي

ـــ اليمن الكبرى ، القاهرة ١٩٦٢ .

رابعا : مراجع أجنبية

Alastros (D.) :

— Cyprus in History. London; 1955.

Allen (J.) :

The Cambrige Shorter History of India, Cambridge, 1924.

Arnold (T. W.) :

— The Caliphate, Oxford, 1924.

Barthold (W.) :

— Art. « Hulagu » in ENC. of Islam.

Bratianu (G. I.) :

— Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au 13 eme. Siecle; Paris 1929.

Brockelmann (C.) :

— Geschichte de Arabischen Litteratur.

2 Vols. Leiden, 1943 - 1949.

3 Supplementbande, Leiden, 1937

— History of Islamic peoples, Lond9on, 142. - 1949,

نقله إلى العربية د. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي بعنوان « تاريخ الشعوب الإسلامية » .

Browne (E. G.) :

— A literary History of Persia, Cambridge, 1909.

Budge (E. A. W.) :

— A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia. 2 vols. London, 1928.

Burckhurdt (J. L.) :

— Travels in Arabia, 2 vols: London, 1819.

Cambridge :

— The Combridge History of Islam, 2 Vols. Cambridge, 1970.

Darrag (A.)

— L' Egypte sous le Regne de Barsbay, Damas, 1961.

De Gaury (G,) :

— Rulers of Mecca.London, 1951.

De la Ronciere (ch.) :

— Le Découverte de L' Afrique au Moyen Age, 3 Tomes, Le Caire, 1925 - 27.

Derenbourg (H.) :

— Omara du Yémen,sa vie et son Oeuvre, 2 tomes, Paris, 1897 - 1902.

Depping (G. B.) :

— Histoire du Commerce entre le Levant et l' Europe, Depuis les Croisades Jusqu' a la Fondation des Colonies d' Amérique, 2 Tomes, Paris 1830.

Diehl (Charles) :

— Une Pépublique Patricienne Venise, (Bibliothèque de Philosophie Scientifique) 1928.

نقله الى العربية د . أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر بعنوان « البندقية جمهورية ارستقراطية » . القاهرة ١٩٤٧ .

D' Ohsson (Le Baron C.) :

— Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan, jusqu á Timour Bey ou Temenlan, 4 Tomes, (Les Freres Van Cheef.) La Haye & Amesterdam, 1834 - 1835.

Dozy (R.) :

— Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 Tomes, Leiden - Paris, 1927.

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM.

— 4 vols. Leyden, 1913 - 1934.

Ferrand (G.) :

— Une Navigation Eurppéene dans l' Oceen Indien au 14 eme siecle, J. Asiat. 1922, T. 20.

Fuller (J. F. C.) ;

— Decisive Battles; Their influence upon history & civilization, London, 1950,

Grousset (R.) :

— Histoire des Croissdes et du Royaume Franc de Jerusàlem, 3 Tomes, Paris 1934 - 1936.

Heyd (W.) :

— Histoire du Commerce du Lavant au Moyen Age, 2 Tomes, Leipzig; 1925.

Hill (G.) :

— A History of Cyprus. Camb. 1948.

Hogarth (D. G.) :

— A History of Arabia, Oxford, 1922.

Howe (Sonia E.) :

— In Queste of Spices, London, 1946.

نقله الى العربية محمد عزيز رفعت بعنوان «فى طلب التوابل» ، وراجعه د. محمود النحاس . القاهرة ١٩٥٧ .

Howorth (Sir Henry) :

— A History of Mongols, 4 vols. London 1876 - 1888.

Huart (C.):

— Histoire des Arabes, 2 Tomes, Paris, 1912 - 1913.

Hunter :

— An account of the British settlement of Aden in Arabia; London, 1877.

Inalcik (Halil) :

— The Ottoman Empire, (The Classical age, 1300 - 1600), translated by Norman Itzkowitz and Colin Imber, London, 1973.

Jomier :

— Le Mahmal et la Caravane Egyptienne de Pelgrime de la Mecque,. Le Caire, 1935.

Kammerer (A.)

— Le Mer Rouge, l' Abyssinie et l' Arabie depuis l' antiquité, (Mémoires de la société Royale de Géographie d' Egypte), 2 Tomes 1929 - 1935.

Kantarowicy :

— Fredric The Second.

Kay (H. C.) :

— Yemen, Its early Mediaeval History, London, 1892.

Khalil Ed - Dahiry :

— Zoubdat Kachf El-Mamalik, Publie Par Poul Raveisse, Paris, 1894.

EL - Khazrejiyy :

— The Pearl - Strings; A History of the Resuliyy Dynasty of Yemen. Ed by E. G. Browne, Gibb Memorial Serics, 3 vols, London, 1906.

Lamb (H.) :

— The Crusades; The Flame of Islam, London, 1931.

Lane - Poole (St.) :

— A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.

— Mediaëval India Under Mohammadan Rule, London 1925.

— The mohammadan Dynasties; Paris, 1925,

— Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Loadon, 1898.

Lewis (Bernard) :

— Egypt and Syria, (The Cambridge History of Islam,) 2 vols. Cambridge, 1970.

Lorimer (J G.) :

— Gazetter of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia.

ترجم بعنوان « دليل الخليج » ونشر على نفقة حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .

Marco (Eric) :

— Yemen and Western World Since 1571, London, 1963.

Marin (M.) :

— Histoire De Saladin; Sulthan D' Egypte et Syrie. 2 Tomes

IBNAL MUGAWIR :

— Desciptis Arabiae Meridionalis Preamissis Capitibus de Mecca et parte regionis Higaz qui liber inscribitur Tar'h al - Mustabsir, Ed. Oscar Lofgren, 1951.

Moreland (W. H.) :

— A Short History of India, London, 194

Murray :

— Aidhab (J. R. A. S.) Sept. 1926.

Neibuhr (C.) ;

— Voyage en Arabie et en d' autres Pays, Amesterdam, 1776.

Panikkar (K. M.) :

— Asia and western Dominance, London, 1935.

ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد بعنوان « آسيا والسيطرة الغربية » .

Piloti (E.) :

— L' Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, Le Caire 1950.

Playfair (Sir Robert Lambert) :

— A History of Arabia Felix or Yemen. Selection from the records of Bombay Govenment, Bombay. 1859.

Rene Basset :

— Art, « Dahlak » in ENC. of Islam.

Reinaud (M.) :

— Extraits des Historiens Arabes Relatifs aux Guerres de croisades, Paris 1829.

Runciman (S.) :

— A History of the Crusades. 3 Vols. Cambridge, 1951 - 1954.

Scott (Hugh.) :

— In the High Yemen, London, 1947.

Serjeant (R. B.) :

— The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1963.

Stevenson (W. B.) :

— The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.

Streck (M.) :

— Art. « Baghdad » in ENC. of Islam.

Thenaud (J.) :

— Le Voyage d'Outre Mer de Jean Thenaud, Paris, 1884.

Trimingham (J. S.) :

— Islam in Ethiopia, Oxfoad, 1952.

Wensinck (A J.)

— Art « Mecca » & « Katada » in ENC. of Islam.

Wiet (G.) :

— Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV. (L' Egypte Arabe) Paris, 1937.

— Le Communication en Egypte au Moyen Age, L' Egypte Contemposaine, 1933.

ترجمها محمد وهبي بعنوان « المواصلات في مصر » ونشرها في كتاب « في مصر الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ .

Wilson (A. T.) :

— The Persian Gulf, London, 1945.

Zetterstéen (K. W.) :

— Beitrage Zur Geschichte der Mamluken Sultane, Leiden, 1919.

فهرس المحتويات

مقدمـــة ، ص ٥ - ١١ .

الباب الأول

التاريخ السياسى ، ص ١٣ - ٢٣٠ .

تمهيـــد : أحوال اليمن الداخلية حتى نهاية الحكم الأيوبى ، ص ١٥ - ٣٧ .

الفصـــل الأول

قيام دولة بنى رسول على عهد نور الدين عمر بن رسول ، ٣٩ - ١١٦ .

أولا : محـاولات اسباغ الصفة الشرعية على حـكم بنى رسـول ، ص ٣٩ ، (١) مشكلة انتحـال بنى رسـول للنسب اليمنى ، ص ٤٠ ، مناقشة نسب بنى رسول ، ص ٤٥ ، (٢) التنبوء بقيـام دولة بنى رسـول ، ص ٥٢ ، مناقشة الروايات الخاصة بالتنبوء والتبشير بقيام دولة بنى رسول ، ص ٥٥ ، (٣) ادعاء تنازل المسعود لنـور الدين عمـر ، ص ٥٧ ، (٤) اعتراف الخليفة العباسى باستقلال نور الدين بملك اليمن ، ص ٥٩ .

ثانيا : ظهور بنى رسول على مسرح الأحداث اليمنية قبيل قيـام دولتهم ، ص ٦٣ ، (١) أولوية بنى رسول فى اليمن ، ص ٦٣ ، (٢) نكبة أولاد رسول فى أواخـر عهـد المسعود ، ص ٨٣ ، (٣) دور نور الدين عمر بن رسول فى التمهيد لقيام دولة بنى رسول ، ص ٨٨ ، (٤) تحالف الزيدية مع نور الدين ودخولهم فى طاعته ، ص ٩٤ .

ثالثا : قيام دولة بنى رسول فى اليمن على يد نور الدين ، ص ٩٧ ، (١) اعلان سقوط الدولة الأيوبية فى اليمن ، ص ٩٧ ، (٢) استكمال مظاهر الاستقلال وتأمين الدولة الناشئة ، ص ٩٩ ، (٣) الزيدية ونقض الصلح مع نور الدين ، ص ١٠٣ ، (٤) تثبيت سيطرة نور الدين على اليمن ، ص ١٠٦ ، (٥) استغلال الشريف الزيدى أحمد بن الحسين الخلاف القائم بين بنى رسول للدعوة للامامة ، ص ١٠٩ ، (٦) مقتل السلطان نور الدين ، ص ١١٥ .

الفصل الثانى

بنو رسول بعد نور الدين ، ص ١١٧ – ٢٤٣ .

أولا : عصر المظفر يوسف ، (١) الوضع المتفجر بعد وفاة نور الدين ، وموقف المظفر يوسف من الطامعين فى السلطنة من بنى رسول ، ص ١١٧ ، (أ) صراع المظفر ضد أبناء عمه ، ص ١١٩ ، (ب) صراع المظفر ضد أخيه المفضل قطب الدين ، ص ١٢٢ ، (٢) موقف المظفر من الزيدية ، (أ) تدخل الزيدية فى الصراع القائم بين بنى رسول ، ص ١٢٨ ، (ب) مصرع الامام الزيدى وأثره فى تطور الأحداث ، ص ١٣٧ ، (ج) استمرار الخلافات بين الزيدية ، ص ١٤٦ .

ثانيا : الصراع على السلطنة بين أبناء المظفر وأحفاده ، (١) عهد الأشرف عمر بن المظفر ، ص ١٦٢ ، (٢) سلطنة المؤيد داود ، وتطور الأحداث الداخلية فى عهده ، ص ١٦٦ ، (أ) صراعه مع أخيه المسعود ، ص ١٦٩ ، (ب) مواجهته لحركات الزيدية وقبائل الجحافل والمعازبة ،

ص ١٧١ ، (ج) تحالف الزيدية والأكراد ضد السلطان وموقفه منهم، ص ١٨٠ ، (د) حركة الناصر بن الأشرف ، ص ١٨٣ .

ثالثا : سلطنة المجاهد واضطراب اليمن في عهدة ، ص ١٨٥ ، (١) الصراع على العرش بين المجاهد وبين الظاهر ونتائجه ، ص ١٨٧ ، (٢) أساليب المجاهد الانتقامية مع خصومه ونتائجها ، ص ١٩٩ ، (٣) نهاية المجاهد ، ص ٢٠٤ .

رابعا : اليمن بعد المجاهد حتى نهاية دولة بنى رسول ، (١) المشكلات التي واجهت الأفضل عباس بن المجاهد ، وموقفه منها ، ص ٢٠٨ ، (٢) جهود الأشرف الثاني اسماعيل بن الأفضل عباس في اقرار الأوضاع ، ص ٢١٧ ، (٣) عهد السلاطين الضعاف ونهاية الدولة ، (أ) عهد الناصر أحمد بن الاشرف اسماعيل ، ص ٢٢٧ ، (ب) عهد المنصور عبد الله بن الناصر أحمد وأخوه الأشرف الثالث اسماعيل ، ص ٢٣٢ ، (ج) عهد الظاهر يحيى بن الأشرف اسماعيل بن العباس ، ص ٢٣٣ ، (د) عهد الأشرف الرابع اسماعيل بن الظاهر يحيى ، ص ٢٣٥ ، (هـ) سلطنة المظفر الثاني ، ص ٢٣٧ ، (و) المسعود صلاح الدين أبو القاسم بن الأشرف وسقوط دولة بنى رسول ، ص ٢٤٠ .

الفصل الثالث

دولة بنى طاهر ، ص ٢٤٥ – ٣٣٠

أولا : الأوضاع السياسية عند قيام دولة بنى طاهر ، (١) نسب بنى طاهر ، ص ٢٤٥ ، (٢) ظهور بنى طاهر ودورهم في الصراعات بين سلاطين بنى رسول ، ص ٢٤٧ ، (٣) سقوط دولة بنى رسول ، ص ٢٥٢ .

ثانيا : قيام الدولة الطاهرية ، (١) سلطنة الظافر عامر الأول وأخيه المجاهد علي بن طاهر ، ص ٢٥٧ ، (٢) الأصول الداخلية عند قيام دولة بني طاهر ، ص ٢٥٩ ، (٣) موقف صاحب الشحر من قيام دولة بنى طاهر ، ص ٢٦٢ ، (٤) مقتل السلطان الظافر عامر وانفراد أخوه المجاهد علي بالسلطنة ، ص ٢٦٦ .

ثالثا : الدولة الطاهرية بعد المجاهد ، (١) سلطنة المنصور عبد الوهاب بن داود ابن طاهر ، ص ٢٦٨ ، (٢) التنافس على عرش السلطنة ، ص ٢٦٩ ، (٣) عهد الظافر عامر الثاني ، ص ٢٧٤ ، (٤) الموقف بعد مقتل السلطان الظافر عامر الثاني ، ص ٢٨٢ .

رابعا : الفتن والثورات الداخلية في عهد بني طاهر ، (١) موقف قبائل يافع من بني طاهر ، ص ٢٨٧ ، (٢) ثورات قبائل القرشية ، ص ٢٩١ ، (٣) ثورات قبائل المعازبة ، ص ٢٩٣ ، (٤) ثورات بني جفيص الزيدية ، ص ٣٠٠ ، (٥) ثورات الحبيشي ، ص ٣١٠ ، (٦) الصراع الزيدي التقليدي في عهد بني طاهر ، ص ٣١٣ .

الباب الثاني

العلاقات الخارجية ، ص ٣٣١ – ٥٤٨

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية في عصر بني رسول ، ص ٣٣٣ – ٤٦٠

أولا : في عصر نور الدين عمر بن رسول ، ص٣٢٣ ، (١) موقف الأيوبيين

من محاولات بنى رسول السيطرة على الحجاز ، ص٣٣٤ ، (٢) علاقة نور الدين بن رسول بالخلافة العباسية ، ص ٣٤٤ ، (٣) إستمرار الصراع بين بنى رسول والأيوبيين حول الحجاز ، وما أسفر عنه من نتائج ، ص ٣٤٩ ، (٤) أعمال نور الدين عمر بن على بن رسول فى مكة ، ص ٣٥٥ .

ثانيا : العلاقات اليمنية مع مصر والحجاز في عهد المظفر يوسف ، (١) استقلال بنى قتادة بحكم مكة ، ص ٣٥٩ ، (٢) تطور العلاقات اليمنية المصرية بين المظفر يوسف والظاهر بيبرس ، ص ٣٦٦ ، (٣) سياسة المماليك فى البحر الأحمر وأثر ذلك على العلاقات مع اليمن ، ص٣٧٦ ، (٤) دور اليمن فى ازدهار طريق البحر الأحمر ، ص ٣٨٣ ، (٥) العلاقات اليمنية المصرية بعد إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، ص ٣٩٣ .

ثالثا : العلاقات اليمنية المصرية بين سلاطين بنى رســــول بعد المظفر وبين سلاطين دولتى المماليك البحرية والجراكسة ، (١) فى عهد المؤيد داود الرسـولى ، ص ٤٠٠ ، (٢) فى عهـد المجـاهد الرسولى ، ص ٤٠٦ ، (٣) العـلاقات اليمنيـة المصرية بين بنى رسول وسـلاطين المماليك الجراكسة ، ص ٤٣٠ .

رابعا : العلاقات اليمنية مع الدول التجارية الآسيوية وساحل افريقية الشرقى ، وأثرها فى انتعاش تجارة عدن والبحر الأحمر ، ص ٤٣٠ ، (١) مـع الدول الآسيوية ، (أ) مـع الصين ، ص ٤٣٥ ، (ب) مـع الهنـد ، ص ٤٣٦ ، (ج) مع قاليقوط ، ص ٤٣٧ ، (٢) مع سواحل العـدوة الافريقية ، ٤٣٨ ، (٣) مظاهر اهتمام سلاطين بنى رسول بثغر عـدن والتجارة البحرية مع الهند ، ص ٤٤٣ .

خامسا : تجارة العبور وموقف مصر واليمن منها : (١) جهود مصر في المحافظة على تجارة البحر الأحمر ، ص ٤٤٦ ، (٢) تدهور ميناء عدن واحتلال ميناء جدة مكانته في حركة التجارة العالمية ، ص ٤٥٤ .

الفصل الخـــامس

العلاقات الخارجية في عصر بني طاهر ، ص ٤٦١ – ٥٤٨

أولا : العلاقات بين اليمن والحجاز ، ص ٤٦١ .

ثانيا : العلاقات مع الحبشة ، ٤٦٨ .

ثالثا : الكشوف البرتغـالية : أهدافهـا الصليبية وأثرها على الاقتصاد اليمنى المصرى ، (١) دور الكشوف البرتغالية في تحقيق المطامع الصليبية ، ص ٤٧٢ ، (٢) أثر الكشوف البرتغالية على حركة التجارة اليمنية ، ص ٤٩٠ ، (٣) موقف مصر من الخطر البرتغـــالي ، ص ٤٩٢ ، (٤) محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن والسيطرة على البحر الأحمر ، ص ٥٠٣ .

رابعا : تطور العلاقات اليمنية المصرية حتى سقوط دولة بنى طاهر ، (١) موقف السلطات الطاهرية من الجهود المملوكية ضد البرتغاليين ، ص ٥١٠ ، (٢) تعاون حاكم عدن مـع البرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمـر ، ص ٥١٨ ، (٣) غزو الجراكسة لليمن ، ص ٥٢٦ .

الخــــاتمة ، ص ٥٤٩ – ٥٥٩ .

المصادر والمراجـــع ، ص ٥٦١ – ٥٩٤ .

الخريطة ، ص ٥٦٠

فهرس المحتويات ، ص ٥٩٥ – ٦٠٠ .

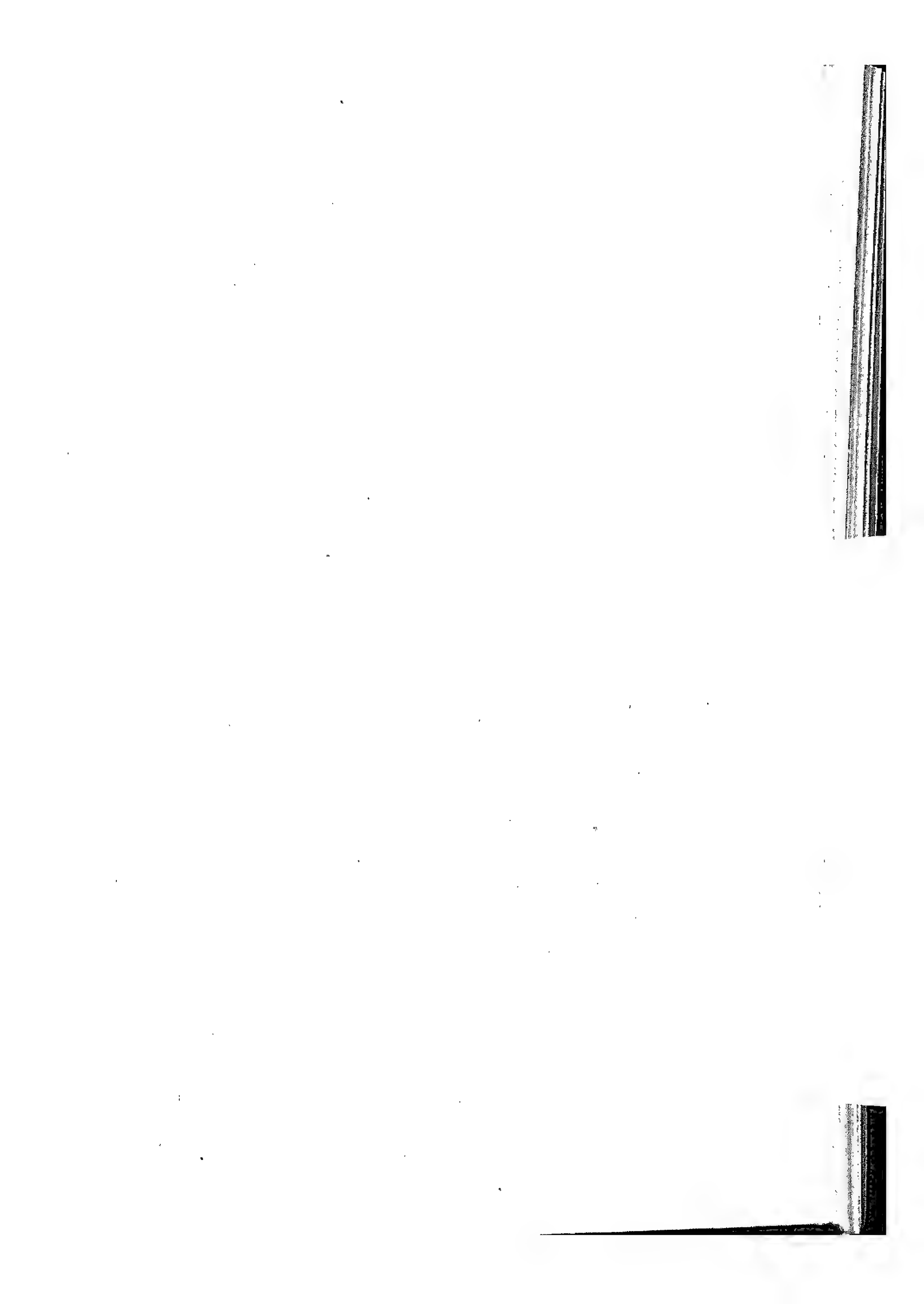
رقم الايداع بدار الكتب

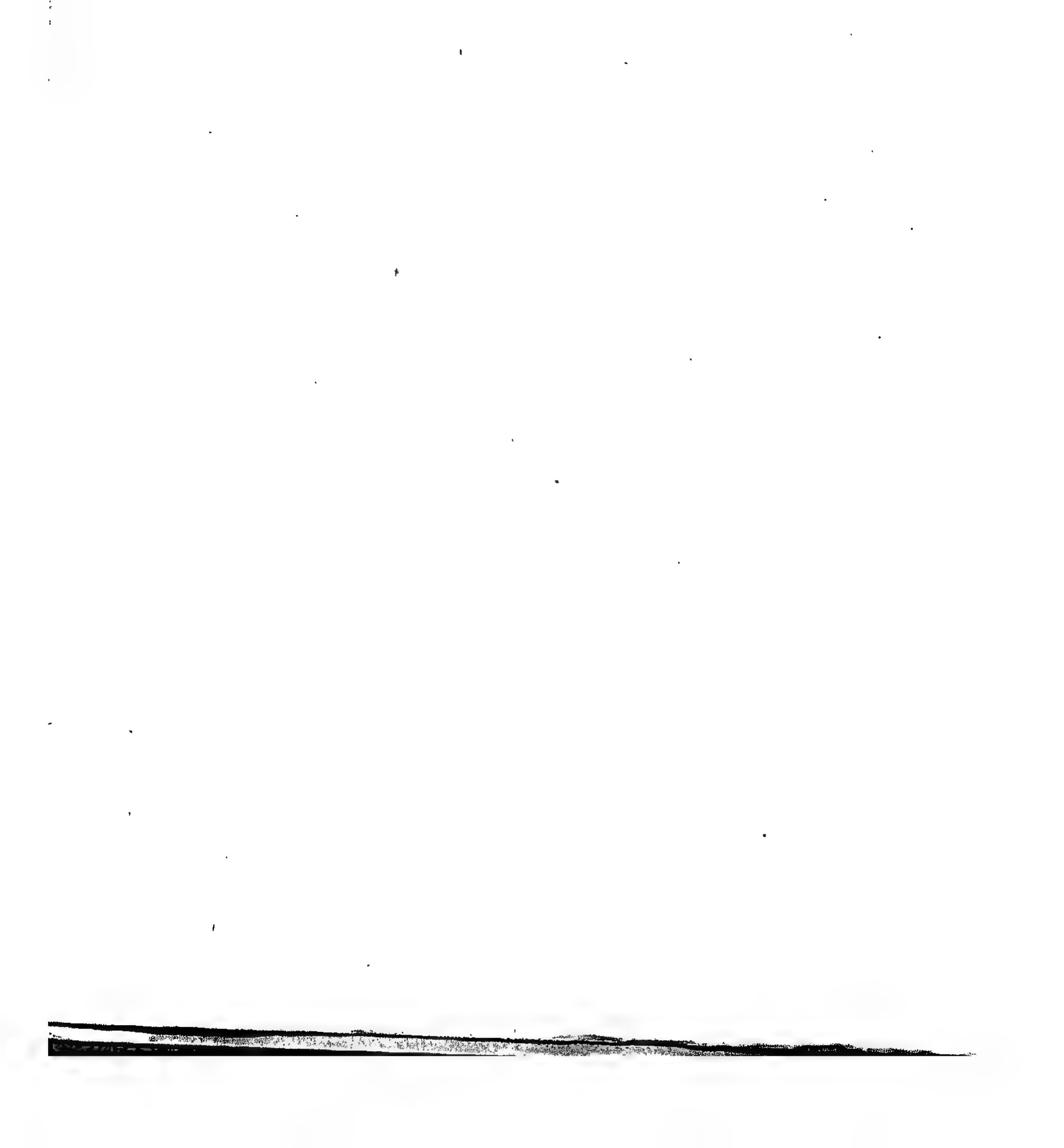
٧٩ / ٤٩١٠

٢ - ٧٨٣ - ٢٠١ - ٩٧٧

مطابع دار الناشر الجامعي

ت: ٨٠٣٧١٤





PREFACE

This work deals with the history of yemen and its foreign relations during the reign of the Rasulites and Tahirides dynasties .

It covers a period of three centuries of the political history of yemen . That political history is marked by uprises, internal struggle, disorder and unstability whose outcome was the loss of the political unity of yemen and the engagement of the rulers in almost continuous wars .

The work, furthermore; endeavours to clarify the significant role that yemen played in the Red Sea area, and explains most of the aspects of the Egyptian and yemeni policy in that area during the reign of the Mamlukes dynasty.

The history of yemen, compared to that of many other countries, is both difficult and complicetcd for its lack, mainly, of resources, or rather, their availabilitis due to verious reasons.

Yet every available Source has been consulted and every possible datum has been used in this work .

PREFACE

